دكتور
طه الدسوقي حبيشي الدمياطي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الهجرة

بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة

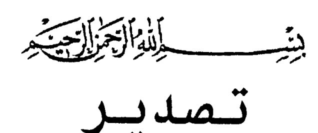
الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع

بدار الكتب المصرية

٥١٥١ لسنة ١٩٩٨م



تـصـديـر

الحمد لله حمداً يناسب الاعتراف بما منّ علينا به مـن النعـم، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة نتوسل بها إلى عظمته أن يستعملنا فـي طاعته، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله إقراراً منا بنبوته ورجاءً من الله في أتباعه، واصطناع طريقته حتى نبلغ بها محبة الله التي لا تنال بغيرها : **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾.**

وبعد : فلقد مضت السنون بي، وما من سنة تمـر إلا وأنـا أتمنى الاقتراب من تاريخ المسلمين في عصر المبعث حتى أقف على شخصية هذه الأمة في أزدهي وأبهى عصورها، وما من مرة أحاول فيها الحصول على ما أتمناه، وأتحول بالتمني إلى واقع ملموس يحقـق القصد ويرضى الوجدان إلا وأجد دافعاً يدفعني إلى دراسـة تتصـل بالنبي نفسه لا باعتباره موجوداً تاريخياً فحسـب ، ولكـن باعتبـاره عظيماً شاء الله أن يكون مركز الدائرة للأمة كلها منذ عصر المبعث إلى أن يقوم الناس لربهم يناقشهم الحساب ويوقع بهم الجزاء.

وهذا الذي أدفع إليه دفعاً ليس بالأمر السهل، ولا هو بالشيء الهين، إذ الحديث عن النبي باعتباره مركز الدائرة لن يكون حديثًا عن يتيم عبد المطلب، ولن يكون حديثًا عن رجل عاش بين قومـه ثلاثـة وستين عاماً ثم ودعه التاريخ بعد أن جمع التاريخ الأوراق الخاصة به وزوى عن الناس أعماله في ملفات تترك لخزائن التاريخ يعبـث بـها الزمن، وينال منها توالى الحدثين.

إن الاقتراب من شخصية النبي ليس بهذا الشيء الميسور، لأن النبي لم يكن على هذا النحو الذي ذكرت لك، ولم يكن على نحو مـن الأنحاء التي تقترب مما ذكرت لك، وإنما الاقتراب من شخصية النبي

ﷺ باعتباره مركز الدائرة في الأمة سوف يحتاج إلى شئ من الإعداد والاستعداد يتطلبه الموقف ذاته، ذلك أن النبي باعتباره مركز الدائرة في الأمة قد شاء الله له أن يبقى فعّالاً فيها حياته بين الناس، وأن يبقى فعّالاً فيها بعد أن لحق بالرفيق الأعلى.

وفعالية النبي في أمته ليس لها ما يشبهها في الحسيات إلا هذه الأرواح في الأجساد، تلك الأرواح التي تبقى الأجساد حية ما دامت الأرواح سارية فيها، ثم هي ترم وتبلى وتتحول إلى تراب لا قيمة له إذا فارقتها تلك الأرواح وانصرفت عنها.

ليس للنبي في أمته من أولها إلى آخرها شبه في الحسيات إلا هذا الشبيه الذي ذكرته الآن بين يديك، إذ النبي على الحقيقة هو روح المجتمع وعنصر حياته يبقى المجتمع حياً متألقاً ما دام النبي الذي هو روحه سار فيه، ويفقد المجتمع فعاليته وحياته إذا فارقته هذه الروح أو فارقها.

ويبدوا أنني قد أغضبت البعض حين أقول: إن النبي ينبغي أن تكون له بين الأمة معاملة خاصة بحث لا يُنادَى النبي كما يُنادَى سائر أفراد أمته، وبحيث لا يرفع المسلمون أصواتهم بحضرته، وبحيث لا يجوز لهم ولا لأحد منهم أثناء حياته أن يعجله بصوتٍ عالٍ فيخرجه من حجرة من حجراته لتلبية رغبة من رغباته.

والذين يغضبون من حديثي هذا أقول لهم: هونوا على أنفسكم أيها الناس فهذا الذي ذكرته ليس هو من بنات أفكاري، ولكنه من إجمال توجيهات القرآن الكريم إلى ما ينبغي أن نتعامل به مع نبي عظيم.

والقرآن في هذا التوجيه لا يعده من باب الأمور التي لا تستوعبها عقولنا، وإنما هو بالأحرى لمن باب الضرورات التي يعقلها العقل، ولا يعقل سواها من الأضداد والنقائض.

وأقول : إنه لمن باب الضرورات التي يعقلها العقل ولا يعقل أضدادها ونقائضها لأن النبي قد وضعه الله باعتباره نبياً موضع المعلم الأول الذي لا تنقطع عطاياه.

والمعلم كما تقتضيه المنظومة التعليمية لا يمكـــن أن يــؤدى مهمته إلا إذا كان متميزاً بين جميع الخلائق تميزاً لا يقبل الإنكار، ولا الجحود.

والتميز بين الناس على دربين أحدهما: هذا التميز الذي يســتند إلى القدرة والقوة المجردة عن أي شئ آخر من تلك الأشياء المتصلــة بالأخلاق الفاضلة، أو الشيم الرفيعة، وثانيهما: هذا التميز الذي يســتند إلى العظمة المشفوعة بالقدرة المبرأة عن النقائص الخلقية.

ولعله لا يغيب عنك أن أسباب التميز في الحالتين منحصــــرة في العظمة والقدرة.

والعظمة والقدرة ليستا من الأشياء المترادفة، ولا يقول أحــد أنهما كذلك، إذ لا يعقل أن نقبل من إنسان حديثه حين يقول: إن العظيم هو القادر، وإن القادر هو العظيم، وإن العظمة والقدرة مترادفان.

فالواقع المحسوس يقـــول: إن العظمــة والقــدرة وإن كانتــا تجتمعان أحياناً، إلاّ أنهما بالقطع غير مترادفتين، فقد توجد القدرة في بعض الأحيان ولا توجد معها العظمة، ولكن العظمة لا توجد في جميع الأحايين إلا والقدرة مصاحبة لها، مصاحبة الخادم للمخدوم أو التـــابع للمتبوع.

وهناك فارق آخر يظهر لك إن أردت أن تتحدث عن تقدير كل من القادر والعظيم، ذلك أنك ستجد بالضرورة أن معنى القادر يصــدق على كل من يحتال بالحيلة، أو يتوجه بصارم الاقتــدار إلــى تحقيــق رغباته التي يهواها، ودفع المضار عنه حيث لا يريدها ولا يبتغيها.

في حين أن معنى العظمة والعظيم يصدق على كــل إنســان يعمل لمصلحة غيره وهو قادر على أن لا يفعل، ويقدم الغير على ذاته مدفوعاً بمبدأ الإيثار وهو قادر على أن يحيز لنفسه ما يجعلها في مقام الصدارة الحسية حين يكون المقياس هو المقيــاس المــادي المتصــل بالمال، أو الشهوة أو ما يشبههما.

على أنني أرى أن العظمة والقدرة يفرقهما فارق آخــر حيــن يكون المراد هو تقدير العظيم والقادر، فبينما نجد القادر لا يقدره إلا من

يهابه، ولا يرتفع به إلا من يخشى بأسه أو حيلته، نجد العظيم يقدره من يحبه، ويرتفع به من يتمنى أن يكون في مثل درجته.

وينتهي الأمر هنا إلى أن العظيم تقـــدره الأرواح والقلـــوب، ويقاس على مقياس السجايا والأخلاق، في حيـــن أن القـــادر، تقـــدره الحواس، ويقاس إلى مقياس المادة، ونوازل الأخلاق.

والنبي عظيم بجميع المقاييس، لم تعارض العظمة فيه القدرة، ولم يحدث يوماً من الأيام التي عاشها النبي بين أظهر القوم أن القـــدرة حاولت أن تطمس معالم العظمة فيه.

وإن أردت شاهداً من شواهد حياة النبي فإني لا أجدلك أعظم من هـــذا الشاهد.

خرج النبي إلى الطائف طمعاً في إسلام أهلها مـــن الثقفييـــن، وقطع الطريق الطويل من مكة إلى الطائف مواصلاً السير على أرض غير مهاد، وهى مسافة غير هينة لمن يحاول قطعها على قدميه، ولا يقطعها إلا عظيم يبتغى الخير للناس حتى ولو لم يدركوا حقيقة هـــذا الخير لأنفسهم، وحين انتهى النبـــي إلـــى الطـــائف والأمـــل يحـــدوه، والمستقبل يرتسم بين عينيه إذا به يجد قوماً غلاظ الأكبـــاد، يصـــدون الخير عن أنفسهم، ويمتنعون عنه كما يمتنع الرجل العاقل الحكيم عـــن أن يدخل إلى أتون ملتهب طلب إليه باختياره طلب أن يدخل فيه، ولـــم يقف القوم عن حدود الرفض، بل إنهم قد أغروا به العبيـــد والســـفهاء والصبيان، فقذفوه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، فلما جلس النبي ليستريح جاشت به نفسه وخاطب ربه قائلا: [إليك أشكو ضعف قوتـــي، وقلـــة حيلتي وهواني على النـــاس ......] هنـــا تجـــد النبـــي العظيـــم قـــد استشعرضعف القوة فيه، ومن يسمع هذه العبارات غير الله عز وجـــل يظن أن النبي لو أوتى من القدرة ما أوتى أعداؤه، لما تركهم يعبثون به على نحو ما عبثوا به.

وهنا فقط يريد الله عز وجل أن يضع القدرة العاتية وجهاً لوجه أمام العظمة في شخصية النبي ليرى الناس أيهما سينتصر في نهايـــة الأمر، وليحكم الناس من خلال الواقعة التاريخية على النبي بأنه قادر أو بأنه عظيم.

جاء ملك الجبال ومعه جبريل ليقول للنبي: [إني مـــأمور أن أستجيب لأمرك فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين].

وبهذا الإعلام والإعلان يصبح النبي قادراً كأعظم ما يكـــون القادرين، وقوياً كأشد ما يكون الأقوياء، وشديداً كـــأعتى مـــا يكــون الأشداء، وما عليه إلا أن يصدر قراره فيفعل بالقوم الأعـــاجيب وهـــو معذور، حيث لم يفعل بهم الأعاجيب إلا بعد أن بلغوا من إيذائه المدى الذي لا يجوز أن يبلغه إنسان بإنسان.

لقد وقفت العظمة والقدرة وجهاً لوجه أمام النبي، وكان علـــى النبي أن يبرز مكانته، فإن مال إلى القدرة واختار بأن يكون قادراً، فقد يجد لنفسه تبريراً يبرر به هذا الاختيار، وإن اختار العظمة واختار أن يكون عظيماً يكون قد تربع القمة بلا منازع، ولا يملك معا رضوه أمام أنفسهم وأمام التاريخ أن يقدموا لتسويغ إيذائه سبباً مـــن الأســـباب، أو عذراً من المعاذير.

لم يختر النبي على أساس من الموازنة العقلية حيـــن وقفـــت العظمة والقدرة بين يديه وجهاً لوجه، وإنما اختار علـــى أســـاس مـــن الفطرة التي فطره الله عليها، لقد قال لملك الجبـــال: [لا دعـــهم فـــإني لأرجو أن يخلق الله من أصلابهم من يقولوا: لا إله إلا الله].

لقد أظهرت الواقعة التاريخية عظمة النبي ﷺ أوائل عصـــر البعثة، وهي عظمة لو تتبعها المتتبعون – وقـــد تتبعوهـــا بـــالفعل – لوجدوها قد تربعت القمة، واستعصت على الواصفين أن يحيطوا بـــها إحاطة الباع بمحتواه، فاكتفى عظماؤهم أن يشيروا إلى عظمة النبـــي بالبنان.

وأنت خبير ولا شك بأنه لأعظم من عجـــز المحيـــط إشـــارة المشير في مجال إبراز العظمة وعرضها على ميزان التقدير.

النبي إذاً عظيم على مقياس المتدينين، وهو عظيم في نفـــس الوقت على مقياس أولئك النفر الذين لا يرتضون إلا مقاييس واقعية أو إنسانية حين يريدون أن يفصلوا بين الرجـــال فـــي إبـــراز الشمـــائل والأحوال.

ما من سنة من السنين التي عشتها بعد تلغى أن قدر لي أن أكون مُمَيّزاً إلا وأنا أطمع في أن أحيى حياة الأوائـــل مـــن مجتمـــع الصفوة أيام النبي محمد، فإن أحال الواقع أن أعايشهم أحياءً فلا أقـــل من أن أعايشهم على مرآة حياتهم من خلال تاريخ وقائعهم.

وما من مرة أحب أن أحول الحلم إلى حقيقة، والأماني إلـــى وقائع ملموسة، والرجاء إلى حياة معاشه إلا وأجد هـــاتف الوجـــدان يهتف بي كيف تعايش جماعة دون أن تعايش قلائدهم الـــذي تعـــدت قيادته لهم إلى قيادته أمته كلها منذ عصر المبعـــث إلـــى يـــوم اللقـــاء الأعظم.

وإن هاتف الوجدان بي لشيق ولا شك.

وإن هاتف الوجدان بي لعظيم ولا ريب.

إذ من ذا الذي لا يريد أن يعايش النبي معايشـــة تقربـــه مـــن فهمه، وتقرُب به من رياض أنسه، غير أن النبي لشخصيتـــه حرمـــة، ولجنابه حرم، فلا يدخل حرمه إلا من رضى عنه، ولا يقـــترب مـــن حرمة شخصيته إلا من علا كعبه في العلم والخلق، واحتل درجة مـــن درجات عظمته تدنيه منه وإن لم تسوه به.

وأنت ترى معي أن آمالي قد أصبحت أماني، فـــإن أردت أن أعايش المسلمين بالروح في عصر المبعث، وقفت أمام شرط المعايشة للصحابة الذي لا يخلص الراغب إلى معايشتهم إلا بعد أن يحقق هـــذا الشرط من نفسه، وهو أن يكون لديه قدر من العظمة قل أو كثر يسمح له من الاقتراب من حرم النبي وحماه، ومن شخصية النبي وحرمتها.

وما كان الله عز وجل ليدع عبداً له وقد أحالت الظروف بينه وبين آماله المشروعة، فشاء الله أن أدخل على استحياء إلى هذا الحرم دخول المقصر في العلم والإمكانات المستعين بالله أن ييسر الأمر كله، وأن يمد بالعون الروحي والمادي حتى نقترب من هذا الرجل العظيـــم، والمجتمع العظيم.

والذي يشغل بالك منى الآن هو ألا أخفى عنك بعض أســـباب تهمك خاصة بانشغالي وتعلقي بهذه الحقبة من تاريخ الأمة، وأنا لـــن

أستر عنك ما تريد أن أبديه لك، ولكن من حقي عليك وعلى النـــاس أن لا أذكر لك أموراً قد لا يفيدك أن أذكرها لك.

والذي يهمك أن أبديه وأظهره هو أنني قد شعرت وشعر غيري في هذا الزمان بالذات بأهمية المقولة القديمة وهى : أن التاريخ هـــو عِرْض الأمة، والعرض كما تعلم وأعلم هو موضع الذم والمدح، فـــإذا كان عرض الفرد هو موضع المدح والذم فيه، فإن العرض في الأمة لا تختلف معانيه، وإذا كان العرض في الأفراد تتعدد جوانبه تحت مقولـــة أنه موضع المدح والذم، فإن عرض الأمة لا تعدد فيه، إنـــه تاريخـــها وهو سجل أحداثها، وأقوالها، وناتج عقلـــها، وتفـــاعلات وجداناتـــها، واحتكاكها بالكون والحياة على السواء.

وتاريخ الأمة إذا كان هو عرضها، وموضع المدح والذم فيها، فإن أعداء الأمة إن أرادوا أن ينالوا منها، فإنهم لا يتورعوا أن يتهموها في عرضها الذي هو تاريخها، فأنت تراهم يفترون عليها في أفرادهـــا فينالون من كل فرد فرد، حتى يُخيل إليهم أنهم قد نزلوا بأفراد الأمـــة عن درجاتهم.

وأنت تراهم ينالون من أقوال الأمة ورصيدها من النصوص فيعمدون إلى رفع الهيبة عنها، والتقليل من شأنها، أو من فاعليتها.

وأنت تراهم يعمدون إلى آثار الأمة وهم يتجاوبون مـــع تلـــك النصوص، ويلتزمون تطبيقها على أنفسهم فينظرون إلى ذلك كله نظرة الازدراء والاحتقار.

وأنت تراهم ينظرون إلى إصلاحات الأمة الوضاءة فـــيزيفون عليها تزييفاً يغبر في وجهها، أو يغبر في وجه المعجبين بها.

وعلى الجملة أنت ترى أن أعداء الأمة الإسلامية على وجـــه الخصوص ينالون من تاريخ هذه الأمة على نحو ما ذكرت لك، وهـــى طريقة معروفة يعرفها أعداء كل أمة، ويصطنعها أعداء الأمم مع من يعادونهم من الأمم والجماعات.

تاريخ الأمة على أية حال هو عرضها وموضع المدح والـــذم منها، وهو الذي يعمد إليه أعداؤها لتشويهه وقلب حقائقه وإيذاء الأمة فيه.

ولا يقتصر الأذى هنا على الأحياء، وإنما الأمم إن أوذيت في عرضها أو تاريخها فإن الأذى ينال من الأحياء والأموات على السواء.

ومن حقك عليّ أن أحدد لك صفات أولئك النفر الذين يوكل إليهم في كل زمان أن ينالوا من تاريخ أمة، وأن يؤذوها في عرضها.

وإني لأقول لك: إن الذين توكل إليهم هذه المهمة لتجمعهم جميعاً صفة واحدة هي أنهم نهازون.

والنهازون في التاريخ قسمان :

أحدهما : ذلك النهاز بالطبع.

وثانيهما : ذلك النهاز بالأجر.

أما هذا النهاز بالطبع فهو ذلك الموجود الذي لا يقدر بطبعه أن يطاول المثاليين في مجتمعه، إذ إن غاية سقفه لا يبلغ أرض أقدامهم التي يقفون عليها، ومع ذلك هو يعايشهم معايشة الأحياء في مجتمعهم، فيرى نفسه ناقصاً بين كاملين، أو هابطاً بين مرتفعين لا يملك بينهم أن يكون مثلهم ولا عشر معشارهم حيث وضع في ظروف جعلت سماءه أرضاً لأدناهم، فهو يرى والحالة هذه أنه ضعيف بين عظماء لا يملك بينهم أن يعتذر لهم عن فعاله الناقصة، بل هناك ما هو أعظم من ذلك، إنه ليرى أنه أمام نفسه عديم الوزن، وهو في نفس الوقت غير قادر على أن يبرر لنفسه مهانته وتسفله فيعتاض عن ذلك كله بما يظن أنه يرفعه، وهو في الحقيقة لا يزيده إلا تردياً.

وما يظن النهاز من هذا الصنف أنه يعتاض به عن مطاولة المثاليين لا يجاوز هاتين الطريقتين: <u>إحداهما:</u> أن ينال من المثاليين في شخصهم أو في فعالهم مدعياً عليهم في كل ما ينالهم به في شخص أو فعال، إذ هو لا يملك من الوقائع ما يشوه بها أشخاص العظماء، وهم لم يخلفوا وراءهم من فعالهم ما يعرضهم إلى الاستهزاء أو الملام، والنهاز مع ذلك لا يتورع أن يفترى عليهم ما ليس في أشخاصهم، وأن يدخل على فعالهم بفعال غير شرعية، فهى ليست لهم بأبناء، وهم ليسوا لها بآباء، والنهاز يفعل ذلك وهو لا يخشى من نقيصة تلحقه إذا افتضح

أمره، وبان أمام الناس كذبه وافتراؤه، ذلك أن طباعه لن تخسر شيئاً إذا أضيف إليها كثرة من الأقوال والأفعال التي تناسبها ولا يناسبها سواها، وطباع النهاز في نفس الوقت لن تستفيد كثيراً إذا عرض لها يوما من الأيام أن تصدق في قول، أو تكون أمينة على سلوك ساعة من الساعات، فإن هذا حدث عارض لا ينفعها عشرات من أضعافه لأنه سيغطيه ويغطى أمثاله سوء الفعال ومستنقع الرذائل.

وثانيهما: أن يكون النهاز قد اقتنع أن طريقته في اتهام العظماء لن تجبر خسيسته، ولن ترتفع به إلى مصافِ العلماء من بنى نوعه، لأنه في أقل القليل سيكتشف الناس أمره، ويضحكون منه في حضرته، ويتغامزون به في غيبته، ويتندروا به بين أهلهم وذويهم، ولذا ترى النهاز يعدل عن هذه الطريقة أحياناً إلى طريقة أخرى يظن أنها ترتفع به، وهى أنه يبحث عن عدو كل مثالى، والمناوئ لكل عظيم فيبالغ في مدحه، ويسهب في إطرائه، ويغدق عليه إغداقاً من الحديث يظن أنه بفعلته تلك ينزل بالعظيم بمقدار ما يرتفع بمناوئيه، فإذا ما ارتفع بالمناوئ، ونزل بالعظيم كما يظن يكون هذا مبلغ أمله ومنتهى أمانيه.

وفى التاريخ نماذج كثيرة من هذا النوع، وأنت تراهم يمدحون من يمدحونهم لا عن قناعة قد استقرت في أفئدتهم، على أساسها يشهدون لمناوئ العظماء بالتميز والرفعة، ولا على أساس من الحب الغامر الذي ينسيهم سيئات المناوئين ويجسد أمامهم حسناتهم فيمتدحونهم ويبرزون أقدارهم أمام العالمين.

إن النهاز لا يقدر القوم من مناوئى العظماء عن قناعة تدفعه، أو عن حب يحمله، وإنما هو يمدح من يمدحهم كراهية في العظماء الذين هم خصومهم ومناوئوهم.

وكم من مديح وإطراء يكون دافعه البغض، ولا نصيب له من القناعة الدافعة أو الحب المسيطر.

وأنت تستطيع أن تقلب صفحات التاريخ في الماضى، وأن ترسل البصر المرة تلو المرة فيمن حولك من المعاصرين، ليعود بك التفكير ويرجع إليك البصر بتأكيد لا يحتمل الشك، على أن المجتمع الإنسانى لم يخلُ في عصر من العصور من أمثال هذا الصنف من

النهازين، الذين تنطوي طباعهم على قصور يقعد بهم عن ملاحقة ركب الأخلاق، وعن سوء يدفعهم إلى ملاحقة المثاليين باللوم والتجريح.

وكثير من تشويه تاريخ الأمم يعود برمته إلى هذا الصنف من النهازين.

أما النهاز بالأجر فهو نوع آخر من النهازين، وهو نوع قد يكون أحظر من النوع الأول إذ فيه ما فيه من الصنف الأول وزيادة، والزيادة التي نعنيها هنا هي هذه النفعية المسيطرة التي لا يقدر صاحبها على التغلب عليها، ولا يستطيع أن يكبح جماحها.

وأنت ترى هذا النهاز من هذا الصنف متديناً، ولكن لاثبات له على تدينه أمام منفعة يبتغيها.

وأنت ترى هذا النهاز من هذا الصنف مرتبطاً بوطنه وأهله وعشيرته، ولكن ارتباطه هذا لا يدوم ولا يثبت أمام فرصة تتاح له يستطيع أن يشبع فيها نهمه، ويرضى فيها رغباته.

إنه على الجملة لا يفضل شيئاً من الأشياء مهما كانت عظمته على منفعة من منافعه مهما كان انحطاطها.

وهذا الصنف من النهازين يعد تربة خصبة يحيط بها مناخ ملائم بحيث يتمكن أعداء الأمة من أن يستغلوها لبذر أحقادهم فيها، ونيل مقاصدهم من خلالها، ولا يضر أعداء الأمة ما يدفعونه من أموال في سبيل تحقيق تلك الرغبة، ولا يستنكف هذا الصنف من استقبال هذه الأموال غير المشروعة في سبيل ارضاء هوىً قد انطوت عليه نفوس أفراده.

وهذا الصنف من النهازين ومن وراءهم ممن يستأجرونهم ذهبوا في التاريخ مذاهب كثيرة حتى صاروا ظاهرة تستحق العلاج، وحتى صارت مواقفهم وفعالهم تشكل أحداثاً في التاريخ تبلغ المدى الذي تستحق معه أن يعلق القرآن عليها { **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه**

جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون }[1]

{ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئكَ همْ وقودُ النَّار}[2]

اجتمع على التاريخ الإسلامى إذاً النهازون بصنفيهم النهاز بالطبع، والنهاز بالأجر.

وما شقى تاريخ أمة بأكثر مما شقى بسلوك أبنائها من النهازين بقسميهم.

وما تعرض عرض أمة للأذى بأكثر من تعرضه لهذا الأذى الذي تحمل كبره هؤلاء النهازون بقسميهم.

وأنت خليق أن تعلم ولا شك هذه الأساليب التي ابتدعها هؤلاء النهازون للنيل من عرض الأمم في جميع حقب التاريخ، وليست الأمة الإسلامية من ذلك ببعيد، فالأمة الإسلامية تعرضت في حاضرها وفى تاريخها إلى إيذاء بعض أبنائها الذين لم يرعوا في الله إلاً ولا ذمة، ولم يحرصوا على خليقة من الخلائق يتبعونها، ولا مبدأ من المبادئ يلتزمونها.

فما الأسلوب الذي قد ارتضاه القوم لتشويه التاريخ، وما الأساليب التي ارتضاها القوم لتشويه الواقع؟.

إن هذا لهو السؤال الحساس الذي يفرض نفسه الآن وقبل الآن على عقول الباحثين وألسنة الخطباء وأقلام الدراسين، كى يبحثوا له عن جواب محدد يرسم طريق الوقاية أمام المتقين، فالوقاية دائماً خير من العلاج.

وليس من العسير على المتأمل إذا تأمل الواقع أو التاريخ أن يجد لهذا السؤال الحائر جواباً، إذ إن هذا السؤال جوابه واضح في الواقع والتاريخ وضوح الشمس في رابعة النهار لا تخفى على ذى عينين.

---

[1] الأنفال : ٣٦ ، ٣٧.

[2] آل عمران : ١٠.

غير أن هذا الجواب على وضوحه وسهولة الوقوف عليه في الواقع والتاريخ يحتاج إلى لون من التفصيل يهذبه في أعين الناظرين، ولا يدل عليه، ويرسيه على قواعده في عقول ذوى الألباب ولا يزيح عنه غموضاً محتملاً أو إبهاماً متوقعاً.

إن هذا الجواب عن هذا السؤال لواضح بذاته لا يعوزه إلا شئ من التفصيل، وشئ من التقعيد والتقسيم.

والنهازون إن أرادوا أن يزيفوا على الأمة كرامتها، وأن ينالوا من عرضها الذي هو التاريخ في حياة أفرادها أو بعد مماتهم لن يخرجوا عن هذه الأمور التي سأسردها الآن بين يديك وهذه الأمور التي سأسردها بين يديك يجمعها أمران عظيمان :

أولهما : التزييف في الواقعة السلوكية.

وثانيهما : التزييف في المعيار.

ويمكن أن نعبر عن هذين الأمرين بعبارتين تخالف ما ذكرناهما قبل، ذلك أنه بإمكاننا أن نقول: إن النهاز إن أراد أن يزيف على الأمة فأمامه التزييف في الحكم على مأثورات هذه الأمة، وأمامه التزييف على الأمة فيما أثر عن أفرادها.

ودعني أفصل لك هذين الاتجاهين شيئاً من التفصيل :

١- **أما التزييف في المعيار** فهو يبدو واضحاً لك غاية الوضوح إذا أعددت نفسك إلى النظر في أعمال النهازين من زاويتين من زوايا الرؤية والنظر.

ذلك أن النهاز بطبيعته إنما يعمد إلىالمعايير أول الأمر وهو يقصد أن يحدث فيها نوعاً من الاضطراب بحيث يجعل الأمر ملتبساً على كل باحث أو دارس، فتضيع معالم الطريق من أمامه، بحيث لا يبصر الحقيقة كما ينبغي له أن يبصرها.

واضطراب المعايير بداية خطر عظيم، وهو خطر ينبغي على عقلاء الأمة أن يقاوموه، وأن يردوا كل معيار إلى قاعدته التي يستقر عليها.

ولكنه مع فداحة خطر الاضطراب في المعايير والمقاييس، فإن النهاز لا يقنع به ما دام يقصد إلى الفساد والإفساد، وإنما هو متطلع دائماً إلى ما هو أشر منه، وأكثر فساداً وإفساداً.

إن الذي يتطلع النهاز إليه أخيراً هو قلب المعايير في الأمة التي يريد أن ينال من عرضها وتاريخها.

وقلب المعايير ليس له من معنى إلا وضع الذم بدلاً من الحمد، والكذب بدلاً من الصدق، والخيانة بدلاً من الأمانة والعقيدة والإخلاص.

والمعايير حين تُقلب على نحو ما رأيت، فإن الأمة التي قلبت المعايير فيها لتكون من الأمم التي هبطت من عليائها لترتطم بالقاع على مقياس العلو والهبوط على سلم الفضيلة والأخلاق، وإنها لتتأخر عن مكان القيادة لتحتل مكاناً في آخر الركب على مقياس الحضارة والتقدم.

والنهاز إذا تمكن من أن يحدث اضطراباً في المعايير، ثم تمكن أخيراً من أن يحدث انعكاساً في تلك المقاييس والمعايير، يكون قد وصل إلى غاية النيل من الأمة التي أراد أن ينال منها.

والدين الحنيف قد أكد لأتباعه أن أحد أبناء الأمة سواء كان نهازاً بالطبع أو نهازاً بالأجر، إن تمكن من أن يصل بالأمة إلى أن تضطرب فيها المعايير، ثم تنقلب إلى أضدادها يكون قد بلغ بهذه الأمة حداً ليس له من صلاح أو إصلاح، إلا أن يقبض الله العالم إليه، وتنتهى الدنيا إلى غايتها، وتقوم الساعة على أناس لا خلاق لهم من النهازين بالأجر أو بالطبع.

إلا أن يكون الله قد أراد بهذه الأمة خيراً فتبصر طريقها وتدرك مواقع أقدامها، وتعود إلى سنة الاجتماع التي خلق الله الناس وكلفهم أن يلتزموا بها حتى يستحقوا الحياة.

ولعل هذا بعض ما نفهمه من قوله تعالى: { **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت، فقال لهمُ الله موتوا**

ثُمَّ أحياهُمْ، إنَّ اللَّه لذو فضْلٍ علَى النَّاس، ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يشكرون }[1].

٢- وأما التزييف في الواقعة الاجتماعية فهو واضح بنفسه لا سترة به، يكاد يتشبث بتلابيب مصطنعيه حتى يدل عليهم دلالة واضحة تتأبى على الخفاء، وتستعلى على الغموض.

والذين يصطنعون تزييف الوقائع قد أصيبوا جميعاً بالخلل في أخلاقهم لا يهابون أن يفتضح لهم أمر، ولا يخشون أن تتقشع عنهم ستر.

وقد يبدأ المزيفون للوقائع بتزييف وقائع الأحياء، ثم يروجون لهذا التزييف حتى يظن العامة بل وغير العامة، أن هذا هو سلوك الأحياء، وتلك هي خلائقهم، ثم يذهب الأحياء إلى خالقهم وهم شرفاء عنده، ولكنهم في ذمة التاريخ وفى وثائقه ليسوا كذلك، حيث لم يسجل التاريخ لهم إلا ما زيفه النهازون عليهم.

وقد يصطنع النهازون طريقة أخرى خلاصتها أنهم يزيفون على الذين رحلوا، إما بتغيير ما سطره التاريخ عنهم إن استطاعوا، أو بحمله على النوايا السيئة، والأغراض الخبيثة من أصحابه الذين صنعوه، إن لم يجدوا غير هذا السبيل سبيلا.

وسواء زيف النهازون على الأحياء أو على الأموات فهم إنما يزيفون الوقائع عن قصد مقصود، ومن أجل غاية يبتغون الوصول إليها.

والقصد المقصود والغاية المبتغاة إنما يدوران جميعاً حول أن تزدحم أحداث التاريخ الخاص بالشرفاء بأدرب من الأقوال والأفعال التي تنسب إليهم زوراً وبُهتانا، وفنون وأنواع شتى من التخريجات الفاسدة لما أثر عن هؤلاء الشرفاء تنطق كلها بسوء النية وظلام الطوية عند كل مثالى أو عظيم.

والنهازون يعلمون علم اليقين، ويصدرون في أفعالهم عما يعلمونه علم اليقين من أن التاريخ يشبه أن يكون فراغاً قد

---

[1] البقرة : ٢٤٣.

ملأه العظماء بسلوكهم الخير، وأقوالهم الصادقة، ونواياهم الحسنة، ولا سبيل إلى تشويه صورة هؤلاء العظماء إلا بحركة نشطة من التزييف والتضليل، وقلب الحقائق تخلف ركاماً من الآثار التي يعوزها الفضيلة، وتقعد بها الرذيلة عن نوال أدنى درجات الشرف، ثم يصطحب النهازون هذا الركام المزيف ويملأون به التاريخ بعد أن يخلوه من جميع الحقائق التي ملأت فراغه.

وبهذا الإحلال والتبديل يظن القوم أنهم بجريمتهم تلك، وبإقدامهم على ما فعلوه يكونون قد أنهوا مهمتم بنجاح.

وهؤلاء القوم عندهم في الظاهر مبررات ارتياحهم حين يصلون إلى هذا الحد من التضليل والخيانة، ذلك أنهم يعتقدون أنهم حين ملأوا التاريخ بالتزييف فإنه لا يمكن أن يأتى عالم أو باحث ليرد الأمور إلى صوابها، ويرجع بالحوادث عن التزييف إلى الحقيقة، إنه لا يمكن أن يأتى باحث ويعود بالأمر إلى نصابه وبالتاريخ إلى واقعه، لأنه إن أراد أن يفعل فإنه ليس أمامه إلا أن يحتكم إلى المعيار الصادق، أو إلى المقياس الحق، وهو لا يستطيع ذلك لأن المعيار والمقياس قد سبق تزييفهما بإحداث الاضطراب فيهما أولاً، ثم قلبهما وتبديل حقائقهما ثانياً على نحو ما حدثناك.

غير أن سنن التاريخ وحتمية المشيئة الإلهية لا يتركان الأمر لهؤلاء النهازين يعبثون به كما يشاءون، ولا يتركان التاريخ لهذه الحفنة من البشر توجه مساره حيث تريد، وإنما نجد حتمية المشيئة الإلهية تقضى وفى لمحة أن يصدر عن هذا العظيم أمر إن كان من الأحياء، أو يبين التاريخ عن حادثة تتصل به إن كان من الذين قد ماتوا، بحيث ترى هذا الأمر أو تلك الحادثة تخلق أمام الناس هوة مناسبة من المكانة الراقية تفصل بينه وبين أعدائه من النهازين الذين بذلوا في سبيل طمسها الكثير من الوقت والجهد والمال.

ولما لا يكون هذا بعض ما نفهمه من قوله تعالى: **{ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق }**[١] ولما لا يكون هذا هو بعض ما نفهمه من قوله تعالى: **{إن الذين كفروا يُنفقونَ أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبـــون، والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون ليميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيبِ ويجعل الخبيثَ بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنَّمَ أولئكَ هُمُ الخاسِرون }**[٢] .

لما لا يكون هذا هو بعض ما نفهمـــه مـــن هـــاتين الآيتيـــن وأخواتهما، لنعلم أن نتيجة الصراع محتومة بين النهازين والمثـــاليين في كل حقبة حقبة من حقب التاريخ وسجلات أقوال الناس وأفعالهم؟

والشئ الذي يريح الخاطر ويطمئن الوجدان هو أن هذا الـــذي فهمناه من آيتى الذكر الحكيم هو نفسه القدر المحتوم من الفصل فـــي هذه القضية على سنن التاريخ والاجتماع.

وإذا كنت قـــد أردت أن أذهـــب بوجدانـــى لأعـــايش النبـــي والمسلمين معه في فترة من فترات تاريخ الدعوة في مكة تكاد تستغرق معظمها، وفترة من أوائل مقام النبي في المدينة، فإنـــه لمـــن الـــلازم المحتوم أن أعيش بوجدانى آلام الأمم وصراعها بين عظمائها الذيـــن يريدون أن يرتفعوا بأقدارها، وسفلتها من المطبوعيـــن أو المـــأجورين الذين يريدون أن يقعدوا بها مقابل إخفاء نقيصة يشعرون بها أحياناً، أو مقابل ملئ البطون والجيوب في كثير من الأحيان.

وإننا لنعلم في التاريخ المعاصر والقديـــم أناسـاً مـــن الذيـــن يستهويهم الرغبة في إخفاء النقيصة، أو الرغبة فـــي ملـــئ الجيـــوب والبطون ففعلوا بآثار العظماء الأعاجيب، ولو كنـــا معنييـــن بذكـــر هؤلاء، أو حتى بذكر بعضهم على سبيل المثـــال لأعيانـــا الاختيـــار، ولصعب علينا غاية الصعوبة الاستقصاء، إذ ما من إنسان نختاره من بين هؤلاء للتمثيل، أو نذكره بين إخوانه حين إرادة الاستقصاء، إلا

---

[١] الأنبياء: ١٨ جزء آية.

[٢] الأنفال : ٣٦،٣٧

وسنكون مضطرين لإيراد الأدلة التي تؤيد حكمنا عليه، وهى علـــى كثرتها باعثة على الملل خالية من القيمة العلمية إلا أن تكــون قــد دلت على خيانة الخائنين، وهى في الكثير الأغلب لم تعد تحتاج إلـــى دليل.

أردت أن أتأمل آلام الأمم وويلاتها، وأنا أريد أن أعايش الأمة الإسلامية في فترة من فترات تاريخها العظيم، لأنـــي أعلــم أن هــذه الفترة لم تعد تخلو من غبار النهازين مطبوعين، أو مأجورين.

وسوف يكون بعض جهدنا أن نلفت نظر القارئ إلـــى مســـار خاطئ قصد إليه مقصداً من البعض، واندفـــع إليـــه الكثـــيرون غـــير قاصدين.

ولقد أردت أن تكون هذه الدراسة من هذا اللـــون الـــذي أراه جديداً في تناوله، وقد وضعت لها هذا العنوان [الهجرة بيـــن ســـنن الله الجارية وسننه الخارقة] وضعت لها هذا العنـــوان وأنـــا أرى أن هـــذا العنوان سيكون أكثر دلالة على المقصود، ربما مـــن الحديـــث الـــذي سأكتبه تحت هذا العنوان نفسه.

وأنت خبير ولا شك أن الله عز وجل له نوعان من الفعل:

<u>أحدهما:</u> سنن الله الجارية وهى تلك السنن التي نراها منتشرة في الكون وفى الحياة وفى سلوك الإنسان على السواء.

وبهذه السنن الجارية تدور الكواكب في مداراتها لاتتخلف عن دورانها، ولا يقع بينها التصادم أثناء حركتها، ولا يخرج الواحد منـــها عن مداره، ولهذه الكواكب وظائفها وآثارها كل فيحدود ما خلق من أجله، وفى الكون المادي على كوكب الأرض ألـــوان وأصنـــاف مـــن القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية بحيث لا تشذ ظاهرة عن القانون الذي يحكمها، وقل مثل ذلك في القوانين التي تحكـــم ظواهرهـــا فـــي الأحياء.

وهذه السنن الجارية تخضع جميع ظواهرها إليها قصراً مـــن غير أن يكون لظاهرة منها شعور بالإرادة، أو إحساس بالحرية.

غير أننا نرى نوعاً آخر من سنن الله الجارية في عباده التـــي تضبط سلوك الناس الصادر عنهم باختيارهم، يشعر الناس معها أنـــهم قادرون على الإحجام والإقدام، وأنهم يستطيعون الفعل كما يستطيعون الترك، ولكنهم حين يحجمون أو يقدمون لا يحصلون في الحالتين على نتيجة واحدة، وإنما هناك نتائج تترتب على الإقدام، وأخـــرى تـــترتب على الإحجام، أي أن هناك نتائج تشبه أن تكون محتومة تترتب علـــى الفعل، ونتائج أخرى تشبه أن تكون محتومة كذلك تترتب على الترك.

وهذا اللون من سنن الله الجارية، وإن كان محصوراً في دائرة ضيقة نسبياً، إلا أن الله قد أراده ورتب عليه رقى البشر وتخلفهم فـــي الأخلاق والاجتماع والإنسانيات على العموم.

هذه هي سنن الله الجارية في عبارات لم نبسطها كل البسط، ولم نوجز فيها غاية الإيجاز، وإنما قصدنا إلى عرضها على هذا النحو ليلائم هذا النوع من العرض ما ابتغيناه مـــن ورائـــها مـــن أهـــداف ودلالات.

وبالإضافة إلى سنن الله الجارية فإن الله له نوع آخر من الفعل هو سننه الخارقة.

وسنن الله الخارقة بإمكانك أن تجدها حين تتصور حقيقة هـــذا النوع من الفعل، فالله عز وجل له من طلاقة القـــدرة بحيـــث يخلـــى الظاهرة عن القانون الذي يحكمها، سواء كان ذلك في الطبيعة، أو كان في الأحياء، أو كان في الإجتماع والسلوكيات.

فأنت ترى في مجال الطبيعة مثلا انشقـــاق القمـــر، وانفـــلاق البحر وتشوين الماء مع سيولته، وحجب السكين عن طبيعتـــها وهـــى القطع، وحجب النار عن طبيعتها وهى الإحراق.

وأنت ترى في مجال الحياة وقوانينها إبراهيم يدخل النـــار ولا يحترق، ولا يموت من نقص الأكسجين، ويونس عليه السلام يعيش في بطن الحوت تحت طبقات الماء فترة من الزمن... إلى غير ذلك ممـــا نمثل له ولا نحصيه.

وأنت ترى فـــي مجـــال الاجتماعيـــات أن موســـى ينتصـــر بقلـــــــب
العصى ثعباناً، وأن سيدنا محمداً ينتصر بمعونـــــة خمســـة آلاف مـــن الملائكة، ولوطاً ينتصر برفع قريته بواسطة الملك إلى السماء ثم إلقائها مقلوبة إلى الأرض ليهلك من كان فيها جميعاً بعد إخراج لوط ومـــــن كان معه منها.

سنن جارية وسنن خارقة، والاثنان من فعل الله عز وجـــل، فهما باعتبار مصدرهما الذي يصدران عنه على سواء، غير أن الله عز وجل لم يرد لبنى البشر، أو للمكلفين على العموم أن يعيشوا بسنن الله الخارقة تحكمهم وتوجه مسارهم من غـــير إرادة منـــهم أو مجـــهود يبذلونه، إذ أن في ذلك دلالة كافية على إلغاء التكليف، ومع إلغاء هذا التكليف تنتفى الحكمة الذي من أجلها خلق هذا المخلوق المكلف علـــى هذه الأرض وليس للسنن الخارقة من دلالة إلا أن يكون فيها إثبـــات لنبوة نبي، أو لفت النظر إلى مكانته عند ربه.

أما سنن الله الجارية فهى التي أرادها الله عز وجل لكى تحكم الكون والحياة والإنسان على السواء.

ومن هذا الإيجاز الموجز أستطيع أن أقول لك: إننـــى كلمـــا قرأت تاريخ الأنبياء من أولهم إلى خاتمهم، وجدت فيه قطعاً بادية مـــن سنن الله الجارية، وأخرى من سننه الخارقة، يصدق هذا على تاريخ كل نبي من الأنبياء عموماً، وعلى تاريخ النبي محمد ﷺ على الخصوص.

غير أنى قد رأيت أن الهجرة من الأشياء النادرة التي بدا فيها سنن الله الجارية والخارقة يتعانقان ويتشابكان في نسيج واحد، بحيث يتراءى هذا النسيج أمام العقول فيأسرها بقواعدهـــا، ويـــتراءى أمـــام القلوب والأرواح والعواطف فيأسرها بأشواقها، فرأيت أن أعايش هذا الحدث معايشة تامة، لكى أبرز من هذا النسيج الملتئم مـــن ســـنن الله الجارية وسننه الخارقة على السواء.

وأنا أعتزم طوال رحلتى معك أن لا ألـــتزم بـــالحدث لــذات الحدث، وإنما أهتم بالحدث لدلالة الحدث على المقصود من ذكره.

كما أنى لن أهتم بذكر الأحداث على ترتيبها التــاريخى فمـــا ذلك بالذى يشغل بالى في تلك الدراسة فهى ليست تأريخاً، وإنما هي مجرد توجيه إلى فكرة ظهرت لى وأردت أن لا أكتمـــها عـــن أبنـــاء العربية.

وأخيراً فإني لن أهتم باستقصاء حوادث التاريخ في الـــهجرة، وإنما سآخذ منها وأترك وقد سوغ لى هـــدف الدراســـة أن آخـــذ مـــن الأحداث وأترك.

وعلى الله قصد السبيل،،

أ.د/ طه الدسوقى حبيشى

وقفة قبل أن ننطلق :

علمنا أن النبي ﷺ قد هاجر، وأنه قد أمر غيره بالهجرة، فهاجر المسلمون حسب الوجهة التي أراد النبي ﷺ أن يهاجر المسلمون إليها.

وما كان لبشر – مهما أوتي من أسباب القدرة على اللجاجة، ومهما توفر له من عوامل الجدال والنقاش – أن يشكك في هجرة النبي إلى حيث هاجر النبي، أو أن يشكك في هجرة المسلمين إلى حيث أراد النبي أن يهاجر المسلمون، ذلك أن النبي قد هاجر بالفعل، وأن المسلمين قد هاجروا بالفعل، وسجل التاريخ هجرة النبي وهجرةالمسلمين، وتناقل الناس خاصتهم وعامتهم هجرة النبي ﷺ، وهجرة المسلمين والنبي باعتبار أنهما حدثان لم يخف على الناس أحدهما ولا كلاهما.

ولقد كانت الطريقة التي تناقل بها المسلمون أحداث الهجرة من هذه الطرق التي تورث اليقين، وتحول بين العقول وبين أن ترتاب فيما يقدم لها عن طريق الرواة، ذلك أن أحداث الهجرة إنما نقلت إلينا عن طريق التواتر، وهو: رواية الجمع عن مثلهم إلى مصدر الحدث بحيث يستحيل أن تجتمع جماعة منهم، وتتواطأ على الكذب.

ما كان لبشر إذاً أن يشكك في هجرة النبي ولا في هجرة المسلمين من أتباع النبي.

غير أن الهجرة – التي هي في أخص معانيها الحسية ترك مكان إلى مكان آخر – ترتبط بسبب من الأسباب يغري المهاجر أو المهاجرين بترك المكان إلى مكان آخر – هذا ولا بد أن يكون السبب الذي يدفع إلى الهجرة من مكان إلى آخر من القوة والقدرة على التأثير في الناس، بحيث يقدرون أن يتغلبوا على عواطفهم ومشاعرهم المرتبطة بالمكان الذي يريدون أن يتركوه، هذه المشاعر القوية التي تغلب جميع الأسباب إلا سبباً يكون أكثر منها قوة وأعمق أثراً، إذ كيف يتأتى أن يترك الإنسان وطنه الذي هو مسقط رأسه، وكل ناحية

فيه أو جانب من جوانبه يرتبط بحدث من أحـــداث الطفولـــة أو أيـــام الصبى، وأحداث الطفولة وأيام الصبى ليست بالأشيـــاء الهينـــة فـــي صناعة شخصية الإنسان، وفى تشييد بنائها على أي نحـــو كـــان هـــذا البناء، وفى الوطن الذي هو مسقط الرأس ومَدْرَج الطفولة ذكرياتنا مع الآباء والأجداد، ومع الأصدقاء والأقران، وهى ذكريات تجذب المـــرء إليها وتدفعه للارتباط بها.

فإذا قرر الإنسان أن يهاجر من وطنه إلى وطن آخـــر لا بـــد وأن يكون هناك من سبب قوى يغلب هذه العواطف، ويطفو فوق تلك الغرائز.

والنبي ﷺ قد أمر أصحابه أول الأمر وآخره بالهجرة أيـــام بقائه في مكة، ولم يهاجر النبي إلا آخرهم، فما عسى أن يكـــون هـــو السبب الدافع وراء تلك الهجرة، سواء أكانت هذه الهجرة أول الأمر، أو كانت هذه الهجرة آخر مقام النبي في مكة ؟

والإجابة على هذا السؤال، وهو سؤال مهم ولا شك لم تكـــن بالوضوح الذي يناسب وضوح الحدث في التاريخ.

فهل يكون صحيحاً ما ذكره البعض أن الهجرة فعل من أفعال الله عز وجل قد تولى الإعداد له بنفسه، من غير أن يجعل له من الواقع أسباباً اجتماعية تؤدى إليه، بمعنى أن يكون الله عز وجل لـــم يشعـــر المسلمين الأوائل بالهجرة إلا ساعة أن أراد لهم أن يهاجروا، وبمعنـــى أن يكون الله لم يشعر النبي ﷺ بهجرة أصحابه إلا ســـاعة أمـــره أن يطلب إليهم أن يهاجروا ؟

أم ترى أن الممكن الذي ينبغي أن نعتقده هو أن الله قد شـــاء، وأنفذ مشيئته على سنة الاجتماع البشرى، فهيأ للمسلمين وللنبى قبـــل المسلمين ظروفاً اجتماعية سلكوها، ووجههم إلى سنن الله في التـــاريخ فساروا عليها بدءاً من نبيهم إلى أدنى رجل فيهم، وليس فيهم دان؟

إن الذي يتأمل تاريخ الدعوة الإسلامية، ويقف علـــى جميـــع جوانبها، ويتأملها من جميع زواياها ليعلم علم اليقين أن الله عز وجل

إنما أرسل نبيه ليرشد المسلمين إلى منهج ربهم، ويحملهم على أتباعه، ومنهج ربهم يدل كله دلالة قاطعة على أن الله قد اختار لعباده أن يتقربوا إليه مستفيدين من سننه الجارية، ذلك كي يوقفهم على أنه موجود، وعليم، وحكيم، فالله لا يقبل منهم أن يطلبوا منه الرزق على طريقة الحواريين في طلب المائدة من السماء، وإنما يقبل منهم أن يطلبوا منه الرزق بعد أن يصطنعوا للرزق أسبابه وأن يتخذوا الوسائل التي توصل إليه.

وهو قد ضرب لهم في سبيل أن يؤمنوا بذلك الأمثال، فمريم وهي في غاية الإعياء احتاجت إلى الطعام بجميع عناصره **{فناداها من تَحتِها أن لا تحزني قد جَعَلَ ربُكِ تَحتَكِ سَرِيا، وهُزّي إليكِ بجذع النّخلة تُساقط عليكِ رُطبًا جَنيا}**[1].

وموسى عليه السلام اصطحب قومه خارجين من مصر فراراً من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا مطمئنين طالما مكنهم الفضاء من الفرار، فحين عرض لهم البحر رأوا أن أسباب الطبيعة قد انقطعت، وأن فرعون وجنوده وملأه سيدركونهم لا محالة، فخاطبوا نبيهم في ذلك قائلين: **{إنا لمُدرَكُون}** فقال لهم موسى: **{كـلاَّ إنَّ مَعي رَبِّي سَيهدين}**، ومع أن ربه سيهديه وسينقذه بطريقة قدرية بحتة، إلا أنه لم يُرد أن يُنسيه أو يُنسى قومه أن لله في كونه أسباباً يجب أن لا تنسى، فأمره أن يضرب بعصاه البحر، فانفلق البحر مترتباً على ضرب موسى له بالعصى.

وأمثلة كثيرة في القرآن الكريم تعاضد هذين المثالين، لتنتهي كلها إلى تأكيد ما ذكرناه.

وما ذكرناه هو أن من يتأمل شرائع الله المنزلة وهي صحيحة النسبة إلى الله عز وجل، يجد ولا شك أن الله ينتدب عباده لكي يكون أساس التعامل فيما بينهم وبين الكون، وفيما بينهم وبين أنفسهم هو الاستفادة من سنن الله الجارية.

---

[1] سورة مريم. ٢٣،٢٤.

أما سننه الخارقة فليس لها من دور في حياة الناس إلا أن تكون رسالة إيمانية توثق صلة العباد بربهم، وتؤكد صدق الرسل في دعواهم، ولتكون سبباً قوياً في استقبال ما يأتي به النبي أو الرسول من غير معارضة أو تحرج.

والهجرة حدث ضخم في التاريخ على نحو ماذكرنا لك، وهي حدث ضخم لا بد أن يناسبه قرار ضخم وإرادة قوية، وهو قرار معقول، وإرادة مستقرة.

والقرار المعقول والإرادة المستقرة لا تكونان إلا على أساس من سنة أو من سنن نستطيع أن نفهمها وهى قادرة على التأثير فينا.

وهذا ما قد كان بالفعل، لقد شاء الله أن تكون الهجرة في أيام النبي ﷺ مفهومة الأسباب معلومة النتائج المترتبة على الأسباب في إطار مشيئة الله النافذة.

ولم يشأ الله عز وجل أن يخلى الهجرة من سننه الخارقة، فالهجرة في مرحلة من مراحلها متعلقة بنبى مرسل تحيط به ألسنة كافرة، قادرة علىالدعاية والشكاية، وهى من خلال الدعاية والشكاية قد تنال من شخصية هذا النبي ووضعه الاجتماعى والروحى.

شاء الله والحالة هذه أن يصاحب هجرة النبي ﷺ فعل أو أكثر من أفعال الله الخارقة، كى يظهر من خلال هذا الفعل أو تلك الأفعال أن النبي ﷺ عند ربه شئ عظيم سواء قدره الناس أو لم يقدروه، وسواء قبله الناس بين أظهرهم أو أخرجوه، إذ إن تقدير الناس للنبي لا يرفع من قدر النبي المرفوع الشأن عند ربه، ولكن الناس لترتفع أقدارهم لتقديرهم للنبي حين يقدرونه.

تعانقت سنن الله الجارية مع سننه الخارقة وتشابكت، فكان من لحْمتها وسُداها أسباب قوية تكافئ وتناسب انتقال المسلمين من مكان إلى مكان، وانتقال النبي آخر الأمر بالدعوة من مكان إلى مكان.

الفصل الأول

الثبات على المبدأ فى وجة الترغيب والترهيب

إن النبي ﷺ لم يبدأ بالهجرة منذ العام الأول للدعوة التي جـاء بها، وإنما مكث النبي فترة من الزمن في مكة بعد إعلانه دعوته تبلـغ العشر سنوات.

ولم ينتقل النبي ﷺ بأصحابه من مكة إلى المدينة، ولم ينتقـل أصحابه من مكة إلى خارج مكة على نحو انتقاله من مكة إلـى بيـت المقدس، أو نحو انتقاله من بيت المقدس إلى السماء السابعة، ثـم إلـى حيث شاء الله له أن يكون، لم يكن هذا هوشأن الهجرة لا في الزمـان ولا في الكيفية، وإنما وقعت الهجرة على ما يعتاده الناس من الانتقـال من مكان إلى مكان، ووقعت الهجرة على ما يعتاده الناس من التخطيط والترتيب قبل الانتقال من مكان إلى مكان.

وأنا أحب أن أسير معك من مطلع الأمر إلى منتهاه نتحسـس الأسباب المعتادة التي يمكن أن يفهمها الناس خلـف أحـداث الـهجرة الضخمة، ثم أنتقل بك في قسم آخر إلى حديث آخر يظهر في حينـه، ويبدوا لك في غاية الجلاء حين نلقى معاً عصى الترحال بأرضه.

وأنا أظنك لا تسأم هذه الرحلة ولا تمل هذا الحديث على هـذا النسق، الذي أصبح واضحاً أمامك وضوحاً لا لبس فيه ولا غموض.

وأظنك لا تخالفنى في أن النبي ﷺ قد فاجـأ مجتمـع مكـة خاصة ومجتمع العرب على العموم بما يخالف موروثاتهم عن الآبـاء والأجداد، وبما يتصادم مع أعرافهم وثقافاتهم تصادماً يكاد يكون تاماً.

وإن الشأن في دينٍ قد أتى بـه النبـي محمـد ﷺ يصـادم الموروثات، ويتناقض مع الأعراف والثقافات، ويحدد للمصالح مسـاراً مختلفاً، لخليقٌ أن يحدث رجفة قوية في المجتمع الذي حل به، وهو

خليقٌ في نفس الوقت أن يقابل من العنف ويلاقى أصحابه من العنت ما يكاد يرهقهم، أو يذهب بقواهم وإرادتهم، لولا أن يكون لهم مـــن الله ناصر، ومن القناعة والإيمان مؤيد ومعين .

وأصحاب المذاهب على اختلافها وتنوعها يعلمون علم اليقيـــن أنهم إذا أعلنوا عن مذاهبهم الاجتماعية في مجتمعات لا تؤمن بها، أو

تسمع بها لأول مرة، سيجدون من هذه المجتمعات صدوداً وعنـــاداً لا يُعين عليه إلا كثير من الصبر، ولا يساعد على تحمله إلا قـــدر ليـــس بالهين من محاولة ترويض الناس على المبدأ الجديد، وتحمل أذاهم إلى أن يتعودوا.

وإن أرباب المذاهب ليجمعون أو يكادون يجمعـــون علـــى أن ترويض الجماعات، وتحويلهم عن مبادئهم وموروثاتهم فـــي ثقافتـــهم يحتاج إلى جيل أو جيلين، بل قد يحتاج إلى ثلاثة أجيال مـــن البشـــر، حتى يستقر المبدأ الجديد ويحل محل الموروثات القديمة مـــن ثقافـــات الناس وأعرافهم.

وأصحاب المذاهب على اختلافـــها وتنوعـــها يعلمـــون علـــم اليقيـــــن

أساليب أصحاب الموروثات من الأعراف والثقافات في مقاومة المذهب الاجتماعي الجديد، وهى أساليب تكاد كلها تنحصر في نوعين اثنيـــن يجمعانها كلها فلا يبقيان منها شيئا، ويجمعانها كلها بطريقـــة مانعـــة لا تسمح لدخيل أن ينضم إليها.

وهذان النوعان هما : **الترغيب و الترهيب.**

وبيان ذلك في شئ من الإيضاح أن نقول : إن أصحاب مجتمع من المجتمعات إذا كانت لهم أعراف موروثة، وخلائق ثابتـــة، وثقافـــة مستقرة، ثم دخل عليها دخيل بمذهب جديد يطلـــب إليـــهم أن يـــتركوا موروثاتهم إلى الجديد الذي يؤمن به، فإنك ستجد القوم يصطنعون لذلك أول الأمر أساليب العنف المتاحة، يصطنعونها مترقين فى العنف، كلما

أعوزهم أن يترقوا في العنف إلى أن يصلوا إلى حد المبالغة في الإيذاء، آملين أن يردعوا صاحب المذهب الجديد، وأن يصرفوه عن مذهبه الذي جاء به، وأن يردوه إلى موروثات الآباء والأجداد.

والقوم لا يتورعون في اصطناع أساليب الإيذاء على تنوعها، فهم قد يؤذون صاحب المذهب الجديد في نفسه، وقد يؤذونه في جسمه، وقد يؤذونه في ممتلكاته، وقد يؤذونه في عقله عن طريق اتهامه فيه، وقد يؤذونه في دينه أو في عرضه، ثم هم قد يؤذونه في أتباعه من الأقرباء أو الأصدقاء، إنهم لا يتورعون على أي حال عن أن يؤذوا صاحب المبدأ الجديد متفننين في أساليب الإيذاء، لا يردعهم رادع، ولا يحول دون إيذائه مانع.

فإذا استجاب صاحب المذهب الجديد لما اصطنعه خصومه من أساليب الإيذاء، وعاد إلى الموروث من المعتقدات والأعراف كفوا عنه أذاهم، وسمحوا له أن يتعايش معهم على شئ غير قليل من الريبة، وعلى شئ غير قليل من الحذر.

فإن أصر صاحب المذهب الجديد على موقفه، ولم يحوله الإيذاء عن وجهه الذي يتجه إليه ، ولم تقعد به الشدة عن مقصده وهدفه الذي رام الوصول إليه، اتجه القوم إلى شئ آخر هو على النقيض من الشيء الأول تماماً، إنهم يتجهون إلى محاولة اجتذاب صاحب المذهب الجديد إليهم بوسيلة من وسائل الإغراء، فإن كان ممن تستهويه السيادة الاجتماعية أغروه بها، وإن كان ممن تجتذبه الرياسة السياسية عرضوها عليه وهيؤها له، وإن كان ممن تستهويهم ملء الجيوب أو البطون، فلا بأس أن يوفروا له ما يملأ جيبه وبطنه، وإن كان ممن اختلطت عقولهم وتأثرت نفوسهم فإن في الطب سعة، وعند رجاله ألف حل وحل لمشكلته.

إنها ولا شك نغمة جديدة، ولون آخر من ألوان الأساليب التي يقصد بها صرف أصحاب المذاهب عن مقاصدهم، وحملهم على تغيير وجهتهم إلى ما يردون من المقاصد والأهداف.

والنبي ﷺ لم يأت بمذهب من المذاهب، وإنما نادى في قومه بالدين الخاتم الذي لا دين بعده، لقد جاء النبي قومه بدين هو آخر الديانات السماوية يناط به تغيير الناس في كل عصر، ويهتف بكل جماعة منهم أن أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له، وأن يقوم الواحد منهم كما تقوم جماعتهم بتطبيق منهج الله في الأرض، وعمارة جوانبها ابتغاء رضى الله وأملا في ثوابه.

هتف النبي بذلك كله وسط مجتمع جاهلي له موروثاته من الثقافات والأعراف، وله مصالحه التقليدية التي يتمسك قومه بها ولا يميلون إلى التفريط فيها، بل هم يميلون إلى أن يعضوا عليها بالنواجذ كل الميل.

والنبي قد بدأ أول الأمر وحده، ثم جمع الله حوله مجموعة من الأحباب التي تمثل طبقات المجتمع الذي هتف النبي به أصدق تمثيل، فمنهم العبد الذي لا يملك رقبته، ومنهم السيد الذي لا سلطان لأحد على رقبته، ومنهم الفقير الذي لا يملك قوت يومه، ومنهم الثرى الذي آل إليه المال بعمله أو بعمل السابقين عليه، ومنهم الضعيف الذي إذا ما سلبه الذباب شيئا لا يستنقذه منه، ومنهم القوى الذي يَرْهَبه الصغير والكبير.

اجتمع للنبي من تابعيه أفراد يمثلون المجتمع كله في رقه وسيادته، وفى غناه وفقره، وفى ضعفه وبأسه، وفى علمه وجهله، إلى غير ما فيه من المتقابلات أو المتناقضات.

وكان على قريش أول الأمر أن تقاوم النبي على نحو ما يقاوم القديم الجديد، وقد عزمت بالفعل أن تقاوم النبي أشد المقاومة وأعنفها، وأن تتصدى له بإرادة لا تفتر وسيف يهاب الناس نصله، وقناة لا يعرض لها أن تلين.

ولقد ابتكر القوم وتفننوا في أساليب الإيذاء، حيث آذوا النبي في شخصه، وحيث آذوه في أتباعه مصطنعين في كل ذلك من الأساليب ما يعبر عن مقدار الحقد في نفوسهم، وعن عنف الإرادة المجتمعة ضد هذا الدين الجديد.

أقول: إن القوم قد آذوا النبي ﷺ مصطنعين في كل ذلك من الأساليب ما يعبر عن مقدار الحقد في نفوسهم، وعن عنـف الإرادة المجتمعة ضد هذا الدين الجديد، لأنه لا يخفى على مثلـك أن النـاس يردون المذاهب والمبادئ، ويكذبون أصحابها وينالون منهما أشد النيل وأعنفه، إذا توفر لديهم سبب أو عامل من عوامل ثلاثة.

أحدها: أن يجد الناس أنفسهم لا يقتنعون بشخصيـة الداعـي للمذهب، ولا تنسجم عقولهم مع مبادئه وما يدعو إليه.

وهذا الموقف لا يجوز أن يتعامل معه إلا دلائل الإقناع وآيات الاقتناع، إذ إن هذا الموقف يتصل اتصالاً مباشراً بالقلوب والعقـول، وليس لشئ سلطان على القلوب والعقول ما للدلائل والآيات من سلطان على القلوب والعقول، فالله عز وجل حين خلق القلب والعقل أراد أن لا يكون لشئ سلطان على القلب والعقل إلا سلطان الدليل المقنع والآيـة الملزمة.

ثانيها: أن يجد بعض الناس أنفسهم وقد نزلت بهم القـدرات عن أن يتابعوا العظماء على مبادئهم أو يسايروهم علـى الحـق مـن مذاهبهم.

وهؤلاء ليس أمامهم من شئ يفعلونه إلا النيل مـن أصحـاب المذاهب، والطعن في المبادئ التي جاءوا بها.

وثالثها: أن يجد بعض الناس مصالحهم التي قامت على أساس واهن، واستندت إلى مبادئ ضالة وقد تعرضت للخطـر إذا مـا قـدر للمبدء الحديد أن ينتشر، وإذا ما قدر للداعي إليه أن يقود ويسود.

وقريش مع النبي ﷺ لم يكن ليعوزهم الاقتناع بشخص النبـي ولا بالمبادئ التي تشتمل عليها الرسالة التي جاء بها النبي.

إذ التاريخ مزدحم بالأمثلة التي تؤكد قناعة القوم بشخص النبي، كما أنه مزدحم بالأمثلة التي تؤكد أن القوم مقتنعون بالمبادئ التي جاء بها النبي.

ومهما كانت الأسباب التي أقنعتهم فإننا لا نهتم إلا بـأن القـوم مقتنعون، وبأن القوم لم يعارضوا النبي من جهة أنهم لا يقتنعون بـه

ولا بمبادئه، وإنما هم يعارضون النبي لأسباب أخرى تتصل بالعامل الثاني أو بالعامل الثالث مما ذكرت لك أحياناً أو هي تتصل بها جميعاً في معظم الأحايين.

ودونك هذا المثال الذي تجده في مرويات السير و التاريخ يوضح لك المسألة كلها في حادثة جرت في علية القوم:

[روى ابن إسحاق والبيهقى عن الزهرى والحافظ محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب بسند صحيح أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل والأخنس بن شريق

خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يسمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في قلبه شيئاً ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل واحد منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرنى ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

ولفظ الذهلي: إن أبا سفيان قال للأخنس فما تقول أنت ؟ قال: أراه الحق.

قال أبو سفيان: والله ياأبا ثعلبة لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس: وأنا والله كذلك.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يـــا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ما سمعت؟ تنازعنـــا وبنو عبد مناف الشرف فأطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنـــا وأعطـوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبـــداً ولا نصدقه][1] .

علمت من هذا المثال أن القوم ما كان يعوزهم الاقتناع بالنبي ﷺ ولا بمبادئه.

وليس هذا المثال نسيج وحده، ولا هو بالفريد في بابه، وإنمـــا لهذا المثال في كتب السير والحديث والتاريخ نظائر كثيرة وأشباه، فمن لا يقنعه المثال الواحد لا يرده أحد عن الاستقصـــــاء إن كان ممن يطيقون الاستقصاء أو ممن لا يقتنعون إلا أن يستقصوا.

إن نتيجة المثال أو الاستقصاء على أية حال هي ما ذكرت لك من أن القوم لم يكونوا يحتاجون إلى مزيد إقناع أو إلى كثير من اقتناع وليس إنكار القوم للنبي ولا لمبادئه راجعاً إلى تهمـــة فيـــه، أو إلـــى ارتياب في مبادئه، وإنما مرجع هذا الموقف الغريب من النبي ومبادئه إلى أحد هذين الأمرين التاليين أو إلى جميعهما فلم تقف قريـــش هـــذا الموقف إلا وهى مدفوعة بنقص القدرات في مســـايرة الأشـــراف، أو بالحرص على المصالح التي لا تتحقـــق إلا فـــي مثـــل هـــذا المنـــاخ الاجتماعى من المبادئ والأعراف الذي يعيشون فيه، وقد توارثوه عن الآباء والأجداد.

وقفت قريش جميعها تقريباً إلا من رحم ربك موقفها من النبي، وموقفها من قرابة النبي الذين يدافعون عن النبي تديناً أو حمية،

---

[1] سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد/ للإمام محمد بن يوســف الصـــالحى الشامى المتوفى سنة ٩٤٢هـ/ تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامى الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م جـ٢ - ص ٤٧٠، ٤٧١.

وموقفها من أصحاب النبي الذين آمنوا به واتبعوه، وليس وراء اتباعهم له شئ من ترغيب دنيوى، أو ترهيب يرجع إلى غير الله عز وجل.

ولقد مر موقف قريش من النبي بعدة مراحل أرادها الله عز وجل أن تكون كما كانت وأن تحدث في التاريخ كما حدثت على سنة الاجتماع الذي يعرفه تاريخ الإنسانية، والذى يعرفه حاضر البشرية في كل عصر.

ولقد كانت قريش في أول عهدها تقف من النبي موقف المندهش المتأمل لنفسه ولمصالحه في ظل هذا الدين الجديد.

ولقد كانوا من أجل ذلك يعقدون المجالس ويدبرون اللقاءات للنظر فى أمر النبي ودعوته، وكثيراً ما كانت هذه اللقاءات، وتلك المجالس المنعقدة تتضح بما يدل على الكراهية للنبي ودعوته لكنها على أية حال كانت أكثر هدوءاً من المراحل التي تتلوها ولا شك، إذ إنك لا تعدم أن تجد القوم إذا ما أوشكت الأمور أن تخرج من أيديهم أن ينهضوا إلى تلطيف المواقف حرصاً على وحدة المجتمع من أن تتصدع، وحرصاً على روابط العشائر من أن يعرض لها عارض الوهن، وهو أمر وارد، وهو أمر جد خطير.

[قال ابن إسحق: ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم فأغروا برسول الله ﷺ: سفهاء هم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والسهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

قال ابن إسحق: فحدثنى يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما نأكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر

هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم أباءنـــا، وعـــاب ديننـــا، وفـــرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أوكما قالوا:

فبيناهم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشـــى حتـــى اســـتلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القـــول.

قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ.

قال : ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفـــت

ذلك في وجه رسول الله ﷺ: ثم مر بهم الثالثـــة فغمـــزوه بمثلـــها، فوقف ثم قال، أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذبح.

قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما علـــى رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحســـن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فـــوالله مـــا

كنت جهولاً. قال: فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، ومـــا بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلـــك

طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيـــب آلهتـــهم

ودينهم، فيقول رسول الله ﷺنعم: أنا الذي أقول ذلك.

قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه.

قال: فقام، أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكى ويقـــول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط][1].

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام/ قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف سعد طبع دار الجيل - بيروت - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م جـــ١ - ص ٢٥٨،٢٥٩.

هذا كان حال قريش أوائل أمرهم مع الدعوة ومع صاحبها.

ولكن هذا الحال قد تطور فيما بعد وأخذ شكـــلاً جديـــداً مـــن العلاقات ذلك أن النبي ﷺ قد اجتمعت حوله عشيرته أو جُلها حميـــة في غالب الأمر، وكان أبو طالب يتزعمهم ويُعلن أنه سيحمى ابن أخيه من غضب الناس ولن يتركه وحده تعبث الأحداث به أو ينـــال النـــاس منه.

تطورٌ جديد ظهر النبي فيه أنه ليس وحده في مواجهة النـــاس، ولكن أصبح النبي بين أهله وعشيرته، وليس رجال أهلـــه وعشيرتـــه ممن يُستهان بهم وسط الرجال، وإنما أهله وعشيرته ممن يُحسب لـــهم الحساب ويؤخذون في الاعتبار عندما يكون القوم بصـــدد موقـــف أو قرار.

وفى هذا التطور الجديد في كراهية النبي ﷺ ومبادئـــه بـــرز أسلوب المفاوضة مع أبى طالب على السطح، ولكنها مفاوضة قد تخرج عن حدود المعقول في كثير من الأحيان، وإن كـــانت لا تخلـــو مـــن أسلوب المفاوضة المعتادة في بعض الأحايين، ولكنها على أيـــة حـــال مفاوضة فيها من الإلحاح على أبى طالب قدرٌ يكاد يُحرجه ويضعه في موقفٍ اجتماعى لا يُحسد عليه.

ومن المفاوضة التي تبدو معقولة ويمكن الرد عليها ما حكـــى ابن إسحاق قال:

[فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع بـــه كمـــا أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه – فيما بلغنى – حتـــى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته،إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحدب[1] على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب، ومنعه وقـــام دونـــه،

---

[1] أصل الحدب: انحناء فى الظهر، ثم استعير فيمن عطف على غيره ورق له.

ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره، لا يرده عنه شئ:

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم[١] من شئ أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه، فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب عتبه وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس. قال ابن هشام: واسم أبى سفيان صخر.

قال ابن إسحاق: وأبو البخترى، واسمه العاص بن هشام وقيل ابن هاشم.

قال ابن إسحاق: والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى. وأبو جهل – واسمه عمرو، وكان يكنى أبا الحكم – بن هشام بن المغيرة.

والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة.

والعاص بن وائل.

قال ابن إسحق: أو من مشى منهم. فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.][٢] .

هكذا كان أول حوار بين القوم وبين أبى طالب، لم يغلظ القوم فيه إلى أبى طالب بقول، ولم يشأ أبو طالب أن تتسع بينه وبين قومه دائرة الخلاف .

---

[١] لا يعتبهم: لا يرضيهم.

[٢] سيرة ابن هشام جـ١ – ص ٢٣٨،٢٣٩ بتصرف يسير.

فأنت ترى أن القوم شكوا إلى أبى طالب ما نالهم من محمد بن أخيه ومما يدعو له من مبادئ، وخيروه بين اثنتين: أن يكف عنهم ابن أخيه إن كان له بذلك طاقة، أو أن يُسلمه إليهم متخلياً عنه يفعلون به

ما يشاءون إن منعه مانع الحمية والرحم من أن يكفه عما يكرهون منه.

وأبو طالب لم يُظهر تبرماً بما ذكروه حرصاً على أواصر المجتمع أن تظل قائمة كما هي، ولذا فقد تحدث إليهم برفق وهدهدهم بشئ من اللطف، ثم انصرفوا عنه على غير وفاق وعلى غير خلاف.

ولكنهم رأوا أن النبي ﷺ قد مضى في دعوته لوجهه لا يلوى على شئ، وقد أمضى عزيمته للدعوة إلى دينه لا يصده عن ذلك اجتماع قومه لمفاوضة عمه، إذ إنه ليعلم علم اليقين أن سنة الله عز وجل ماضية فيه وفى قومه لن تتخلف، وأن ما كلفه به ربه لا يصده عنه ناقص الطبع أو طالبٌ لمنفعة.

وقوم النبي ﷺ ينظرون فإذا بهم لا يرون إلا النبي وقد اشتد ساعده، وعظمت إرادته، وتمهد إليه السبيل شيئاً فشيئاً يوشك أن يصل به إلى غايته.

وقوم النبي ينظرون من وجهة أخرى فإذا بهم لا يرون إلا وأبو طالب لم يهتم بقولهم الذي قالوه له، ولم يأخذه في سبيل تحقيق رغباتهم بشئ قليل ولا كثير، إن القوم قد خيروه بين أن يكف ابن أخيه عنهم أو يُسلمه إليهم، فإذا بهم يرونه لا يعمل على كف ابن أخيه عنهم، ولا هو بالذى تطيب نفسه بأن يُسلم ابن أخيه إليهم، والقوم لا يُطيقون أن يصبروا على النبي وهذه حاله، وكان لا بد من لقاء آخر يكون له من الآثار ما يُخالف اللقاء الأول، عله يأتى بثماره على نحو ما يهوى القوم وما يحبون.

قال ابن إسحق : [ومضى رسول ﷺ على ماهو عليه يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم شرى[١] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا[٢] ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه.

ثم إنهم مشوا الى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا له - ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه] [٣].

وقع اللقاء الثانى على نحو ما رأيت ولكن اللقاء هذه المرة يختلف عن اللقاء الأول في المحاورة وفى النتائج جميعاً.

فالقوم هنا وإن كانوا قد بدأوا الحوار بإبراز مكانة أبى طالب، إلا أنهم قد أنهوه بلون من الشدة عللوها بعللها الطبيعية التي لا تُخطئها،

إنهم قد ذكروا حال محمد ﷺ على ماهى عليه من الشدة والمبالغة في المهمة، وذكروا حال أبى طالب على ما هي عليه من الفتور والتراخى، وذكروا حاله وما هي عليه من القلق وعدم الصبر على ما يرون ويسمعون، ثم خيروا أبا طالب هذه المرة بين أن يُسلم إليهم ابن أخيه، وبين أن يناجزوه ويناجزوا ابن أخيه ومن ينضم إليهما تديناً أو حمية حتى يقضى الله بأمره بين الفريقين، فإما أن يهزم النبي ومن معه، وإما أن تدور الدائرة على مناوئيه ومن يشد أزرهم.

هذه كانت طبيعة الحوار في المرة الثانية وهى من الشدة في القول على نحو ما ترى.

---

[١] شرى : اشتد.

[٢] تضاغنوا : تعادوا.

[٣] المرجع السابق ص ٢٣٩، ٢٤٠.

ولقد خلفت طبيعة الحوار أبا طالب في حالة نفسية مضطربة، حيث إنه قد نظر في قومه ومجتمعه، فإذا به يوشك أن يتفكك أو أن

ينهار، وحيث إنه قد نظر فيما بينه وبين ابن أخيه فوجد أن الحمية والقربى يحولان بينه وبين أن يُسلم إليهم ابن أخيه.

فماذا عساه أن يفعل وهذه حيرة ما بعدها حيرة؟

أما ربنا عز وجل فإنه بالغٌ أمره ولا شك على سنن التاريخ والاجتماع، حيث أراد أن يبلغه على سنن التاريخ والاجتماع، ولن يبلغ الأمر مداه على هذه السنن ما دام المجتمع القديم على تماسكه القديم، فتماسك المجتمع إذا كان تماسكه على الباطل يعطيه شيئاً من القوة لا يؤثر فيها إلا أن ينحل هذا التماسك، وإلا أن يتفرق هذا المؤتلف إلى جماعات وشيع، وليس من الضرورى أن يفرقهم الحق والباطل على أساس أن يكون فريقٌ قد تشيع إلى الحق، وأن يكون فريقٌ قد تشيع إلى الباطل ويصطدم الفريقان، وإنما قد تنفصم عُرى المجتمع، وينقسم إلى شيع وأحزاب، ويكون السبب في ذلك مؤتلف من أشياء أخرى يأتى في مقدمتها العصبية، ويتلوها شئٌ من الحمية أو شئٌ من الحفاظ على ذوى القربى.

شاء الله والله بالغٌ مشيئته، وأراد الله والله بالغٌ ما يريد أن ينقسم المجتمع إلى فريقين، فريق يتشيع إلى النبي على أساس من التدين أوعلى أساسٍ من الحمية، وفريق يناوئ النبي على أساسٍ من العصبية أو على أساسٍ من خوف فوات المصلحة وذهاب المنافع.

وأبو طالب في حيرة ما بعدها حيرة أمام نوازع النفس وانقسامات الوجدان، وتلك حالة من أشد حالات المرء عليه إذ إنها تُورثه شيئاً من الاضطراب، وتبتعد به عن الموازنة الصحيحة واتخاذ القرار المناسب، ولذلك فأنت ترى أبا طالب يخشى تفرق قومه ويخشى انقسامهم عليه، لأن هذا لونٌ من الفتنة وقد رآها بالفعل تطل برأسها، ولا تنتظر إلا أن يُعلن أبو طالب عن موقفه حتى تعبث بالمجتمع وتعبث بمقدراته.

ومثل أبى طالب لا يرى في ذلك إلا خطراً عظيماً حيث إن الإلف والعادة قد جعلاه وجعل غيره في مكان ناءٍ عن الشعور لما في المجتمع من انحرافات اجتماعية، وما في المجتمع من انحرافات عقدية، وما ترتب على هذين في المجتمع من ضياع الأمن الداخلى بفوات العقيدة، ومن ضياع الأمن الخارجى باضطراب الشريعة.

ولما فات على أبى طالب أن يدرك مثل هذا فإن من كانت هذه حاله لا يرى في انقسام المجتمع إلا خطراً يتهدد الجماعة ويتهدد الأفراد على السواء.

من أجل ذلك نظر أبو طالب في المستقبل القريب بعين التأمل فرأى واقعاً أمامه وفى مخيلته ما سيقع بالفعل في زمن ليس بالبعيد.

وأبو طالب حين يرى بعين بصيرته ما يراه واقعاً بالمجتمع لا محالة يضطرب لذلك كله أشد الاضطراب وأبلغه.

غير أن أبا طالب لم يُمهله الانفعال حتى انجذب إلى الناحية الأخرى يفكر فيها ويتأمل وينظر فيها بنظره الثاقب وهو في نفس حيرته تزداد معه شيئاً فشيئاً.

إنه هذه المرة ينظر في ابن أخيه فلا يرى إلا فتى قد أنجبه أخوه عبدالله الذي شاء الله له أن يأتي إلى الدنيا كأنه يحمل رسالة، ثم يعود مرةً أخرى إلى الغيب الذي لا لقاء بعده إلا أن يشاء الله، ولم لا وقد جاء عبدالله وترعرع فتى وسيماً يحبه كل من رآه، ولا تكاد تفارقه عينٌ سقطت على جبينه كأنما حيز له قدر من الحسن والوسامة ليستا بالموفورتين لغيره، ولم يسجل التاريخ له انحرافاً مع جماله وتسيب مجتمعه، ولم يسجل التاريخ له أنه أغلظ في القول لقرين له، أو لسابق عليه في الزمن، أو لمتأخر عنه فيه، فلما بلغ عبدالله مبلغ الرجال زوجه أبوه ولم يبق عبدالله مع آمنة بنت وهب إلا بضع ليال وأيام لا يستغرق عدها أصابع اليد الواحدة ثم ودعها، وتشبثت به ولكن لا فائدة من التشبث إذ إن القدر قد سبق بوداع الفراق الذي لا يعود منه الذاهبون، ومات عبدالله ولم تره زوجته بعد فراقه ولم يشأ الله لفتى

قريش أن يرى ولده محمداً، ولم يشأ الله ليتيم عبد المطلب أن يرى أباه.

وما هي إلا سنوات حتى استدعى الموت آمنة فاستجابت ولبت نداء ربها بالأبواق بين مكة والمدينة، ودعت محمداً الذي لم يكن معها من الصبيان سواه، ولم يكن قد تجاوز هو السادسة من عمره.

وعاد الصبى إلى جده فأنزله منه منزل الرجال، يُجلسه حيث لا يُجلس غيره، ويُدنيه منه حيث يمنع سواه، ثم مات الجد وترك الصبي في الثامنة من عمره وهو يعهد به إلى أبى طالب مع نقص المال وأساليب المعيشة عنده، ومع كثرة العيال التي تتطلب النفقة منه كل آن.

يستغرق أبو طالب في استعراض الصورة التاريخية فإذا به لا يجد إلا ما ذكرت لك من أمور تحمله على الواجب حملاً، وتأخذه إلى أدائه قسراً، ويجد أن هناك أموراً أخرى تشدد عليه النكير إذا هو فكر في التقصير، أو ليس هذا هو محمداً الذي عُهدَ إليه به، حيث عهد به إليه أبوه، وحيث عهدت إليه به الظروف.!

ثم أو ليس هذا هو محمداً الذي حين رأى عمه قد كثرت عياله وقلت نفقته وقد عرض على عمه أن يتخفف من الانفاق عليه، وأن يضم إليه بعض أبناء عمومته كعلى مثلا ليتولى هو تربيته وتعهده والانفاق علي!

ثم أو ليس هذا هو محمداً الذي لم يسء عمه يوماً، ولا إلى أبناء عمه، ولا إلى أحد من خلق الله، وذهب بهذا الخلق صباه وشبابه لا يتغير عنه ولا يتزحزح، لم يره يوماً كاذباً، ولا خائناً ولا لعاناً ولا فاحشاً، ولم يره صخاباً في الأسواق، لم يره إلا والعصور تزهو به وتسمو وتتفاخر به الخلائق علياءً بعدها علياء ؟!

ثم أوليس هذا هو محمداً ذي تمنت كل أسرة أن يكون فيها مثله كاملاً بين الصبيان، كاملاً بين الشباب، كاملاً بين الفتيان، هذا هو محمدٌ ولا شك وقد دب الشيب إلى عارضيه وكلف أن ينقذ قومه والناس

أجمعين فلم يسألهم على ذلك أجرا، ولم يحملهم على أن يتبعوه قسراً، أيكون ذلك سبباً في التخلى عنه وفى معاداته.؟!

على هذا النحو يستغرق أبو طالب في التفكير وماذا يفعل، أيترك المجتمع ينقسم والوحدة تنفصم، والرجفة الاجتماعية تجتاح مكة من أقصاها إلى أقصاها، أم يُسلم ابن أخيه إلى عدوه ينال منه على غير جريرة جناها، أو إثم جانفه أو مخالفة اجتماعية أو خُليقة ارتكبها ؟ إن هذا اللون من الاستغراق ليفل من إرادة الرجل الحديد، وأسوأ

موقف يكون فيه الرجال لهو هذا الموقف الذي تتقطعهم فيه الانفعالات وتتجاذبهم فيه المتناقضات.

بدى أبو طالب في حالة من الوهن، وظهر أبو طالب في حالة من الضعف، وهن الإرادة وضعف العزيمة، ووهن الإرادة وضعف العزيمة لا يقويهما إلا نار العواطف التي تنضجهما وصارم العقل والعدل الذي لا يُبقى للباطل أثراً، ولا يسمح للزور بمقام يطول أو يقصر.

وقد شاء الله لأبى طالب أن يخرج من محنته ولكن يكون خروجه على سنن الله الجارية، فطلب لقاءً مباشراً مع ابن أخيه، وما أحر هذا اللقاء وما أشد وطأ هذه المقابلة على الشيخ وعلى ابن أخيه جميعاً.

استدعى أبو طالب فتى قريش الذي لم يعد لقريش حديث غير هذا الحديث المتصل به، وجاء محمدٌ واقترب من عمه فقال له الشيخ: [يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى، فقالوا لى كذا وكذا، للذى كانوا قالوا له، فابق علىّ وعلى نفسك ولا تحمّلنى من الأمر ما لا أطيق].

وأنت تستطيع أن تتأمل كلام الشيخ فتقف على الحالة التي تنتابه، وتتعرف على مقدار ما يحمله من عناء النفس وألم الفؤاد، إنه قد حكى لابن أخيه ما قال قومه، وكشف له عن آلام نفسه وتركه أن يختار شريطة أن يبقى على الشيخ وعلى نفسه وألا يُحمل الشيخ ما لا يُطيق.

وإنه لكلام غامض مُبهم يناسب ما أمام الشيخ من غموض وإبهام، فالشيخ لم يتوصل إلى قرار، والقرار أمامه يتصل بأحد طرفين

لا ثالث لهما، إما أن ينضم إلى ابن أخيه ويتحمل بعد ذلك ما سيلاقيه وما سيراه من تفسخ المجتمع وانهياره.

وما يشعر به مع أفراد المجتمع من الرجفة التي ستُذرى بعوائد هذا المجتمع وعقائده وإما أن يميل إلى كبراء قومه ممن جاءوه وممن لم يأتوا إليه لكنهم على رأى من جاءوه، وفي هذه الحال سيتحمل أبو طالب مسئولية الآداب والأخلاق التي تعارفت عليها الإنسانية في كل مجتمع، وورثها هو عن آبائه وأجداده، ويكون في

نفس الوقت قد تخلى عن الحمية وهى صفة يمتاز بها رجال عن رجال، ويرقى بها أناس على أناس، هذه هي الحال الغامضة التي ناسبها عبارات غامضة كذلك ألقى بها الشيخ إلى فتى قريش الأوحد وهو يسمع.

ولقد أراد الله عز وجل لهذه الحال أن تتبدد، وهذا الموقف من الاضطراب أن ينهار وأن يتخذ أبو طالب قراره المحتوم الذي لا قرار بعده في الرتبة أو في المكانة يُدانيه أو يلحق به. إن الفتى حين سمع عمه يتحدث [ظن أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه] فقال له قولة تُعبر عن الحزم والعزم على المضاء فيما هو مقبل عليه من أمر، وأنه أمر لا يقبل المساومة فيه، فليس لصاحب المبدأ إذا كان يؤمن بمبدئه إلا أن يعمل على نشر هذا المبدأ حتى يُظهره الله أو يهلك دونه.

تحدث النبي بحماس منقطع النظير، غير أن النبي قد حزن حزناً شديداً على ما فهمه من أن عمه قد أوشك أن ينزل من عليائه، وأن يسقط من رفعته، أو أنه قد قلاه وسئم نصرته.

وهذه كلها أمور تجعل الرجل تجيش به نفسه وتسقط لذلك عبرته، وتفيض بالدمع عيناه.

وأنت خبيرٌ بأن بكاء الرجال لا يأتى إلا من انفلاق الأكباد، فما كان للنبي أن يبكى على أمر فاته، وما كان للنبي أن يبكى خشية وقوع أمر في المستقبل يخشى وقوعه، لكن النبي يبكى إذا بكى النبي لفوات خلق أو لسقوط عظيم أو لانفصام آصرة من الأواصر، وهي

أمور يبكى عليها العظيم ولا يبكى على سواها، ثم قـام النبـي عـن مجـلس عمه منصرفاً، ولكنه بحديثه وعبرته قد أنضـج الإرادة فـي صدر عمه، وحمله على أن يختار كما يختار الرجال، وعلى أن يرجح كما يُرجح العظماء.

[استعبر النبي، فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب ، فقال: أقبل يا ابن أخى قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخى، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبداً][1] وهنـا تـرى أن أبـا طالب قد أبصر طريقه وحزم أمره، وحدد لخطوه المسير مـن غـير تردد بين أمر وأمر، وبين اتجاه واتجاه يختار من بينهما أو لا يختار.

وعلمت قريش ما وصل الأمر بأبى طالب، وأنه قد انحاز إلى ابن أخيه، وأن انفصام المجتمع وانقسامه لم يعد بالأمر الذي يعنيـه أو يشغل باله، فرأت أنها قد أخطأت حين أغلظت في القول لأبى طالب، ورأت أنها قد دفعته حين أغلظت له في القول إلى أن يحـزم أمـره وأعانته على أن يخرج من حيرته.

واجتمع القوم وتشاوروا، ورأوا أنهم ما زالت هناك بقية مـن أمل يأملونها إذا هم التقوا بأبى طالب مرة ثالثة، ولكن على أن يكـون أسلوبهم هذه المرة أكثر ليناً من ذى قبل، وعلى أن يكون الواحد منـهم هذه المرة أكثر قدرة على كتمان غيظه، وكتمان مشاعره.

إلا أنك ستعجب معى العجب كله حين تنصت إلـى طريقـة عرضهم، وحين ترى الموضوع الذي سـيذهبون إلـى أبـى طـالب ليتفاوضوا حوله.

لقد كان ذهابهم في المرة الأولى والثانية يحتوى على موضوع مقبول، وعلى أسلوب في العرض يرتضيه من شـاء لـه طبعـه أن يرتضيه ، ولكنهم هذه المرة يذهبون إلى أبى طالب وهم يُجمِعون على

---

[1] انظر ابن هشام جـ ١ – ص ٢٤٠.

أن يعرضوا عليه عرضاً لا يقبلــه عقــل ســليم، ولا يرتضيــه ذوق مستقيم.

[قال ابن إسحق: ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى

خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له - فيما بلغنى - يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد[1] فتى في قريش وأجمله، فخذه فلــك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد

خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتلــــه، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تسوموننى، أتعطوننى ابنكــم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً].

لقد وقف القوم على رأى أبى طالب وقد وجدوا فيه مــــا لــم يجدوه في ردوده السابقة عليه حين أتاح لهم من قبل أن يحدثوه فــــي شأن ابن أخيه.

إنه هذه المرة قد سخر من عرضهم، وبين لهم أنهم سفهاء فيما يقولون، غرّيون فيما يعرضون، وهم يدّعون أنهم عقلاء في أقوامــــهم، وهم المفكرون دون سواهم من أقرانهم.

سخر منهم أبو طالب بقدر ما سخر، ثم أعلن بينهم بغاية الجد أنه مع ابن أخيه لن يسلمه وإن لم يعتنق دينه أو يسير على طريقتــــه، وإنه لمدفوع إلى ذلك بدافع الحمية التي لا تخطئها الحماسة العربية في مجتمع كمجتمع المكيين.

وقد أثرت طريقة أبى طالب في القوم على اختلافــهم تــأثيراً بالغاً، فمنهم من حمله الحقد على أن يسير في طريق عدائه للنبي إلى منتهاه، ومنهم من آزر أبا طالب على موقفه لا تنقص حميته عن حميته وإن كان قد رضى أن يعمل تحت قيادته ويستجيب لمشيئته، ومنهم من لم يستطع أن يجمع عليه عناصر شخصيته المثلى فأسلم نفســـه إلـــى

---

[1] أنهد: أشد.

الجبن والخور، وآل على نفسه أن يجلس من الحمية والعصبية مجلساً بعيداً، بحيث لا يقترب منهما ولا يقتربان منه، وبحيث لا يطلبهما ولا يطلبانه مهما تحمل من عار التخلى عنهما والبعد عن الانصياع إليهما.

وكان من رجال الفريق الثالث مشاهير ومغمورون، وقد يكونوا بين بعضهم وبين النبي قرابة الدم، وعصبية القرابة.

وأصدق مثال يعبر عن المشاهير منهم عمه أبو لهب ومواقفه من النبي ودعوته وأتباعه لا تكاد تخفى على أحد.

ومن أمثله المغمورين في التاريخ الذين يخفون على غير الباحثين المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى.

والمطعم بن عدى هذا قد سمع وعلم بما حدث بين قريش وبين أبى طالب عم النبي من هذا الحوار الأخير، وأنهم قد أرادوا أن يبادلوه رجلا برجل، بحيث يأخذ رجلهم يتعهده ويربيه، ويقوم على خدمته حياته، ثم يعهد به إلى من بعده إن أراد، ثم يعطيهم محمداً ويدفع إليهم به يقتلونه ويوارونه التراب إن أرادوا أن يكونوا من الأكرمين في مواراته التراب.

سمع المطعم بن عدى كلام القوم، وسمع تعليقات أبى طالب على ما قالوه وسخريته منه، وتسفيهه لأحلام الصادر عنهم، ومع ذلك تراه يذهب إلى أبى طالب ويقول كلاماً ما يتوقعه منه عاقل، وما يرتضيه منه إنسان ذو مشاعر، ولا يقره عليه من كان لديه شئ من أخلاق.

قال المطعم يخاطب أبا طالب: [والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا]

وأبو طالب يستمع إلى المطعم ولكنه لا ينفعل بحديثه على مايبدو، ولا يستاء من قوله على ما يظهر ، ذلك أن أبا طالب رجل قد حنكته التجارب، وصاغته المواقف على مثاله الذي يعرفه التاريخ به، فتركت التجارب فيه ملكة قادرة، ودربة تعينه على فهم الرجال والحكم عليهم بالأحكام التي لا تخطئهم.

لم يغضب أبو طالب ولم يبدِ شيئاً من الاستياء بعد ما سمع الذي سمع من المطعم، ولكن الذي أبداه وأظهره إنما هو لون من الحكم المستند إلى شئ غير قليل من فهمه للرجال، وإلى شئ غير قليل من معرفته بطباع محدثه.

لقد قال أبو طالب للمطعم يجيبه على ما وجهه إليه من حديث وما أثاره بين يديه من قول: [والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال].

وهكذا حدث ما شاء الله أن يحدث من فرقة في المجتمع إلى أناس يؤيدون النبي على منهجه، أو يساندونه على طريقته تديناً أو حمية، وإلى أناس آخرين قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، فكا دوا للنبي وتعاهدوا فيما بينهم أن لا يتركوه، وأناس آخرون كان شأنهم أن ينحازوا إلى جوار النبي حمية أو تديناً فقعدت بهم هممهم وانضموا إلى معسكر أعدائه.

شاء الله أن يقع هذا كله على سننه الجارية كما ترى، رغم أنف أولئك الذين كانوا يتحاشون وقوعه، ويحرصون الحرص كله على أن يعملوا على نقيضه.

ومشيئة الله خير.

أما أبو طالب فقد حزم أمره وأبصر طريقه، وعلم إلى أين يذهب، وما هي وجهته آخر الأمر[١] .

وأما القوم فقد ازدادت عدواتهم للنبي ﷺ، وأوشكوا أن يحزموا أمرهم على منابذته ومنابذة مشايعيه.

وعلم أبو طالب حقيقة ما انتهى القوم إليه من منابذته وعشيرته، ومن طلبهم الحسيس لابن أخيه.

---

[١] راجع سيرة ابن هشام جـ١ – ص ٢٤٠ وما بعدها.

وعلم أبو طالب أن القوة لا يردها إلا القوة، وأن ادعاء القوة بغير اجتماع لها وائتلاف دعوى بغير دليل، وأن اعتزام المنابذة بغير جمع الصف إلقاء بالنفس في التهلكة، وتعرض للهوان لا يجنح إليه إلا سفيه أو مضطر. ولذا نرى أبا طالب وقد جمع أمره على جمع أهله وعشيرته، والحديث إليهم في شأن اجتماعهم حول النبي ﷺ، بعد أن اجتمعت قريش على أن ينابذوه.

لقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون في بنى هاشم وبنى المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبى لهب عدو الله الملعون.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره في جدهم معه وحدبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم، ليشد لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها[1]

وإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها

تداعت قريش غثها وسمينها[2] ... علينا فلم تظهر وطاشت[3] حلومها[4]

وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا[5] صعر الخدود[6] نقيمها

---

[1] سرها وصميمها: أى خالصها وكريمها.

[2] غثها وسمينها: أصل الغث: اللحم الضعيف، فاستعاره هنا لمن ليس نسبه هناك.

[3] طاشت: ذهبت.

[4] حلومها: عقولها.

[5] ثنوا عطفوا.

[6] صعر الخدود: يقال: صعَّر خده إذا أماله إلى جهة، فعل المتكبر.

ونحمي حماهـا كـل يـوم كريهـة ونضرب عن أحجارها[1] من يرومها

بنا انتعش[2] العود الـذواء[3] وإنمـا بأكنافنا[4] تندى وتنمـى أرومـها[5]

لقد عملت سنة التاريخ والاجتماع عملها فـي مجتمـع مكـة، وتراءى أمام الناس نتيجتان بارزتان.

أما أحدهما : فهى أن هذا المناخ الاجتماعى الذي انتهت إليـه مكة، أو انتهى هو إليها قد أعطى فرصة للعقول أو إلى بعضها علـى الأقل أن تتأمل فيما جاء به النبي محمد ﷺ، وتقارنه بموروثات الآباء والأجداد.

وما جاء به محمد ﷺ دعوة إلى رفـع الوعـى بـالتوحيد، والخضوع إلى إله لا يشبه خلقه ولا يشبهه خلقه، ونبذ ما كان عليه أهل مكة ولا يزالون من عبادة الأصنام والأوثان، ومن الخضوع إلى آلهـة متخذة من مادة صماء كالخشب والأحجار، أو متخذة من العجوة التـي يتخذها الناس لهم طعاماً يقيمون بها أودهم، ويحـافظون بـها علـى حياتهم، وقد رأوا أنه لا بأس أن يتخذوا منها آلهة يعبدونها حيناً مـن الدهر، وأنه لا بأس أن يتخذوها نفسها طعاماً إذا ضـاقت بـهم سـبل المعايش وألجأتهم الظروف لأن يتخذوها طعاماً.

---

[1] انتعش: حى وظهرت فيه الخضرة، وأصل نَعَشَ: رفعَ يقال: نعَشه الله أى رفعه وبه سمى النَّعش نعشاً.

[2] العود الذواء: الذى جفت رطوبته ولم ينته إلى حد اليبس.

[3] ونضرب عن أحجارها: أى ندفع عن حصونها ومعاقلها، يريد عن مواضعها المانعه، ومن رواه بالجيم والحاء أراد عن منازلها وبيوتها والحجر هنا مستعار.

[4] الأكناف: النواحى.

[5] أرومها: جمع أرومة وهى الأصل.

جاء النبي ليدعو أهله ومن شاء الله أن يدعوهم، إلى أن يعملوا على رفع معانى التوحيد في أنفسهم إكراماً لها وارتفاعاً بشأنها، ويعدهم أنهم إذا استجابوا له في ندائه إلى رفع الوعي بالتوحيد عندهم أن تورثهم هذه الاستجابة إليه نوعاً من الأمان الداخلى لم يسبق لهم أن يشعروا بمثله، ولم يسبق لآبائهم وأجدادهم أن توفر لهم الإحساس بمثل هذا الشعور.

ثم إن النبي ﷺ قد أتى قومه بشريعة ترد الحقوق إلى أصحابها، وترفع المظالم عن المظلومين.

ولا يغيب على أحد من الناس أن مجتمعاً كمجتمع مكة ومن حولها، لم يسبق له أن قام على شريعة يأمن فيها الضعيف بطش القوى، ويأمن فيها الفقير ظلم الغنى، ويأمن فيها العبد جور سيده.

ولقد جاءهم النبي بعهد جديد، وتشريع ليس لهم ولا لآبائهم به عهد ولا صلة، ووعدهم أنهم إذا ما استجابوا إليه وطبقوا هذا التشريع فيهم سيرفع عنهم اتباعهم للتشريع ما عسى أن يكون بينهم من خوف أو قلق يتصل بالعلاقات الاجتماعية، ويتصل بسلوك الناس بعضهم مع بعض.

لقد جاء النبي ﷺ بما يورث الناس أمناً داخلياً، وأمناً خارجياً بما دعى إليه من العقيدة والتشريع، ولكن القوم كانوا عنه منصرفين، واتخذوا منه ومن دعوته مواقف العداء.

وحين أصبح المجتمع على هذا النحو الذي ذكرت لك من الانقسام إلى فريقين متكافئين أتاح هذا الحال إلى بعض هذه العقول فرصة من التأمل والموازنة، وفرصة من اتخاذ القرار أو إبداء الرأى في أقل القليل.

ومن هؤلاء الذين وازنوا بين الأمرين وأعلنوا رأيهم في شعر يحفظه العرب ويتناقله الرواة حكيم بن أمية.

[قال ابن إسحق: وقال حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي، حليف بنى أمية وقد أسلم، يورّع[١] قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ وكان فيهم شريفاً مطاعاً :

هل قائل قولاً من الحق قاعد عليه وهل غضبان للرشد سامع
وهل سيد ترجو العشيرة نفعه لأقصى الموالى والأقارب جامع
تبرأت إلا وجه من يملك الصبا وأهجركم ما دام مدلٍ ونازع[٢]
وأسلم وجهى للإله ومنطقى ولو راعنى من الصديق روائع]

هكذا ترآت سنة التاريخ أمامنا وهى تنتج نتيجتها الأولى حيث أتاحت للناس فرصة من التأمل والموازنة.

وأما النتيجة الثانية : التي أنتجتها سنة التاريخ وسنة الاجتماع حين عملت عملها على نحو ما رأيت، فهى أنها أوقفت مجتمع مكة في معسكرين عظيمين يكاد يبطش أحدهما بالآخر على غير علم من أهل مكة بالغالب والمغلوب، فكل ما يعرفه سكان مكة هو أن الناس قد انقسموا إلى فريقين متكافئين، لم يبق أمامهما إلا أن يهتف بهما داعي الحرب والنزال فيتقاتلان، وتتحول مكة الآمنة إلى ساحة للحرب والنزال.

وأهل مكة جميعاً يعلمون أن مجتمعهم ليس مجتمعاً زراعياً، وأن مجتمعهم ليس مجتمعاً صناعياً، وإنما هو مجتمع يقوم في توفير أسباب الرزق على ممارسة التجارة التي تهتم بنقل سلعهم إلى الخارج، وهى تلك السلع التي لا يحتاجون إليها، ويجلبون إلى مجتمعهم ما

---

[١] يورع: يصرف.

[٢] المدل: المرسل للدلو في البئر. والنازع: الجاذب لها.

يحتاج إليه من سلع يشترونها من مجتمعات هي بالنسبة إليهم في أقصى الشمال أو في أقصى الجنوب.

ومجتمع هذه صفته الاقتصادية لا يستطيع أن يعيش وتتوفـــر له أسباب الرزق إلا في حالة من الهدوء والاستقرار.

فإذا ما أضفنا إلى هذا الظرف الاقتصادى ظرفاً آخر دينياً، وهو أن القوم يجاورون البيت الحرام الذي هو عامل جذب شديـــد، يجذب الناس من أقصى الأرض إلى زيارته للحج وطلـــب البركـــة، وإقامة الأسواق قريباً منه يعرضون فيها بضائعهم وآدابهم شعراً ونثراً.

ومجتمع هذا شأنه الدينى بالإضافة إلى شأنه الاقتصادى يجب على أهله أن يأخذوا أنفسهم بالتروى، وأن يأخذوا أنفسهم بالحلم والأناة.

ويبدو أن هذا قد حدث بالفعل.

ذلك أن القوم قد رأوا أنه يجب عليـــهم أن يتجنبـــوا طبـــول الحرب أن يقرعوها، وأن يتجنبوا بوق النفير إلى القتال أن ينفخوا فيه بأفواههم، وأن يتجنبوا تراب الحرب لا يثيرونه وأن يتجنبوا الحسام لا يمتشقونه ما وجدوا إلى ذلك كله سبيلا.

والقوم قد أخذوا أنفسهم بالحلم والأناة.

والقوم قد ألزموا أنفسهم الحكمة والروية.

ولكن لا بد على القوم أن يجدوا طريقاً يكـــون عوضـــاً عـــن الحرب والقتال، ويكون بديلاً عن منازلة أبناء عمومتهم حفاظاً على ما بينهم من آصرة، وعلى ما يربط بينهم من مودة.

ولقد وجد القوم الطريق الذي يجنبهم الحرب والقتال، ويحافظ على ما بينهم من مودة وتراحم.

وهذا الطريق الذي وجدوه قد تفتق عنه ذهن أحـــد أشرافـــهم، حيث رأى أن الحوار مع أبى طالب دونه عقبة يصعب عليهم وعلى

أبى طالب اجتيازها، تتمثل في هذه الرابطة القوية بين أبى طالب وابن أخيه.

ولو أنهم قد وجدوا طريقاً يصل بهم إلى قلب محمد ﷺ لكان ذلك أفضل لهم وله ولأبى طالب جميعاً، إنهم إن وجدوا إلى قلب محمد سبيلاً من السبل ينتهى بهم وبه إلى شئ من الوفاق، يكونون من خلال هذا الطريق قد رفقوا بأنفسهم ومجتمعهم، ورفقوا بمحمد ﷺ، ورفقوا أولاً وأخيراً بأبى طالب حيث لم يحملوه من أمره ما لا يطيق.

تلك هي الفكرة التي تفتق عنها ذهن أحد زعماء قريش، وهى فكرة عامة ولا شك، وهى فكرة فضفاضة ولا ريب، ذلك أن صاحبها نفسه لا يعرف ما السبيل الذي يصل به إلى قلب النبي ﷺ، إذ إن النبي لم يظهر عليه رغبة في سيادة، ولم يعرض إليه عارض من مرض وما هو بالشاب الطموح في الدنيا يغريه منها ما يملأ بطنه أو جيبه.

وتتراءى الفكرة أمام صاحبها أكثر غموضاً كلما أغراه حسن الانتفاع بها أن يجربها.

وفجأة جمع عتبة ابن ربيعة عليه همته، وقرر أن يفاتح قومه وعشيرته فيما تراءى له من رأى وفيما عرض له من فكر، فإن هم أقروه على ما يرى فليس عنده من مانع يمنعه من أن يذهب إلى النبي يفاوضه، ويكون في ذلك شئ من اليسر غير قليل إذا قورن بمفاوضة عمه أبى طالب لما قد علمت من أن هناك عقبة كأداء تحول بينهم وبين أن ينتهوا مع أبى طالب إلى شئ، وهذه العقبة الكأداء هي في تلك الحمية التي تحمل أبا طالب على أن لا يتخلى عن ابن أخيه، ولا وجود لهذه العقبة إذا كان التفاوض مع النبي مباشرة.

عرض لعتبة بن ربيعة أن يخاطب قومه فيما يرى من رأى، وقد جمعهم إليه وخاطبهم فيما يراه، فأقروه على مايرى، وقد شمر بدوره عن ساعد الجد ليباشر في نفس الوقت ما قد رآه بفكره.

[قال بن إسحاق : وحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، قال: حُدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً وهو

جالس في نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده يـا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعلـه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا

أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم

إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السَّطة[1] في العشيرة، والمكان فـي النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى مـن آبائـهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منـها بعضـها.

قال: فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد، أسمع، قال: يـا ابـن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك مـن أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينـا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكنـاك علينـا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيا[2] تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لـك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له].

استرسل عتبة في عروضه الأربعة والنبي يسـمع لا يعجـل

عليه ولا يقاطعه، فما كانت مقاطعة الناس فـي أحاديثـهم للنبـي ﷺ بخلق.

لقد أنصت النبي إنصاتاً تاماً ينظر فيما يقول عتبة على نحو ما طلب إليه عتبة وأجابه النبي إلى طلبه.

وأنت إذا تأملت في هذه الأمور التي عرضها عتبة على رسول

الله ﷺ، لوجدت أنها كلها من باب الإغراء الـذي أراد عتبـة ومـن أرسلوه أن يستميلوا بها النبي، وأن يسيطروا بها على قلبه، والشئ الذي

---

[1] السطة : الشرف.

[2] الرئَى: ما يظهر للناس من الجن.

يعجب المرء له ولا ينقضي عجبه منه هو أن النبي ﷺ قد قضى بين الناس عمره كله، وهو الآن يزيد على الأربعين، ومجتمعهم مجتمع مغلق يعرف كل واحد فيه جميع من عاداه، والناس جميعاً كانوا يعرفون أخلاق النبي قبل البعثة وبعدها، ويعرفون من أخلاق النبي أنه كان يتأبى على هذه الأمور المادية لا تلفت نظره، ولا يتسلل فيها شيء إلى قلبه.

تُرى ما الذي حمل أبا الوليد على أن يعرض على النبي ﷺ ما عرضه عليه وهو يعلم أن النبي لن يقبل منه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً، إلا أن تكون هناك إرادة لله قد ساقت أبا الوليد إلى أن يعرض ما عرض، وأن يقول ما قال بموافقة قومه الذين أرسلوه؟

والحق أنها إرادة ومشيئة لله عز وجل، وهي إرادة ومشيئة تتعلق بأمر هام سيحتاج إليه كل من يتأمل طبيعة هذا الدين.

ذلك أن الله قد أراد أن يكون أمام الناس بغاية الوضوح أن الذين دخلوا الإسلام وأن الذي دعا إلى الإسلام كانوا جميعاً من طراز خاص، وكانوا جميعاً يفهمون طبيعة الدين الذي ينتمون إليه ويدعون الناس له.

والله لا يقبل أن يدخل في هذا الدين أو أن يدعو إلى هذا الدين أناس لا يحركهم إلا الرغبة أو الرهبة.

فمن دخل إلى هذا الدين خائفاً أو مضطراً أو مسلوب الإرادة، فإن ديننا لا يتسع له، وإن ربنا الذي نعبده لا يقبل منه تدينه المبنى على الإكراه وسلب الإرادة.

ومن دخل إلى هذا الدين مدفوعاً بالرغبة في حطام من حطام الدنيا يملأ بها جيبه أو حواشيه، أوفى شهوة من الشهوات يبتغي تحصيلها والاستمتاع بها، فإنه لا يجد له في الدين مكاناً يأويه، ولا يجد من رحمة ربه متسعاً لمثله.

أراد الله أن يعلن بغاية الوضوح أن طبيعة هذا الدين لا تقبل أن ينتمي إليه إلا كل شريف لا يرهب إلا عذاب ربه، ولا يرجو إلا رحمته.

وهذا هو التفسير الوحيد الذي يمكن أن نفسر به موقف أبى الوليد، وإلا فإن العروض الأربعة التي عرضها أبو الوليد على سيدنا محمد ﷺ مع معرفته بطباع النبي وخلائقه تكون بغير معنىً مفهوم، وتكون بغير هدف يُرتجى.

حملت النبي أخلاقه على أن يستمر في الإنصات والمتابعة، وأبو الوليد يعرض على النبي أموراً لا يطيق سماعها من كان على مثل خلق النبي، وانتهى أبو الوليد من حديثه، وجاء دور النبي كي يناقش ما سمعه من عتبة.

غير أن النبي لم يشأ أن يتكلم حتى يستوثق من أن عتبة قد فرغ من حديثه.

قال النبي ﷺ : [أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى، قال: أفعل، فقال: **{بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه}** ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك].

ألم أقل لك إنها إرادة علوية توجه الأمر كله على سنن الله الجارية ؟ وإلا فإننا لن نجد تفسيراً واحداً يفسر اختيار النبي لهذه الآيات التي قرأها وأبو الوليد يسمع.

ولك أن تستعرض هذه الآيات جميعاً فلن تجد فيها إلا حكاية علاقة بين نبي وقومه، كثيرون منهم لم يتابعوه على منهجه، ولن تجد فيها إلا حكاية ربٍ له من صفات العدل ما يجعله يوقع الجزاء بالعاصين، وله من صفات الرحمة ما يجعلها تتسع لكى يدخل إليها

كل مسلم مطيع، وفيها من صفات الألوهية ما يحمل الكافة علــــى أن يسجدوا لله عز وجل، ولا يسجدوا لسواه.

ولقد وقعت هذه الكلمات موقعها من أبي الوليـــد عتبــة بــن ربيعة، حيث وقع في قلبه شئ من الرهبة أمام صفات الجلال، وأمـــام آيات الوعيد، وحيث وقع في قلبه وعقله شئ من الاعجاب من رحمــة الله التي وسعت كل شئ، ومن هذا النظم القرآني البديع.

وأنت تستطيع أن تتأمله وهويلقى بذراعيه خلف ظهره معتمداً عليهما يتابع النبي في قوله كلمة كلمة، لا يكاد يخطئ ســمعه واحــدة منها، وهو يتابع معانى كلمات النبي معنىً بعد معنى لا يكاد يخطــئ عقله واحدة من تلك المعانى التي تحملها تلك التراكيب البديعة.

وانصرف سفير قريش عن النبي عائداً إلى من أرسلوه، وهــم يتابعونه بأنظارهم، فعاد رجلاً غير الذي عرفوه وعاد بفكر غير الــذي كان عليه قبل أن يفارقهم.

عرف القوم ذلك في وجهه وهم رجال الفراسة الذين يســتدلون بظواهر الوجه على بواطن النفوس، حتى قال بعضهم لبعض قبــل أن يصل إليهم أبو الوليد: [نحلف بالله لقد جاءكم ابو الوليد بغــير الوجــه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليـــد؟ قــال: ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بــي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونــن لقولــه الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس بــه، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم].

لقد أخذ العجب قريشاً من سفارة عتبة وما جـــاءهم بــه بعــد سفارته، وما عرض عليهم من قول ما كان يعرضه عليهم قبل ذلك.

وكأنى أرى أن القوم معتقدون أن النبي ﷺ إنما أثر في عتبة لأنه رجل واحد، وهو قد أقنعه لأنه بمفرده، وهو لا شك أقل منه بلاغة، وأدنى منه قدرة على الحجاج وإيراد الأدلة.

ومن أجل ذلك فقد عزموا أمرهم ألا يكلموا محمداً فرادى، وألا يفاوضوه أحاداً، إذ لو فعلوا ذلك لأحدث محمد في كل واحد منهم نفس الأثر الذي أحدثه في عتبة ابن ربيعة.

ولذا فقد انتهى القوم إلى أن يحدثوا محمداً مجتمعين، وأن يبدؤوه أولاً بالترغيب على طريقة أبى الوليد عتبة، فإن لم يقبل منهم ذلك عاجلوه بالترهيب، وتوعدوه على أقصى ما يمكن أن تتوعد الجماعة فرداً من الأفراد.

اجتمعت جماعة من كبراء قريش لهذا الغرض، ومن أجل أن يكلموه مصطنعين إليه الترغيب تارة والترهيب أخرى علهم يبلغون من ذلك ما يريدون، أو بعض ما يريدون:

[اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، أخو بنى عبد الدار، وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبى أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم قال:

اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فاتهم فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك – أو كما قالوا له – فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون

أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينـــا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يـــأتيك رئيــا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا – فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى تبرئك منه، أو نُعْـــذر

فيك، فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكـــن الله بعثنـــي إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيـــراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكـــم الله بيني وبينكم][1] .

لقد بذل القوم جهدهم فرادى ومجتمعين يحاولون أن يفاوضوا النبي ﷺعلهم يجدون عنده مالم يجدوه عند عمه أبى طـــالب، ولقـــد حاول القوم فرادى ومجتمعين أن تكون وسيلة استمالة النبي ﷺ هـــي التودد والترغيب في معظم الأحيان، والتلويح بالقوة في بعض الأحايين.

ولقد علمنا أن التلويح بالترغيب والترهيب لاستمالة النبي عن دعوته أو صده عنها، هو مراد الإرادة الإلهية من إبـــرازه فـــي هـــذه الفترة أمام الناس.

وما استجاب النبي ﷺ لحظة لترغيب القوم، وما خاف النبي ﷺ لحظة من إرهابهم له، وإنما ثبت على المبدأ واستقر عليه بشكـــل لم ير قومه له نظيراً في أحدٍ من فتيانهم، ولا من فتيان المجاورين لهم، ولا في فتيان غيرهم من البلدان التي زاروها وكانوا على علاقةٍ شديدةٍ معها.

وفي طبقات ابن سعد: أن القوم قد حاولوا أن يفاوضوا النبـــي في محضرِ من عمه، ولكنهم هذه المرة لم يكونوا قاصدين إلى ترغيبٍ

---

[1] راجع سيرة ابن هشام جـــ١ – ص ٢٤٢ وما بعدها.

أو ترهيب، وإنما قرروا أن يرضوا بالقليل الذي يمكن أن تسفر عنه المفاوضات مع النبي محمد وفى محضر من عمه.

لقد طلبوا إليه هذه المرة أن يكف عن التعرض إلى آلهتهم، والنيل منهامقابل أن يكفوا عنه وعن أصحابه فلا ينالون منه، ولا ينالون من أصحابه.

وهذا اللون من التفاوض يبدو في ظاهره عدلٌ لمن لم يعرف طبيعة رسالة النبي محمد ﷺ، ولهذا ترى عمه أباطالب قد استحسن هذا العرض، وقال للنبي ﷺ : يا ابن أخى: لقد أنصفك قومك.

لكن النبي ﷺ قد أرادها قاطعة لكل نقاش، مانعة لكل جدال، حيث عبر للقوم عن طبيعة رسالته.

وطبيعة رسالة النبي إنما تتصل بتغيير الأخلاق والسلوك والعقائد تغييراً يناسب طبيعة الإنسان وحضارته، إذ إن الله عز وجل لم يُرسل النبي محمداً لهداية نفسه، وإنما أرسله إلى هداية الناس أجمعين على قناعة من الناس وإرادة، أرسله ليُغير لهم عقائدهم في غير إكراه، وأرسله إليهم ليقبلوا على شريعة الله يطبقونها بغاية الرضى والقبول.

وهذا كله يتنافى مع ما عرضه عليه القوم وهم يفاوضونه في محضر من عمه.

وما عرضه عليه القوم هو أن يكف عن آلهتهم ونُظمهم لا يتناولها بسوء، ويكفون عنه لا ينالونه بأذى.

وهذا الموقف وإن كان ظاهره الإقناع إلا أنه يُخالف كل المخالفة طبيعة الرسالة التي جاء بها النبي على نحو ما ذكرته لك.

ولقد أراد النبي أن يشرح طبيعة رسالته ويُغرى القوم باتباعها فبين لهم أنهم لو اتبعوا رسالته لكان لهم بذلك فضل السبق على العالم كله، تدين لهم بسببه العرب والعجم، ولو أنهم أعرضوا لانتشرت الرسالة في غيرهم وذهب بالفضل آخرون وعادوا إلى مؤخرة القوم

لا يقدرون على اللحاق بهم، مهما اصطنعوا لتحقيق أهدافهم من الأسباب والوسائل.

ولم يستطع القوم أن يكبحوا جماح أنفسهم فدارت في رءوسهم حُمى العصبية من جديد، وقالوا: لا فائدة فيما نقول ولا فائدة فيما نسمع.

وانصرفوا وهم يدبرون في نفوسهم شراً ظهر من همهمات بعضهم حينما أرادوا الانصراف.

ولقد أدرك أبو طالب ما يُدبر القوم من اغتيال ابن أخيه فكانت عينه على ابن أخيه تحرسه، وكانت إرادته على أقارب النبي ﷺ ممن يقدرون على حمل السلاح يحفزهم للانتقام من كبراء قريش وزعمائها إن هم تعرضوا إلى النبي بالأذى.

لقد خرج المفاوضون وانصرفوا عن أبى طالب وعن النبي ﷺ مُغضبين وقد قالوا وأبو طالب يسمع [لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن يُغتال محمد، فلما كان مساء تلك الليلة فقد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياناً من بني هاشم وبنى المطلب ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعنى إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية يعنى أبا جهل، فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد أحسست ابن أخى ؟ قال: نعم كنت معه آنفاً، فقال أبو طالب: لا أدخل بيتى أبداً حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبى طالب، فقال: يا ابن أخى أين كنت؟ أكنت في خير ؟ قال : "نعم"، قال: ادخل بيتك، فدخل رسول الله ﷺ ، فلما أصبح أبو طالب غدا النبي ﷺ، فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش، ومعه الفتيان الهاشميون

والمطلبيون، فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا ، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حـــــديدة صارمة، فقال: والله لو

قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم وكـــان أشدهم انكساراً أبو جهل.][1].

هذا تطورٌ جديد في العلاقة بين الهاشميين والمطلبيين من جهة وبين باقي الفصائل من قريش من جهة أخرى.

إنه تطورٌ جديدٌ ألقت به الأحــداث علــى ســنن التــاريخ والاجتماع في مجتمع مكة وبين أظهر الناس.

فالنبي ﷺ يزداد ثباتاً على المبدأ وتنتشر دعوته فـــي أرجـــاء مكة يعتنقها من يُريد أن يعتنقها من الرجال والنساء، لا رغبة في أمر دنيوي، ولا رهبة من قوة مسيطرة، وإنما يتبعها من يتبعونـــها لأنـــها تحمل في ذاتها عناصر الإقناع والانتشار والدوام. ومن دخـــل فـــي الدعوة مع النبي واعتنق هذا الدين الجديد تُخالط مبادئه لُحمته وســـداه، فتقتلع الشر من جميع جوانبه، وتغرس الخير في سويداء فؤاده، فـــي لحظة واحدة إن أراد الله لها أن تفعل فعلها في لحظة، وعلى التراخي إن أراد الله لها أن تفعل فعلها في النفوس على التراخي.

تطورٌ جديد في العلاقة بين النبي وذويه من جهة، وبين فصائل قريش ممن يناوئون النبي من جهة أخرى.

يدفع إلى هذا التطور ثبات النبي ومن اعتنق دينه على المبـــدأ لا يؤثر فيهم ترغيب ولا ترهيب، ويدفع إليه حميـــة عربيـــة مؤثـــرة وفعالة اجتذبت الهاشميين والمطلبيين إلا من شذ منهم.

---

[1] الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الهاشمي البصـــري ١٦٨-٢٣٠هـــ حــ١ ص١٥٨ـ١٥٩ الطبعة الأولى(١٤١٠هـــ- ١٩٩٠م دار الكتــب العلميــة- بيروت).

ويدفع إلى هذا التطور من جهة أخرى أن فصائل قريش من

مُناوئى النبي، قد رأوا أنه في سنوات قلائل أخذ دين محمد ﷺ ينتشر في بيوتات مكة لا يصد عنه عقل عاقل، ولا يقف دونه فطرة سليمة، إذ في طبيعة هذا الدين ما يأخذ بعقل العقلاء، ولا يناقض فطرة الله التي فطر الناس عليها، رأى المناوئون للنبي هذا كله، رأوا أنهم عما قريب خاسرون لا محالة، وأن النبي سوف يسيطر على مجتمع مكة، ثم ينتشر منه إلى المجتمعات المجاورة لا يردعه عنها رادع ولا يحول بينه وبينها سببٌ من الأسباب.

وفى لحظةٍ من غياب العقل والتفكير، فكروا في اغتيال النبي على نحو ما رأيت، ظانين أو متوهمين أنهم حين يغتالون رمز هذا الدين الجديد، والذى تمثلت فيه أفكاره سينتهى هذ الدين وستموت فكرته إلى أبد الآبدين.

في لحظة من غياب العقل والتفكير فكر القوم في اغتيال النبي ﷺ، فأثاروا حمية شيخ الهاشميين وزعيمهم الأوحد، فوضع عينه على النبي تحرسه، وإرادته على شباب الهاشميين والمطلبيين يوجههم إلى الانتقام السريع والشديد، إذا نالت فصائل قريش من النبي أو أصابته بما يكره.

ولئن فات على قريش أن يؤذوا النبي في لحظة ظن شيخ الهاشميين فيها أنهم قد اغتالوا ابن أخيه، فإنه لا يفوت على شيخ الهاشميين أن ينهى إلى مسامع قريش بطريقة عملية يرون آثارها، أنه لم يعد ليسمح بإهانة توجه إلى ابن أخيه، وإنه في سبيل النيل من ابن أخيه سوف يوقع بالمجتمع كله شراً لا يعلمه إلا الله وحده.

إن شيخ الهاشميين لم يعد الآن يستغرق في تفكير يتصل بالحرص على وحدة الجماعة، وعلى استقرار المجتمع بعد أن رأى على الطرف الآخر عصبية طائشة توجه رءوس القوم، وتحركهم بالشر غير المحسوب تجاه فتىً من الهاشميين هو أنهدهم وأندرهم خلقة، وهو أفضلهم وأعلاهم رتبة في الأخلاق، وهو أكثرهم شرفاً في النسب.

ولقد علمت قريشٌ ما اعتزم عليه أبو طالب، ورأت الجد في وجهه، ويد ابن أخيه في يده يسير إلى جواره لا يسبقه إلى أمر يكرهه، ولا يسلمه إلى شئ لا يُريده.

رأت قريش ذلك كله فانكسرت بسبب ذلك كله.

ولم يبق أمامهم إلا أن يتعرضوا للنبي بالقول، وأن يلمزوه بالحديث، وقد يتعرضون إليه بالأذى البدنى الذي يكون في طاقة النبي أن يتحمله.

وحتى هذا اللون من الإيذاء قد أتى على القوم بنتائجه المعكوسة، فأنت تراهم مرةً يتعرضون إلى النبي ويجذبونه من ثيابه، حتى يؤثر الثياب في رقبته، فيتقدم له سيدٌ من سادة قريش وهو أبو بكر الصديق ليقول لهم جميعا: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، ويخلصه من أيديهم تاركًا الفرصة للنظر والجدل حول ما جاء به النبي، وما يقوله القرشيون في تزييف ما جاء به النبي.

وما من فرصة تترك للنقاش الهادئ العاقل، ويكون الإسلام طرفاً فيها إلا ويخرج الإسلام قوياً منتصراً لا يبقى في حلبة النقاش منتصراً سواه.

وتلك قضية تحكمها سنن الله الجارية في الثقافات والأفكار وفى العقائد والسلوك على السواء **{بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون}**.

لقد انكسرت قريش بعد موقف أبى طالب، واكتفت بتوجيه الإيذاء الخفيف للنبي، تنفيسا عما تجد من لوعة الحقد، وآلام الحسد والبُغض.

ولكن هذا الإيذاء على خفته يأتي بنتائجه المعكوسة التي يظهر بعضها في إتاحة الفرصة للنقاش والجدل، وهو مناخ طيب نتائجه المحتومة في صالح الدعوة الإسلامية.

وقد يكون لهذا اللون من الإيذاء نتائج مباشرة في إسلام بعض من لم ترجُ قريش له أن يُسلم.

ولنا في إسلام حمزة بن عبد المطلب مثل يُجلي الموقف كله، ويضعه في أحسن صورة.

إن حمزة رجل شديد وفتىً هو من أفضل فتيان قريش وأعقلهم، لكنه دائماً ينصرف إلى هواياته كل يوم مشرق النهار ويعود منها آخره، لينهي يومه بالطواف بالبيت، ثم يقبل على مجالس السمر مع الرفاق والأقران.

ولقد كانت هوايته التي يُفضلها ولا يُفضل عليها سواها هي هواية الصيد والقنص يقضي فيها بياض النهار، فإذا ما أوشكت الشمس على المغيب عاد إلى مكة يطوف بالبيت ثم ينصرف إلى مجالس السمر.

وفي يوم خرج النبي كعادته ليقضي صلاته في المسجد بين الركنين اليماني والأسود، وقريشٌ في ناديهم يتحدثون فيما يشغلهم من أمر النبي، وما عساهم قاضين فيه، وكان الذي يُحدثهم ويسمع إليهم ويُعلق على أحاديثهم أبو الحكم عمرو بن هشام الشهير في التاريخ بأبي جهل.

أقبل النبي إلى صلاته أو فرغ منها، وأبو جهل يراه فلم يصبر على رؤيته إياه، فناله بالأذى، وانصرف النبي كعادته يحتمل أذى قومه، ويسأل الله أن يهديهم، فهذا خلقه أن يدعو للقوم وهم يؤذونه لأنهم لا يعلمون، ولو علموا ما علم لتبدلت مواقفهم.

هذا هو محمدٌ في حلمه، وهذا هو محمدٌ في عفوه، وهذا هو محمدٌ في تسامحه حين يناله القوم بالأذى أو يتوجهون إليه بما يكره.

أوقع به أبو جهل الأذى، ومولاة لسيدها عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب في مسكن لها تسمع ذلك، حيث كان إيذاء أبـي جـهل للنبي لم يعد أن يكون شتمة للنبي، ونيلاً من خُلقه، وطعناً في دينه.

وانصرف النبي ﷺ ولم يُجب بشئ، ولم يقل كلمة يـرد بـها على أذىً وجه إليه.

وعاد حمزة من قنصه إلى المسجد كعادتـه متوشحـاً قوسـه يطوف البيت العتيق.

وكان حمزة كما علمت أعز فتيان قريش وأمنعـهم وأكـثرهم اعتزازاً بنفسه وبموقعه.

ولقد كان خُلق حمزة يحمله على أنه كلما مر بنادٍ من أنديـة قريش، أو جماعةٍ من جماعتهم بدأهم بالسلام كما يبدأ الرجل العزيـز في قومه غيره بالسلام.

جاء هذه المرة وطاف بالبيت العتيق، فلما رأته الفتـاة مـولاة

عبدالله بن جدعان، والتى رأت وسمعت ما حدث للنبـي ﷺ، وعـز عليها ما رأت وما سمعت ، قالت تخاطب الحمزة بن عبد المطلب: يا أبا عمارة لو رأيت ما حدث اليوم لابن أخيك لقد انتهى مـن صلاتـه وجلس إلى الصفا، وقد أقبل عليه عمرو بن هشام، فنال منه نيلاً شديداً وطعنه في خُلقه ودينه، والنبي يسمع لا يجيب بشئ، فلما فرغ عمـرو بن هشام غادر النبي مجلسه إلى منزله.

قالت الجارية للحمزة ما قالت، فاحتمل الحمزة الغضب الشديـد وأكمل طوافه وأتم سعيه لا يكلم أحداً ولا يبدأهم بسلام، يُقدر في نفسه أن يلقى عمرو بن هشام، فلما فرغ مما هو فيه، وعاد إلـى المسـجد وقعت عيناه على عمرو بن هشام، فلم يحدثه في أمر ولم يكلمه فـي شئ، ولكنه حمل عليه بقوسه فشجه في رأسه شجة مُنكرة.

ولقد هاج القوم من قرناء عمرو بن هشام ومُريديه، وأرادوا أن يحملوا على أبى عمارة ينالون منه، وقدر عمرو بن هشام الموقف كله في لحظة، وعلم أن أبا عمارة ممنوع، وأن وراءه الهاشميين

والمطلبيين، وأن أحداً لو أوقع أذىً بأبى عمارة فإنـــها ســتكون بدايـــة مجهولة النهايات، ورأى عمرو بن هشام أن عليه أن يجـــتر جراحـــه، ويزدرد آلامه ازدراداً، وأن يهدئ القوم قائلاً لهم: دعوه فوالله لقد نلت اليوم من ابن أخيه، وواجهته بأذى منكر في خُلقه ودينه.

لكن أبا عمارة قد واجه القوم جميعاً بقولة هي محل الاهتمـــام كله في هذا الموقف، لقد قال لعمرو بن هشام: كيف تفعل بابن أخـــي هذا الذي فعلت، وأنا على دينه متابعٌ له فيه، وأنت قد تظن أن هذه كلمة قد دفع إليها الغضب دفعاً، واحتملت الحمية أبا عمارة على أن يقولها.

وكلمة يدفع إليها الغضب وتحمل الحميـــة صاحبـــها علـــى أن يقولها، يُمكن أن يرجع عنها صاحبها إذا ذهب عنه الغضب، ويمكن أن يتخلى عنها قائلها إذا سكن ثائر الحمية في صدره.

قد تظن أنت هذا الظن، وقد يظنه غيرك من النـــاس، ولكـــن الذي يظن هذا الظن لا يكون بصيراً بمثل طباع أبى عمارة،ولا يكـــون بصيراً بسنن التاريخ والاجتماع والأفكار في الأفراد والجماعات.

والذى يكون بصيراً بمثل أبى عمارة يعلم أن أبـــا عمـــارة لا يعتذر عن كلمة بالغضب الذي ألم به، ولا بثائر الحمية الذي أخذه مـــن جميع أقطاره، إذ الذي يعتذر عن المواقف بالغضب أو بثائر الحميـــة، إنما يكون رجلاً قد بلغ من الضعف حداً يؤثر في مواقفه الاجتماعيـــة تأثيراً يجعل الناس لا يثقون به في قولٍ ولا في عملٍ، ولا في عهدٍ، ولا في ميثاق.

والذين يكونون على بصيرة من سنن التـــاريخ والاجتمـــاع وتطور الأفكار، يعلمون أن ما قاله النبي ﷺ لم يمر على مثل أبـــى عمارة هكذا من غير أن يصغى له مرة، ومن غير أن يقلبـــه علـــى وجوهه مرة.

أما أنا فأرى أن أبا عمارة كان قد فكر فيما جاء بـــه النبـــي مراراً، وحمله التفكير في كل مرة على أن يهم باتخاذ القرار المناسب، ولكنه كان يُبقى على أشياء اجتماعية وعلاقات شخصية، يخشى

عليها أن تتقطع، ويخشى عليها أن تتبدد، كما أنى على يقين أن مثـــل أبى عمارة كان يقدم إلى الخير رجلاً ويؤخر أخرى، ينتظـــر الســاعة التي يحزم فيها رأيه، ويتخذ فيهـــا قراره المبرم الذي لا رجعة فيه، وقد جاءت الساعة المناسبة، إذ لم يحترم القوم ما بين الحمزة ومحمدٍ ﷺ من صلات، ولم يبقوا على مودتهم للحمزة، ولم يجاملوه في ابن أخيه، فلم يعد هناك من مبرر والحالة هذه أن يبقـــى الحمـــزة علـــى مودتهم أو يحتفظ لهم بمكانةٍ في صدره.

وأما مجتمع قريش وعلى رأسهم عمرو بن هشام، فقد أدركـــوا هذا كله إدراكاً على وجهه الصحيح، لقد علموا أنه إذا دخل الحمزة في دين محمد فلن يعود، وأنه إذا قال أنه على دين ابن أخيه فلن يكذب.

أدرك عمرو بن هشام هذا كله في لحظة، فلم يكن أمامه إلا أن يُخَفِّض قومه، وأن يأمرهم بضبط النفس، وأن يحملهم على ذلك حمـــلا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مخافة ما سيقع بالمجتمع المكـــى إن هـــو تصرف على خلاف ذلك.

ولقد خفضهم بالفعل، وأمرهم بالسكينة مُعلنـــاً أن تبعـــة هـــذا الموقف كله يتحملها هو دون سواه، وليس أبو عمارة بالذى أخطأ فيما فعل، ولو كان غيره مكانه لفعل ما فعل وأكثر منه.

هدأ القوم ولكنهم عادوا أشد انكساراً، ذلك أنـــهم قـــد رأوا أن دخول الحمزة في دين النبي قد أعطى النبي من القوة والمنعة ما كانوا حريصين على أن يمنعوا محمداً من مثلها.

ولكنه تقدير الله.

ومشيئة الله خير[1].

هكذا فاوضت قريش أبا طالب.

وهكذا فاوضت قريش النبي ﷺ.

---

[1] راجع ابن هشام سيرة ص ٢٦٠،٢٦١.

ومع أنهم كرروا المحاولة المرة بعد المرة فلم يرجعوا من وراء تكرارهم للمحاولة بطائل يرضونه أو يأملون فيه.

إذ إنهم كانوا يأملون حين فاوضوا أبا طالب عم النبي في أن يقوم أبو طالب بمنع ابن أخيه، وصرفه عن وجهه الذي يقصد إليه، فإن منعه مانع من حمية أو عصبية فلا أقل من أنه يُسلمه إليهم حسبة

كي يقتلوه أو يتخلصوا منه، فإن لم يستطع أن يقدمه إليهم حسبة، فإنهم على استعداد أن يبادلوه رجلاً برجل، يأخذ من فتيانهم من يشاء من أكثرهم حكمة وأنهدهم وأشدهم بنية، ثم يعطيهم ابن أخيه ولا ضير عليه أن يفعل، ولا ضير عليه أن يُبادلهم فتىً بفتى، إذ إن نظام المجتمع آنذاك يسمح بالتبنى ويجيزه، فإذا ما أخذ أحد فتيانهم في مقابلة ابن أخيه فقصارى ما عليه أن يفعله أن يعلن بين الناس أنه قد تبناه، وحينئذ تقوم بينه وبين الفتى الجديد علاقة ليست بأحط ولا أنزل من علاقة النسب، إذ هو بعد هذا الإعلان يكون له الحق في أن يرث الفتى الجديد، ويرثه الفتى في ظل نظام اجتماعى يسمح بذلك.

وهو بعد هذا الإعلان، يحرم عليه أن يتزوج زوجة الفتى الجديد، ويحرم على الفتى الجديد من أبى طالب وما يتصل به ما يحرم على كل فتى من أبيه من النسب وما يتصل به.

وهو بعد هذا الإعلان الجديد، يُصبح له في عنق هذا الفتى ما للأب في عنق ولده من وجوب النصرة والنصفة والغيرة والحمية والنجدة إلى غير ذلك، مما يكفله النظام الاجتماعى في مكة آنذاك.

لم تحصل قريش على شئ من ذلك حين قررت أن تفاوض أبا طالب، وهى تأمل أن تحصل منه على كل ذلك.

ولقد ابتكرت قريش من أساليب الإغراء التي تحمل غير أبى طالب على أن يستجيب إلى ما يريده الناس منه، فهم في كل مرة كانوا يفاوضون فيها أبا طالب، قد حرصوا غاية الحرص على أن يذكروه بمكانته وسط قومه، وإطاعتهم له، وتسويده عليهم، ورغبتهم في تلك الطاعة، وحرصهم على تلك السيادة.

ولقد كانوا في معظم الأحيان يلفتون نظر أبى طالب إلى دينه ودين آبائه، وأنه ليس من مروءة الرجل أن يهمل دينه، أو يفرط في دين الآباء والأجداد.

ولقد كانوا في كل مرة يذكرونه بوحدة المجتمع، وما يترتب على انفصامها من الخطر الذي لا يُعرف مداه، خطرٌ يتصل بالمكانة الدينية والاجتماعية، وخطرٌ يتصل بالمكانة الاقتصادية والمالية، وخطرٌ يتصل بالهيبة التي توفرت لهذه الجماعة من قريش، ولم تتوفر لمثلها من بيوتات العرب.

ولقد كانوا في معظم الأحيان يلوحون لأبى طالب بالقوة، وأنهم سيفعلون به وبابن أخيه الأعاجيب إن هو تركه على ما يُريد، ولم يأخذ على يده حتى يرده إلى صوابه، فيحترم موروثات الآباء والأجداد.

لقد استفرغ القرشيون جُهد الطاقة والوسع وقلبوا الأساليب على وجهها، واختبروها جميعاً من الترهيب مرة ومن الترغيب مرات دون أن يحصلوا من ذلك كله على طائل.

وفشل قريش في مفاوضة أبى طالب يساويه بل يزيد عليه فشلهم في مفاوضة ابن أخيه، صاحب المبدأ الذي قرر أن يثبت عليه بعد أن شاء الله له ألا يتخلى عنه، ولا يتركه وحده في الميدان.

ولقد تعاملت قريش مع النبي على نحو ما تعاملت مع عمه، ولكنها هذه المرة كانت تأمل في استجابة النبي أكثر من أملها في استجابة عمه.

فقد لا يستجيب أبو طالب لحميةٍ أوعصبيةٍ تمنعانه، أما ابن أخيه فالقرار في يده ولا يمنعه من أن يستجيب إليهم مانعٌ من عصبيةٍ أو حمية، وهو في نفس الوقت شابٌ أو قريبٌ من الشباب تداعبه أحلامه كما يظنون، فيرغب في واحدة من أمور تضمن له الشهرة وانتشار الصيت ورفع الذكر.

فالمرء قد يعلو ذكره إذا كان سيداً في قومه، والمرء قد يطير صيته في الآفاق إذا قُدر له أن يكون ملكاً في جماعتـــه يـــأمر فيـــهم فيطاع.

والمرء قد يتقدم على أقرانه إذا كان أكثرهم مـــالاً وأشدهـــم يساراً، فالمال يُحقق من الرغبات ما لا يُحققه غيره في مجاله. وهم وإن كانوا على شك من أن هذه الأسباب لا تأخذ بمشاعر النبي محمـــد، إلا أنهم كانوا يوسدون رءوسهم ذراع الأمل في أن يستجيب النبي محمـــد لواحدة من هذه الأشياء، ولو كان الاحتمال ضئيلاً.

وإنهم لعلى يقين أن من كان في سن محمد ﷺ ولم يســـتجب لواحدة من هذه المغريات وينصرف عنها إلى ما ينصرف إليه النبـــي محمد، فإنه لا شك يكون مريضاً يأتيه رئٌ من الجـــن، لا يســـتطيع أن يُخالفه ولا يطيق أن يعصى له أمراً.

وحتى هذه لو كانت فإن لها عند قريش مخرجاً، فالعلاج وارد والطب لا يعوزه إلا المال، وقريش ليس عندها من مانع أن تجمع لـــه من أموالها، ثم تستدعى له من الأطباء من يعينونه على ما يشعر بـــه من التابع فيتخلص منه. على هذا النحو فاوضوا النبي محمداً أحيانـــاً، فلما رأوا أنه لا يرغب في شئ من أشيائهم، لم يكن أمامهم إلا التوعد بالقتل والاغتيال.

وقد فشلوا في ذلك كله وكثر أتباع النبي بسبب ذلك كله.

وهنا تدخل قريش في مرحلة حرجة، إذ النبي قد كثر أتباعـــه ومريدوه، وأتباعه مثله لا يردهم إرهـــاب ولا تخويـــف، ولا يجذبـــهم ترغيب في أمر من أمور الدنيا، إنهم جميعاً يثبتون على المبدأ كما تثبت الجبال الرواسى في أماكنها، بل إنهم لأكثر من الجبال الرواسى ثباتـــاً، فقد ينال من الجبال الرواسى عوامل الجو من حرارة وبرودة وهواء، ولا ينال من ذلك شئٌ في نفوس هؤلاء. تُرى ما عسى أن تفعل قريش وقد اشتد الأمر، وكل يوم يزيد المسلمين ثباتاً على المبدأ، واقتناعاً بما هم عليه، وحباً في مُتابعتهم لنبيهم الذي ما جـــاء إلا ليخرجـــهم مـــن الظلمات إلى النور؟.

قلبت قريش الأمر على وجوهه فرأت أنه قد دخل في دين محمد أناس كثيرون يمثلون شرائح المجتمع كلها،فمن أتباعه غنيٌ وفقير، ومن أتباعه سادةٌ وعبيد، ومن أتباعه مقدورٌ عليه وممنوع، ومن أتباعه ما يُمثل شرائح المجتمع بتمامها، ليس فيه شريحة واحدة قد حجبت أفرادها بالكلية عن أن يتبعوا النبي محمد ﷺ.

وليس من المقبول الممكن أن تتعرض قريش للسادة بالأذى، وليس من المقبول الممكن أن تعلن قريش الحرب علىأتباع محمد، لأنها إن فعلت تكون قد أعلنت الحرب على بيوتات مكة جميعاً، وما ذلك بممكن، وما ذلك بمستطاع.

لم يعد أمام قريش إلا طريقين تسلكهما، فقد يأتيان أو يأتي أحدهما بنتيجة لم تأت بها المحاولات السابقة مجتمعة أو منفردة.

وأحد هذين الطريقين : أن تقوم قريش بمقاطعة الهاشميين والمطلبيين اجتماعيا واقتصاديا.

وثاني هذين الطريقين: أن تقوم كل قبيلة وتنظر ما فيها من المستضعفين الذين تابعوا محمداً على دينه، فتتولى تعذيبهم وصرفهم عن هذا الدين ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

ولقد انتهت قريشٌ إلى هذا الرأى ففيه إعفاء لهم من المواجهة غير المحسوبة وغير المأمونة العواقب، إذ إنه ليس من الواجب على المرء أن يُقيم علاقة مع غيره من الناس، فهو إن أعلن مقاطعته لفردٍ أو جماعة، فليس عليه في ذلك من بأس، وما عليه في ذلك من ملام، إلا هذا اللوم الخلقى، وقريش ما عادت تُبقى على خُلق، وما عادت تخاف من اللوم، إذا هي جانبت خليقة من الخلائق.

وقريش قد استقرت على هذا الرأى، ففيه أنها تعهد إلى كل قبيلة بتعذيب المستضعفين فيها من العبيد والأبناء، وكل قبيلة حرة في أبنائها وفى عبيدها، تحملهم على ما تريد من اعتناق الدين الذي ترتضيه، ومن اتخاذ الوجهة التي تُريدها، وهى في ذلك ممنوعة من اللوم محصنة من الاتهام في خلقٍ أو دين.

لقد تنفست قريش الصعداء، وألقت بنفسها على أريكة تستريح بعد طول عناء، حين وقعت على هذا الرأى الذي ارتأته، ولم يبق أمامها إلا أن تعمل على أن تنفذه.

وإنى أعتزم أن أحدثك بمشيئة الله عما ارتأته قريش بنوعيه حديثًا مفصلا، ليس هو بالقطع على منهج المؤرخين، وهو لا ينتهج منهج فلاسفة التاريخ حذو القذة بالقذة.

وإنى لأعتزم أن أحدثك عما رآه القرشيون، ولكنى لا أرغب في أن أطيل في الحديث غاية الإطالة، ولا أختصر فيه اختصاراً قد لا يُطلعك على المراد منه.

أعتزم أن أحدثك عما رآه القرشيون في جانبيه حديثًا على هذه الصفة التي حددت لك، آملا أن يجد هذا الحديث من نفسك تجاوبا، ومن قلبك ارتياحاً وطمأنينة.

وسأحاول أن أبدأك بهذه المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية التي عزمت قريش رأيها على أن ينفذوها، فيما بينهم وبين من ينحازون إلى محمد ﷺ تدينا أو حمية.

ولقد مال البعض من المؤرخين في عرضه لأحداث هذه المقاطعة ميلا قد جعله يُبرز سنة الله الخارقة، ويجرى الأحداث كلها أو جلها على أساس منها.

ولست بالذى ينكر سنن الله الخارقة، ولكنى في نفس الوقت أكثر الناس ميلا للرأى القائل بأن الله عز وجل أراد لهذه الأمة من أتباع النبي الذي لانبى بعده، أن تنتهج المنهج الذي اختاره الله لها، وهى أن تسلك في حياتها المادية والاجتماعية سلوكا مستقيما يرتكز كله على أساس من سنن الله الجارية.

وهذا الذي أميل إليه وأرتضيه تؤيده شواهد التاريخ التي وقعت للنبي في عصر المبعث، وتؤيده كذلك نصوص القرآن والسنة النبوية الشريفة.

وما كان لبشر أن يُخالف نصوص القرآن أو السنة رغبة في الانتصار إلى رأى ارتآه.

وما كان لبشر أن يُخالف أحداث التاريخ التي يرويها عن عصر المبعث تأكيداً لميل قلبي يميل إليه.

وقد قلنا من قبل إن سنن الله الجارية وسننه الخارقة يكونان على سواء، إذا نحن نظرنا إليهما باعتبار مصدرهما، ولكنهما يختلفان غاية الاختلاف إذا نظرنا إليهما باعتبار وظيفة كل منهما فينا وفي الناس أجمعين.

وبعد هذا البيان لما أميل إليه، أعود فأحدثك عن المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية التي جنحت إليها قريش لترد بها محمداً عن دينه، ولترد بها المطلبيين والهاشميين عن نصرة فتاهم الذي خالف دين الآباء والأجداد.

أصبحت قريش وقد رضيت عن رأيها غاية الرضى، وبقى أن يتعاهدوا على انفاذه، فهم إن كان قد فاتهم أن يقتلوا محمداً بالسيف، فهم يستطيعون أن يقتلوه الآن صبراً بالجوع، وإن فاتهم أن يقتلوه صبراً بالجوع، فلا أقل من أن يقتلوه اجتماعياً بمحاصرته ومنعه من أن يرى الناس، ومنع الناس من أن يروه.

اتفقوا على أن يكتبوا عهداً يختمونه بخاتمهم، ويحفظونه في جوف الكعبة، يتعاهدون فيه ألا يقدموا إلى محمد ومشايعيه طعاماً بغير مقابل، وألا يبيعونهم شيئاً، ولا يبتاعون منهم شيئاً، وألا يكون بينهم وبين محمد وذويه مُناكحة ولا مصاهرة، فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم إلى غير ذلك مما ذكروه، أو يعتزمون ذكره في صحيفة يتعاهدون فيما بينهم ألا يخرجوا عليها ولا يجاوزوا نصوصها، ودعوا بمنصور بن عكرمة العبدرى، وكان رجلاً كاتباً فأمروه أن يكتب ما اتفقوا عليه في صحيفة، ثم ختموها بخاتم على رأى، أو بثلاثة أختام على رأى آخر، وعلقوها في جوف الكعبة، أو احتفظوا بها عند شريفة من أشراف مكة.

والشئ الذي لا خلاف عليه أن القرشيين أول أمرهم قد ظهروا على قلب رجلٍ واحد في مقاطعتهم لمحمد وذويه.

غير أن الهاشميين والمطلبيين قد انحازوا جميعاً إلا من عُرف منهم إلى أبي‌طالب، ومن معه من ابن أخيه وأشياعه، وممن حملتهم الحمية على أن يكونوا معهم، انحازوا جميعاً ودخلوا الشعب مُجتمعين،

لا يخالفهم في رأيهم إلا من اختار أن يُظاهر قريشاً عليهم من نحو أبى لهب عم النبي ﷺ.

ولقد بقيت هذه المقاطعة مدة ثلاث سنين على قول أو سنتين ونصف السنة على قولٍ آخر.

ولا شك أن النبي وعمه أبا طالب ومن معهما قد لقوا من هذه المقاطعة جهداً وعنتاً شديدين.

وهذ أمر متوقع، بل إنه أمر محتوم لمن ينظر إلى الأشياء على نظام سنن الله الجارية.

وإنى لمنصرفٌ عن أن أحدثك عما لقى النبي ومن معه من عنتٍ أو جهد، إذ كل ما يمكن أن يُحمل على هذه السنة الجارية أمر وارد أن يُلاقيه النبي أو أن يُلاقيه غيره من الناس.

لكن الذي أريد أن أحدثك عنه أمران في غاية الأهمية، **أحدهما** في داخل الشعب، **وثانيهما** قد اتصلت أحداثه بالناس خارج شعب أبي طالب.

١ –أما هذه الأحداث التي وقعت في داخل الشعب فإنها أحداث كلها عظيمة إذا نحن انصرفنا بأبصارنا وبصائرنا عن الجهد والعنت الناتجين عن الجوع والمقاطعة.

إن المتأمل فيما حدث في داخل الشعب طيلة السنوات التي استغرقها الحصار، وهومنصرفٌ عن العنت والجهد، سيجد ولا شك أمراً جللا لم يكن يخطر لقريش على بال، ولو قد خطر على بالهم لانصرفوا عن المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية بالكلية، ولو قد خطر لهم على بال ما طاب لهم أن يمكنوا النبي ﷺ منه.

وهذا الأمر الجلل الذي يجده المتأمل في الأحداث داخل

الشعب، هو أن النبي ﷺ قد وجد من الشعب والحصار داخله مناسبة ومناخاً لا يجوز لمثله أن يغفلهما.

لقد رأى النبي أن المناسبة عظيمة والمناخ مثمر، فجمع الناس حوله يبلغهم آيات ربه، ويعيد تشكيل عقول الكثيرين منهم، ويوقف الجميع على حقيقة مايدعو إليه ويبشرهم بنتائجه القريبة والبعيدة.

والناس يقبلون على النبي إقبالاً لم يجد النبي نظيراً له من قبل، حيث يستمع إليه القوم وينصتون من غير أن يشوش على سمعهم شئٌ، ومن غير أن يصرفهم عن النبي صارف. ثلاث سنوات أو سنتين

ونصف السنة في أقل القليل فرصة متاحة أمام النبي ﷺ لا يجوز لمثله على ما هو عليه من فطنة أن يضيعها .

وقد يُقبل بعض الناس على النبي أول الأمر مدفوعاً بدافع الفضول إلى سماع هذا الشيء الجديد.

وقد يُقبل بعض الناس على النبي وهو مدفوعٌ بدافع الحمية التي أثارها فعل القرشيين فيه، فينصت إلى النبي أول الأمر لا رغبة في اعتناق ما جاء به، وإنما رغبة في الكيد لمن حاصروهم.

وقد يُقبل بعض الناس على النبي مدفوعاً بدافع العصبية التي تحمله، على أن يدافع عن رجل تربطه به روابط القرابة، وينتهي نسبهم جميعا إلى جدٍ واحد قريباً كان هذا الجد أم بعيداً.

وقد يُقبل بعض الناس رغبة في هذا الدين نفسه، بعد أن اقتنع به من قبل ولكنه كان يخشى بأس قريش إن هم رأوه مع النبي يُجالسه ويُصغي إليه، هذا كله أو بعضه محتمل أن يكون سبباً من الأسباب، تدفع بأصحابها أول الأمر كلٌ على حسب ما يتيسر له، ولكن الجميع ينتهون آخر الأمر إلى نتيجة واحدة هي الاقتناع بهذا الدين، والعزم على أن يقفوا خلفه وخلف الداعي إليه، ينصرونهما ويؤازرونهما في كل ميدان يحتاجان فيه إلى النصرة والمؤازرة.

حدث هذا من النبي ﷺ والذين معه يستمعون إليه وينصتون له.

ونحن نعد هذا ملحظاً طيباً من رجل ثاقب النظر، هاضم لآثار سنن الله الجارية في المجتمع والناس.

حكى الطبرى حكاية الصحيفة التي كتبها القرشيون، والظروف المحيطة بها النفسية والاجتماعية ثم قال: [ورسول الله ﷺ في كل ذلك يدعو قومه سرا وجهرا، آناء الليل وآناء النهار، والوحى عليه من الله متابع بأمره ونهيه، ووعيد من ناصبه العداوة، والحجج لرسول الله ﷺ على من خالفه][1].

وهذا الملحظ ذاته يبدوا أن ابن كثير قد اطلع عليه هو يقرأ تاريخ الطبرى، إلا أنه على ما يظهر لنا لم يستثمره إلى غايته، فاكتفى بنقل عبارة الطبرى مع تصرف يسير فيها، حيث قال وهو يذكر أحداث مقاطعة قريش للنبي والهاشميين:

[.... ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلا ونهاراً وسراً وجهارا، منادياً بأمر الله تعالى لا يتقى فيه أحداً من الناس][2].

فرصة عظيمة استثمرها النبي ﷺ غاية الاستثمار في داخل الشعب، حتى خرج الناس منه آخر الأمر، رجالاً ليسوا كسائر الرجال ، وعقولاً لا تشبه هذه العقول التي كانت لهم قبل أن يدخلوا الشعب، وطباعاً ناضجة تشبه فطرتهم الأولى التي خلقهم الله عليها لا تكاد تفارقها في شئ.

---

(1) تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر الطبرى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٨م جـ ٢ - ص ٣٣٦.

(2) البداية والنهاية- لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ-الطبعة الثالثة - مكتبة المعارف - بيروت - جـ٣- ص ٨٨.

على أنه قد حدثت في داخل الشعب حوادث أقل مما لفتنا إليـــه النظر، لكنه لا يجوز إغفال بعضها، إذ قد كان لبعضه من الدلالة ولا يزال ما لا يجوز إغفاله، أو الانصراف عن نتائجه.

ومن هذه الحوادث التي لا يجوز إغفالها هذا الحرص المتزايد على شخص النبي ﷺ.

وهذا الحرص المتزايد على شخص النبي قد بدا فـــي غايـــة الوضوح أثناء الحصار بما يدعو إلى الاهتمام.

ومن مظاهر هذا الحرص المتزايد أن الهاشميين وعلى رأسهم أبو طالب، قد أخذوا بأساليب الحيطة والحذر، وقطعوا في هذا الأخـــذ شأواً غير قليل.

فأنت تراهم يدركون من قريش أنهم يتمنون الغدر بالنبي ﷺ، مهما كلفهم ذلك من جهد أو مجاوزة للمبدأ والخلق، وليس غريباً على قريش والحالة ما ترى أن يرسلوا أحدهم أو تابعاً لهم على مبادئهم، أو مأجوراً لا يهتم إلا بملئ بطنه أو جيبه، فيدخل الشعب على القرشيـــين مستخفياً أو محتالاً ثم يفتك بالنبي ﷺ في غفلة من قومه وذويه.

لم يغب هذا كلــــه عـــن الـــهاشميين وعلـــى رأســـهم شيـــخ الهاشمييـــــن أبو طالب، فأخذ للأمر أهبته، واستعدله، ونبه إليه فتيـــان بنى هاشم، وأمرهم أن يكونوا على غاية الحذر.

ثم طلب إلى النبي ﷺ ألا تكون له عادةٌ في نومه، ولا فـــي المكان الذي يتخذه لنفسه لينام فيه، بل عليه أن يبدل مكان نومه كـــل ليلة، وأن ينام في مكانه واحد من أبناء عمومته.

وهذا الاقتراح أو التكليف من أبى طالب قد يبـــدو فـــي غايـــة الغرابة، إذ إنه ينبغي أن يكون حريصاً على ابن أخيه، وهذا حق له لا مشاحة فيه، ولكنه في نفس الوقت يجب أن يكون حريصاً علـــى كـــل فتىً من فتيان الهاشميين أو الطالبيين على وجه الخصوص.

ترى ما الذي يجعله يحرص غاية الحرص على محمد ﷺ، فيبعده عن مكان نومه، ويأمر غيره من أبناء عمومته أن ينام مكانه واحتمال تعرضه للخطر أمر وارد؟.

هل هي شخصية النبي ﷺ التي تفرض بطغيان كمالها الحب على سائر القلوب مؤمنة به، أو نائية عنه؟

أم هي رغبة جامحة عند الشيخ في أن يظهر النبي محمد ﷺ بمبدئه على العرب والعجم، فيرتفع في الآفاق ذكره، وفى ذكر محمد وارتفاعه ذكر لعشيرته، وظهور لأهله وذويه؟

أما أنا فلا مانع عندى أن أجمع لأبى طالب هذين الأمرين، وما يشبههما، ليلتئم من الجميع سبب واحد، يكون هو السبب الحقيقى الذي يدفع أبا طالب للحرص على النبي.

حوصر الهاشميون والمطلبيون في الشعب والنبي معهم، رغبة

في الانتقام منهم بالجوع والقطيعة الاجتماعية، فكان ما كان مما أرادته قريش، غير أن الذي لم ترده قريش، ولم ترضَ عنه لو علمت مسبقاً بوقوعه هو ما حدثتك عنه من إتاحة الفرصة للنبي كى يدعو إلى دينه في هدوء وطمأنينة، ومن هذه المكانة التي احتلها النبي في القلوب على أساس من رد الفعل لما قام به قريش من أفاعيل.

هذا ما كان في داخل الشعب، أو هذا بعض ما كان على الأقل من أحداث لا يخطئها النظر، ولم يغفلها التاريخ.

٢- وأما هذه الأحداث التي وقعت خارج الشعب، فهى لا تقل أهمية عن الأحداث التي وقعت في داخله.

وهى تشبه هذه الأحداث التي وقعت في داخل الشعب، من حيث أنها قد أتت بنتائج على خلاف ما كانت قريش ترومه وتقصد إليه.

ولو علمت قريش أن القطيعة ستأتى بأحداث خارج الشعب على خلاف ما تهوى، ما عمدت إلى هذه القطيعة، ولما اتخذت في سبيل انفاذها الأسباب.

ولو قد علمت قريش أن القطيعة في آخر الأمر ستكون في صالح النبي ودعوته، لعملت على الصد عنها، ما وجد للصد عنها سبيل.

ولو قد علمت قريش أن القطيعة ستفكك أواصر المجتمع الجاهلي في مكة، وستكون سبباً قوياً في جمع الناس حول النبي بحماسة تزداد عما كان عليه الحال قبل القطيعة بأضعاف مضاعفة، لما سعت في سبيل انفاذها، ولقعدت لمن يريدون أن ينفذوها على كل سبيل يصل بهم إلى غايتهم، حتى يمنعوهم من أن يقاطعوا الهاشميين والمطلبيين على نحو ما وقع، وعلى نحو ما قد كان.

وقعت قريش المعاهدة، وكتبها من كتبها من الكاتبين، وأورثهم الله في قلوبهم من أول الأمر أن هذه الصحيفة التي تعاهدوا على مضمونها ظالمة، حيث لم ينته كاتبها من كتابتها إلا وقد شلت يده أو بعضها، وبقيت علامة صارخة تنطق بالحق، وتشهد على هذه الصحيفة بالجور وتجاوز الحد في الظلم.

ودعنا كالعادة من سنن الله الخارقة التي نؤمن بها إلى سننه الجارية التي أراد الله لهذه الأمة أن تتخذها أصلاً تتعامل على أساس منها وهي تمارس حياتها مع الكون ومع الأحياء، بشرط واحد، وهو أن يكون راسخاً في قلب الأمة أن الأسباب من خلق الله، وأن اصطناعها لا يكون عبادة لها، إذ ليس من الضرورة أن تفضي بهم هذه الأسباب إلى نتائجها.

أقول: لنترك السنن الخارقة الآن، ولنتأمل سنن الله الجارية في أحداث قد وقعت خارج الشعب، محبس الهاشميين ومعقل المطلبيين ورسول الله معهم.

حدث ما حدث من اتفاق الصحيفة، واعتماد موادها، وفرح زعماء قريش بما حدث أول الأمر، ومكثوا ينتظرون اللحظة التي سيأتي فيها بنو هاشم بزعامة شيخهم يقدمون فتاهم محمداً ﷺ كي تقتله قريش، حفاظاً على أقاربه من الهلاك، ومنعاً له أن يموتوا بالجملة.

غير أن الله قد أراد لسنته الجارية أن تعمل عملها دون أن يُرىَ قريشاً شيئاً من هذا العمل أول الأمر.

ومن عمل هذه السنة الجارية هذه القلوب التي رقت لبني هاشم وقد أخذتها الشفقة من جميع أقطارها، يزيد من هذه الشفقة هذا الصراخ الذي يتناهى إلى الأسماع من الشعب، وهو صراخ أطفال لبنى هاشم لم يصبروا على الجوع، فارتفعت أصواتهم طلباً للطعام الذي يرد جوعتهم.

ويزيد في شفقة هؤلاء القوم ما يجدونه من أنفسهم، وما يشعرون به من أولئك النفر الذي يضمهم الشعب في داخله، إنهم يجدون أنفسهم يأكلون ويشربون ويمرحون، وقد يكون لديهم فائض من طعام يزيد عن حاجتهم يلقون به ولا يصدون عنه الأناسى ولا السباع، وأبناء عمومتهم في الشعب قد عز عليهم حتى أوراق الشجر يردون بها جوعتهم.

تزايدت الشفقة في قلوب البعض على أبناء العمومة في الشعب، فاستاءوا لذلك غاية الاستياء، وأنكروا هذا من أنفسهم أشد النكر وأعنفه.

وهنا تجد أن بعضهم قد اقتنع بما يجد في نفسه من غضب، وبما يجد في نفسه من الانجذاب إلى النبي، وإلى الهاشميين وإلى شيخهم أبى طالب، ريثما تتاح له الفرصة كى يعبر عما يجد بطريقة عملية ملموسة.

ولكنه مع رضاه بموقفه، لا تجده راضياً عن نفسه، إذ في هذا

لون من الخضوع والخنوع لا يليق بشهامة العربى، ولا يتفق مع إبائه.

وهذا الشعور بعدم الرضى عن الذات، وعدم القدرة على أن يبرر الواحد منهم لذاته سلامة موقفه، هذا الشعور كلما ازداد يولد في النفس ضغطاً يتفاوت من إنسان إلى إنسان ويزداد يوماً بعد يوم، وصاحبه لا يدرى متى اليوم الذي يستطيع فيه أن ينهى هذا الشعور، وأن يكون بين الناس رجلاً يشعر بإبائه وكبريائه.

هذا صنف من القوم الذين غمرت قلوبهم الرحمة، واستولت على مشاعرهم الرأفة، وملأهم الاستياء من جميع أقطارهم.

غير أنه قد ظهر من بين القوم فريق آخر لم يقنع بما قنع به سابقوه، ولم يكتف بما اكتفى به إخوانه من الذين يشاركونه الألم، ويشاطرونه الاستياء.

وهذا القسم من الناس رأى أنه لا بد من فعل شئ، ولا بد من فعله في الظلام حتى لا يجر على نفسه من أسباب البلاء والشقاء، ما قد تناله به قريش التي لم تعد تتورع عن أن تنال مخالفيها بالبلاء والشقاء.

ودعني أحدثك عن رجال من هؤلاء القوم، انتهى بهم الأمر، وتطورت بهم الأحداث إلى أن أنهوا هذه الصحيفة الظالمة، لا بطريقة خارقة للعادة، وإنما قد فعلوا ما فعلوه منسجمين مع سنة الله الجارية في الأحداث التي تقع في علاقات الناس.

[قال ابن إسحاق: ثم إنه قام في نقض الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب جماعة من قريش ولم يُبل فيها بلاء أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث رضى الله عنه.
وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبنى هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فكان يأتى ليلا بالبعير قد أوقره طعاماً بالليل، وبنو هاشم وبنو المطلب بالشعب حتى أقبله فم الشعب قلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل عليهم الشعب، ويأتى بالبعير قد أوقره براً فيفعل مثل ذلك.

قال ابن سعد، وكان أوصل قريش لبنى هاشم حين حُصِروا في الشعب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعاماً، فعلمت بذلك قريش، فمشوا إليه حين أصبح فكلموه في ذلك، فقال: إنى غير عائد لشئ خالفكم، فانصرفوا عنه، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم ليلاً حملاً أو حملين فغالظته قريش وهمت به، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه

رجل وصل أهل رحمه، أما إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا][1].

[وذكر أن أبا جهل لقى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهى عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاء أبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد، فقال: مالك وله قال: يحمل الطعام إلى بنى هاشم، فقال له أبو البخترى: طعام لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها! خل سبيل الرجل فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البخترى لحى بعير، فضربه فشجه، ووطئه وطئاً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ، وأصحابه فيشمتوا بهم][2]

[ثم إن هشاماً مشى إلى زهير بن أبى أمية رضى الله عنه، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال له: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يُبايعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه. فقال: ويحك يا هشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معى رجل آخر لقمت في نقضها. قال: قد وجدت رجلاً، قال: من هو ؟ قال : أنا : فقال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له: يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن مكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً فقال: ويحك فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانيا.

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ ٢ - ص ٥٤٣.

(٢) الطبرى تاريخ جـ٢ - ص٣٣٦.

قال : من هو؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثا. قال: قد فعلت. قـــال: من هو ؟ قال زهير ابن أبى أمية. قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى أبى البخترى بن هشام فقال له نحواً مما قال للمطعم

بن عدى فقال: وهل أحد يعين على هذا الأمر قال: نعم؟ قال: من هو؟ قال: زهير ابن أبى أمية والمطعم بن عدى، وأنا معك. قـــال: ابغنـــا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود فكلمه وذكر له قرابتـــهم وحقـــهم فقال: وهل على هذا الأمر الذي تدعونى إليه من أحد؟ قـــال: نعـــم، وسمى له القوم.

وعند الزبير بن أبى بكر: أن سهيل بن بيضاء الفهرى هو الذي مشى إليهم في ذلك، ويؤيده قول أبى طالب فيما قاله من شعر في هـــذا الموطن من نحو قوله:

هم رجعوا سهيل بن بيضاء راضياً

وزاد ابن سعد في الجماعة: عدى بن قيس. وأسلم منهم هشـــام وزهير وسهيل وعدى ابن قيس.

فاتعدوا حطم الحجون ليلاً بأعلى مكـــة، فـــاجتمعوا هنـــالك، فأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيـــام فـــي نقـــض الصحيفـــة حتـــى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير وعليه حُلّه فطـــاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنـــأكل الطعـــام، ونلبـــس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يُبَاعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحيـــة المسجد: كذبت والله لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت.

قال أبو البخترى: صدق زمعة لا نرضى مـــاكتب فيـــها ولا نقربه، قال المطعم: صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل تشوور فيه في غير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد.

وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا: "باسمك اللهم"[(١)].

وانتهت أحداث المقاطعة على هذا النحو

رجال قد امتلأت قلوبهم حنواً وحمية، وبادر بعضهم فسلك إلى إنهاء هذا الأمر مسالكه، وشقت الصحيفة والناس ينظرون، وانتهت الأزمة بعد هذه المدة الطويلة على سنة من سنن الله الجارية، وإن كان قد صاحبها لمسة من سنن الله الخارقة تُبين عن مظالم القوم، وتشير إلى علو قدر النبي والذين معه وأنهم على الحق لا يضرهم من خالفهم.

وأنت ترى أن الله عز وجل مع إبراز سنته الخارقة تعاضد سنته الجارية، إلا أنه لم يجعلها سبباً لإنهاء هذه القطيعة، ولم يرض – فيما نرى – أن ينتهى الأمر على هذا النحو.

صحيح أن هناك من الروايات ما خلاصته: أن النبي قد طلع على عمه في الشعب ذات يوم وأخبره: أن الأرضة قد أكلت من الصحيفة وأبقت، ولحست ما شاء الله لها أن لحست، ومرت على غيره وقد تركته على حاله.

وأصحاب هذه الرواية لا يستقرون فيها على قرار فمنهم من قال: إن الأرضة قد لحست ما في الصحيفة من أسماء الله عز وجل، وأبقت على النصوص القاطعة الظالمة.

ومنهم من قال: إن الأرضة قد لحست النصوص القاطعة الظالمة، وأتت عليها عن آخرها، وأبقت على ما في الصحيفة من أسماء الله عز وجل.

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٢، ص ٥٤٣ وما بعدها.

ومنهم من قال: إن الصحيفة قد تعددت نسخها، والأرضة قد لحست من بعضها أسماء الله وأبقت على النصوص القاطعة الظالمة، ولحست من بعضها الآخر النصوص القاطعة الظالمة، وأبقت على ما فيها من أسماء الله.

وأياً ما كان الأمر الذي ينتهي إليه جهد العلماء في هذه الروايات المتصلة بهذه السنة الخارقة، فإنا نؤمن بأصلها ونسلم به، ونؤمن مع ذلك بأن وظيفتها منحصرة فيما يشبه الإعلان عن رضى الله عز وجل عن نبيه وعن الذين معه، وعن المبدأ الذي يريد أن يؤسسه هذا النبي، أما ما عدا ذلك فإن الله قد أراد أن تسير المسائل كلها على مشيئة الله المعتادة في اجتماع البشر وما يترتب عليه من سلوك وعلاقات.

عزفت قريش عن المفاوضات حين يئست من المفاوضات.

وعزفت قريش عن دق طبول الحرب والنفخ في قرنها المزعج لما أدركته من خطر الحرب في المجتمع المكى، ولما شعرت به من آثاره المدمرة، وجنحت إلى طريقتين ظنت أول الأمر أنهما نافعتان بالنسبة لها ، وأنهما سيغنيانها عن المفاوضات الفاشلة، وعن الحروب المدمرة.

وكانت الطريقة الأولى قد تمثلت في أسلوب المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية، والحصار المؤلم الذي أوقعوه بالمطلبيين والهاشميين جميعاً.

ومع انتشاء قريش حين أقبلوا على تنفيذ هذه المقاطعة أول الأمر، فلقد رأت آخره أن أسلوب المقاطعة قد أتى بثمار غير الثمار المرجوة منه، وأتى بنتائج غير النتائج التي قطعت قريش أنهم بالغوها لا محالة في ذلك ولا ريب.

فشلت قريش فشلاً ذريعاً، وجنى محمد ودعوته ثماراً ما كانت قريش تظن أنه سيجنيها، لا ولا شيئاً منها قل هذا الشيء أو كثر.

ولم يبق إلا أن تجرب قريش طريقة الإيذاء لأتبـــاع محمـــد ﷺ.

ترى ماذا عساهم أن يفعلوا؟.

بدأت قريش تجرب طريقتها الثانية من طريقتيها اللتين انتـــهت إليهما واستقر عليهما رأيها بعد أن فشلت في أسلوب المفاوضات، ولم تحصل منه على طائل ولم تنته منه إلى غرض.

وهذه الطريقة الثانية في لبابها وإيجازها، هي أن تعمـــد كـل قبيلة إلى من اتبع محمداً فيها، وتتمكن هي من إيذائه وإلحاق الضــــرر به، فتوقع به الأذى وتناله بالضر.

وقد كان ما رغبت قريش فأخذت كل قبيلة وأخـــذ كـل بطـــن يبحثون عن الضعفاء الذين أسلموا فأوقعوا بهم العذاب.

ولقد شهد تاريخ مكة في عصر المبعث ألواناً مـــن العــذاب، أوقعها المشركون بالمستضعفين، ما يمكن أن تتحملها المشاعر، ومـــا يمكن أن تستقبلها القلوب إلا إذا كانت المشاعر قـــد جمـــدت، وإلا إذا كانت القلوب قد أصبحت كالحجارة أو أشد قسوة.

قال ابن إسحق: [ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكـــة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم][١].

ولقد تخلى القرشيون تقريباً عن رجولـــة الرجـــال وشهامـــة العرب ونبل النبلاء، وكان من أثر ذلك كله أن توجهوا إلـــى العبيـــد الذين لا مانع لهم يمنعهم، وليس لهم من الأقوياء من يصد عنهم،

---

[١] ابن هشام سيرة – جـ١ – ص٢٧٧.

فعذبوهم عذاباً شديداً، فإذا ما لا مهم اللائمون وهم قليل، قالوا: عبيدنـــا ونحن نملكهم، ولنا حق التصرف فيهم، وليس لغيرنا أن يتوجه إلينـــا بعتاب أو ملام.

ولم نر أحداً من أشراف قريش خف لنجدة هؤلاء، كما رأينـــا أبا بكر الصديق يخف لنجدتهم.

فأنت تراه يمر ببلال يعذب على رمضاء مكة والحجـــر علـــى صدره فيرق له، ويتحدث إلى سيده في شأنه فلا يستجيب سيده لحديث أبى بكر، فيقرر أبو بكر أن يشتريه ثم يعتقه، وقبل سيده المال لا رغبة في المال وإنما زهداً في بلال، وقبل أبو بكر الشراء زاهداً في المـــال راغبًا في عتق بلال.

ولم تكن حالة بلال هي الحالة الوحيدة التي رق لها أبو بكـــر، وإنما كان بلال سابع سبعة اشتراهم أبو بكر وأعتقهم. ومـــن الذيـــن أعتقهم أبو بكر الصديق غير بلال.

١- عامر بن فهيرة: شهد بدراً وأحداً، وقتل يوم بئر معون شهيداً.

٢-وأم عبيس.

٣-وزنيرة، وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريـــش: مـــا أذهـــب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وَبيْت الله ما تضر الـــلات والعزى وما تنفعان، فرد الله بصرها.

٥،٤- النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار.

٦- ومر بجارية بنى مؤمل، حى من بنى كعب، وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك وهـــو يضربـــها، حتى إذا مل قال: إنى أعتذر إليك، إنى لم أتركك إلا ملالـــة فتقـــول: كذلك فعل الله بك، فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

هؤلاء سبعة أعتقهم جميعاً أبو بكر الصديق.

وأنا لا أحب أن أسترسل معك في الحديث عـــن أبـــى بكـــر الصديق وما فعله، دون أن ألفتك إلى خليقة من خلائق جمة امتاز بـــها المسلمون على ضعفهم بين الناس، وارتفعوا بها برغم وضعهم الحرج بين أفراد قريش وجماعاتهم.

لقد علمت أن أبا بكر الصديق قد أعتق من بين مـــا أعتــق جارية وابنتها، كانتا عند امرأة من بنى عبد الدار، وهى تسومهما سوء العذاب.

ورقّ أبو بكر للجارية وابنتها، فقابلهما وهما يحمـــلان دقيقــا يصلحان من شأنه لسيدتهما، وعمد أبو بكر الصديق إلى سيدة قريش، فاشترى منها الأمة وابنتها وأعتقهما ثم قال لهما: اتركا هـــذا الدقيــق لصاحبته تصلح من شأنه إن أرادت، فأبت الجارية وابنتها أن تتخلـــى عن خدمة لامرأة بعد أن صار أمرهما بأيديـــهما فاســتأذنتا أبــا بكــر الصديق أن تكملا العمل مروءة وخدمة لهذه المرأة التي كـــانت منــذ سويعات تصب عليهما العذاب صبا، فتعجب أبو بكر حيـــن ســمعهما يستأذناه فرد الأمر كله إلى مشيئتيهما حيث أصبحتا حرتين.

وأنت يأخذك العجب من جميع أقطارك حين ترى هذا الموقف أو تسمع به ثم تتساءل: ما الذي غرس في طبع الفتاة وأمها هذا الخلق حتى لم تستطيعا أن تتخلصا منه، في وقت يعذرهما فيه العاذرون، ولا يقدر على لومهما اللائمون.

وأنت لا تجد ما يخرجك من حيرتك إلا أن تعود بالأمر كلـــه إلى الإسلام، الذي يقتلع في لحظة من النفس شرورها، ويـــزرع فـــي لحظة بدلاً منها عناصر الخير في سويداء الفؤاد.

لفتة أردت ألا أجاوز هذه المنطقة حتى ألفتك إليها، علك يكون لك معها شئ من التدبر أو شئ من الفائدة.

وشئ آخر أريد أن ألفتك إليه، وهو حديث جرى بين أبى بكر ووالده، تستطيع أن تفهم منه الفرق الأساسى بيـــن مرجعيـــة المســـلم ومرجعية الرجل الذي لم يلمس الإسلام شغاف قلبه.

أما والد أبى بكر الصديق فقد توجه إلى ولده باللوم، لا لأنـــه يشترى العبيد ويعتقهم فيبدد ماله، وإنما لأنه قد عمد إلى المستضعفين يشتريهم ثم يعتقهم، دون أن يكون له في ذلك الشراء والإعتاق مصلحة ظاهرة.

ويرى والد أبى بكر أن أبا بكر لو قد فطن إلى مصلحته وتنبه لها، لاشترى الأقوياء من العبيد والموالى ثم أعتقهم، فيكون له بهم سبب يصله بالغلبة إذا هو احتاج يوماً إلى من يبلغ به إلى الغلبـــة، وســـبباً يصل به إلى النصر إذا هو احتاج يوماً إلى سبب يبلغ به إلى النصر.

هذا هو تصور أبى قحافة، وتلك هي مرجعيته، وهى مناســبة ولا شك لظروف المجتمع الذي يعيش فيه، أمـــا أبوبكـــر فقـــد كـــانت مرجعيته مختلفة عن مرجعية أبيه اختلافاً عظيماً، حيث قـــد رأى أنـــه يبتاع من يبتاعهم من الناس بغية تخليصهم من العذاب، ابتغاء مرضاة الله وطمعاً في ثوابه.

وهو من أجل مرجعيته تلك لا يرغب في أن يكون لـــه عنـــد هؤلاء يدٌ يعترفون له بها، ولا يرغب في أن يكون لـــه فـــي أعناقـــهم حقوق يدينون له بها، وإنما كل ما يرغب فيه ويبتغيه هو أن تكون لـــه بهؤلاء رابطة الأخوة الإسلامية التي لا تعلى له عليهم قامة، ولا تحـــط لهم بالنسبة إليه قدراً.

وعلماء التفسير وأسباب النزول وكتاب السير والآثار يكـــادون يُجمعون فيما أعلم إلا قليلاً منهم على أن خواتيم سورة الليـــل إنمـــا نزلت في أبى بكر، تُشيد به في اتخاذه لمرجعيته التىأصاب في اتخاذها غاية الصواب وحرص على أن يلتزم بها حياته كلها ما استطاع إلـــى ذلك سبيلا.

وأنت تشعر بوضوح الآيات في هذا الموقف إذا سطرناها بيـــن يديـــك وأمعنت أنت النظر فيها.

{فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلاّ الأشقى الذى كـــذّبَ وتولّـــى وسيُجنبُها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحدٍ عنـــدهُ مـــن نعمَةٍ تُجزَى إلاّابتغاءَ وجهِ ربِّهِ الأعلى ولسوف يرضى}[1].

---

[1] الليل: ١٤ وما بعدها.

عمدت قريش جماعاتها و آحادها إلى المستضعفين، فنالت منهم على نحو ما رأيت، ولم يكن لجميعهم ما كان لهؤلاء السبعة الذين أعتقهم أبو بكر الصديق، فاستمر الكثيرون منهم يذوقون العذاب ألواناً.

والنبي يمر على بعضهم وهم يعذبون فلا يعدهم أن يخلصهم ولا يمنيهم بأجر دنيوي، وإنما يضع أمامهم الهدف الأسمى "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنه".

ويفرح آل ياسر بما يسمعونه من النبي ﷺ ويستعجل آل ياسر القدوم على الله عز وجل حتى يلاقوا جنته التي وعدهم النبي بها، وهم يعلمون أنه لا ينطق عن الهوى.

صبر آل ياسر على العذاب بل استعذبوه، ولكنهم لم يعد لهم على فراق الجنة صبر ولا طاقه، فأعلنت سمية عقيدتها بغاية الوضوح، وعبّرت عن إرادتها بطلاقة منقطعة النظير، وعيناها تزدرى الكافرين الذين يعذبونها ازدراءً لا يصبر عليه الكافرون ولا يطيقونه، فقرروا أن يتخلصوا منها، واغتبطت سمية بمفارقة الدنيا لتصير أول شهيدة في الإسلام.

ولحق بها زوجها ياسر بعد قليل، وبقى عمار، يحمى له الحديد حتى يحمر لونه، ويطفأ في ظهره، وهو على موقفه ثابت القلب، ثابت العقيدة، إلا يوماً أكره العذاب لسانه فنال مضطراً من شخص محمد ﷺ وأسقط في يده لذلك واستاء استياءً عظيماً كان أشد عليه من إطفاء الحديد في ظهره، لولا أن النبي قد أصغى إليه، ووعى شكايته، ورخص له في أن يعود إلى مثلها إن عادوا هم إلى هذا العنف في التعذيب.

ولم يكن النبي وحده هو الذي عذره، بل إن ربه قد عذره في

قرآن يتلى إلى يوم القيامة **{من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بـــالكفر صـــدراً فعليـــهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم}**[1].

ولقد سُر عمار سروراً عظيماً حين عذره النبي ﷺ.

ولقد سر عمار سروراً لا يدانيه سرور حين عذره ربه وعذر من كان في مثل حاله.

وليس آل ياسر وحدهم هم الذين قد ألم بهم العذاب، وليس من أعتقهم أبو بكر الصديق بنادر المثال في قريش، وإنما كثرت الحالات التي يُعذب فيها المستضعفون بحيث تكاد تخرج عن الحصر.

وأنا أحب أن أضع بين يديك نموذجاً من مئات النمـــاذج التـــي تعرضت للعذاب على يد القرشيين، وستجده صابراً محتسباً على نحـــو ما كان غيره يصبرون ويحتسبون.

وهذا النموذج الذي سأذكره الآن بين يديك هـــو خبـــاب بـــن الأرت، صحابي جليل لقى ما لاقاه من تعذيب على يد القـــوم دون أن تكون له عشيرةٌ تحميه.

ولقى ما لاقاه من تعذيب على يد القوم وهو يدرك تمام الإدراك لماذا قُدرَ له ولأمثاله أن يقع بهم مثل هذا التعذيب، وإن عـــزَّ عليـــه الإدراك أحياناً فإنه لم يفت النبي ﷺ أن يوقفه على حقيقة الأمر وهـــو يعتريه من مظاهر الغضب ما يوحى إلى الخباب بأن النبي يلـــوح لـــه بشئ من العتاب.

وهذا كلامٌ فيه من الإجمال ما يحملني وإياك على أن نحـــاول أن نتصدى له بشئ من التفصيل.

وهذا ما نعتزم أن نفعله.

خباب بن الأرت عربي، عُرض إليه الرق وبيع في مكة،ولكنه مختلف في نسبه ككثير من الأرقاء الذين وقع الخلاف في نسبهم.

---

[1] النحل: ١٠٦.

فمن الناس من يرى أن خباباً خزاعى النسب وهـــم الأقلــون، ومنهم من يرى أنه تميمى النسب وهم الأكثرون.

وسلسلة نسبه على نحو ما تسطره كتب الرجال هي أنه: خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميـــــــــم.

كنيته عند صاحب كتاب سير أعلام النبلاء – أبو يحيى وأبـــو عبد الله – غير أن كتب الرجال السابقة على سير أعلام النبلاء قد ذهب بعضها إلى أنه قد كنى بأبى عبدالله وكنى كذلك بأبى محمد، بالإضافـــة إلى ما ذكره الذهبى صاحب الكتاب المذكور، من أن كنيته هـــي أبـــو يحيى وأبو عبدالله واقتصر عليهما.

[قيل هو حليف بنى زهرة: وقال ابن منده وأبو نعيم قيل: هو مولى عتبة بن غزوان.

وقيل مولى أم أنمار بنت سباع الخزاعية وهى من حلفاء بنـــى زهرة].

وعليه فيكون الرجل تميمى النسب، خزاعى الـــولاء، زهـــرى الحلف، لأن مولاته أم أنمار كانت من حلفاء عوف بن عبد عوف بـــن عبد الحارث بن زهرة والد عبد الرحمن بن عوف.

ويُجمع العلماء على أن خباباً دخل في الإسلام مبكراً.

ويذهب صاحب كتاب أسد الغابة إلى أنه كان سادس ستة لــــه سابقة في الإسلام، ثم يذكر رواية مجاهد في ذلك وهى كما سترى ليس فيها التصريح بما صرح به من أنه سادس ستة.

قال مجاهد: [أول من أظهر إسلامه رســـول الله ﷺ، وأبـــو بكر ، وخباب، وصهيب، وبلال، وعمار، وسمية أم عمار، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبى طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه..]

إلى آخر ما قاله مجاهد في روايته التي اعتمد عليها صاحب كتاب أسد الغابة.

أما ابن إسحق فله في المسألة كلامٌ آخر فيمـــا يحكيــه عنــه الذهبى، حيث رأى أنه قد سبقه إلى الإسلام تسعة عشر نفســاً، وجــاء خباب بعدهم ترتيبه العشرون بين المسلمون الأوائل.

وأياً كان الأمر فخباب له سابقة في الإسلام لا تُنكر. والسابقون في الإسلام بعضهم كانت له عزة ومنعة كالنبى ﷺ الذي منعه ربـــه، وأبى بكر الصديق الذي منعه الله بسبب قومه.

وبعضهم لم تكن له تلك العزة والمنعة، حيث شاء الله أن يكونوا من المستضعفين، تسلط عليهم قومهم بالإيذاء، فنالوا منهم نيلاً شديداً.

وبعضهم قد نالوا منه كرهاً ما يُريدونه مــــن صرفــهم عــن الإسلام ومن سبهم للنبيﷺ، والنبي قد عذرهم، والقرآن الكريـــم قــد عذرهم فسروا بذلك سروراً عظيماً، أما الخباب ورفاقه فإن المشركين لم يستطيعوا أن ينالوا منهم مُرادهم حيث بقى خبـــاب صـــامداً علـــى عقديته ظاهراً وباطناً، يقاوم العذاب ويستسهل الشدة في معظم أحيانه، ولم يكن العذاب هيناً، ولم تكن الشدة بالشيء اليسير، إذ القوم كـــانوا يأتون بالأحجار أو الردف ثم يوقدون عليها ناراً حتى تبلغ النار مـــن الأحجار مبلغها.

وأنت خبيرٌ أن النار تبلغ مبلغها مــن الأحجــار ببــطء، وأن الأحجار تفقد أثر النار فيها على مهل.

وقريشٌ تعلم ذلك بالممارســـة، فاختـــارت الأحجـــار لــهذا الغرض، فإذا ما بلغت النار منها مبلغها شدت إليها خباباً ولصقت ظهره بها حتى تُشعره بالعذاب الأليم، وهو مع ذلك لا يُعطيهم ما يُريدون.

يحكى خباب أنه لما اشتد به العذاب هو ورفاقه، نسوا حكمة الله عز وجل في تعذيب القرشيين لهم، فذهبوا إلى النبـــي ﷺ وهـــو نائم في ظل الكعبة متوسداً برداً له، فقالوا له: يا رسول الله اشتد علينـــا العذاب ألا تستنصر الله لنا؟ فاعتدل النبي ﷺ في جلسته وقام من

نومه محمراً وجهه لما فات على القوم من حكمة تعذيب المشركين لهم، ثم قال النبي يعلم القوم ويلفت نظرهم.

[قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه، وليُتمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون].

وما كان القوم يحتاجون إلى أكثر من هذا يقوله النبي لهم حتى يدركوا ما أراد الله بهم وبأقوامهم.

ولقد التفت القوم وانتصحوا بنصيحة النبي ﷺ خاصة صاحبنا خباب.

ولقد كان خباب من الرجال الذين يميل النبي ﷺ إلى مجالستهم.

وكان النبي يجالس خباباً في محل عمله أحياناً.

وعمل خباب أنه كان قيناً.

والقين هو من اتخذ الحديد له صناعة يُشكل منه ما يشاء، غير أن خباباً كان يتخذ من الحديد سيوفاً يطبعها، أي يصنعها ويصيغها.

وعلمت مولاة خباب بميل النبي إليه، وميل خباب إلى النبي، فما كانت تُطيق ذلك ولا تسيغه، ورأت أن ميل النبي إلى خباب، وميل خباب إلى النبي لسببٌ قوى يسوغ تعذيب خباب على أرقى درجات التعذيب المستطاعة.

وأم أنمار مولاة خباب لم يكن ليعوزها الاستطاعة في تعذيب أحد مواليها، فلقد كانت كسائر القرشيين قلوبهم على أصحاب النبي كالحجارة أو أشد قسوة.

ولقد ابتكرت لخباب طريقة في التعذيب ما هي بالغريبة على أمثالها، إذ إنها كانت تدخل الحديد في النار حتى يحمر لونه ثم تُطفئه في مفرق رأس الخباب.

وأنت تستطيع أن تتصور الألم الذي يمكن أن يشعر به الخباب من أثر هذا الفعل، خصوصاً إذا علمت أن هذا العمل كانت تكرره مولاته كل يوم.

وأنت لا يغيب على مثلك أن الجرح القديم إذا مسته النار يكون أشد ألما بأضعاف أضعافه من جلدٍ تمسه النار لأول مرة، ومع ذلك فما كانت شدة الألم لتلمس شغاف قلب أم نمار ولا تؤثر فيه، حيث كان قلبها كقلب غيرها، جميعها غلفٌ قد طبع الله عليها بطابع الحقد والقسوة فما عادت أسباب الرحمة تتسلل إلى هذه القلوب، وما عاد أصحابها يشعرون بمن يُعذبونهم.

وأنا أريدك أن تتأمل هذه المرة حديث خباب مع النبي وتقارن بينه وبين الحديث الآخر الذي وجهه الخباب وأصحابه للنبي والموضوع هو نفس الموضوع لا خلاف بين الموضوعين إلا في الدافع الذي دفع إلى الحديث في كل منهما.

لقد جاء خباب إلى النبي أو جاء النبي إلى خباب، وجمعهما جميعاً مكانٌ واحد، فتطرق الحديث إلى ماتفعله به أم أنمار، فقال الخباب: إن أم أنمار قد اعتادت أنها تكوى رأسي بالحديد المحمى بالنار دون أن تتخلف لها في ذلك عادة، ودون أن يتحرك لها في ذلك قلب.

ورق النبي ﷺ لحديث خباب فدعى له قائلا: اللهم انصر خباباً.

وخباب يُحدث فيما ينقله الرواة عنه أنه قد ذهب إلى بيت مولاته، فإذا بها تعوى عواء الكلاب من شدة الألم في رأسها، فلما ذهبت إلى أهل الخبرة في ذلك قالوا لها: أن تكتوى حتى يذهب الكى

بآلامها، فكان الذي يُباشر كيها بالحديد المحمى في رأسها خباب عن رغبة منها وإرادة، بل عن تكليف له بذلك صادر عنها .

وأنت تعجب غاية العجب إذا تأملت في فعل الله عز وجل حيث رأيت أن أم أنمار كانت تكوى خباباً رغماً عنه، وهو لا يملك أن يمتنع عليها، وهو لا يملك أن يرد لها فعلاً حتى ولو كان لديه من القدرة البدنية ما يستطيع أن يرد بها ظلمها واعتداءها عليه.

ثم تجد الله عز وجل قد أمكنه منها تكوى بأمرها بيدى خباب، وهو يُمدح منها ومن ذويها كلما أجاد الكى، وهو ليس عليه في كيها ملام إلا إن قصر في إحماء الحديد، أو قصر في اختيار المكان الذي يكويها فيه، أو تباطأ في كيها، بحيث يستغرق وقتاً أطول لا ينالها فيه بالأذى.

عجيبٌ فعل هذا الإله في عباده، ولكن الناس لا يعقلون ولك أن تتأمل حديث الخباب للنبي، يوم أن كان النبي نائماً في ظل الكعبة، يشكو إليه آلام ظهره الذي شد إليه الأحجار المحمية بالنار، وهو يقول له: ألا تستنصر لنا يار سول الله، وتتأمل معه حديث الخباب للنبي وهو يُحدثه عن الحديد المحمى يوضع في مفرق رأسه كل يوم ولا يطلب من النبي شيئاً.

ولك أن تتأمل مع ذلك رد فعل النبي في الموقفين، لتجده في الموقف الأول يقوم مغضباً مُحمر الوجه، ثم يعلم الخباب والذين معه ما قد رأيت من الدروس النبوية، ثم هو في هذه المرة يستقبل حديث الخباب ويدعو له ربه بالنصرة، فينصره الله على غير إبطاء، ويُمكنه من التي كانت تعذبه.

لك أن تتأمل هذين الموقفين لترى منهما جميعاً أن النبي يعلم قومه حين يغيب الدرس عن قومه، وأن النبي يستنصر لقومه حين يستوعبون الدرس، ويدركون الغاية وحين يرق لهم ويألم لآلامهم.

تُرى ما الذي يمكن أن نقوله عن سيدنا محمد والرجال الذين كانوا من حوله؟!.

أما كاتب هذه الصفحات فليس عنده شيئٌ يقوله عن محمد ﷺ إلا أنه (محمدٌ رسول الله) وليس عنده شئ يقوله عن هؤلاء الرجال إلا أنهم رجال قد سبقوا إلى الخير، وسبق الخير إليهم حتى لم يستغرق الواحد منهم في الوصول إلى الآخر، شئ من زمن، ولا شئ من جهد ، التحم الخير بهؤلاء والتحم هؤلاء بالخير، حتى عز علينا أن نميز أحدهما من الآخر.

هكذا كان خباب ، وهكذا كان مستوى العذاب الذي ناله من صناديد الكفر.

ورفاق خباب كانوا يذكرون ذلك له في الأيام التالية، ويحبون أن يسمعوه منه سماع الاستمتاع والمداعبة بما حصل عليه خباب من الخير.

قال الشعبى : [سأل عمر بن الخطاب خباباً رضى الله عنهما عما لقى من المشركين فقال: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهرى فنظر، فقال: مارأيت كاليوم ظهر رجل، قال خباب: لقد أوقدت نار وسحبت عليها فما أطفأها إلا ودك ظهرى].

والذى يظهر لى أن عمر بن الخطاب لأنه أسلم ممنوعاً وتابع النبي عزيزاً في قومه، لم يضايقه أحد، ولم يعذبه على دينه مُعذب.

ولأن عمر قد اشترك أحياناً في تعذيب بعض من اتبع النبى قبل أن يُسلم، لهذا كله ولكثير غيره، يظهر لى أن عمر كان يرى أن للمُعذبين في الإسلام فضلاً بتعذيبهم يُضاف إلى سابقتهم يجعل لهم نوعاً من الأجر ليس له.

وما كان ذلك يؤذيه ولا يُحفظه عليهم، بل إنه كان يدفعه إلى أن يُدنيهم منه، ويقربهم من مجلسه، وهو أميرٌ للمؤمنين وهو خليفة لخليفة رسول الله عليهم.

إنه كان يُدنيهم ويقربهم من مجلسه في الوقت الذي لم يكن يفعل ذلك بأولئك الذين آمنوا يوم العفو العام، حتى ولو كانوا من أصحاب المكانة في قريش.

حكى الثورى قال [عن أبى إسحاق، عن أبى ليلـــى الكنـــدى قال: قال عمر لخباب: ادنه فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، قال: فجعل يُريه بظهره شيئًا يعنى من آثار تعذيب قريش له].

هذا ما كان من تقدير القوم لخباب، ولمن كان على شاكلته، لقد كانوا يرون فيه وفى أمثاله أن لهم عند الله أجراً أدركوه ولم يدركه غيرهم.

أما الخباب فكان له في نفسه ورفقائه رأى آخر.

وأنت ترى آراء القوم في الخبـــاب ورفاقـــه، وتـــرى رأى الخباب في نفسه وفى إخوانه من خلال هذا الموقف الذي لا يحتمـــل رياءً، والذى لا يحتمل نفاقاً، والذى لا يسوغ كذباً ولا نقيصة في خلق أو دين.

إنه موقف يتمثل في مرض الموت الذي ليس بعده من ســبيل إلا أن يلقى المرء ربه فيحاسبه على الفتيل والقطمير، في هذا الموقـــف يصدق الكاذب، ويعدل الجائر، ويعود إلى كل إنسان رُشـــده الـــذي لا رشد بعده.

أقبلت الثلاثينات من القرن الأول وأوشكت على الانتهاء وخباب في بلاد العراق يُصاب بالمرض ، ويطول به مرضه، والناس يعودونه في مرضه، ويتذاكرون أيامه الخوالى فيغبطونه على ما هو مُقدم عليه لسابقته في الإسلام، ولصبره على البلاء، فيقول له عائدوه ما ســـتجده في الرواية التي سأنقلها الآن بين يديك.

[روى قيس بن مسلم عن طارق قال: عـــاد خبابـــاً نفـــر مـــن أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: أبشر أبا عبدالله ترد على إخوانـــك الحوض، فقال: إنكم ذكرتم لى إخواناً مضوا، ولم ينالوا من أجورهـــم شيئاً، وإنا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما نخاف أن يكون ثواباً لتلك الأعمال، ومرض خباب مرضاً شديداً طويلاً].

ولقد شاء الله عز وجل أن يمرض خباب مرضاً شديداًطويلا.
ولقد شاء الله عز وجل أن يألم خباب في آخر حياته كما شـاء لـه أن يألم في أولها حين دخل الإسلام.

ومشيئة الله خير.

في رواية عن [يحيى بن محمود بن سعد بإسناده إلى مسلم بن الحجاج، أخبرنا أبو بكر بن أبى شيبة، أخبرنا عبدالله بن إدريس عـن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم، قال: دخلنا على خباب

وقد اكتوى سبع كيات، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعـو بالموت لدعوت به].

عانى خباب ما عاناه ثم مات خباب في العام السابع والثلاثيـن للهجرة على أصح الأقوال بعد مرض طال به.

ودفن الخباب بظاهر الكوفة على خلاف عادة أهلها حيث كانوا يدفنون في بيوتهم أو أمام الأبواب الخاصة بالمنازل.

مات الخباب ودفن عن عمر قد بلغ ثلاثاً وسبعين سنة.

رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعـاً وعـاش مجـاهداً وابتلى في جسمه، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا.[1]

هذه سيرة خباب كما رسمناها بين يديك، علها تكون قد تركت لديك انطباعاً يعينك على تصور حال رجال قد نالهم من العـذاب مـا يجعل غيرهم يفتتن لأول وهلة لا يصبر على عشر معشاره.

---

[1] راجع أسد الغابة فى معرفة الصحابة/ لعز الدين بن الأثير سنة ٥٥٥-٦٣٠هـ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، محمود عبـد الوهـاب فايد، طبع دار الشعب، المجلد الثانى - ص١١٤ وما بعدها- وسير أعـلام النبلاء - للذهبى المتوفى ٧٤٨هـ - ١٣٧٤م حقق نصوصه وخرج أحاديثـه، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، الطبعة الرابعة - مؤسسة الرسالة بيروت -ص ٣٢٣ وما بعدها.

وأراك الآن قد أصبحت على يقين من هذه السنة الجارية في هجرة النبي، وهى أن النبي وأصحابه قد صبروا على ما صبروا عليه، رغم ما نالهم وما ألم بهم من سوء معاملة قد وقعت على أناس فآذت مشاعرهم وعقولهم وأبدانهم، فلم يزدهم هذا الإيذاء إلا ثباتاً على المبدأ، وإلا تمسكاً بهذا الدين الجديد.

وهذا ما أراده الله عز وجل من بقاء هؤلاء الناس في مكة أول الأمر، حين قال للنبي **﴿لتنذر أم القرى﴾**.

وأنذر النبي أم القرى، وأوذى من انحازوا إلى النبي حتى أوذى من انحاز إليه حمية ولم يكن على دينه.

فمن ثبت منهم أعده الله عز وجل لمهمة أخرى.

ومن لم يثبت منهم عرضه الله عز وجل إلى اختبار من لون جديد حيث طلع عليهم النبي آخر الأمر ليقول: " أيها الناس أسرى بي الليلة فسألوه إلى أين فأجاب " إلى بيت المقدس" فوضع الناس أيديهم على رءوسهم من شدة العجب، وانخلع من صفوف المسلمين من كان يعبد الله على حرف، إذ قد أثبتت الوقائع أنه لا يصلح أن يدخل مع النبي والذين معه في بقية الأمر التكليفى الذي اشتملت عليه آية الشورى حين خاطب الله نبيه بقوله: **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريقٌ في السعير﴾**.[1]

---

[1] الشورى : آية ٧.

الفصل الثاني

المـــد الإسلامي ومقاومـــــة قريـــــش

انتهت بنا السُنة الأولى من سنن الله الجارية في الهجرة إلـــى أن النبي والمسلمين معه قد ثبتوا على مبدئهم ثبوت الجبال الرواســى بل أشد من ذلك وأرسخ ، حيث حدث التاريخ أن القوم في معظمهم لم تنل منهم تصرفات قريش معهم في حين أن الجبال المحيطة بهم وغير المحيطة قد نال منها تقلب الليل والنهار، وتوالى الفصول واختـــلاف آثارها، وهبوب الرياح وعلو سرعتها أو بطؤها، إلى غير ذلك مما يقع أمام الحس منا، نشاهده ولا ننكره.

ولقد انتهت بنا هذه السُنة الأولى إلى استنتاج هذه النتيجة وهي : أن هذا الثبات على المبدأ داخل مكة أمر ضروري تقتضيه الدعـــوة، وانتشار الدعوة فيما بعد خارج مكة.

وما كان يفوت على مثلك هذه الحكمة الظاهرة من الإســـراء

بالنبي ﷺ ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث أراد ربنا في بعض ما أراد من حكمة الإسراء أن يعـــرض المســلمين علــى خبرها، فيظهر الثابتون على المبدأ ظهوراً لاخفاء فيه، وتـــهتز قلــوب الذين يعبدون الله على حرف، وينكصون على أعقابهم، ويرتدون عـــن دينهم فيتخلص المسلمون منهم، لأنهم لا يستطيعون أن يحملوا لـــواء الدعوة أول أمرها.

حكمة بالغة وربٌ عليمٌ حكيم.

وإن أركان مكة ليُدوى فيها جميعاً ما أوحاه الله إلى نبيه محدداً له المسار، وفاتحاً أمامه آفاق المستقبل من قوله تعالى : **{ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير}**[1].

---

[1] الشورى : ٧.

وأهل مكة جميعاً يسمعون هذه الآية فــلا يفهمونــها وحدهــا منعزلة عما يوحى إلى النبي ﷺ من أخواتها، وإنما هم يسمعون كل ما يوحى به إلى النبي ويفهمونه على وجهه، لا كما يحاول بعض الذين يدعون العلم في هذا العصر من تقطيع أوصال الوحى ومحاولة فهمه هكذا مفرقاً بعضه عن بعض، ومتناثراً على ما يُريدون، لا يربط بين أجزائه رابط.

قد أنصت المكيون إلى هذه الآية من سورة الشــورى بعــد أن أنصتوا قبلها إلى قوله تعالى **{ وأنذر عشيرتك الأقربيــن واخفــض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برئــىء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حيــن تقــوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم}**[1] .

وإن المكيين ليقرأون هذه الآية من ســورة الشــورى، وهــم يقرأون بعدها آية أخرى هي قوله تعالى: **{ وما أرســلناك إلا كافــة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون}**[2] .

يُنصت المكيون إلى وحى الله إلى النبي، ويفهم المكيــون مــا يُوحى به الله إلى النبي على وجهه لا يكاد يلتبس عليهم الأمر، ولا تكاد تخفى عليهم خافية منهم، إلا أن يقصدوا إلى العزوف عن فهم شئ منه، وما كانوا يفعلون.

فهمت قريشٌ أن الله قد أوحى أول الأمر إلى نبيه، يُخبره بأنــه قد اختاره إلى الرسالة.

ثم هو قد تطور معه حيث أمره أن ينذر عشيرتــه الأقربيــن ومافهم واحدٌ من المكيين أن الرساله الموحى بها هي خاصــة بــالنبي وحده.

---

[1] الشعراء: ٢١٤-٢٢٠.

[2] سبأ: ٢٨.

وما فهم واحدٌ من المكيين أن هذه الرسالة قد جاء بها النبي وهى قاصرة عليه وعلى عشيرته الأقربين، وأنه لا يجوز أن يُعلنها ولا أن يدعو أحداً من خارج عشيرته إلى الإيمان بها.

ثم ينزل على النبي ما يكلفه أن يصدع بما يؤمر، وأن يعرض عن المشركين.

وفهم سكان مكة أن هذا تطورٌ آخر في منهج الدعوة على سنة الله الجارية.

ولم يكد المكيون يفيقون من صدمة إعلان الخطوة السابقةحتى

وجدوا الآفاق وقد فتحت أمام النبي ﷺ بمقتضى قوله تعالى **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾**.

ثم يمتد الأفق أمام النبي ﷺ اتساعاً من جميع جوانبه، وهويسمع قول الحق له **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيراً﴾**

ولم يُحدث التاريخ عن المكيين أنهم حاولوا أن يُحملوا هذه النصوص معانى لم تحتملها هذه النصوص، كما يفعل الناس اليوم ظانين أو واهمين، أنهم بالغون من خدمة الذين طلبوا إليهم أن يخدموهم، من الثقافة الإسلامية أو الديانة الإسلامية شأوا بعيدا أو قريباً، والذى نهتم به الآن هو ما كان قد وقع في قلب المكيين من فهم

لهذه الآيات، وما اتبعه النبي ﷺ من سلوك يُعبر عن استجابته لهذه الآيات، وما حدث من رجع الصدى في قلوب المكيين حملهم على أن يقاوموا النبي ودعوته بأسلوب ابتكروه أو قلدوا فيه غيرهم.

أما النبي ﷺ فقد أبصر طريقه، وقد عمل له.

وأما قريش فقد أبصرت طريق المقاومة، وأخذت في سلوكه وما عمل له النبي، وما عملته قريش لمقاومة النبي ودعوته في هذا المجال، أريد لهذا كله أن يكون على سنة الله الجارية، لا يعدوها إلى غيرها، مع الأخذ في الاعتبار أن إرادة الله تامة وأن قدرته نافذة.

وهذا الذي ذكرته الآن بين يديك، يُعوزه كثيرٌ من الإيضاح ويُصلحه أن نضم إليه كثيراً من التفاصيل تجلو الأمر ولا توقع في الملل.

وأنت خبيرٌ الآن ولا شك، أننا سنقتحم مجالاً لم تسمع فيه صوتاً لأنين، ولن تسمع فيه ضجيجاً لتعذيب، ولن يقع أمام ناظريك فيه صورة إنسان يشد إلى حجر ملتهب، أو صورة إنسان يُكوى مفرقه بالحديد المحمى، أو صورة امرأة تربط كل رجل من رجليها في بعير ثم يضرب البعيران ليسيرا في طريقين متعاكسين.

إننا سنكون في مجال لن ترى فيه مثل هذه الصور، ولن تسمع فيه مثل هذه الأصوات التي أطلعناك عليها في الفصل السابق على هذا الفصل.

وإنما أنت سترى في هذا الفصل نموذجاً آخر، أساسه أن أحد الطرفين يصدع بالحق، ويتورع عن الكذب ويأخذ نفسه بالأمانة ويتعامل مع الناس بغاية الفطنة، ثم يُبلغهم ما يوحى إليه لا يسألهم عليه أجراً، ولا يطلب منهم في مقابله عوضاً، إنه يستحيى أن يخالف ربه، وربه يراه في سلوك أو أكثر يأتي به، وهو يستحيى أن يخالف ربه، وربه يسمع في قولٍ يصدر عنه.

ومع ذلك تراه يمتلئ شفقة على مُعارضيه، وتُحشى جوانبه حكمة في مُعالجتهم، وهو من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه لا يعدو أن يكون رحمة بالعالمين.

إنك سترى في هذا الفصل نموذجاً آخر، أحد طرفيه ما رأيت، والطرف الآخر من هذا النموذج لا يتورع عن الكذب ولا يتأبى على التضليل، ولا يخاف إن هوقال الكذب أو جانف التضليل أن يطلع على كذبه من يلومونه، وأن يقف على ضلالته من يكشفون عورته، إنه لا يخشى هذا كله ولا شيئاً منه، إذ هو يبرره لنفسه بأنها وسيلة إلى غاية تُبررها.

والغايات تبرر وسائلها عند أناس لن تعدمهم في عصر من العصور، ولله في خلقه شئون.

إن النموذج الذي ستراه أمامك في هذا الفصل بطرفيه، سيعتمد على أن يعرض الحق نفسه بغاية الوضوح، وأن يقاومه أعداؤه بغاية التضليل.

وأنا أحب أن أبدؤك أولاً بخطة العدو، ومدى نجاحها ثم أثنى

بما فعله النبي ﷺ وأصحابه لأكون مُنسجماً مع منهج القرآن فيما قال **{بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}**.

إن القرآن حين عرض الحق والباطل في هذه الآية، إنما بين لنا الباطل في أزدهي صوره التي يمكن أن يزهو بها، وفى أشد أحوال قوته التي يمكن أن يكون عليها، ثم عبر بقوله: بل نقذف، ولم يقل الله عز وجل ثم نواجه الباطل بالحق، ففى المواجهة يسرٌ وسهولة، وفى المواجهة رطوبة وليونة، وهى حالات لا تناسب غرور الباطل وانتفاخه، ولا تناسب اعتزاز الباطل بقوته التي يراها أصحاب الباطل حقاً، وهى في الحقيقة أكاذيب وضلالات.

إن حالة الباطل التي يظهر بها في كل زمان لا يناسبها إلا أن يقول ربنا **{بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}** علمت قريش أوائل عصر المبعث أن النبي قد اتسعت الآفاق أمامه، ورأت قريش أن الوحى قد أكمل صورة الدعوة الإسلامية حتى تراءت للناظرين، لم تعد تخفى على أحد، ورأوا أن الدعوة قد ثبتت أركانها في

مكة، وأن الكذب والتضليل والتزييف على النبي ﷺ أمورٌ لم تعد تصلح أو تخيل على أحدٍ من المكيين، مؤمناً كان أو كافراً، إذ قد آمن من آمن منهم، وهو عليمٌ بصدق إيمانه ووضوح ما آمن به.

ولقد كفر من كفر منهم، وهو يعلم أنه صادرٌ في كفره، إما عن خسة في الطبع تحمله على ما فعل، أو أجر يملأ البطون أو الجيوب، ينتهى به حتماً إلى ما انتهى إليه.

ويبقى أمام المكيين أن يفعلوا شيئاً يحولون به بين الإسلام وبين أن يمتد إلى الخارج، وليس أمامهم من حيلة إلا أن يفتروا الكذب على النبي، وإلا أن يُزيفوا كل قولٍ أو فعل يقوله النبي أو يفعله.

وإنك لعليمٌ أن مكة تعد قبلة للقاصدين إذا كان القاصدون من المتدينين، وهي تُعد طريقاً لمرور التجارة ذهاباً وإياباً.

وهي بمقتضى حالها هذا لن تخلو من الغرباء المارين، أو القاصدين إلى الإقامة فترة ثم يؤوبون من سفرهم عائدين إلى بلادهم.

ولقد ركزت قريش على هؤلاء الغرباء الذين يمرون بها، أو الذين يقيمون بها فترة من الزمن ثم يعودون.

واجتمع كبراء قريش في ناديهم لينظروا ما عساهم أن يفعلوه.

وبينما هم يفكرون فيما عساهم أن يفعلوه، إذ حدثت حادثة كادت أن تُذرى بأفكارهم جميعا، وكان لا بد أن يجدوا طريقا لمحاصرتها، وهذه الحادثة قد دارت حول ريحانة قريش الوليد بن المغيرة.

والقصة بتمامها تظهر لك فيما أنقله لك من هذه الرواية [روى ابن إسحق ومقاتل في تفسيره، وابن أبى حاتم وأبو نعيم والبيهقى والواحدى من طرق عن ابن عباس قال: لما أنزل على النبي ﷺ سورة غافر قرأها النبي ﷺ في المسجد، فسمعها الوليد ثم انطلق إلى مجلس بنى مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد كلاماً آنفاً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمونق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو ولا يُعلى ثم انصرف.

فقالت قريش: لقد صبأ الوليد، والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش كلها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه.

فانطلق حتى دخل عليه وهو حزين فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله.

فقال: لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له.

قال: وماذا أقول فيه؟ والله إنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن.

فقال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: دعني أفكر فيه.

فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقوله فيه.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن، فقد رأينا الكهان فما هو بزمزمه الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون.

قال: والله ما هو بمجنون فقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بشاعر.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده.

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله حلاوة وإن عليه طلاوة وإن أصلـــه لمغـدق وإن فرعه لمثمر، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه

باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر، فما يقول سحر يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبيـــن المــرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حيـــن قدمــوا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروه لهم][1].

قررت قريش إذاً أن تقعد بكل سبيل، وأن تجلـس علــى كــل طريق، لينفذوا خطة اتفقوا عليها وأجمعوا على أن يتهموا رســـول الله ﷺ بالسحر، وهم على ثقة بما قاله أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة، ولئن كان قد فاتك ما قاله فسوف أذكرك به [قال: والله إن لقوله حلاوة وإن عليه طلاوة وإن أصله لمغدق وإن فرعه لمثمر وما أنتم بقـــائلين من هذا[2] شيئا إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القـــول فيـــه أن تقولوا ساحر].

قعدت قريش بكل طريق قادم إلى مكة لتصد عن ســـبيل الله وتدعى أن الرسول ساحر، وهى تعلم أنها كاذبة فيما تدعيه.

وقد يبدو لك أول الأمر أن دعوة قريش في العرب وادعـــاءهم على رسول الله ﷺ قد أتى ثماره التي يبتغونها، وبلغ الــــهدف الــذي يرومونه أن يصل إليه.

غير أن سنن الله الجارية في خلقه يحكمها قانونٌ آخر، ونظام مختلف.

---

[1] سبل الهدى والرشاد جـ٢ – ص ٤٧٢ وما بعدها.

[2] يقصد الشعر والكهانة والسحر.

إنه قانونٌ وإنه نظامٌ يحكمان سلوك الناس على سنن الله الجارية، بحيث لا تتأتى الثمار على ما يهوى البعض، ولا تُنال المقاصد كما يُريد الآخرون.

ونحن نعلم من سنن الله الجارية أن الحق من الأقوال والأفعال فيه من عوامل بقائه واستمراره، ما يجعله لا يحتاج إلى غيره ولا يركن إلى سواه.

أما الباطل فقد أراد الله له أن يحمل عوامل فنائه، وأن ينطوى على أسباب تدميره.

والناس لا يفوتهم إدراك هذا ولا ذاك خاصة إذا كانوا من العقلاء الذين قد من الله عليهم بقدر من الذكاء، ومقدرة على سلوك الطريق القويم.

غير أن الباطل قد يجد له مناخاً مناسباً من نفوس البشر ورغباتهم وشهواتهم، فيقدر له قدرٌ من الذيوع والانتشار يظن الناس معهما أن الباطل قد مُكن له في الأرض، ثم هي لا تكون إلا أياماً تطول أو تقصر، حتى يسأم الناس الباطل، وحتى يمل الخلائق الانضواء تحت لوائه، إذ في استمرار التبعية للباطل من العار ما يلحق المرء في شخصه، ثم يلاحقه في عقبه إلى أجيال لا ينجو منها إلا أناسٌ قد تبرءوا من تبعية الآباء والأجداد.

وإنى إذ أقول هذا القول أستحضر معه صورة أهل مكة، وهم يقعدون للناس بكل طريق يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

وما كانوا يقتصرون على أن يقولوا للناس: إياكم وهذا الفتى فإنه ساحر، وإنما زادوا على ذلك فأغروا بأحدهم ممن له رحلات وأسفار، قد مكنت له هذه الرحلات كما مكن له هذا السفر من أن يلتقى بالقصاص من أهل الديانات فيسمع منهم كلاماً غريباً يصح في التاريخ أو لا يصح.

عمدت قريش إلى أحد هؤلاء، وحملته حملاًعلى أن يجلس في كل مجلس جلس النبي فيه، وقرأ على الناس القرآن، فيجلس فيه بعده، ويقص على الناس من قصص الغابرين، ويحكى لهم من تاريخ

الأوابد قصصاً صحيحة أو مُفتراة، ثم يُعاجلهم بسؤال قبل أن ينصرفوا قائلاً: ما الذي يتميز به محمدٌ علي، وما الذي يمتاز به كلام محمد عما أذكره لكم؟ إن بعض القصاص كان يفعل ذلك لا رغبة في إرضاء قريش فقط، ولكن رغبة في أن يحصل على مكانة اجتماعية يرمقه الناس فيها بالعيون، ويشيرون إليه من علياته بالبنان.

ومما يصلح للتمثيل به هنا رجلٌ من قريش يُقال له النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

ولهذا الرجل مع قريش ومع النبي مواقف مختلفة يُسجلها التاريخ له ولا يغبطه أحدٌ عليها.

فأنت تجده على إيمان وتصديق بما جاء به النبي ﷺ كإيمان وتصديق الوليد الذي حدثناك عنه قريباً، إيمان وتصديق لم يصلا به إلى شئ ينفعه عند ربه.

في سيرة ابن هشام قصة من قصص كثيرة تعرض فيها أبو جهل إلى النبي يؤذيه علناً، فتصدى له النضر بن الحارث يدافع عن النبي وعما جاء به [... فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

قال ابن إسحق: فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم.

وقلتم كاهن، لا والله ماهو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم.

وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه.

وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوسته ولا تخليطه.

يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم][1].

وهذا كلامٌ حسن، غير أن قريشاً لها أمرٌ آخر وتصر على بلوغه.

وإن قريشاً كما عرفت الطريق الىقلب الوليد تعرف الطريق ولا شك إلى قلب النضر.

فالنضر يحب التميز الاجتماعى، ويجب أن يكون في مقام الصدارة من قومه.

ولقد أوهمه قومه أنه يكون ممتازاً من بينهم لو خالف محمداً ولو جلس له كل مجلس ينال منه ويؤذيه في شخصه وفيما جاء به.

وبلغت قريش ما تريد من النضر فتصدى إلى إيذاء محمدﷺ.

[فكان النضر إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن، وحذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذ قام، فحدثهم عن رستم السنديد، وعن اسفنديار، وملوك فارس.

ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها.

فأنزل الله فيه: **{وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً}**[2]

ونزل فيه **{إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين}**[3]

---

[1] ابن هشام سيرة جـ ١ - ص ٢٦٥ وما بعدها.

[2] الفرقان: آية ٥،٦.

[3] القلم: ١٥، المطففين: ١٣.

ونزل فيــه **{ويلٌ لكل أفاكٍ أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقــــراً فبشـــره بعذاب أليم}**[١]][٢] .

[قال ابن إسحاق: وكان ابن عباس رضى الله عنـــهما يقـــول، فيما بلغنى: نزل فيه ثمان آيات من القرآن: قول الله عز وجل : **{إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين}**

وكل ما ذكر فيه من الأساطير في القرآن][٣] .

وصلت قريشٌ مع النضر إلىهذه الحال التـــي تريدهـــا منـــه وانتهت حياة النضر على نحو ما انتهت إليه حياته في التاريخ. غـــير أن قصة النضر لها دلالتها من إنها مشيرٌ صادق إلى عزم القرشييـــن

وتصميمهم على أن يصلوا في محاربة النبي ﷺ إلى الـــهدف الـــذي يريدون الوصول إليه، مهما كلفهم ذلك من عنت، ومهما دفعهم ذلك إلى ممارسة سوء الفعال، وتجاوز كل حد خلقى فيما يصـــدر عنـــهم مـــن أقوال.

وفى سبيل هذه الحرب الإعلامية صارت قريش فـــي هذيـــن الخطين في وقتٍ واحد.

خط الدعاية ضد النبي، وهى دعاية كاذبة ولا شك، حرصـــت أن تصل بها إلى كل أذن وافدة إلى مكة، وإلى كل فؤاد قادم إلى البلـــد الحرام في نسك أو تجارة.

كما حرصت قريشٌ في خطٍ آخر على أن تُتبع النبي ﷺ بمن يخلفه في مجالسهم، ليقول للناس بعده:

---

[١] الجاثية ٦:٨.

[٢] ابن هشام سيرة جــ٢ - ص ٧.

[٣] ابن هشام سيرة جـــ ١ - ص ٢٦٥.

إن ما يأتى به النبي هو من قصص الغابرين، يُعلمه إياها بشر، وهو قد اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً.

وأجهدت قريش نفسها غاية الإجهاد، وهى تسير فــي هذيــن الخطين سيراً حسيساً لا يعرف التمهل، ولا هم يرغبون في أن يقطعوا هذا السير لحظة من ليل أو ساعة من نهار.

وقد يظهر للبعض بادى الرأى أن القوم قد بلغوا من ذلك مــا أرادوا أن يبلغوه، خاصة وأنهم قد توفر لهم الكثير من أســباب الغلبــة فعددهم كثير، ومكانتهم الاجتماعية مرموقة، وصيتهم ذائعٌ منتشر، إلى غير ذلك من أسباب الغلبة، التي إذا توفرت لأحد الخصمين تحققت له الغلبة ولا محالة.

أما النبي فهو فردٌ واحد، ومن معــه مــن المســلمين قــومٌ مُستضعفون يعم الضعف أكثرهم.

ومن كانت له منعة فإن ما يتوفر له منها، لا يبلغ إلا أن يحميه من أذى قومه، أما أن تبلغ المنعة به إلى حد أنه يصبح داعيــة لديــن النبي ﷺ، فهذا ما لا يقبله قومه الذين كانوا سبباً في منعته.

قد يظن البعض بادى الرأى أن قريشاً قد توفرت بما توفر لــها من أسباب الغلبة، قد وصلت إلى غايتها مــن النصــرة علــى النبــي ومبادئه.

وهذا الذي يتصوره المرء بادى الرأى، لم يلبث أن يتبدد عند ممارسة شئ من التأمل في المبادئ التي جاء بها النبي، وما يدعو إليه القرشيون الناس إلى الثبات عليه، وهذا الذي يتصــوره المــرء بــادى الرأى لم يلبث أن يتبدد، إذا هو نظر بدقة في واقع القوم وفى تسلســل الأحداث، إن المتأمل في المبادئ التي جاء بها النبي ﷺ، وفيما أرادت قريش للناس أن يثبتوا عليه سيجد بغاية الوضوح أن ما جاء به النبــي هو الذي يستحق الحياة والاستمرار والبقاء، لأنه ينطوى على عوامــل بقائه ولا يحتاج إلى مساعد من خارج، ولأنه يمتاز بشدة

لمعانه ووضوح أصله وفرعه، فلا يخفى على عقل سليم ولا على فطرة مستقيمة، ولأنه يطرح عنه جانباً هذا الأسلوب الأثيم، من النفعية التي يجنح البعض إليها لتغطى عندهم جوانب من نقص الشخصية، أو من طلب لشهوتى النفس والجسم.

وإن هذه الميزات التي تميز بها وبغيرها هذا الدين الجديد، أتاح الله للعقول السليمة والفطر المستقيمة أن تقبل على هذا الدين تتأمله وعلى هذه المبادئ تنظر فيها، لا يصدها عن ذلك أن تكون قريش قد قعدت لهذه العقول على كل سبيل، ولا يصدها عنها أن تكون قريش قد حاولت أن تصدها عنها بكل وسيلة من وسائل التزييف والتضليل.

وأنت تستطيع أن تتأمل وقائع التاريخ في هذه الحقبة من حقب الزمان، لترى أمثلة تنطق بالحق وتبين عن مقاصدها ومغازيها.

[روى ابن سعد عن أبي عون الدوسي، والبيهقي عن ابن إسحاق، وابن جرير وأبو الفرج الأموى عن العباس بن هشام، عن أبيه

الطفيل بن عمرو حدَّث أنه قدم مكة، ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل[١] بنا وفرَّق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمع منه.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أنى لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، وحتى حشوت في أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً[٢] فرقاً من أن يبلغنى شئ من قوله.

فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلّى عند الكعبة فقمت قريباً منه، فأبَى الله تعالى إلا أن يُسمعنى بعض قوله

---

[١] أى اشتد أمره، يقال أعضل الأمر إذا اشتد ولم يوجد لـه وجـه ومنـه الـداء المعضل.

[٢] بضم الكاف وإسكان الراء وضم السين المهملة ففاء وهو القطن.

فسمعت كلاماً حسناً فقلت في نفسي: إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليَّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلت، وإن كان قبيحاً تركت؟.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته فقلت: إنَّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا، وإني شاعر فاسمع ما أقول.

فقال النبي ﷺ هات. فأنشدته.

فقال رسول الله ﷺ : وأنا أقول فاسمع.

ثم قرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم **{بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد}** إلى آخرها و**{قل أعوذ برب الفلق}** إلى آخرها و **{قل أعوذ برب الناس}** إلى آخرها، وعرض على الإسلام فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه فأسلمت وقلت:

يانبى الله إنى إمرؤ مُطاع في قومى، وإنى راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم.

فقال: اللهم اجعل له آية.

فخرجت إلى قومى في ليلة مطيرة ظلماء، حتى إذا كنت بثنية[١] تُطلعنى على الحاضر[٢] وقع نور بين عينى مثل المصباح فقلت: اللهم في غير وجهى، إنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهى فتحول فوقع في رأسى سوطى كالقنديل المعلق، وأنا أهبط عليهم من الثنية حتى جئتهم، فلما نزلت أتانى أبى فقلت:

إليك عنى يا أبت فلست منى ولست منك فقال: لم يا بنيَّ؟

فقلت: قد أسلمت وتابعت دين محمد.

---

[١] الطريق فى الجبل.

[٢] القوم النازلون على الماء.

قال: أي بُنى فدينى دينُك.

فقلت: فاغتسل وطهر ثيابك ففعل ثم جـــاء، فعرضـــت عليـــه الإسلام فأسلم.

ثم أتتنى صاحبتى فقلت: إليكِ عنى فلست منكِ ولستِ منّى.

قالت: ولم بأبى أنت وأمى؟

قلت: فرّق بينى وبينك الإسلام وتابعتُ دين محمد.

قالت: فدينى دينك.

فقلت: اذهبى فتطهرى ففعلتْ. فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت، ولم تُسلم أمى.

ثم دعوت دوساً فأبطأوا[١] علىَّ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت:

يا نبي الله إنه قد غلبنى على دوس الزّنا فادع الله عليهم.

فقال: اللهم اهدِ دوساً، وائت بهم، ارجع إلى قومك وارفق بهم.

فرجعت فلم أزل بأرض قومى أدعوهم حتى هاجر النبـــي ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق فقدمت على رســـول الله ﷺ بمن أسلم ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلـــت المدينـــة بســـبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا رسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مـــع المسلمين][٢].

[قال ابن إسحاق: ثم قدم على رســـول الله ﷺ وهـــو بمكـــة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من

---

[١] بهمزة مضمومة آخره أى : تأخروا.

[٢] سبل الهدى والرشاد، جـــ ٢ - ص ٥٤٨ وما بعدها.

الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم[١] حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عماأرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن.

فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم:

خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون[٢] لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق[٣] منكم أو كما قالوا.

فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل[٤] أنفسنا خيراً.

ويقال: إن النفر من النصارى من أهل نجران[٥] فالله أعلم أي ذلك كان.

فيقال – والله أعلم – فيهم نزلت هذه الآيات **{ الذين آتيناهم الكتابَ من قبلهِ هُم به يُؤمنون * وإذا يُتلى عليهم قالوا امنا بهِ**

---

[١] جمع نادٍ وهو متحدث القوم بفتح الدال.

[٢] تطلبون لهم الأخبار.

[٣] الحمق بإسكان الميم وضمها: قلة العقل.

[٤] أى لم نقتصر بها عن بلوغ الخير، يقال: ما ألوت، أى ما فعلت كذا وكذا، أى ما قصرت.

[٥] بفتح النون وإسكان الجيم: بلدة معروفة، كانت منزلاً للنصارى، وهى بين مكة واليمن على نحو سبع مراحل من مكة.

إنه الحق من ربنا إنا كُنّا من قبله مسلمين} ... إلى قوله **{ لنـــا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين}]**[١] .

وهذان المثالان لهما في تاريخ النبي مع قريش نظائر كثـــيرةٌ وأشباه، غير أننا قد اقتصرنا على هذين المثالين حيـــن رأينـــا أنـــهما يُغنيان الغناء كله فيما قصد من سياقهما من أغراض ولا حاجة بعدهما إلى مزيدٍ من جنسيهما.

لقد استفرغت قريش جُهد الطاقة فيما أرادت أن تفعلـــه ضـــد النبي ﷺ والدين الذي جاء به.

وما كان لمثل قريش مع النبي أن تُقصر في شئ تراه نافعاً في تحقيق غرضٍ من أغراضها، يحسم الصراع بينها وبين رســـول الله.

وما كان لمثل قريش مع النبي ﷺ أن تُنحى حيلة من الحيـــل يشور بها أحد عليها، وتراها هي نافعة تحقق لها ما يُرضيها في مجال قضيتها المثارة، بينها وبين النبي ﷺ .

غير أن قريشاً مع إخلاصها الشديد لمنهجها، ومـــع حرصـــها الشديد على النيل من النبي ﷺ ، لم يُقدر الله لها أن تصل إلى غايـــةٍ من غاياتها، بل إن الله قد وضع في قلب كل واحدٍ من أبنائها شعـــوراً لا يكاد يخطئ بصدق النبي ﷺ في مُدعاه، وأن الله قد وضع في قلب كل واحدٍ من القرشيين يقيناً مُطلقاً بأن النبي ظاهر لا محالة، وأن مـــا جاء **به يعلو** ولا يُعلى عليه، وأن من يُحدثهم النبي ﷺ لـــن يُخدلثـهم حديثه، ولن يرتاب واحدٌ منهم في قولٍ من أقواله.

وهذه المشاعر كلها في صالح النبي ﷺ ، وصالح دعوته إلى الدين الذي جاء به.

---

[١] سيرة ابن هشام حـــ٢ – ص ٢٨ وما بعدها.

فهل تظن والحالة هذه أن النبي ﷺ يبقى معتمــداً علــى مــا وضعه الله في قلب كل واحدٍ من القرشيين، وفى عقولهم من المشاعر

التي ذكرت لك، ولا يُحرك ساكناً على أساس أن ما جاء به يعلــو ولا يُعلى عليه، وعلى أساس أن القرشيين بمشاعرهم هذه لا بد منهزمون، وأن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة وقت ثم تنحسم.

أما كاتب هذه السطور، فيرى أن النبي لو بقي على هذا الحال لكان مخالفاً لأمر ربه له ولأمته أن يسلكوا إلى تحقيق أغراضهم ســنن الله الجارية، حتى يمتازوا عمن سبقهم من الأمم، وحتى يؤكدوا للعالمين أن هذه الأمة هي آخر الأمم، وأن هذه الرسالة هي آخر الرسالات، وأن هذا النبي لا نبي بعده ولا رسول.

إن كاتب هذه السطور ليتأمل في القرآن الكريم، حين يتحــدث القرآن الكريم عن السابقين من الأنبياء والأمم، فــلا يــرى إلا أنبيــاء مهمتهم أن يُبلغوا وأن يدعوا إلى الله بالحســنى، وأن يــأخذوا النــاس بالتؤدة واللين.

فإن خالفتهم أممهم ووقفوا في سبيل دعوتهم لم يأمر الله هؤلاء الأنبياء والذين معه أن يخوضوا مع الكافرين معارك حربيــة، وإنمــا يتولى الله بنفسه حسم ما بين الأنبياء وبين الذين خالفوهم من الأمم.

لقد حدث هذا مع نوح، وحدث هذا مع سائر الأنبياء من بعــده

إلى أن أدرك الكون محمداً ﷺ، فتغيرت الصورة، وتغير التكليف لأمر يُريده الله عز وجل، فإن شئت فاقرأ قول الله تعالى عن الســابقين مــن الأنبياء وأممهم:

{ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومهِ فلبثَ فيهم ألف ســنةٍ إلا خمســين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين * وإبراهيم إذ قــال لقومــه اعبــدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون مــن دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون

لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكـــروا لـــه إليـــه تُرجعون * وإن تكذبوا فقد كذب أممٌ مـــن قبلكـــم ومـــا علـــى الرسول إلاَّ البلاغ المُبين * أولم يروا كيف يُبدئ الله الخلقَ ثم

يُعيدُهُ إنَّ ذلك على الله يسير * قُل سيروا في الأرض فـــانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشئُ النشأة الآخرةَ إنَّ الله على كل شئ قدير * يُعذبُ من يشاءُ ويرحمُ من يشاء وإليه تُقلبون * ومـــا أنتم بمُعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم مـــن دون الله من ولى ولا نصير * والذين كفروا بآيـــات الله ولقائـــه أولئـــك يئسوا من رحمتى وأولئكَ لهم عذابٌ أليم* فما كان جوابَ قومهِ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوهُ فأنجاهُ الله من النار إن في ذلـــك لآياتٍ لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتـــم مـــن دون الله أوثانـــاً مودةَ بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعـــض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * فآمنَ له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هـــو العزيـــزُ الحكيـــم * ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ وجعلنا في ذريتـــه النبـــوة والكتـــابَ وآتيناهُ أجره في الدنيا وإنه في الآخرةِ لمنَ الصالحين * ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحـــد مـــن العالمين * إنكم لتأتونَ الرجالَ وتقطعون السبيل وتـــأتونَ فـــي ناديكمُ المُنكرَ فما كانَ جواب قومهِ إلا أن قالوا ائتنا بعـــذاب الله إن كنت من الصادقين * قالَ ربِّ انصرنى على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهـــل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قـــالوا نحن أعلمُ بمَن فيها لنُنجينّهُ وأهلهُ إلا امرأتهَ كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسُلنا لوطاً سئَ بهم وضـــاق بـــهم ذرعـــاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوكَ وأهلكَ إلا امرأتكَ كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من الســـماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينةٍ لقوم يعقلـــون *

وإلى مدينَ أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مُفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين * وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلاً أخذنا بذنبهِ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرضَ ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}[1].

إن كاتب هذه السطور ليتأمل القرآن على هذا النحو، فيجد الأنبياء السابقين وأممهم ما كانوا في الغالب يؤمرون بقتال، وما كانوا في الغالب يؤمرون بحمل السيف ليُفسحوا الباب أمام الحق لا يُعارضه مُعارض، ولا يقف دونه مانع حتى يتمكن الحق من عرض نفسه على العقل، يترك صاحبه بالاختيار بين أن يقبله أو يرفضه على إرادةٍ منه يشعر بها، ويشعر بكيانه من خلالها.

أما حين انتهى الأمر إلى النبي الخاتم، وإلى أمته التي هي آخر الأمم، كلف الله هذا النبي وهذه الأمة أن تتولى أمرها على سننه الجارية، وأن تُباشر شئونها آخذةً في الأسباب إلى تحقيق الأهداف.

ولقد علم النبي ﷺ مهمته، وعلم النبي ﷺ الطريقة التي سيتبعُها إلى بلوغ غايته.

ولقد بدأتك حين بدأتك في قصة الصراع بين النبي وقريش بالحديث عن قريش أولاً، وأجلت الحديث عن النبي وما اتخذه من مواقف، وما سلكه لتحقيق غايته من سبل.

وأنا قد بررت لك هذا المسلك سلفاً بما لا يُحوجنا الآن إلى إعادة الحديث عن التبرير، لنقف سوياً آخر المطاف على ما سلكه

---

[1] العنكبوت : الآيات من ١٤ : ٤٠.

النبي ﷺ في سبيل الدعوة إلى مبدئه، وفى سبيل مقاومة خصمه من سبل، وسوف أراها وتراها كلها موافقة لسنن الله عز وجل في الناس ولأسبابه المعتادة التي تضبط سلوكهم الاجتماعية.

تُرى ما عسى أن يفعله النبي ﷺ ليُحقق للإسلام نوعاً من الامتداد خارج مكة، بعد أن أرسى لقواعده في أم القرى.

لقد سلك النبي لتحقيق هذه الغاية مسلكين عظيمين:

أحدهما: مقابلة الوفود بنفسه وعرض الدعوة عليهم في أيام مواسم الحج والعمرة، وفى كل مناسبة تتيح للوافدين فيها أن يأتوا إلى بلد الله الحرام.

وثانيهما: أن النبي ﷺ قد عقد العزم على أن يرسل رجالاً بلغت العقيدة منهم مبلغها، وأصبح الإسلام كائناً حياً يدخل في نسيجهم ويخالط خلاياهم، ويتشكل منه لحمتهم وسداهم.

عقد النبي العزم على أن يرسل رجالاً هذه بعض صفاتهم ليلقى بهم في مجتمعات خارج مكة حتى يعايشوا الناس فيها يراهم سكان هذه البلدان رأى العين، دون أن يكلفهم النبي أن يكونوا دعاة لهذا الدين، أو هو يكلف بعضهم في بعض الأحايين.

خطان عظيمان **أحدهما:** سيتولى النبي العمل فيه بنفسه **وثانيهما:** سيتولى النبي فيه العمل بواسطة ثمار دعوته، وهم الذين اتبعوه عن قناعة، وآمنوا به عن رغبة، ولا هدف لهم إلا أن يحققوا رضى ربهم.

ودعنى أحدثك عما انتهجه النبي ﷺ من إرسال بعض صحابته إلى خارج مكة، كى يعيشوا في بعض البلدان المجاورة حتى يراهم الناس وهم يسلكون إلى الله الطريق الذي يرتضيه.

وقبل أن أرتاد معك هذا الطريق الشيق، وقبل أن أسير معك في هذا السبيل الممتع، دعنى أحدثك حديث الأخ لأخيه على سفر طويل.

وأنا لم أقصد بحديثى معك أن أصرفك عن أحداث هذه الطريق الشيقة، ولكنى أريد من خلال الحديث معك أن أكشف لك عن عقيدتـــى في قاعدة اجتماعية قعد لها بعض علماء الاجتماع، وأنا أخالفهم فيـــها غاية المخالفة.

إنهم يقولون: إنه إذا كان هناك مجتمع كبير له عوائده وتقـــاليده، ولـــه أفكاره وعقائده، ثم دخل إليه جماعة صغيرة أو جماعات، لها ســـلوكها الخاص وآدابها التي تمتاز بها وعقائدها وأفكارها التي أقبلت بها.

إذا كانت هناك جماعة كبيرة من البشر لها مالـــها مـــن ثقافـــة ودخلت فيها جماعة أخرى صغيرة لها ثقافة مخالفة، فإن المحتوم الذي لايتخلف أن المجتمع الكبير يأكل المجتمع الصغير، ويحوله إلى جـــزء من نسيجه، ويأتى على بناء ثقافته من القواعد ويحولـــها مـــن الواقـــع المحسوس إلى سجلات التاريخ المقروءة.

هذا ما يقوله علماء الاجتماع أو بعضهم على الأقل، وهذا مـــا أردت أن أطلعك عليه، وأطلعك معه على عقيدتى فيه.

أما الذي اعتقدته فيما ذكره علماء الاجتماع، فهو أنى أخالفـــهم شيئاً ما من المخالفة، قد يباعد الخلاف بينى وبينهم غاية البعـــد، وقـــد يكون الخلاف قريباً يمكن السيطرة عليه، حتى تكون الشقة بيننا وبينهم ضيقة.

إنى أرى – على كل حال– أن الحكم فيما ذكروه ليـــس علـــى إطلاقه، وإنما هو حكم يحتاج إلى شئ من التفصيل، ويحتاج إلى شـــئ من التقسيم، بحيث نتمكن من خلال التقسيم والتفصيل أن نحكم على كل قسم بما يناسبه من الأحكام.

فما كل جماعة صغيرة تدخل في مجتمع كبير بذائبة في هـــذا المجتمع الكبير، وما كل مجتمع كبير بقادر على أن يهضم كل ثقافة ترد إليه، ثم يذهب بها إلى دهاليز من الغيوم تطويها طياً، بحيـــث تحجبـــها عن الأسماع والأبصار.

بل إني أقول لك ، ونحن نقطع الطريق معاً قاصدين إلى ما نريده، إن الجماعات ليست هي السبب المباشر في المحافظة على ثقافة والحكم على الأخرى بالذهاب إلى ما وراء الأعين والأبصار، بل إن صراع الثقافات يحكمه قانونٌ آخر، إذا كنا سنحاول أن نعمد إلى الواقعية في تصورنا للأشياء.

إن المعيار الحقيقي في مجال صراع الثقافات إنما هو معيارٌ ذاتي.

فالثقافة التي تنطوي على أسباب بقائها وتشتمل على عوامل استمرارها، هي الثقافة التي يُكتب لها البقاء في مجتمع يدور فيه الصراع بين الثقافات بصرف النظر عن أن تكون هذه الثقافة هي ثقافة الأغلبية، أو ثقافة الأقلية.

والثقافة التي تحمل في طياتها عوامل فنائها، وتشتمل على العوامل التي تذهب بها، هي الثقافة التي يكتب لها الفناء في وقتٍ يطول أو يقصر، مهما كانت الجماعة التي تعتنقها وتعمل على بقائها.

واستناداً إلى ما ذكرت لك تستطيع أن تتأمل الواقع، وتتأمل التاريخ، فتعلم من خلال تأملك للواقع والتاريخ، أنه من الممكن أن تدخل جماعة صغيرة هي على الحق في سلوكها ومعتقداتها في مجتمع كبير هو على الباطل في سلوكه ومعتقده، فتغير الجماعات الصغيرة بواسطة الحق الذي هي عليه، في سلوك الجماعات الكبيرة وعقائدها تغييراً كاملاً، بحيث تنزوي عقائد وعوائد الجماعات الكبيرة، فيسيطر مكانها عقائد وعوائد الأقلية ولو كانت وافدة، وعكس ما ذكرناه لك صحيحٌ، بل هو أقرب إلى التصور مما ذكرناه لك قبل ذلك، إذ لو دخلت جماعة صغيرة بعقائد وعوائد فاسدتين في مجتمع كبير، بعقائده الواضحة وعوائده السليمة، فإن الأقلية الوافدة لن تبقى على عقائدها وعوائدها إلا وقتاً يسيراً ثم تنصرف عنهما لتذوب في المجتمع الكبير تعتنق عقائده وتنتهج عوائده، وهي في ذلك ممتلئة بالزهو شاعرة بارتفاع الهامة آناً بعد آن.

هذه هي فكرة بعض علماء الاجتماع، وهذا هو رأيي فيما ذكروه، وسواء اتبعتني على رأيي أو اتبعتهم على آرائهم، فإني في الحالتين غير نادم على هذا الوقت الذي صرفته وأنفقته، وأنا أحدثك

عما قاله القوم وعن رأيي فيه لأن حديثي لك وكلامي معك لن يذهب بغير فائدة على كل حال.

ثم نعود إلى رحلتنا الطويلة مع النبي وهو يسلك أحد خطيه ليحقق للإسلام نوعاً من المد خارج مكة، حيث أراد لهذا الإسلام أن

يبلغ أناسًا أمره ربه أن يبلغه إليهم وإلى أمثالهم، حتى لا يكون لهم جميعاً عند الله عذر.

قرر النبي ﷺ أن يرسل رجالاً إلى الجنوب من مكة حتى يصلوا إلى الحبشة، ويقيموا بها فترة من الزمن إلى أن يأذن الله بالعودة.

تُرى لماذا عزم النبي ﷺ على أن يسلك رجال من المسلمين هذا المسلك، وعلى أن يتركوا أرضهم وديارهم وأموالهم وأهليهم وراء ظهورهم، ويخرجوا من هذا كله إلى بلاد ليس لهم فيها تاريخ ولا أصل، ولا يربطهم بها ولاء، ولا تتعلق بها عواطفهم أو أشواقهم؟

أما الكثيرون من المؤرخين، فقد رأوا أن النبي ﷺ قد أخرج القوم، حيث رأى أنهم يعذبهم قومهم، ولا يكفون عن أذاهم، وأنه ممنوع قد منعه ربه، وهيأ له من الأهل والعشيرة ما يجعل أعداءه ييأسون منه.

ومع هذا الفارق بين حاله وحال تابعيه، فإن النبي ﷺ لم يستطع أن يمنع رجاله، وأن يجنبهم الأذى، فلم يكن أمامه إلا أن يشير عليهم بالهجرة إلى الحبشة.

وهذا كلام قد يجد له مبرره من التاريخ، فنحن نستطيع أن نقرأ في التاريخ عن هذه المضايقات التي كان يتعرض لها أصحاب النبي ﷺ، وعن هذا الأذى الذي كان يلاقيه المسلمون الأوائل من أقوامهم.

إنه لصحيح ما ذكره المؤرخون من تعرض القوم للأذى وللمضايقات، وإنه لصحيح ما يذكره المؤرخون من أن النبي ﷺ كان

في منعة، لا يقدر قومه أن ينالوه معها بالأذى قدرتـــهم علـــى إيـــذاء أصحابه وتابعيه.

وإنه لصحيح ما يذكره المؤرخون من أن النبي ﷺ، لم يكـــن يملك من الأسباب في هذه الحقبة قدراً يمكنه من الدفاع عن أصحابـــه ورد الظلم عنهم.

إن هذا كله لصحيح غاية الصحة، لا ننكره، ولا مصلحة لنا في إنكاره، ولا يقبل منا البحث العلمي أن ننكره.

لكن الذي ننكره أو نتحفظ عليه، هو هذه النتيجة التي استنتجها بعض المؤرخين من حوادث التاريخ التي سبقت الإشارة إليها.

وهذه النتيجة التي ننكرها، ولدينا من الأسباب الكثير الذي نستند إليه، ونحن نتحفظ على نتيجة كنتيجة المؤرخين التي اســتنتجوها مــن الحقائق السالفة الذكر، هي أن القوم قد استنتجوا من الحقــائق الســالفة الذكر أن النبي ما أرسل بالمسلمين إلى الحبشة، إلا رقة عليـــهم مــن العذاب، وإلا رفقاً بهم من استمرار الأذى، وإلا تعبيراً عن نقص الحيلة عنده، وضعف الأسباب لديه حتى وصل به الحال إلى أنه لم يعد يملك وسيلة من وسائل الدفاع عنهم..

وهذا الذي ذكروه استنتاجاً من الحوادث، لا نراه نحـــن يرقـــى إلى مرتبة السبب الذي يؤدى بالنبي ﷺ إلى أن يأمر أصحابه بالهجرة، وقصارى ما يمكن أن نصف به هذه النتيجة التي استنتجها المؤرخون، هي أنها داعية من دواعى الهجرة، أو مناخاً ملائماً يشجع المهاجر على الهجرة، ويخفف من آلامه النفسية التي تحيط به وهو يترك أحب بـــلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إلى نفس كل مهاجر.

وأنت لا يخفى عليك أن الله إذا أراد أمراً على سننه الجاريـــة وفر له أسبابه، ووفر له دواعيه، ووفر له المناخ الذي يســـاعد علـــى تحقيقه.

وفى مسألة هجرة المسلمين إلى الحبشة، نحن لا نـــرى ســـبباً لاتخاذ النبي قراره الصارم في أن يهاجر بعض أصحابه إلى الحبشـــة،

إلا أن يكون النبي قد بدأ يأخذ في سبيل نشر الدعوة الإسلامية خـــارج مكة، تنفيذاً لأمر ربه **{لتنذر أم القرى ومن حولها}**.

والنبي ﷺ صاحب الأفق العالي يعلم **أولاً:** أنه قد ربى رجالاً تعرضوا إلى ما تعرضوا إليه من الترغيب والترهيب، فلم يجذبهم إلـــى الكفر سبب من الأسباب، ولم يصرفهم عـــن الإســـلام صـــارف مـــن الصوارف، ويعلم النبي **ثانيا:** أن الإسلام الذي يدعو إليـــه، فيـــه مـــن عوامل بقائه واستمراره ما يجعلـــه يؤثـــر فـــي معتقـــدات الآخريـــن وعوائدهم، مهما توفر للآخرين من كثرة العدد الذي قـــد يوحـــي لـــهم باستحقاق الغلبة على غيرهم، والنبي يعلم **ثالثا:** أن أرض الحبشة قـــد توفر فيها أمران عظيمان هما: عدل الحاكم، وأمان الأمة بسببه وصدق الشعوب.

علم النبي ذلك كله، فكان ذلك كله داعية أخرى تعيـــن علـــى اتخاذ القرار، ومناخاً ملائماً يشجع القوم على الهجرة.

والصورة كلها مكتملة في ذهن النبي، وهو يتصورهـــا بأفقـــه العالي، والذى بلغ من اتساعه، أنه قد أحاط بجميع الدواعى، سواء من كان منها في مكة كتعذيب قومه وإيذائهم، أو من كان منها في الحبشـــة كعدل الحاكم وصدق الرعية.

ولم يفت النبي ﷺ أن يدرك السبب الحقيقى وراء الهجرة، بعد إدراكه للدواعى التي تحمل عليها.

والسبب الحقيقى يدور كله حول نقطة واحدة هي: حرص النبي ﷺ على أن يخرج الإسلام خارج مكة، وعلى أن ينتشر فيما حولـــها كما كلفه ربه.

والنبي ﷺ قد أطلع القوم على الدواعى، ولم يطلعـــهم علـــى السبب، حيث إن السبب سيعمل عمله بطريقة تلقائية، إذا مـــا توفـــرت الدواعى، وأزيلت المعوقات.

والمسلمون يدركون أنهم قد أوذوا في بلادهـــم، فـــي محاولـــة محمومة للحيلولة بينهم وبين ما يريدون أن يعتنقوه من مبادئ وعقائد.

ولكن الذي لا يدركونه من الدواعى هو ما في أرض مهجرهم من مناخ يلائم هجرتهم، يعلمه النبي ولا يعلمونه، ويدركه النبي ﷺ ولا يدركونه.

وكان على النبي ﷺ أن يوضح هذه الداعية من دواعى الهجرة، ساعة أمرهم أن يهاجروا، وساعة سألوه إلى أين يا رسول الله، قال النبي ﷺ : إلى الحبشة، فإنها أرض صدق، وفيها ملك عادل لا يظلم أحد عنده.

وقد أدرك المسلمون بعد هذا التوجيه النبوى، دواعى الهجرة ومناخها الملائم، حيث أدركوا بعض هذه الدواعى بالحس المباشر، وأدركوا البعض الآخر بتوجيه الصادق الذي لا يكذب.

ودعنى أنقل أمامك هذه الصورة التي توضح لك حقيقة ما ذكرت بين يديك:

[روى الطبرانى بسند صحيح عن ليلى بنت أبى حثمة قالت: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة أتانا عمر بن الخطاب وأنا على بعيرى، وأنا أريد أن أتوجه فقال: أين يا أم عبد الله ؟ فقلت: آذيتمونا في ديننا فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى فقال: صحبكم الله ثم ذهب فجاء زوجي عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال: ترجين أن يسلم؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب!][1].

وهكذا قد اجتمع للهجرة إلى الحبشة سببها الأصيل، الذي ارتبط بأحداثها ولن تتخلف أحداثها عنه.

واجتمع للهجرة دواعيها، ومناخها الذي يلائمها حتى يهون على المسلمين الأمر وهم يتركون بلادهم، ليقيموا في بلاد غريبة، ليس لهم بها عهد، ولا يربطهم بها رابط من روابط النفس، ولا وازع من أوزاع الأشواق.

---

[1] سبل الهدى والرشاد جـ٢، ص ٤٨٦.

وحين توفرت للهجرة أسبابها ودواعيها، جاء المسلمون يشكون إلى النبي ﷺ سوء الفعال من أقوامهم، ويأمر النبي ﷺ بعضهم أن يهاجروا إلى الحبشة.

ذكر ابن سعد في طبقاته قال:[أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا هشام بن سعد عن الزهرى قال: لما كثر المسلمون وظهر الإيمان وتُحدث به ثار ناس كثير من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم وسجنوهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: (تفرقوا في الأرض)، فقالوا: أين نذهب يا رسول الله؟ قال : (ههنا) وأشار إلى الحبشة، وكانت أحب الأرض إليه أن يهاجر قِبَلها فهاجر ناس ذوو عدد من المسلمين منهم من هاجر معه بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه، حتى قدموا أرض الحبشة.

أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا يونس بن محمد الظفرى عن أبيه عن رجل من قومه قال: وأخبرنا عبيد الله بن العباس الهذلى عن الحارث بن الفضيل قالا: فخرجوا متسللين سراً، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشى ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبئ رسول الله ﷺ][1]

توفر للهجرة أسبابها ودواعيها، وعلم النبي أسباب الهجرة ودواعيها فأمر بعض المسلمين أن يخرجوا مهاجرين بعد أن حدد لهم الجهة التي أمرهم بالذهاب إليها.

والشئ الذي يلفت النظر أن قريشاً لم يغب عنها أسباب هذه الهجرة، بل أدركت السبب المباشر الذي حمل عليها، وأدركت الدواعى التي أحاطت بهذا السبب، فمهدت للهجرة أو أعانت عليها.

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ١ ص ١٥٩.

ولو قد خفى على قريش السبب الحقيقى وراء الهجرة، لما استاءوا بسببها هذا الاستياء الذي يحدث عنه المؤرخون.

ولو قد غاب عن قريش السبب الحقيقى وراء الهجرة، لما اندفعوا مسرعين يحاولون اللحاق بالقوم يردونهم إلى بلادهم، راغبين أو مكرهين.

ولو قد غاب عن قريش السبب الحقيقى، ووقعت فيما وقع فيه المؤرخون من الخلط بين الأسباب والأحوال، ووهمت أن المسلمين قد خرجوا فارين من إيذاء قومهم لهم دون أن يكون هناك سبب أعلى يدفعهم إلى هذه الهجرة.

لو قد فهمت قريش هذا ووقعت في مثل هذا الخلط، لقال كبيرهم وصغيرهم اتركوهم يخرجون من بلادكم واستريحوا منهم، فإن أكلتهم السباع في الصحراء كان ذلك ما تحبون، وإن أقاموا بعيداً عنكم أراحوكم من تعذيبهم، وتناقص العدد حول النبي ﷺ بسبب خروجهم.

غير أن واقع قريش ينبئك بغير هذا كله، ويلفتك بعكس ذلك كله، فما أن أدركت قريش خروج القوم حتى أرسلت في أثرهم من يلحق بهم ويردهم إلى بلادهم قصراً أو اختياراً، حتى يتمكنوا من السيطرة عليهم، وحتى يتمكنوا من حصر دعوة النبي ﷺ في مكة لا تعدوها وهم شاهدون، ولا تبرحها إلى غيرها وهم عليها رقباء مفتوحى الأعين والآذان.

اندفعت قريش خلف المهاجرين، الذين لم يتجاوز عددهم خمسة عشر رجلاً وامرأة.

وعادت قريش من اندفاعها ولم تدرك من القوم أحداً منهم، أما القوم فقد بلغوا غايتهم ووصلوا إلى هذه الأرض التي أمرهم النبي ﷺ أن يدخلوها، وإلى هذا الملك الذي أمرهم النبي ﷺ أن يذهبوا إلى دولته، ويدخلوا في رعيته ملك عادل لا يظلم أحد عنده، وأرض صدق لا تجبر أحداً على أن يخرج من معتقده.

في طبقات ابن سعد قوله: [وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً، قالوا: وقدمنا أرض

الحبشة فجاورنا بها خير جار أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه][1].

وإنى لعلى يقين بعد أن أكدت لك السبب الحقيقى وراء الهجرة

من أن الرجال الذين أرسل بهم النبي ﷺ إلى الحبشة لأول مرة، قد اختارهم النبي بعناية بالغة لتحقيق الهدف الذي يبتغيه، إذ ما من رجل من هؤلاء الرجال إلا وله سابقة في الإسلام، وقدم راسخة في العلم وقدرة لا يستهان بها على البيان، إذا ما سئل أو طلب منه أن يبين عن

عقيدة جاء بها النبي ﷺ أو شرع.

ولو أنك مازلت على رأى بعض المؤرخين في حصر أسباب الهجرة في محاولة النبي تخفيف العذاب عن المعذبين، بعد ما ذكرت لك من الأدلة التي تثبت أن سبب الهجرة الحقيقى هو رغبة النبي في أن تخرج الدعوة من مكة إلى ما حولها، استجابة لأمر الله له.

إن كنت مازلت على رأى بعض المؤرخين، فأنا أسوق إليك هذا الدليل العملى الذي يؤكد رأيى الذي ارتأيته علك تقتنع به.

إذ لو أن المسألة مسألة تخفيف العذاب عن المعذبين لكان أولى بها أكثر الناس عرضة للعذاب من العبيد والمستضعفين.

والمتأمل في طلائع المهاجرين إلى الحبشة يجد أن الذين قد أمرهم النبي بالهجرة لهم في قومهم منعة، ولهم بين قريش عزة وسوف

أستعرض أمامك الرجال الذين أخرجهم النبي ﷺ، وأستعرض معهم أسماء نسائهم، ثم أتركك تتأمل في هذه القائمة، لعلك تعود من هذا التأمل، وأنت على مثل ما أقتنع به.

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد حـ١، ص ١٥٩

يقول ابن سعد في طبقاته يسمى القوم، [تسمية القوم الرجال

والنساء: عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن مخزوم معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة، وعثمان بن مظعون الجمحى، وعامر بن ربيعة العنزى حليف بنى عدى بن كعب معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى العامرى، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وسهيل بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر، وعبد الله بن مسعود حليف بنى زهرة][1].

هؤلاء رجال هم طليعة القوم في الهجرة إلى الحبشة، بعد خمسة أعوام من بعثة النبي ﷺ.

وهم رجال كما ترى ليس فيهم عبد ولا مستضعف، وليس فيهم من تعوزه الحيلة أو يُعييه الحديث، وليس فيهم من كانت معلومته ناقصة في عقيدة أو فقه، وليس فيهم من ترده الشدائد، أو تستهويه الرغبات.

إن فيهم من الرجال: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم مما يعادلونهم في مكانتهم.

وفيهم من النساء: رقية بنت رسول الله ﷺ، وسهلة بنت سهيل بن عمرو.

أترى هؤلاء جميعاً قد خرجوا فرقًا من العذاب، أم تراهم قد خرجوا لضيق ذات اليد؟.

ولئن ساغ هذا في الرجال، فإنه يستحيل على العقل أن يتصوره بالنسبة لزوجاتهم اللاتى خرجن معهم، إذ من يستطيع أن يبلغ الأذى

---

[1] المرجع السابق جـ١ ص ١٦٠

رقية بنت النبي ﷺ، وهو من هو في قومه، بل من الذي يستطيع أن يبلغ بالأذى سهلة بنت سهيل بن عمرو خطيب القوم، وشريف من أشراف مكة.

وما أنا بالذى أحمل غيرى على رأى ارتأيته، ولكنها أدلة نسوقها في مكانها حين يفرض علينا المقام أن نسوقها في مكانها.

وعادت طلائع الهجرة إلى الحبشة، عادت بها الظروف إلى مكة.

ومهما كانت الروايات التي تتحدث عن ظروف عودة القوم فإني غير مهتم بأسباب عودتهم قدر اهتمامى بما تلى هذه العودة من

أحداث، حيث قد رأينا جميعاً أن النبي ﷺ قد أرسل في المرة الثانية أعداداً كثيرة، قد نافت على الثمانين، وما من رجل منهم إلا وهو صاحب سابقة في الإسلام وفقه فيه.

وحرص النبي ﷺ أن يعود طلائع الهجرة الذين جاءوا إلى

مكة، مرة أخرى مع إخوانهم، الذين أرسلهم النبي ﷺ هذه المرة إلى الحبشة، ولا عهد لكثيرين منهم بها.

لقد خرج القوم الذين نافوا على الثمانين، وهم يكادون يمثلون بطون قريش كلها، إذا ما من بيت في مكة إلا وقد خرج منه الرجل أو الرجال.

ودعنى أضرب لك الأمثال ولا أستقصى، فلقد هاجر من بنى هاشم جعفر بن أبى طالب، ومن بنى أمية عثمان بن عفان، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، وأخوه خالد بن سعيد.

ومن بنى أسد: عبد الله بن جحش، وأخوه عبيد الله بن جحش وقيس بن عبد الله، ومعيقب بن أبى فاطمة.

ومن بنى عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وأبو موسى الأشعرى واسمه عبد الله بن قيس، حليف آل عتبة بن ربيعة، رجلان.

وغيرهم من أشباههم ونظائرهم تقتسمهم بيوتات مكة كلها، وهم جميعاً على ما ذكرت لك من صفاتهم.

وما تراه الآن يعضد ما ذكرته لك مما ارتأيتـــه ســبباً وحيــداً للهجرة إلى الحبشة.

ولقد آلم خروج القوم للمرة الثانية، وبهذه الكثافة وتلك النوعية قريشاً كلها غاية الألم، وأدركت أن رسول الله قد أصاب رميته، وهـــو عما قريب سيبلغ هدفه، ولابد من فعل شئ يجب على قريش أن تفعلـــه إن كان لها من مطمع في حصار محمد ﷺ، وإن كان لها من رغبـــة في أن تطفئ النور الذي جاء به.

وعلمت قريش أن القوم قد خرجوا، وأنهم قـــد أصبحـــوا فـــي أرض الحبشة عند ملك عادل، وعلى أرض صدق، وإدراكهم إياهم من أجل ذلك قد أصبح غرضاً بعيد المنال، يعز على القوم أن يدركوه.

وعادت قريش إلى ناديها تجمع رأيها، وتستشير كبراءها وذوى أسنانها، علها تجد رأياً صائباً تقع عليه، وتعمل على تنفيذه، لتبلغ مـــن ورائه أن ترد القوم إلى مكة، وأن تفرض الحصار على هذا الدين الذي جاء به النبي محمد.

وانتهت قريش آخر الأمر إلى أن ترسل بهدية إلى النجـــاشي وإلى أن ترسل بهدايا إلى مستشاريه ورجال بلاطه، وأن تبعث بذلـــك كله مع أقدر رجالهم اصطناعاً للحيلة، ومع أعظم رجالهم قدرة علـــى بلوغ الهدف الذي ترسل به قريش من أجل أن تحققه.

أما إرسالهم بالهدية إلى النجاشي فهى حيلة يصل القوم بها إلى قلب الرجل،، حتى يسلمهم رجالاً نزلوا بأرضه قد فارقوا دين الآبـــاء والأجداد.

وأما الهدايا إلى مستشارى النجاشى، فالغرض منها أن تصـــل قريش إلى قلب هؤلاء الناس، إذ هم صناع القرار الحقيقيون، وقريـــش ترغب أن يساعد المستشارون النجاشى، على أن يتخذ قراره لا يـــتردد فيه، ولا يتأخر في اتخاذه.

وشئ آخر تريده قريش من هؤلاء المستشارين أن يفعلوه وهو: أن يحولوا بين الملك وبين أن يستمع إلى القوم، أو أن يرى فعالـــهم، إذ إن قريشاً لتعلم قبل غيرها أن ما جاء به النبـــي ﷺ، وعرفـــه منـــه أصحابه ليحمل بين طياته عناصر بقائه، ويحمل فـــي منهجـــه ضـــوء الصدق، ونصاعة الحق التي لا تخطئ قلب من يسمعه.

وأما أنهم يريدون أن يخرج إلى النجاشي أكـــثر القـــوم حيلـــة وأنصعهم حجة، وأبلغهم قولاً، فهذا أمر مفهوم إذ إن اللقاء سيكون مـــع النجاشي، وهو رجل لايحكم إلا بالعدل، ولا ينطق إلا ما يوافق الحق

والأمر يحتاج إلى ملكة مدربة تكتم عنه الحقيقة كلها إن استطاعت، أو تلبس عليه الحق بالباطل حين يحتاج الأمر إلى إلباس الحق بالباطل.

وخرج عمرو بن العاص بإجماع المؤرخين، ومعه رجل آخـــر يختلف الرواة فيه، وما أن وصل سفيرا قريش إلى النجاشي حتى قدموا الهدايا له، وقدموا الهدايا لمستشاريه، ووضعوا القضية كلها بين يديـــه على هذا النحو: إن قوماً من أبناء جلدتنا نعرفهم ويعرفوننا قد فـــارقوا دين آبائهم، ولم يدخلوا في دينك، وإن قومهم قد أرسلونا إليـــك لتعيننـــا على أن نردهم إلى بلادهم، فقومهم بهم وبما جاءوا به أعلم وأبصر.

ولقد حاول المستشارون أن يهيئوا للملك جو إصـــدار القـــرار بترحيلهم، خصوصاً أنهم قوم فارقوا دين آبائهم، ولم يدخلوا في ديننـــا فليس هناك من مبرر لأن نحميهم، أو نسمح لهم بالإقامة في بلادنا.

غير أن الملك لم يستسغ أن يتخذ قراراً بهذه السرعة التـــي لا مبرر لها، وأن يحكم في قضية لم يسمع للطرف الثاني فيها، فسأل أين هؤلاء القوم، فأجابه عمرو بن العاص: إنهم في بلادك أيها الملك، فأمر من يحضر بهم إليه، فحضروا وهم جميعاً عالمون بحقيقة دينهم قادرون على أن يدافعوا عنه، غير أن جعفر بن أبى طالب قد طلب إلى القـــوم ألا يتحدثوا في شئ، وأن يتحدث هو نائباً عنهم جميعاً، فأذنوا له، فتقدم من الملك وعرض محاسن الإسلام عقيدة وشريعة، ولم يرى الملك فيما ذكره شراً بل رآه خيراً كله، فاعتذر للقوم اعتذاراً رقيقاً، وأبلغ سفيرى قريش أنه لم يرَ مبرراً لإجلاء قوم عن أرضه، لاذوا بعد له، وطمعوا في الأمان عنده.

واحتال عمرو على إيغار صدر النجاشي، فقال: أيها الملك: إن القوم لا يسجدون لك، وإن القوم ليقولون في عيسى قولاً عظيماً يخالف معتقدكم فيه.

وسأل النجاشي جعفراً عن السبب الذي يمنعه من أن يسجد له سجود التحية عند القدوم عليه، فقال جعفر إن نبينا قد نهانا أن نسجد لغير الله، وأمرنا أن الله وحده هو الذي يستحق السجود، فاقتنع الملك بما قال جعفر، ثم سأله: وماذا تقولون في عيسى، وما الذي جاء به صاحبكم فيه؟. فقال جعفر نقول ما قال ربنا: إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم البتول فحملت به من غير رجل، وولدته هذا الميلاد

العجيب، فعمد الملك إلى عود من الأرض فرفعه ثم قال: والله إن ما جاء به صاحبكم لا يزيد عما جاء به عيسى، ولا وزن هذا العود، ثم قال: والله لولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إلى صاحبكم وكنت صاحب نعليه.

ثم أمر بإكرام القوم، ورد الهدايا على سفيرى قريش، وأعلن أن القوم في منعته الخاصة.

وعلمت قريش أن النبي ﷺ قد بلغ ما بلغ، حين أرسل برجاله إلى خارج مكة، وأن هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ سينتشروسيكون لمعتنقيه شأن لا ينكر.

هكذا كانت الهجرة إلى الحبشة، وهكذا كان أثرها الذي أدركته قريش، ولم تغفل عنه ساعة من ليل أو ساعة من نهار.

والمسلمون كانوا يعلمون من أول الأمر أن بعض ذلك سيكون، وكانوا يعلمون كذلك مدى الشرف الذي سيبلغه المهاجرون ومنزلتهم عند الله عز وجل.

ولقد ذكر بعض المؤرخين أن كثيرين من كبار المسلمين، وأصحاب السابقة فيهم كانوا يتمنون أن لو هاجروا إلى الحبشة.

فأبو بكر على محبته لرسول الله وجواره له قد اعتزم الـــهجرة وقد أخذ في السبيل إليها، وعلمت قريش بخروجه من مكة، واســـتاءت هذا الخروج غاية الاستياء.

والذى يظهر لى أن أبا بكر الصديق كان يقدم للـــهجرة رجـــلاً ويؤخر أخرى، فالهجرة على ما فيها القربى لله عز وجل، فيها مع ذلك

من قسوة الفراق لرسول الله ﷺ قدر لا يصبر عليـــه أبـــو بكـــر ولا يطيقه، لكنه لم يعد يستطيع العودة إلى مكة، فالذي يخـــرج مـــن مكـــة مهاجراً أو داعيا إلى الله ثم يعود تتعرض إليه قريش، وتعنتـــه غايـــة العنت، وتعمل على منعه من الدخول إلى مكة ما وجـــدت إلـــى ذلـــك سبيلاً.

وهيأ الله الأمر لأبى بكر، فعاد به إلى مكة في جوار رجل من رجالها يسمى ابن الدغنة وهو سيد القارة.

وأعلن ابن الدغنة في قريش أن أبا بكر في جواره لا يناله أحد بأذى، وأجابته قريش إلى ما أراد، غير أنها رجته أن يجيره على شرط أن لا يستعلن بدينه، وأن يعبد الله فـــي داره حتـــى لا يفتتـــن النســـاء والأطفال بقراءته وسلوكه.

ولم يصبر أبو بكر على هذا الشرط طويلاً، فـــرد علـــى ابـــن الدغنة ذمته وجواره، وأصبح حراً في جوار الله يستعلن بدينـــه كمـــا يشاء.

هكذا كان مسلك النبي ﷺ في الهجرة.

ومن نظائره في سلوك النبي نفسه ما سجله التاريخ أن النبي قد اصطحب معه زيداً بن حارثة، وتوجه به قبل الطائف صادعاً بأمر ربه ينشر دينه خارج مكة، كما دعى إلى الله في داخلها.

وبقى في ثقيف بالطائف عشرة أيام، مـــا تـــرك زعيمـــاً مـــن زعمائهم ولا كبيراً فيهم إلا عرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن غير أن الله لم يرد بالقوم خيراً، وخافوا على قومهم أن يدخلوا في دين محمد لوضوح مقصده، ونبل غايته، ووضاءة لفظـــه، فـــردوه رداً لا يليـــق بشهامة الرجال، ولا بخلائق العرب، أغروا بـــه ســـفهاءهم وعبيدهـــم

وصبيانهم يرمونه بالحجارة، وزيد بن حارثة يحاول أن يكون ستراً بينه وبين ما يراد به، وشجت رأس زيد في أكثر من موضع، ودميت عقبا النبي حتى شكى إلى ربه على نحو ما حدثناك من قبل.

وقطع النبي بعض الطريق إلى العودة، ثم اعتزم الإقامة في نخلة حين نزل بها، فأقام بها ثلاثة أيام يتعبد وزيد بن حارثة معه ويقرأ من القرآن ما شاء الله له أن يقرأ.

ولئن كان أهل ثقيف قد انصرفوا عنه فقد صرف الله إليه نفراً من الجن يستمعون القرآن مقامه بنخلة.

وذكر ابن سعد فيما نقله من روايات أن النبي ﷺ لم يكن يعلم بوجود الجن معه حتى أخبره جبريل في قرآن يتلى من قوله تعالى: **{وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم* ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين}**[1].

خرج النبي ﷺ من مكة إلى الطائف يقصد أهلها من ثقيف لينشر الإسلام فيهم.

وشاء الله ألا يستجيب له واحد من ثقيف.

ولكنه لم يرجع إلى بلده حتى نال الكثير من غرضه، فأسمع الجن كلام الله بعد أن صرف الله إليه نفراً منهم، يتولون دعوة أقوامهم نيابة عنه على نحو ما فعل الطفيل بن عمروالدوسى في قومه، أو على نحو ما فعل المهاجرون إلى الحبشة حين أمرهم النبي أن يهاجروا إلى الحبشة.

والله بالغ أمره.

---

[1] الأحقاف : ٢٩:٣٢

والذى كان يشغل بال زيد بن حارثة هو أنه: كيف يدخل النبي ﷺ إلى مكة وقومه ينتظرونه كي يواجهوه بالأذى، وليس هناك إلـــى الآن بلدٌ قد أعد لاستقبال النبي ﷺ، وانعقد قلب سكانه على أن يقفـــوا دون النبي ﷺ يدافعون عنه.

وتحدث زيد إلى النبي ﷺ بما يجده في صدره، وعقب النبـــي ﷺ على قول زيد بكلام لا يخلو تأمله من فائدة.

قال: [يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجـــاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه].

ولم يلبث النبي ﷺ وزيد بن حارثة معه، حتى دخل مكة فـــي جوار المطعم بن عدى وأبناؤه معه، يقومون جميعاً في حراسة النبي لا يناله مكروه.

والله ينصر دينه، ويعز نبيه بما يشاء وبمن يشاء[1].

وإرادة الله خير.

ولست أحتاج بعد ما حدثتك به حول هذا الاتجاه من الاتجاهين اللذين صار فيهما النبي ﷺ إلى مزيد بيان.

إذ إن النبي ﷺ في سبيل المد الإسلامي خارج مكة، قد بعـــث طلائع الهجرة إلى الحبشة وأتبعهم بكثيرين، وطلب منهم الإقامة هنـــاك على أرض صدق، وتحت مظلة أمان لملك عادل لايظلم أحدٌ عنده.

---

[1] راجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ١ ص ١٦٤ وما بعدها.

وإذ إن النبي ﷺ قد كلف الطفيل بن عمرو الدوسى يُنذر أهله، ويبشرهم ويُبلغهم الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ، والطفيل مقيمٌ علـــى هذا لا يُقصر فيه، والله معه يؤيده بالآيات وينصره بنصره على نحو ما أسلفنا لك.

وإذ إن النبي ﷺ قد كلف وفد النصارى الذين أتـــوه، وآمنـــوا بالكتاب الذي أنزل عليه مصدقًا لما معهم، أن يـــأتوا أقوامـــهم الذيـــن أرسلوا بهم إليه ليستطلعوا الخبر من قِبله، وأن ينشروا بينهم ديـــن الله الحق، وأن يُقنعوهم بما اقتنعوا به، وأن يوقفوهم بما وقفوا عليـــه مـــن الحق والهدى.

وإذ إن النبي ﷺ قد صرف الله إليه نفراً من الجن بنخلة حين أقام بها وهو عائدٌ من الطائف، فاستمعوا إلى القرآن وآمنـــوا بـــالقرآن وذهبوا إلى أقوامهم يخبرونهم بما سمعوا، ويطلبون إليـــهم أن يؤمنـــوا بهذا الكتاب الذي أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه، يهدى إلـــى الحق وإلى صراط مُستقيم، وهددوا قومهم بسلطان الله وقدرته عليـــهم، إذ من لايُجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض، وليس له من دونـــه أولياء.

لست أحتاج بعد ما حدثتك عن هذا كله إلى مزيد بيان حول هذا الاتجاه الذي صار فيه النبي ﷺ.

وأنت لا يفوتك أن النبي ﷺ قد جنى بعض الثمار التي تترتب على سيره في هذا الاتجاه، ولكنه إلى الآن لم يجن كل ثماره.

فالنبى ﷺ وإن كان قد علم أنه مُهاجر لا محالة، لكنه لم يعلم على وجه اليقين الجهة التي سيُهاجر إليها.

عاد النبي ﷺ إلى مكة بعد رجوعه من الطائف ليُباشر السير في طريقٍ آخر لم يُهمل السير فيه أثناء سلوكه بالطريق الأول.

وهذا الطريق الآخر الذي سلكه النبي كان قد قُدر له أن يسلكه وحده، ذلك أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل والوفود حين تصل القبائل والوفود إلى مكة في نسك أو في تجارة.

والنبي كان يعرض نفسه على القبائل وهو لا يشعر بملل رغم الظروف التي أحاطت به وهو يعرض دين الله على من أرسله إليه.

وأنت ترى النبي ﷺ في كل مرةٍ يعرض نفسه على القبائل فيها، تجد وراءه أحد رجلين لا يقل أحدهما عن الآخر حماساً حين يُريد الشر بالنبي ودعوته.

وأحد الرجلين هو عبد العُزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وظهير قريش عليه.

لم يترك النبي ﷺ في موقف من المواقف يدعو إلى الله، إلا ويسير خلفه يقول للناس: لا تُطيعوه إنه صابئ عن دين الآباء والأجداد.

وإنه ليظل يُحفز الناس عليه حتى يبلغ منهم المدى الذي يحمل بعضهم على أن يتفل في وجهه، أو يرده رداً قبيحاً، فإذا ما عاتب أحد قريشا فيما يفعل قال له: إن قومه أعلمُ به، وليس هناك شئ يضيع عند الله هباءً، فإذا كان أبو لهب قد نال من النبي على هذا النحو، وأورث

النبي حزناً بسبب مُقاومة عمه له، وأعنت النبي ﷺ إعناتاً شديداً وهو على طريق الدعوة إلى الله عز وجل، فإن الله الذي يغضب لغضب نبيه، قد طرد أبا لهب من رحمته وحرمه من اعتناق هذا الدين حتى يبوء بخسران الدنيا والآخرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ولكنه قد منحه قلباً غافلاً ونفساً هيابة، فإذا ما حملته الحمية على أن ينصر النبي يوماً استغل كبار القرشيين غفلة قلبه، ووسوسوا إليه من هذه الجهة فصرفوه حتى عن الخير الدنيوى الذي ذهب بمثله أخوه أبو طالب.

وإذا ما حملته العاطفة أحياناً على موقفٍ قد يحسبه التاريخ له مع ابن أخيه، استغلت زوجته فيه أنه رجلٌ تضعُف إرادته حين تُحدثه

زوجته فتصرفه بعنفٍ مُهين عن موقفٍ يُحسب له في التاريخ مع ابن أخيه النبي المرسل.

شاء الله عز وجل لهذا الذي آذى نبيه، وصرف وفود القبائل عنه، أن يحرمه من خير الآخرة، وأن يُنحى عنه حُسن السيرة في الدينا.

وأما ثاني الرجلين اللذين كانا يتبعان النبي وهو يعرض نفسه على القبائل، يُكذبانه ويصدان الناس عنه، هو عمرو بن هشام أبو الحكم والشهير في التاريخ الإسلامي بأبي جهل فرعون هذه الأمة.

وما حدث لأبي لهب حدث مثله لأبي جهل، فلم يذهب في التاريخ بموقفٍ حسنٍ يُحسب له، ولم تنتهِ حياته ببطولةٍ ولو مكذوبة يتغنى بها شيطانٌ من شياطين **الإنس أو يوحى بها إلى قرنائه شيطان من شياطين** الجن، ثم هو قد قدم على ربه ووجد عند ربه أول قدومه عليه ما وعده ربه به على لسان النبي محمد.

ولم يفت النبي أن يُعلن ذلك يوم بدر، حين وضع صناديد مكة في القليب حيث ناداهم النبي بأسمائهم واحداً واحداً ثم يقول: لقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟

ويلفت حديث النبي نظر بعض صحابته بقوة فيسأل: يا رسول الله أتنادي وتُخاطب قوماً قد ماتوا ورمت جُثثهم، ويُجيب النبي بيقين النبي الذي يُريد أن ينقله إلى أتباعه: والله ما أنتم بأسمع لكلامي منهم ولكنهم لا ينطقون، حالٌ شديدةٌ تعترى النبي وهو يعرض نفسه على القبائل، رجلان يتناوبان المشى خلفه، قد بدت البغضاء من أفواههما وما يخفي صدرهما أعظم، وهو يحاول أن يفر منهما، ولكنهما يتبعانه لايكاد الواحد منهما يُخطئ خطوه.

وأناسٌ كثيرون قد أثرت فيهم كلمات أبي لهبٍ وأبي جهل فغلفت قلوبهم وختم الله على أفئدتهم، فلم يجد النبي منهم إلا صُدوداً وألسنة قد ذهب بها البذاء كل مذهب، فنالت من النبي نيلاً يتناقض مع مرتبة النبي ومكانه من الشرف والفضيلة، وطباعٌ قد هبطت فعبرت عن هبوطها بأن بصقت في وجه النبي، وهي لا تدري أنها تنال من شخص ليس له في الأرض من مهمة إلا أن يُنقذهم وأمثالهم من ظلمات

الجهالة إلى نور التوحيد، ومن ضلال السلوك إلى استقامة الفعال، ومن سوء العاقبة إلى خيرى الدينا والآخرة، تأكد النبي من أنه قد أرسى القاعدة الأولى حيث أنذر أم القرى، وربى فيها رجالاً ونساءً يصلح الواحد منهم لحمل المشعل إلى الجهة التي يرغب النبي في أن يوجهه إليها، تأكد النبي من أنه ربى رجالاً ونساءً على هذا المستوى، ومع يقينه المطلق بسلامة ما فعله في مكة، إلا أنه يعلم بنفس الدرجة من اليقين أن مكة ليست هي الدار التي سينتشر الإسلام منها إلى بقاع الدينا، وليست هي الدار التي سوف يحمل أهلها السلاح في يد، والحجة في اليد الأخرى، كي يمسحوا عن وجوه الأمم تراب الجهل، وعن قلوب الشعوب رين الضلال.

تأكد النبي من هذا كله، وليس هناك من سبيل إلا أن يُتابع النبي ﷺ عرض نفسه على القبائل مهما حاولت الموانع أن تمنعه، ومهما حاولت الصوارف أن تصرفه عن غرضه.

ولم تكن الطريق غامضة أمام النبي ﷺ، وإنما كانت عيناه الشريفتان مفتوحتين فيُبصر بهما الأفق من حوله، وكانت بصيرته النافذة تشق الحجب فيُطلعه الله على ما يشاء من أمر المستقبل.

وإني لأحب أن أخلى بينك وبين روايات التاريخ فتسمع من التاريخ مُباشرةً.

وإني لأحب أن أخلى بينك وبين حديث المُحدثين على طريقة المُحدثين، وهم يلقون بين يديك بروايات هذه الفترة من تاريخ النبي ﷺ.

وإني لأحب أن أخلي بينك وبين أصوات الصحابة والتابعين يهمس كل واحد منهم في أُذنك يُحدثك بما قد رآه رأى العين من عرض النبي نفسه على القبائل.

وأنا آمل أنه لا يفوتك من ذلك كله شيءٌ يلمس شغاف قلبك ويُقبل بالخير إلى لُباب فؤادك فتجد منه رضىً يُريح نفسك إن كنت من المنصفين، أو تجد منه ما يُشجعك على تكوين رأي آخر مضاد إن كُنت من أصحاب الآراء المضادة.

أما كاتب هذه الصفحات فهو راضٍ كل الرضى بالآثار التـــي يُحدثها هذا العمل فيك، حتى ولو تناقضت هـــذه الآثـــار مـــن إنســـان لآخر لأن ردود الفعل على تناقضها، هي المقياس الحقيقـــي والمعيـــار الصحيح الذي يقيس إليه كاتب هذه الصفحات عمله، على نحو ما حدث به قراءه في بعض كتبه[١].

دعني أخليّ بينك وبين حديث التاريخ وروايات المحدثين وكلام صحابة النبي ﷺ منتظراً ما تحدثه فيك من الأثر، وما تتركه فيه مـــن ردود الأفعال: [قال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: كان رســـول الله ﷺ يعرض نفسه بالموقف، فيقول: ألا رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى.

رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح[٢].

قال محمد بن عمر الأسلمي: مكث رسول الله ﷺ ثلاث سنين من أول نبوته مستخفيا، ثم أعلن في الرابعة فدعا الناس إلى الإســـلام عشر سنين، يوافى الموسم كل عام يتبع الحجيج في منازلـــهم بعكـــاظ ومجنّة وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رســـالات ربـــه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه، حتى إنه سأل عن القبـــائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها النـــــاس قولوا: لا إلـــه إلا الله تفلحوا وتملكوا العرب وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب، فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: قومك بك أعلم.

وقال ابن إسحاق: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة أي من الطـــائف وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مســـتضعفين ممن آمن به، وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم إذا كانت،

---

[١] انظر الصراع بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى للمؤلف – المقدمة.

[٢] سنن أبى داود – كتاب السنة باب رقم ٢٠ – وصحيح الترمذى كتاب ثواب القرآن باب ٢٤ – وسنن ابن ماجة – المقدمة باب رقم ١٣.

على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله عز وجل ما بعثه به.

وروى ابن إسحاق والبيهقى والإمام أحمد وابنه عبد الله والطبرانى برجال ثقات، عن ربيعة بن عباد -بكسر العين المهملة وتخفيف الباب الموحدة- قال: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله ﷺ يقف على القبائل من العرب فيقول: يابنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله عز وجل ما بعثنى به، والناس متقصفون عليه ما رأيت أحداً يقول شيئا وهو لا يسكت، قال: وخلفه رجل أحول وضئ له غديرتان عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل يابنى فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن، وبنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه، فقلت لأبى: يا أبت من هذا الرجل الذي يرد عليه ما يقول، يتبعه حيث ذهب و رسول الله ﷺ يفر منه، قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب.

وروى الطبرانى عن طارق بن عبد الله قال: إنى بسوق ذى المجاز إذ مر رجل بي عليه حلة من برد أحمر وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل خلفه قد أدمى عرقوبيه وساقيه يقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه. فقلت من هذا؟ قالوا: غلام بنى هاشم الذي يزعم أنه رسول الله وهذا عمه عبد العزى.

وروى الطبرانى برجال ثقاتٍ عن مدرك بن منيب رضى الله عنه قال: حججت مع أبى فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة فقلت لأبى: ما هذه الجماعة؟ قال: هذا الصابئ. وإذا رسول الله ﷺ يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

وروى البخارى في تاريخه والطبرانى في الكبير واللفظ له عن مدرك بن منيب- بضم أوله وكسر النون وآخره موحدة- العامرى عن

أبيه عن جده رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا. فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثى عليه التراب، ومنهم من سبه حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال: يا بنية لا تخش على أبيك غلبة ولا ذلة. فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ وهى جارية وضيئة.

وروى الطبرانى برجال ثقاف نحوه عن الحارث بن الحارث، وروى الإمام أحمد والبيهقى عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى المجاز وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب، وإذا هو أبو جهل وإذا هو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى يتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ يفر منه، وما يلتفت رسول الله ﷺ إليه.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: المحفوظ أبو لهب وقد يكون أبو جهل وهماً، ويحتمل أن يكون ذا تارة وذا تارة، وأنهما يتناوبان على أذية رسول الله ﷺ.

قلت: وهذا هو الظاهر.

وذكر ابن إسحاق عرضه ﷺ نفسه الكريمة على كندة وكلب وبنى عامر بن صعصعة، وبنى حنيفة قال: ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم.

زاد الواقدى: وعلى بنى عبس وغسّان، وبنى محارب، وبنى فزارة، وبنى مرة، وبنى سليم، وبنى نصر بن هوازن، وبنى ثعلبة بن عكابة- بضم العين المهملة وفتح الباب الموحدة- وبنى الحارث بن كعب، وبنى عذرة، وقيس بن الخطيم، وساق أخبارهم.

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن عامر بن سلمة الحنفى وكان قد أسلم في آخر عمر النبي ﷺ أنه قال: نسأل الله ألا يحرمنا

الجنة، لقد رأيت رسول الله ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ومجنة وبذى المجاز، يدعونا إلى الله – عز وجل، وأن نمنع له ظهره حتى يبلغ رسالات ربه، ويشرط لنا الجنة، فما استجبنا له، ولا رددنا عليه رداً جميلاً، فخَشِنَّا عليه وحلم عنا. قال عامر: فرجعت إلى هجر في أول عام فقال لى هودة بن على: هل كان في موسمكم هذا خبر؟ قلت: رجل من قريش يطوف على القبائل يدعوهم إلى الله تعالى وحده، وأن يمنعوا ظهره حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة.

فقال هودة: من أي قريش هو؟ قلت هو من أوسطهم نسباً من بنى عبد المطلب. قال هودة: أهو محمد بن عبد المطلب؟ قلت: هو هو قال: أما إن أمره سيظهر على ما ها هنا فقلت: هنا قط من بين البلدان؟ قال: وغير ما ها هنا. ثم وافيت السنة الثانية هجر فقال: ما فعل الرجل؟ فقلت والله رأيته على حاله في العام الماضى قال: ثم وافيت في السنة الثالثة وهى آخر ما رأيت، وإذاً بأمره قد أمر وإذا ذكره كثر في الناس الحديث.

وروى الحاكم والبيهقى وأبو نعيم وقاسم بن ثابت عن على رضى الله عنه قال: لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه. فذكر الحديث إلى أن قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبى وأمى، هؤلاء عذر الناس وفيهم معزوق بن عمرو وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق قد غلبهم لساناً وجمالاً وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته[1].

وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد

---

[1] التريبة بفتح ثم كسر جمعها: ترائب وهى عظام الصدر.

على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يُديلنا[١] مـــرة، ويديل علينا أخرى، لعلك أخا قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنـــه

رسول الله ﷺ فها هو ذا فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش؟ فقال

رسول الله ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني فإن قريشـــاً قـد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحـــق، والله هو الغني الحميد.

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا.

فتلى رسول الله ﷺ:**{قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكـــم مـــن إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفوا حش ما ظهر منـــها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون}**[٢].

فقال مفروق: دعوت- والله- إلى مكارم الأخـــلاق، ومحاســـن الأعمال، ولقد أفك[٣] قومك كذبوك وظاهروا عليك.

ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال: وهـــذا هـــانئ شيخنـــا وصاحب ديننا.

فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنـــا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أول له ولا آخر لـــذلّ فـــي الرأى، وقلة نظر في العاقبة، إن الزلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقـــد على من وراءنا عقداً، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر.

---

[١] يديلنا: ينصرنا وعكسها ما بعدها.

[٢] الأنعام: ١٥١.

[٣] أفك: صرف عن الحق ومنع منه.

ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى- وأسلم بعد ذلك- قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا، ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين أحدهما: اليمامة، والآخر: السمامة.

فقال له رسول الله ﷺ: ما هذان الصريان؟ قال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان مما يلى مياه العرب، فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول. وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوى محدثاً، وإنى أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق. وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتستحبون الله تعالى وتقدسونه.

فقال النعمان: اللهم فلك ذاك.

فتلا عليهم رسول الله ﷺ: **{يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً}**[1]

ثم نهض رسول الله ﷺ.

وروى سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى في مغازيه عن أبيه وأبو نعيم عن عبد الرحمن العامرى عن أشياخ من قومه قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال: من القوم؟ قلنا: من بنى عامر بن صعصعة بنو كعب بن ربيعة فقال: إنى رسول الله إليكم وآتيتكم لتمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى، ولا أكره أحداً منكم على شئ.

---

[1] الأحزاب: ٤٥.

قالوا: لا نؤمن بك وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك فأتاهم بحيرة بن فراس القشيرى، فقال: من هذا الرجل الذي أراه عندكم أنكره؟ قالوا: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: فمالكم وله؟ قالوا: زعم أنه رسول الله فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه، قال: ما رددتم عليه؟ قالوا: بالرحب والسعة نخرجك إلى بلادنا، ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا. فقال بحيرة: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشئ أشر من شئ ترجعون به! أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه وكذبوه فتؤونه وتنصرونه تنابذون العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به فبئس الرأى رأيكم ثم أقبل على رسول الله ﷺ وقال: قم فالحق بقومك فوالله لولا أنك عند قومى لضربت عنقك.

فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته ليركبها فغمز الخبيث بحيرة- شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ فألقته وعند بنى عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن حوط كانت من النسوة اللاتى أسلمن بمكة، جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت: يا لعامر ولا عامر لى، أيصنع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم ولا يمنعه أحد منكم؟ فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بحيرة واثنان أعاناه، فأخذ كل رجل منهم رجلا فجلد به الأرض ثم جلس على صدره، ثم علوا وجوههم لطماً.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم بارك على هؤلاء، والعن هؤلاء فأسلم الثلاثة الذين نصروه، وقتلوا شهداء، وهم غطيف، وغطفان ابنا سهل، وعروة أو عزرة بن عبد الله وهلك الآخرون.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم موسمهم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك في الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونكون معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يابنى عامر هل لها من تلاف؟ هل لذنابها من مطلب ! والذى نفسى بيده ما يقولها إسماعيلى قط كاذباً وإنه لحق، فأين رأيكم كان عنكم.

وروى أبو نعيم عن خالد بن سعيد عن أبيه عن جده أن بكر بن وائل قدم مكة في الحج فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: ايتهم واعرض عليهم. فأتاهم فعرض عليهم، فقالوا حتى يجئ شيخنا حارثة. فلما جاء قال: إن بيننا وبين الفرس حرباً، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول، فلما التقوا بذى قارهم والفرس قال لهم شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى ما دعاكم إليه؟ قالوا: محمد. قال فهو شعاركم فنصروا على الفرس. فقال رسول الله ﷺ: بي نصروا.

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن جهم بن أبى جهم أن رسول الله ﷺ وقف على باب بنى عامر يدعوهم إلى الله تعالى فقام رجل منهم فقال له: عجباً لك، والله قد أعياك قومك ثم أعياك أحياء العرب كلها حتى تأتينا وتتردد علينا مرة بعد مرة؟ والله لأجعلنك حديثاً لأهل الموسم. ونهض إلى رسول الله ﷺ وكان جالساً فكسر الله ساق الخبيث، فجعل يصيح من رجله وانصرف رسول الله ﷺ.

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن وابصة العبسى عن أبيه عن جده قال: جاءنا رسول الله ﷺ بمنى فدعانا فاستجبنا له، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسى فقال لنا: أحلف بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحل به وسط رحالنا لكان الرأى، فأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ، فأبى القوم وانصرفوا، فقال لهم ميسرة: ميلوا بنا إلى فدك فإن بها يهودا نسألهم عن هذا الرجل فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفرهم فوضعوه ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبي الأمى العربى يركب الحمار، ويجتزئ بالكِسرة، وليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعدع، ولابالسبط، في عينيه حمرة مشرب اللون قالوا: فإن كان هو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه، فإنا نحسده ولا نتبعه، ولنا منه في مواطن بلاء عظيم، ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه أو قتله فقال ميسرة ياقوم إن هذا الأمر بين فأسلم ميسرة.

وروى أبو نعيم عن ابن رومان وعبد الله بن أبى بكر وغيرهما قالوا: جاء النبي ﷺ كندة في منازلهم فعرض نفسه عليهم فأبوا، فقال

أصغر القوم: ياقوم اسبقوا إلى هذا الرجل قبل أن تُسْبَقوا إليه، فو الله إن أهل الكتاب ليحدثونا أن نبياً يخرج من الحرم قد أظل زمانه فأبوا.

وروى البيهقي عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد إنما يسميه قومه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه]، وكان يقول شعراً ينشده في الناس بمكة، فسمع به النبي ﷺ فتصدى له حين سمع به [فدعاه إلى الله تعالى وإلى الإسلام فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان. يعني حكمته.

فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها عليّ فعرضها عليه. فقال: هذا كلام حسن والذى معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله تعالى هو هدى ونور، فتلا رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإيمان فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول حسن. ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فإن كان رجال قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله قبل بعاث][1].

لقد نقلنا ما نقلناه من هذه الروايات إحقاقاً للحق من ناحية، وإتاحة للفرصة كاملة لمن أحب أن يعلم شيئاً عن اصطناع النبي ﷺ لسنن الله الجارية حتى انتهى به الأمر إلى الهجرة من مكة إلى المدينة.

وإنهما لمسلكان عظيمان كما رأيت، ركزنا عليهما في هذا الفصل ونحن نتحدث عن اتباع النبي ﷺ لسنن الله الجارية حتى انتهى به الأمر إلى ما انتهى إليه من استقراره في المدينة.

عرض النبي نفسه على القبائل حتى يُتيح لدعوته الإسلامية مناخاً مُلائماً كي تمتد فيه خارج مكة.

---

[1] سبل الهدى والرشاد حـ٢، ص ٥٩٣ وما بعدها

ولنفس الغرض أرسل النبي ﷺ بالمسلمين الذين صنعهم على عينه، ورباهم على يده، ورضعوا لبان النبوة، وهُدهدوا بيـــن ذراعيــه ﷺ إلى الحبشة، وذهبوا إليها طائعين مختارين.

وإنا لنعلم من قريش أنها كانت تُدرك ذلك الذي يـــهدف إليــه النبي ﷺ إدراكاً تاماً، وكانت تتصرف بعصبية مُطلقـــة وبغضـــب لا حدود له باعتبار ذلك كله رد فعل لتصرفات النبي ﷺ.

ولقد آثرنا أن نعرض مواقف القرشيين قبل أن نعرض مواقف النبي ﷺ ليتضح الأمر كله، حيث إن الضد يُظهره الضد، وإن الشيء يُبرزه نقيضه.

وتنتهى بنا هذه السنة إلى نهايتها الطبيعية وهى: أن الإسلام قد امتد خارج مكة حتى وصل شمالاً إلى آخر حـــدود جزيـــرة العـــرب ووصل جنوباً حتى عبر المياه قاصداً بلاد الأحباش.

ولم يعد هناك من شبر واحد في أرض العرب إلا وقد تســـامع بالإسلام ونبى الإسلام عليه السلام.

غير أن الأمر الذي لم يعرفه النبي إلـــى الآن، ولـــم يعرفــه المسلمون معه هو دار هجرتهم أين هي وما صفاتـــها، وأيـــن أهلـــها وساكنوها، وكيفية الاتصال بهم؟

إن النبي والمسلمين معه ليدركون بغاية اليقيـــن أنـــهم جميعـــاً سيغادرون أم القرى إلا من أراد الله لهم أن يقيموا بها، إذ إن أم القرى وإن كانت صالحة لمهبط جبريل أوائل الوحى، لكنها لن تكون صالحـــة لكى تكون مشرق الوحى في مراحل تتابعه.

ولو أراد الله عز وجل أن يبدأ الوحى من مكة وينتشر منها لقال أعداء الإسلام- وهم كثيرون في كل زمان- إن دعوة الإسلام لم تنتشر اعتماداً على عناصر الحق فيها، وإنما انتشرت دعوة الإســـلام حيـــن انتشرت في عصر المبعث اعتماداً على عصبية قرشية حملت أعباءها وتحملت مسئولية الدفاع عنها حتى استقر لها الأمر في جزيرة العـــرب ثم تحمل العرب جميعاً مسئولية نشرها في العالمين، فكان من حكمة الله

البالغة أن جعل أعداء الدعوة الأوائل من عصبة رسول الله ﷺ، ومنهم من كان من عشيرته الأقربين.

قدر للدعوة ذيوع صيتها وانتشار أمرها على سنة من سنن الله الجارية، وقدر للنبي والمسلمين أن يعلموا أنهم مهاجرون لا محالة وأنهم سيتركون أرضهم إلى أرض أخرى ولا ريب.

وقدر للنبي والمسلمين معه مع ذلك أن تبقى دار هجرتهم سراً مستوراً إلى الوقت الذي يريد الله أن يُظهرها فيه.

وإن موعد إظهاره لقريب.

الفصل الثالث

دور اليهود

في هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة

قد يبدو هذا العنوان غريباً غاية الغرابة على نفوس الكثيرين وثقافاتهم، خصوصاً وأننا نعلم أن اليهود منذ عصر المبعث وإلى أن تقوم الساعة، لم يرضوا عن النبي ﷺ ولا عن دينه الذي أتى به.

واليهود لن يتوقفوا عند حدود عدم الرضى عن النبي ودعوته ولكنهم تعدوا ذلك الشعور إلى النزوع بالهمة إلى المقاومة لهذا النبي الجديد الذي جاء من نسل إسماعيل عليه السلام.

وهذه الغرابة التي يشعر البعض بها تتبخر سريعاً حين يعرض المندهش نفسه بما يشتمل عليه من معارف على وقائع التاريخ الثابتة التي تتحدث عن مواقف اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها خاصة هذا المجتمع العربى المُغلق على ما فيه من أفكار وآداب.

وكذلك يجد المندهش نفسه وقد ذهبت عنه الدهشة حين يعرض نفسه وجهاً لوجه مع تحليلات العلماء بالشخصية اليهودية عبر التاريخ.

وإن المندهش ليجد نفسه وقد ذهبت عنه الدهشة إلى غير رجعة، حين يعرض نفسه على كتب الحضارة التي تحتوى على سجلات الأمم ومدى إسهام كل أمة في الحضارة الإنسانية العامة.

ونحن لن نستطيع أن نُحدثك عن هذا كله، إذ الحديث عن هذا كله يستغرق وقتاً طويلاً ومساحة عريضة ليس هذا البحث بقادر على استيعابها، ولا هي تليق في الوقت نفسه بالطبيعة الخاصة بهذا البحث.

ولكنه من اللازم الذي لا يُمكن إغفاله أن نُوقفك في سطور قلائل على ما لليهود من خلائق خاصة بهم ما فطرهم الله عليها ولكنهم اكتسبوها اكتساباً بإرادتهم أو بإرادة الكثيرين منهم على الأقل، ورضوا

بها بعد أن اكتسبوها وظلوا يستمرئونها خلقاً لهم يرثها الأبناء عن الآباء والأجداد.

فأنت تستطيع أن تتأمل اليهود عبر التاريخ لتقف على شخصيتهم، وتُحدد بدقة معالم هذه الشخصية، وحينئذ لن تُعوزك المعلومات ولا تحتاج إلى الوسائل والأدوات، حتى تكشف لك الشخصية اليهودية عن نفسها دون أي مجهود أو عناء، كأنها بين يديك كتاب مقروءٌ، أو كونٌ مفتوح لا يحول بينك وبين رؤية معالمه غيوم أو ضباب.

فاليهود قد قضى عليهم منذ [قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء والعذاب والبلاء، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء والقومية والإدلال بالنسب، والجشع وشهوة المال وتعاطى الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال والقسوة والأثرة، وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله][1].

صفاتٌ كثيرةٌ وغريبة على وجه الحضارة الإنسانية أنت لن تجدها إلا في المجتمع اليهودى، ولن تجدها في سواه.

وخلائق غريبة على فطرة البشر وطباعهم، وأنت لن تجدها إلا في اليهود، ولن تجد واحداً من الناس يغبطهم على واحدةٍ منها، أو ينبذ إليهم على سواء حتى يحتل مكانة قد احتلها اليهود وتميزوا بها بين الأمم.

واليهود على قلتهم قد توزعتهم أقطار الأرض جرياً وراء المال، أو فراراً من مجتمع قد نالوا منه أشد النيل، وبطشوا برجاله أشد البطش وأعنفه.

---

[1] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين أبو الحسن الندوى ط دار الأنصار الطبعة العاشرة ١٣٩٧هـ– ١٩٧٧م ص٤٥.

ولقد عاش اليهود فترةً قُبيل البعثة النبوية في بلاد الشام، ولقد هيئ للشام في هذه الآونة أن تكون مطمعاً لدولة الفرس، وهى دولة من الدولتين العظيمتين اللتين يقتسمان العالم تقريباً في هذا الزمان.

وتم للفرس الغلبة على بلاد الشام، ووقع الفارسيون في أسر الزهو الذي يقع فيه المنتصرون غالباً في جميع الأزمان، وفي نشوة الزهو تلك اعتدى الفارسيون على المسيحيين في بلاد الشام اعتداءً منكراً، وأعنتوهم إعناتاً شديداً، ذاقوا مرارته على مستوى الماديات والمعنويات على حدٍ سواء، وانضم اليهود إلى الفرس وشاركوهم في إعنات النصارى من سُكان هذه البقعة، فقتلوا الرجال، وهدموا المعابد وهتكوا الأعراض، ونالوا من الصبيان والأموال.

ثم دال الله لدولة الروم، وقُدر لهم أن يهزموا دولة الفرس ويخرجوها من بلاد الشام بالحيلة والاقتدار، ثم دخل هرقل إلى بلاد الشام فقابله اليهود مُسرعين على أطراف بلاد الشام يشكون إليه ما فعل الفرس بالنصارى، وما أوقعوه بهم من قتل ونهب، وما أصاب اليهود من انكسار نفسى وحزنٍ شديد على أثر ما وقع بإخوانهم النصارى على أيدى الفارسيين.

ولقد كان اليهود يملكون من براعة القول، والقدرة على الحديث، والاقتدار على تزييف الكذب، بحيث أقنعوا ملك الروم بأنهم صادقون في قولهم، وبأنهم قد أصابهم من الهم والحزن قد عظيم بسبب ما نزل بإخوانهم المسيحيين من البلاء، وأنصت الملك إليهم مأخوذاً بما يظنه من صدق حديثهم، فلما رأوا الملك وقد وصل به الحال إلى هذا الحد، طلبوا إليه بامتثال الأذلاء أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم، وعلى معايشهم على أرض الشام، فأمنهم الملك وأقسم لهم على ذلك، ثم دخل ودخل اليهود معه آمنين إلى بلاد الشام، فلما رأى كنائسها ودور العبادة فيها قد هُدمت وخُربت، ورأى رعاياه من النصارى وقد بدى عليهم آثار العنت الشديد، انكسرت لذلك نفسه انكساراً شديداً، فلما استطلع الأمر ووقف على حقيقته، علم أن اليهود قد فعلوا بقومه وبأموالهم وأولادهم الأعاجيب، إلا أنه قد وجد نفسه وقد حال بينه وبين الانتقام من اليهود عهدٌ قطعه على نفسه، وذمة قد حملها من المواثيق ما لايُمكن معه أن ينال يهودياً بأذى، ولو قد فعل ما يُريده النصارى

باليهود رداً على ما أوقعوه بهم من التنكيل، وما أرهقوهم به من العنت، لوجد نفسه في مسئوليةٍ لايعرف حدودها مع ربه الذي شهد على هـذا العهد الذي قطعه الملك على نفسه، بمقتضاه يلتزم أن يؤمن اليهود، وألا يرهقهم في نفسٍ أو مُمتلكات، وأشار القساوسة على الملك أن يجد لـه من فتواهم مخرجاً، وقد أفتوا له بأن يصوم القساوسة وقتاً زائداً على ما يجب عليهم صيامه في أيام بقاء المسيحية بين النـاس، وأن يـأمروا المسيحيين بأن يصوموا هذه الأيام ما بقى الدهر ومـا بقـى الزمـان، واقتنع الملك، وأوقع باليهود ما يُناسب اعتداءهم الأول، فوقع العـذاب على من تمكن الملك منه، وفر من فر من اليهود إلى حيث انتهى بـهم الترحال.

ومن اليهود من ذهب إلى شبه الجزيرة العربية فنزل بعضهم في فدك، ونزل بعضهم في خيبر، ونزل بعضهم بيثرب وشاء الله عـز وجل أن يكون يهود يثرب مجاورين للأوس والخزرج، الذين جـاءوهم أيضاً إلى يثرب من اليمن بعد انهيار سد مأرب، وانطماس حضارة سبأ وذهاب آثارها.

ومهما كانت العلاقة بين اليهود في شبه الجزيرة العربية.

ومهما كانت العلاقة بين اليهود وإخوانهم الذين بقوا منهم فـي بلاد الشام، فإننا لا نهتم هنا إلا بهذا الشكل من العلاقات بيـن اليـهود وغيرهم من الأمميين، والذى يُمثله هذا النموذج الكائن بين يهود يثرب من جهة، وبين الأوس والخزرج من جهة أخرى.

والأوس والخزرج أبناء عمومة من العـرب الذيـن سـكنوا الجنوب من جزيرة العرب فترة طويلة من الزمن، ثم ألجأتهم الظروف بعد ذلك إلى حيث أقاموا بيثرب، وألقوا بها عصا الترحال.

وكان من سوء حظهم أو من حُسن حظهم مجاورة اليهود لـهم بالمدينة.

ودعنى ألفتك هُنا إلى خُلق من خلائق اليهود الذي أكدت عليـه الكتب السماوية لاسيما القرآن الكريم، والذى يظهر بغاية الجلاء إذا ما حدث أن جاور اليهود غيرهم من غير اليهود.

فمن خلائق اليهود أنهم يقولون ليس علينا في الأميين سبيل وأن غير اليهود بالنسبة لليهود حيوانات، لا يصح أن يكون بينهم وبين اليهود شريعة تنتصر للظالم من المظلوم، وتضع حدوداً يجب اتباعها بين الغالب والمغلوب، وترسم خطاً للتعامل بين اليهودى وغير اليهودى على مستوى الأفراد والجماعات، فاليهود أبناء الله وأحباؤه، وغير اليهود من الأمميين حيوانات تشبه أن تكون كلاً مُباحاً لليهودى، يرتع فيه كيف يشاء، دون أدنى مسئولية خُلقية إذا اعتدى اليهودى على أممى في عرض أو جانبٍ من الجوانب الإنسانية، ودون أي مسئوليةٍ مدنيةٍ إذا اعتدى على الأممى في مال أو ممتلكات ، ودون أي مسئوليةٍ جنائية إذا اعتدى اليهودى على الأممى في نفس أو عقل أو دين، وإني لأطمع أن تكون على حالةٍ من الوعى الكامل بُخلق هذا اليهودى الذي ذكرته الآن بين يديك.

وإني لأطمع كذلك أن تكون على وعى كامل بخلائق اليهود الأخرى التي ذكرتها لك آنفاً.

إنى لأطمع أن تكون على وعى كامل بخلائق اليهود على العموم ما ذكرته الآن وما سأذكره بعد الآن، وأنا أحُدثك عما كان بين اليهود وبين الأوس والخزرج من حسن أو سوء الجوار.

لقد جاور اليهود الأوس والخزرج، وبنى اليهود لأنفسهم حصوناً تحصنوا بها، وملأوها بما يستغنون به عما هو خارج الحصن من أسباب الحياة، إذا ما اضطرتهم الظروف إلى أن يُغلقوا على أنفسهم أبواب حصونهم، وهم قد صنعوا فيها أماكن يجلس فيها المحاربون من الرماة ينالون من أعدائهم من حيث لا يتمكن الأعداء أن ينالوا من أحدهم.

وهم قد اختاروا لأنفسهم من الأرض أماكن خصبة، وتركوا لغيرهم من أبناء العرب ما دون ذلك من الأرض، بحيث يأكلون، ولا يأكل العرب، ويتمتعون بالنعم كما يتمتع بنو الإنسان، ويتركون غيرهم من الأوسيين والخزرجيين يأكلون ويرتعون على نحو ما تأكل الأنعام وترتع.

وفى علاقاتهم الاجتماعية التي يفرضها الجوار، تجد اليهود كعادتهم لا يميلون إلى حرب جيرانهم، ولا يميلون إلى مُسالمتهم، وتلك

حالة شاذة في العلاقات بين الناس، فالنـــاس إمـــا أن يكونـــوا أعـــداء متحاربين، وإما أن يكونوا جيراناً تُرفرف عليهم رايات السلم البيضـــاء تشرق عليها الشمس كل صباح، وتغرب عنها كل مساء، وهى خفاقـــة دائمة الأثر، عالية مُرفرفة على المجتمعات كلها.

أما أن تكون العلاقة هكذا مجهولة لا سلم ولا حـــرب، فإنـــها تكون نوعاً من العلاقات قد حظى بقسط وافر من الشذوذ الذي لا يقبله الطبع الإنسانى ولا يرتضيه.

لكن هذا هو خُلق اليهود الذي يرتضونه ولا يرتضون سواه.

تُرى كيف يتمكن اليهودى من العيش في أمان، وقد ارتضى أن تكون علاقته بجيرانه هي هذا اللون من العلاقة– لا حرب ولا سلام .

أما اليهود فهم يعرفون طريقهم، ويبُصرون خططهم، ويعملون بطريقةٍ واحدة مهما اختلفت الأزمان، ومهما تعددت المجتمعات التـــي يعيشون فيها.

إنها لطريقة واحدةٌ، وإنه لأسلوبٌ واحد يصطنعـــه اليـــهود ولا يصطنعون سواه، خُلاصته أنهم إذا عاشوا في مجتمع يعملون أول مـــا يعملون على تفريق هـــذا المجتمـــع المجـــاور لـــهم إلـــى طوائـــف وأحـــــزاب،

وهم يصطنعون لكل لون من ألوان التفريق ما يُناســـبه مـــن الأســـس والأساليب، فقد يصلح في مجتمع من المجتمعات أن تكون أساس الفرقة فيه نعرة العصبية.

وقد يصلح في مجتمع من المجتمعات أن تكون أساس الفرقـــة فيه عاطفة دينية.

وقد يصلح في مجتمع من المجتمعات أن تكون أساس الفرقـــة فيه الرغبة في التميز الاجتماعى وعلو الكعب بين الأقران والرفاق.

وقد يصلح في مجتمع من المجتمعات أسسٌ للتفريق غـــير مـــا حدثناك عنه أو ذكرناه بين يديك من الأسس، واليهود خبراء في ذلـــك كله، إنهم يصطنعون لكل جماعة يجاورونها ما يُناسبها مـــن أســـباب الفرقة، وما يتلاءم معها من أسس التشرذم والتبعثر.

ثم بعد أن يفرقوا الجماعة على أساس يُناسبها، تجدهم يحاولون أن يُعمقوا هذه الفرقة، حريصين كل الحرص على أن يزرعوا في النفوس البغضاء والعداوة، ويروون هذه البغضاء وتلك العداوة من دماء الحروب وقتل الأبرياء، ما يجعلها يستمران في العطاء حتى لا يلتقي الفريقان ولايقف القوم عند هذا الحد، بل إن اليهود يُقسمون أنفسهم أقساماً، وينضم كل قسم منهم إلى طائفةٍ من طوائف المجتمع الذي قسموه إلى أقسام وطوائف، فإذا ما هدأت الحروب بين المجتمع المنقسم، أوحى كل فريق من اليهود إلى أصدقائهم من المجتمع الممزق أن يهبوا لقتال عدوهم من بني جلدتهم، ولا يخافون شيئاً من الهزيمة أو الانكسار، مادام إخوانهم من اليهود إلى جوارهم.

والفريق الآخر من اليهود يفعل نفس الشيء مع الطائفة الأخرى من المجتمع المجاور الذي قسموه إلى طوائف.

وتشتعل المعارك بين المجتمع المنقسم، فإذا ما أوشكت طائفة أن تنتصر على الأخرى، وإذا ما أوشك الأمر أن ينحسم على أي نحو من الأنحاء، انضم اليهود إلى الفريق المغلوب يمدونه بالمال والسلاح والمعنويات، وهم في ذلك كله حريصون كل الحرص ألا يكون في المعركة غالبٌ ومغلوب، وألا يكون في المعركة منتصر ومنهزم، حتى تبقى نار الحرب مشتعلة تأكل من الفريقين بمقدار ما تأكل، وتشغل الفريقين جميعاً عن جيرانهم من اليهود.

ولقد فعل اليهود ذلك بالأوس والخزرج أبناء العمومة حتى أورثوهم البغضاء وملأوهم بالكراهية وحشوا جلودهم بالإحن.

ولم يكتف اليهود بذلك ولكنهم لما رأوا منهم ضعفاً مادياً أرادوا أن يتسلطوا عليهم بالإذلال الثقافى والحضارى والدينى، حتى يفقدوهم الثقة في أنفسهم، وحتى يُورثوا الواحد منهم عقدة النقص يحملها بين طياته ويورثها الأجيال من بعده.

وأنت خبيرٌ بأنهم يفعلون ذلك في كل جماعة وفى كل عصر مهما كانت صفة الجماعة، ومهما كانت سمة العصر.

ودعنا لا ننزلق إلى أمور لا نُريد الآن أن ننزلق إليها لنحتفظ للبحث بطبيعته ومنهجيته.

لما انتهى اليهود من إحداث الوقيعة بين أبنــاء العمومــة فــي يثرب، ووصلوا بالعرب المجاورين لهم إلى حد أن اسم ابن العم كــان يكفى أن يُصافح أذن الواحد منهم ليشتاط الســامع غضبــا، ويمتشــق الحُسام من فوره ليرتكب بغير تفكير جناية يسيل على أثرها دمٌ يجرى نظيره في عروقه.

ولما اطمأن اليهود إلى إضعاف جيرانهم، توجهوا إليهم بكــلام هذا معناه: إننا أكثر منكم حضارة، وأعلى منكــم هامــة فــي مجــال الإنسانية والإنسانيات، فإنا نعرف ما لا تعرفون، وندرك من الحضارة مالا تُدركون، ولنا أنبياء ورسل نعرف منهم كيفيــة ســلوك الطريــق المستقيم، وإننا ننتظر نبياً قد أظل زمانه، سوف نؤمن به، وسوف نتبعه حين يُشرق نوره، وسوف نتخذه لنا قائداً نُقاتل تحت لوائه، ثــم نقتلكــم جميعاً ونُبيدكم قتل عادٍ وإرم، والأوس والخزرج وكذا ســائر العــرب أناس وثنيون يعبدون الأصنام، وهم في غــالب الأحيــان دهريــون لا يؤمنون بيوم الحساب، فما هي إلا بطونٌ تدفع، وما هي إلا أرضٌ تبلع، وما يُهلكنا إلا الدهر.

واليهود يستغلون ذلك كله ويتوجهون إلى العرب من ســكان يثرب بهذا القول قاصدين إلى إذلالهم وإشعارهم بالتخلف، لينضم فقــد الثقة بالذات إلى انعدام القدرة والحيلــة ليُبقــى العــرب مــن الأوس والخزرج أشباحاً لا تحسب اليهود لها حساباً ولا تخشى لها بأساً.

وكان من الممكن أن يتشكك الأوس والخزرج في مقالة اليهود لهم في شأن هذا النبي المرتقب، لولا ما بينــهم وبيــن اليــهود مــن صداقاتٍ، ظن العرب المخدوعون أن اليهود قد أقاموا جسورها بخيوط المحبة والوداد، ولولا أناس صالحون من اليهود أو في أقل القليل أحبار من اليهود، كانوا يذكرون هذا النبي القادم بصفته في معــرض غــير معرض السياسة، وفى محفل غير محافل محاولة الإذلال، أو الإشعــار بنقص القامة وانحطاط القدر.

ولا يخلو من فائدة أن أذكر بين يديك ما كان يسمعه الأوسيون والخزرجيون من البشارات بالنبي القادم في غير مَعرِض السياسة، وفى غير محفل من محافل محاولة الإشعار بالإذلال أو محاولــة الإشعــار بالنقص الحضارى وقصر القامة في مجال الثقافة أو الدين.

[قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال: قال لي: هل تدري عم كان إسلام ثعلبة بن سعية وأسيد[١] بن سعية وأسد بن عبيد نفر من بني هذل، إخوة بني قريظة، كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا ساداتهم في الإسلام- قال: قلت: لا، قال: فإن رجلاً من يهود من أهل الشام، يقال له: ابن الهيبان[٢] قدم علينا قبيل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا، فيقول لا والله، حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر: أو مدّين من شعير قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرّتنا، فيستسقي الله لنا، فو الله ما يبرح مجلسه، حتى تمر السحابة ونسقى، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت، قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: إنك أعلم، قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجرة فكنت أرجو أن يبعث، فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسبقنّ إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه .

فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية، وكانوا شباباً أحداثاً: يابني قريظة، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم]

وفي مرويات ابن إسحاق كذلك قال: [وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد أخي بني عبد

---

[١] قيل بضم الهمزة والصحيح فتحها وأبوهما سعية، وقد نزل في بني سعية قوله تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ الآية.

[٢] والهيبان: صفة إذ الهيبان من القطن المنتفش، وقد نقلت إلى المعاني، وسمي بالصفة هنا كما هي العادة المنتشرة بالتسمية بالصفات. والهيبان أيضا الجبان.

الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش [1] وكان سلمة من أصحاب بدر– قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته، حتى وقف على بني عبد الأشهل– قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سنًا، عليّ بردة لي، مضطجع فيها بفناء أهلي – فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان!! أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يُجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم والذى يحلف به، ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطيبونه عليه، بأن ينجو من تلك النار غداً، فقالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد– وأشار بيده إلى مكة واليمن فقالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليّ، وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه قال سلمة: فوالله

ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسوله– ﷺ – وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغيا وحسداً قال: فقلنا له: ويحك يا فلان !! ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به].

أنصت الأوس والخزرج إلى أشباه ما ضربت لك من الأمثال بعيداً عن جو السياسة ومحاولة الإذلال، الإذلال الفكرى والإذلال الحضارى، والإذلال الدينى على سواء، فكان فيما أنصت الأوس والخزرج إليه من الأخبار المتصلة بالنبي الجديد، عامل قوى جعل الأوس والخزرج يعتقدون في مطلع نبي جديد قد أظل زمانه.

وكان اليهود المجاورون للأوس والخزرج في يثرب أكثر قناعة بقرب زمان هذا النبي العربى، وأنه سيأتى على صفات مذكورة في التوراة لا تخطئه.

ولقد غلب على اليهود طبعهم الذي حدثناك عنه، والذى فيه أنهم إذا قدروا غدروا، وإذا قدر عليهم ذلوا وخنعوا.

---

[1] وقش بتحريك القاف وتسكينها، والوقش فى العربية: الحركة.

وفى حالهم مع الأوس والخزرج ترى أنهم قادرون عليـــهم، لا من طريق الحرب والنزال، ومنابذة الأقران، ولكن من طريق الحيلـــة والوقيعة، والتفريق بين المجتمعين.

وأنت خبير على نحو ما ذكرت لك بأن اليهود ليس من طباعهم أن يقاتلوا جيرانهم، وليس من طباعهم أن يســالموهم، وإنمــا طبعــهم الملازم لهم يظهر في اصطناع الحيلة للتفريق بين المجتمعين وضرب بعضهم ببعض.

ولقد فعلوا ذلك بالأوس والخزرج، ثم بدءوا يتعاظمون عليـــهم ثقافياً و دينياً، ويدلون عليهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن فيهم وحدهـــم الأنبياء والملوك، وأن الحضارة لا تخرج إلا من تحت عباءتهم، وأنهم ينتظرون ظهور نبي جديد، وحين يأتى هذا النبي ويلمع نجمه يذهـــب اليهود إليه وينضوون تحت لوائه، ويعملون على إبادة الأوس والخزرج إبادة عامة لا تُبقى ولا تذر.

قال ابن إسحاق: وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهـــداه لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكـــانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه، حين دعانا إلـــى الله تعـــالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: **{ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفـــروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكـــافرين }**[(١)] نجحت خطة اليهود بجناحيها في الأوس والخزرج.

---

(١) راجع سيرة ابن هشام حـــ١ ص ١٩٥ وما بعدها.

ولقد أصبح حشو إهاب كل أوسى عداء وبغضاء يدفعان إلـــى رغبة جامحة في قتال كل خزرجى، والشرب من دمه صغيراً كـــان أم كبيراً، رجلاً كان أو امرأة.

ولقد أصبح حشو إهاب كل خزرجى عداوة وبغضاء يدفعانـــهم إلى الجلوس بكل طريق، واحتيال كل حيلة بقصد القضاء علـــى الأوس وإبادتهم، والتخلص من أعيانهم وآثارهم.

كما أصبح حشو إهاب الأوس والخزرج جميعاً الشعور بأنـــهم ناقصون، وبأن شخصيتهم غير مكتملة، وبأن الكمال لا يتحقـــق علـــى الأرض إلا في أشخاص اليهود وجماعتهم.

ومع ذلك فإن جماعة من الممتازين من الأوس والخزرج كانوا يشعرون بما يريده اليهود منهم وبهم، ولكنهم كانوا قلة، والقلة في مثل هذه المجتمعات لا تطاع، وأنت خبير ولا شك بأنه في كـــل عصـــر لا رأى فيه لمن لا يطاع.

لقد بلغ السيل الزبى، ولقد جـــاوز الحـــزام الطبيـــن، والأوس والخزرج غارقون في مشاكلهم إلى الأذقان.

ترى هل يجعل الله عز وجل لهم مخرجاً؟

إن المتأمل في مثل هذا الحال يظهر له عدة أمور لا يمكنه أن يغفلها.

أولها: أن اليهود قد تحققت لهم السيطرة المادية والمعنوية على مجتمع يثرب ولا شك، وأنهم قد تربعوا وحدهم سنام الحضـــارة التـــي يدعونها، وركبوا متن التقدم الدينى، حيث توفر لهم أنهم أهـــل كتـــاب، وأن الذين يشاطرونهم يثرب عباد وثن، وحيث توفر لهم أنهم قد دلـــوا على جيرانهم من العرب بما يملكون من صفات نبي قد أظل زمانـــه، وقرب مطلعه.

وثانيها: أن الأوس والخزرج قد أجـــبروا أن يعيشـــوا علـــى الطارف المقابل ماديا وحضاريا، وأنهم قد تسلطوا على أنفسهم فأضعف بعضهم بعضاً، ونال بعضهم من رقاب بعض كجماعة تقاتل بليل، كـــل من أفرادها قد وقع على شبح في الظلام ظنه عدوه، فـــأخذا يتقـــاتلان والظلام يلفهما فلا يتعرف أحدهما على أخيه، وكلاهما يجتهد فـــي أن

يتمكن من رقبة الآخر ليقضى عليه، والحال سيستمر على ما هو عليه إلى أن يشرق نورٌ من هنا أو من هناك يمكن كلاً من الفريقين من أن يتعرف على أخيه، ومشرق هذا النور مجهول.

وثالثها: أن يثرب قد امتلأت جوانبها بعبق ظهور نبي جديد قد أظل زمانه، وأن نفوس سكان يثرب قد امتلأت عن آخرها بيقين مطلع النبي الجديد، ولكنهم مع ذلك يظنون بل يعتقدون بأن النبي الذي قد أظل زمانه لن يكون عليهم إلا خطرا، تزيد به فرقتهم وتكثر به آلامهم، وتتقطع به آمالهم في الحياة والوجود.

هذه هي الحال التي عمت يثرب قبيل عصر المبعث، وهذه هي الحال التي صنعها اليهود مسخرين في صنعها، وهم لا يعلمون أنهم يشاركون في صنع مناخ ملائم لشئ جديد عما قريب سيقع.

وهم لا يعلمون أيضاً أن هذا الشيء الجديد الذي سيقع عما قريب، لن يقع كما يريدون، ولن يكون على هواهم كما يبتغون.

{ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}.[1]

وأراك متطلعاً إلى تفصيل شئ قد أجملته لك، و إلى تتبع أحداث قد لاح نورها بين عينيك.

وأنت محق في تطلعك هذا، إذ هي رغبة في العلم، وهي حرص على تتبع ينابيع المعرفة، والاهتداء بآثارها إلى نتائجها، وهو أمر مشروع بل واجب محتوم.

ولست أكتمك شيئا تطلعت إليه، ولست بالذى أحجب عنك معرفة رغبت في الوقوف على أصولها، فليس من طبعى أن أفعل بك هذا أو ذاك.

غير أنك إن رغبت في الحصول على معرفة، فإنك مطالب أن تصحبنى وأصحبك إلى مكة حيث قد تركنا الأحداث تتصارع على أرض مكة بين النبي وبين الوفود القادمة على مكة من جميع الآفاق قاصدة إلى النسك، أو راغبة في شئ آخر غير النسك.

---

[1] الأنفال : ٣٠ جزء آية

وأنت مطالب إن صحبتني أن يكون معك تصور كامل لأحوال أناس سكنوا يثرب من يهود هم أهل كتاب، وعرب وثنيون يعبدون الأصنام، وما أحاط بهم جميعاً من أحوال لفتنا نظرك إلى بعضها قريباً.

ولو صحبتني على هذا النحو لفعل الله بي وبك ما يريد من الخير إن شاء الله.

حدثناك منذ فترة ليست بالبعيدة عن أن النبي ﷺ سلك بالدعوة إلى خارج مكة دروبا عدة ومسالك متعددة. وكان من بين الدروب التي سلكها النبي ﷺ لهذا الغرض أنه كان يعرض نفسه على القبائل، ويعرض دعوته على الوفود القادمة إلى مكة، والقوم يستقبلون النبي ﷺ بردود فعل مختلفة ومتنوعة، فمنهم من يبلغ من النبي حد الإيذاء بالشتم تارة، وبأن يبصقوا في وجهه تارة أخرى، وبأن يثيروا دابته التي يركبها فتنزعج ويقع النبي على الأرض بسبب ذلك الانزعاج.

ومنهم من كان يستقبل النبي ﷺ بلطف شديد، ويميل إلى اعتناق هذا الدين، لكنه لايعد النبي أن يمنعه، ولا يعد النبي أن ينشر دعوته، والنبي ﷺ يستقبل هذا وذاك بغاية الصبر على الأذى وبغاية العرفان لمن ألان له جانبه.

ومن الناس من كان يستقبل دعوة النبي ويرفض أن يعتنق دينه، ولكنه يتوسم في صاحب هذه الدعوة أنه ستكون له مكانة اجتماعية مرموقة، وسيكون لمن يمنعونه تميز على نحو ما في المجتمع الذي يعيشون فيه فيطمعون أن يكونوا هم الممتازين بين القرناء والمحيطين، فيعرضون على النبي أن يمنعوه ولا يدخلوا في دينه.

ومنهم المجاورون لغير العرب من جهة، والمجاورون للعرب من جهة أخرى فيعرضون على النبي أن يمنعوه من أن ينال منه عرب شبه الجزيرة العربية، لكنهم لا يريدون أن يمنعوه من غير العرب وهم يعللون ذلك بأن بينهم وبين الفرس معاهدات ألا يعينوا على النيل من الفرس أحداً، وألا يأووا أحداً قرر أن ينال من الفارسيين، ويضيفون إلى تعليلهم هذا علة أخرى تمنعهم من أن يمنعوا النبي من الفرس، وهى أن

طبيعة دعوته التي جاء بها على ما بها من العدالة والسلامة لا يرضى عنها ملوك الأرض.

لقد حدثناك قريبا عن كل هذا الذي أعدنا تذكيرك به الآن.

والذى نحب أن نضيفه إليك هنا هو أن النبي والذين معه من المؤمنين يعلمون علم اليقين بأنهم مهاجرون لا محالة، تاركون البلد الحرام ولا شك غير أن النبي والمسلمين معه لا يعلمون أرض المهجر التي سيهاجرون إليها، على وجه التحديد.

وهذا أمر كان الجميع يتطلعون إلى معرفته والوقوف عليه وليس للنبي أن يقول فيه برأيه.

وظل المسلمون في صمت ينتظرون توجيهات الوحى ينزل به جبريل من السماء أو يأتى الوحى بهذا الأمر على طريقة ما من الطرق التي يوحى بها الله إلى نبيه.

إلا أن الله قد أراد أن يقرب المسألة إلى المسلمين نوعاً ما من التقريب إلى أن تفعل السنة الجارية فيهم فعلتها التي أراد الله لها أن تفعلها، فأرى رسول الله في نومه بعض صفات دار الهجرة، وظن النبي فيها ظناً على حسب هذه الصفات التي رآها.

أخرج الشيخان في صحيحهما واللفظ للبخارى بالسند إلى أبي موسى الأشعرى: [عن النبي ﷺ "رأيت في المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلى[١] إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب"][٢] .

[وعن صهيب رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ:"أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهرانى حرتين فإما أن تكون هَجَرًا

---

[١] وهلى: ظنى.

[٢] صحيح البخارى-كتاب مناقب الأنصار رقم ٦٣ باب رقم ٤٥ باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

أو يثرب"، أخرجه الترمذى والحاكم والطبرانى][(١)] وحدث النبي المسلمين بما رأى، وأنصت المسلمون إلى النبي يحدثهم بما رآه ويتأوله، فانحصر اهتمام المسلمين بأماكن محددة ظنوا إحداها أرض مهجرهم.

فهى إما أن تكون (هَجَر) وهو مكان معروف بالبحرين يعرفه النبي سماعًا، ويعرفه المسلمون كذلك وقد يكون بعضهم قد شاهده.

وليس بصحيح ما ظنه بعض من قال: إنها قرية صغيرة على مسافة يسيرة من يثرب، لأن النبي يعلم أن الله إذا أذن له في الهجرة إنما يأذن له فيها على بلد كبير، وعلى أناس قادرين على المنعة، ولا يتوفر ذلك في قرية محدودة المساحة، وأهلها محدودون في قدراتهم وممتلكاتهم.

ولذا فإن ظن النبي الذي لاقاه لأول وهلة إنما كان يتعلق بهجر المعروفة ببلاد البحرين وهى من مساكن عبد القيس، وهم قد سبقوا غيرهم من أهل القرى خارج مكة إلى الإسلام.

أما ياقوت الحموى فهو قد ذهب إلى أن "هَجَر" أيضا بلدة من بلاد اليمن، وأن "اليمامة" محلة بين مكة واليمن، فناسب عند البعض أن يكون النبي قد تردد بينهما.

ثم كشفت الأحداث بعد ذلك عن أن دار الهجرة هي يثرب على نحو ما سنحدثك.

وبقى المسلمون إلى حين بعد أن سمعوا كلام النبي يظنون أن هجرتهم إما إلى "هَجَر" كما رأيت وإما إلى " اليمامة " التي هي بين مكة واليمن.

ولم يشأ الله أن يبين لهم عن أرض هجرتهم أول الأمر، لتسير السنة في مسارها عاملة عملها على طريقة السنن الجارية لا يمنعها من غايتها مانع، ولا يصرفها عن مسيرها صارف.

---

(١) الترمذى والحاكم والطبرانى.

لكن الأحداث لم تبطئ بالمسلمين، ولم تترك النبي طويلاً حيث فاجأته بحدث غير متوقع، فلم يكن المسلمون يتوقعونه، ولم يكن النبي ﷺ يترقبه من هذه الجهة التي جاء منها.

أقبل موسم النسك وجاء الوفود كعادتهم، وأخذ النبي يعرض نفسه على القبائل، ويتلقى ردود الفعل على اختلافها وتنوعها.

غير أن هذا الموسم قد جاء بخير أو بطلائع الخير التي تخالف ما كانت عليه المواسم الأخرى.

وقد خرج النبي في هذا الموسم من شهر رجب على ما عليه المؤرخون [قال الزهرى وبن عقبة وبن إسحاق: "فلما أراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز موعده له" خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقى فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. فقال لهم: "من أنتم"؟ قالوا: نفر من الخزرج قال:" أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم قال: " أفلا تجلسون أكلمكم؟ " قالوا: بلى من أنت فانتسب لهم وأخبرهم خبره فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام،، وتلا عليهم القرآن][١].

واستمر النبي ﷺ يرغبهم في الإسلام، ويعرض عليهم محاسنه والقوم مستغرقون في تفكيرهم، مأخوذون عنه بأشياء لم يعايشها النبي وعايشوها هم، فأثرت في وجدانهم وأخذتهم إلى ماض متصل الحلقات يشد أبصارهم وبصائرهم إليه فيستشعرون مرارته ويودون لو تخلصوا منه، وخلصوا منه أقوامهم وذويهم.

إنه لماض طويل متصل الحلقات، وإنه لماض أليم يتوجع منه كل ذى عقل، ويتألم منه كل ذى قلب.

إن النبي يتحدث ويسترسل في شرح الدين الذي جاء به، وكلما تحدث النبي وزاد الموقف إيضاحاً كلما أخذ القوم في الاستغراق الشديد

---

[١] سبل الهدى والرشاد جـ٣ ص ٢٦٧.

الذي يكاد ينأى بهم عن الوعى، ويبعد بهم عن متابعة النبي فيما يقول، ولما لا وهناك أمران عظيمان، تركهما القوم وراءهما في المدينة يلفان سكانها من العرب في لفافات مظلمة بعضها فوق بعض، قد لفتها يد يهودية آثمة ومازالت تفعل بغير انقطاع.

أمران عظيمان يشغلان هذا الوفد الذي أقبل لتوه من يثرب قاصداً إلى النسك ثم يعود، وإذا بالقدر يجمعه بهذا النبي العربى الذي سمع به ولم يره، وإذا بهذا النبي العربى يعرض على رجال الوفد أن يتابعوه على دينه، وأن يؤمنوا بما جاء به.

والقوم يتساءلون فيما بينهم أصحيح هذا الذي نراه ونسمعه وهل صحيح ماكنا نسمعه بيثرب من اليهود الذين جاورونا بها؟ والقوم يتساءلون: ما الذي نصدقه من المواقف، وما الذي لا نصدقه منها؟

إن اليهود قد قالوا لنا إن هناك نبي سيطلع من هذه الجهه التي هي مكة، وأن من صفاته ما ذكروها لهم نقلاً عن كتابهم المقدس، وأن النبي قد أظل زمانه، وأن اليهود سيتبعونه ويأتون به إلى المدينة يقتلون اليثربيين من العرب قتل عاد وإرم.

والقدر قد ساق هذا النبي إليهم الآن وهم ليسوا يهوداً، وهو يعرض عليهم الإسلام في رقة بالغة، وإقبال باش، وحديث ودود.

والقوم يتساءلون: لماذا نختار بين المواقف؟ ولماذا لا ننصت إلى هذا النبي؟

ويأخذهم الإنصات إلى متابعة رسول الله في حديثه الهادئ الودود، والوفد ما يزال يذكر أنه قد ترك خلف ظهره بيثرب أمرين عظيمين أحدثتهما اليهود بالأوس والخزرج.

أما أحد الأمرين: فهو هذه الفرقة التي أورثت الإحن في نفوس الفريقين، وتعهدت البغضاء بالتربية حتى أصبح أبناء العمومة وقد قطعت أرحامهم، ودابرتهم المودة، وانصرفت عنهم الرحمة.

وأما ثانى الأمرين: فهو هذا الأمر الذي دل اليهود به عليهم مستندين إلى ما عندهم من علم الكتاب، وما يدعونه من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وما يعلنونه من أنهم دون العالمين أصحاب حضارة ونظام

وفيهم الملوك والنبوة، وإن النبي الذي سيشرق نوره عما قريب لن تكون له من مهمة إلا إذلال العرب ثم إفنائهم.

لقد خلف الفريق وراءهم هذين الأمرين اللذين جاشت بهما نفوس الوفد حين سمعوا من النبي ﷺ ما سمعوه.

ولم يكن صعباً على رجال الوفد أن يتشاوروا فيما بينهم، وأن يتصارحوا وهم يعرضون مشاعرهم ويتجاذبون أطراف الحديث حول ما تركوه في قومهم من أحوال إلى حين، ثم هم سيعودون بعد قليل إلى يثرب يشاركونهم تجرع مرارة تلك الأحوال.

تشاور القوم قليلاً ثم قالوا: تعلمون أن يهوداً كانوا معنا في بلادنا وكانوا أهل كتاب وعلم، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزونا ببلادنا، فكنا إذا كان بيننا شئ قالوا لنا: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم.

تشاوروا على هذا النحو في هذا الأمر، واقتنعوا بما هم مقدمون عليه، فلما كلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، وقال بعضهم لبعض: ياقوم تعلّموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

لقد أسلم القوم من الخزرج وعددهم ستة وجميعهم من الرجال:

أسعد بن زرارة أبو أمامة وهو من بنى النجار.

عوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء.

رافع بن مالك بن العجلان وهو من بنى زريق.

قطبة بن عامر- بضم القاف- وهو من بنى سلمة.

عقبة بن عامر بن نابى- بضم العين وسكون ما بعدها - وهو من بنى حرام.

جابر بن عبد الله وهو من بنى عبيد.

ستة نفر توزعتهم بيوتات الخزرج قد أسلموا جميعهم بين يدى

النبي ﷺ لم يتردد واحد منهم، وكلهم يعلمون أن هـــذا هـو النبـي المرتقب بما اجتمع عندهم من صفاته التي أخبرهم بــها يــهود، وقـد وجدوا أن في إسلامهم فرصة تذهب بمرارة قد لوثت حلوقـهم فـترة طويلة من الزمن، وقد تسبب فيها جيرانهم من اليهود.

غير أنه لا يعزب عن بالك أن اعتناقهم الإسلام والتوجه إليـه إنما يستند إلى إرادة شخصية لا يحتاج المرء معها إلى شئ آخر، غير ما يمتلكه منها.

غير أن القوم يريدون شيئاً آخر فوق اعتناقهم للإسلام.

إنهم يريدون أن يخرجوا بالنبي إلى بلادهم، يتجـاوزون بـه وتحت لوائه آلاما قد ألمت بهم، وخلافات قد أورثتهم الأحقاد، وحكمت عليهم بالتدابر والقطيعة.

غير أن هذا المطلب الثاني وهو الخروج بالنبي لا يستند إلـى إرادة شخصية على نحو تلك الإرادة التي استند إليـها القـوم، وهـم يضعون أيديهم في يد النبي الواحد بعد الآخر يعلـن إسـلامه، وإنمـا الخروج بالنبي يحتاج إلى إرادة جماعية، ولـن تتحقـق هـذه الإرادة الجماعية إلا إذا سبقها.

<u>أولا:</u> قناعة لا مكان معها لارتياب بأن هذا هو النبـي الـذي تتعالى به اليهود على من جاورهم من العرب، علـى أن تشفـع هـذه القناعة برغبة أكيدة في اتباع هذا النبي، وسبق اليـهود إلـى سـاحته والإتيان به إلى يثرب، والعمل تحت قيادته.

<u>ثانيا:</u> عزيمة لا مكان معها لخور أو تردد، يتوجه بها الجميـع إلى ما بينهم من خلافات، يتناسى أسبابها مع إدراك كامل بـأن هـذه الأسباب ليست أصيلة بين ذوى الأوهام، وإنما قد صنعها اليهود صناعة تمكنهم من أن يعيشوا مطمئنين مادام جيرانهم قد شغلوا بأنفسهم.

وإذا ما تمكن الوفد من أن يتوفر له هذان الأمران بيثرب، فإنه من الممكن أن يهاجر النبي وأن تكون يثرب هي مشرق النـور لـهذا الدين الجديد.

ولقد أدرك القوم ذلك كله من أنفسهم ومن أقوامهم، وأدركوا مع ذلك أنهم يحتاجون معه إلى شئ من الوقت قد يستغرق عاماً بأكمله.

ولقد صارحوا النبي بما ارتأوه وما اعتزموا فعله فقالوا:
[قد علمت الذي بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حراص على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم، فإنا اليوم متباغضون متباعدون، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل][1].

لقد شد النفر من سكان يثرب رحالهم عائدين إلى بلادهم، ولا حديث لهم في الطريق فيما نعتقد إلا هذا الحديث المتصل بمستقبل بلادهم، وما عساهم أن يفعلوه مع أقوامهم.

شد القوم رحالهم وتركوا النبي ﷺ ووعدوه اللقاء بعد عام كامل.

ووصل القوم إلى يثرب ومن يراهم من الناس يعلم أن القوم قد أقبلوا بوجوه غير التي فارقوهم عليها.

أقبلوا إلى يثرب ومن يراهم مقبلين يعلم أن وراء القوم أمرا عظيما.

غير أن أحداً لا يعلم على وجه اليقين ما هذا الأمر العظيم الذي جاء القوم به، وكأن الجميع ينتظرون في صمت حتى يتكشف لهم ما وراء القوم من أحداث.

جاء القوم إلى يثرب وهم يتمنون لو يعينهم أقوامهم على ما هم قاصدون إلى فعله، وعلى ما قد اعتزموا على تنفيذه في خلال هذا العام كله حتى يعودوا إلى النبي ﷺ، وقد جمعوا رأيهم على ما يحبه النبي ﷺ ويحبونه.

---

[1] المرجع السابق حـ٣ ص ٢٦٧

وظني بالقوم وهو ظن تؤكده الوقائع، أنهم عرضوا القضية كما يشعرون بها بدوافعها التاريخية الخاصة، مضافاً إليها دوافع العقيدة الجديدة التي اعتنقوها على أقوامهم، الذين كانوا ينتظرون مخرجاً مما أحاط بهم من بلاء وفرقة، أنزلهما بهم اليهود المجاورون لهم.

وظني بكبار رجال يثرب الذين عرض عليهم الأمر، أنهم قد استحسنوا رأى النفر الستة الذين حضروا الموسم، وقابلوا النبي ﷺ.

واجتمعت الآراء لدى كبار رجال يثرب على أن يعملوا سراً على نشر الإسلام في بلادهم هذا العام.

وكانت حصيلة ما فعلوه في غفلة من اليهود أن دخل في الإسلام مجموعة من بيوتات مختلفة، لها وزنها ولها تأثيرها.

ولقد كان من أثر ذلك أن أوفد رجال يثرب من العرب وفداً منهم ليقابلوا النبي ويتعرفوا عليه.

غير أنهم هذه المرة قد ذهبوا إلى النبي ﷺ وهم ينوون أن يعطوه ويأخذوا منه، وأن يربطهم به عهود ومواثيق.

ولما جاء الميعاد المضروب، رحل من يثرب إلى مكة في الموسم من رحلوا قاصدين إلى النسك كل على عقيدته، غير أن الذاهبين إلى مكة هذه المرة من بينهم اثنا عشر رجلاً مؤمنين بالله وبرسوله، قد أوفدهم أقوامهم إلى النبي ﷺ يسمعون منه، ويبايعونه على مايريد.

وكان النبي ﷺ على شوق للقاء هؤلاء القوم، إذ إنه حين لقى بعضهم في العام المنصرف، كانت ملامح رؤيته التي رآها بخصوص أرض الهجرة بدأت تلوح أمامه وتتراءى له، فبدلاً من أن يكون النبي ﷺ متردداً بين "هجر" و"اليمامة" و "يثرب" أصبح تركيزه بعد لقاء القوم على يثرب وحدها، تنطبق عليها الصفات التي أراه الله إياها في منامه، أو ليست هي أرض سبخة صالحة للزراعة بين لابتين ينتشر فيها النخيل؟

وكان النبي ﷺ على شوق للقاء هؤلاء القوم، إذ إنه حين لقى بعضهم في العام المنصرف، كان من بينهم رجال من بنى النجار، وبنو النجار أخوال عبد المطلب جد النبي ﷺ، والذى كفله بعد أبيه، وفوق هذه الخؤولة لجد النبي ﷺ، فإن القوم هم الذين استقبلوا أباه عبد الله أثناء عودته بالتجارة من بلاد الشام مريضاً، وقد حرص القوم على تمريضه، ثم فاضت نفسه ببلادهم، ودفن في أرضهم.

جاء رجال يثرب وبينهم الرجال الاثنا عشر، على شوق منهم للقاء النبي ﷺ، وعلى شوق من النبي ﷺ للقائهم، حتى يأخذ النبي ﷺ منهم ويعطيهم، وحتى يأخذوا من النبي ﷺ ويعطوه.

أقبل القوم وواعدهم النبي ﷺ العقبة، واجتمع الجميع عند العقبة الأولى كما اتفقوا، وهى العقبة الكبرى التي يرميها الناس يوم النحر.

ولقد أنصت النبي ﷺ إلى القوم وهم يخبرونه عن حال الدعوة بيثرب، وأنصت القوم إلى النبي ﷺ وهو يحدثهم عن الإسلام وشمائله.

ثم عاهد النبي ﷺ القوم وعاهدوه على أشياء قد أخبر بها بعضهم فيما رواه المؤرخون.

في طبقات ابن سعد بسنده إلى عبادة بن الصامت قال: [لما كان العام المقبل من العام الذي لقى فيه رسول الله ﷺ النفر الستة لقيه اثنا عشر رجلاً بعد ذلك بعام، وهى العقبة الأولى، من بنى النجار أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ وهما ابنا الحارث، وهما ابنا عفراء ومن بنى زُريق ذكوان بن عبد قيس ورافع بن مالك، ومن بنى عوف بن الخزرج عبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن، ومن بنى عامر بن عوف عباس بن عبادة بن نضلة، ومن بنى سلمة عقبة بن عامر بن نابى، ومن بنى سواد قطبة بن عامر بن حديدة، فهؤلاء عشرة من الخزرج، ومن الأوس رجلان أبو الهيثم بن التيهان من بلىّ حليف

في بنى عبد الأشهل، ومن عمرو بن عوف عويم بن ساعدة، فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء، على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: "فإن وفيتم فلكم الجنة ومن غشى من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاءعفا عنه"][1].

والرواية التي ذكرها ابن سعد مذكورة كثيراً في كتب السير، وفى كتب السنة جميعاً.

وفى لفظ البيهقى جاءت الرواية أكثر تفصيلاً، حيث قال النبي ﷺ معقباً على ما أعطاه أو يعطونه من بنود البيعة والالتزام بها [قال: يعنى النبي: "فمن وفى ذلك منكم فأجره على الله"، وفى لفظ "فله الجنة"، "ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدينا فهو له كفارة وطهور، ومن أصاب من ذلك شيئاوستره الله وفأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر" فبايعناه على ذلك][2].

ورواية البيهقى بما اشتملت عليه من تفصيل، قد أفادت أن رسول الله ﷺ قد صرح بأن الذنب إذا عوقب عليه صاحبه في الدنيا فإن هذه العقوبة تكون كفارة لذنبه.

وهذه المسألة التي حسمت في رواية البيهقى، ظلت مع ذلك موضع خلاف بين العلماء الذين يهتمون بمناقشة مثل هذه المسائل، إذ هم ما يزالون مختلفين حول ما إذا كانت الحدود جوابر تعفو أثر الذنوب، أم أنها لا تعدو أن تكون زواجر، تزجر مرتكب الذنب لا يعود إليه، وتزجر غيره ممن لم يرتكبوه حى لا يحوموا حول الحمى.

وفى الروايات جميعها ما كان منها مفصلاً وما كان منها مختصراً أمران لابد من الإشارة إليهما:

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد، حـ١- ص ١٧٠، ١٧١.

[2] سبل الهدى والرشاد حـ٣ ص ٢٧٠.

أحدهما: ماورد في وصف هذه المعاهدة وتلك البيعة بأنها بيعة النساء.

وثانيهما: أن النبي ﷺ لم يأخذ على القوم في بيعتهم تلك أنهم سوف يمنعونه ويقاتلون دون دعوته.

أما ما ورد من تسمية هذه البيعة ببيعة النساء، فـــهى مجـــرد إشارة من عبادة ابن الصامت إلى ما جاء بعد من معـــاهدة النبـــي ﷺ للنساء اللاتى جئن إلى المدينة مهاجرات، وأمر الله نبيـــه أن يبايعـــهن ووضع له بنود البيعة، فجاءت تماماً كبنود تلك البيعة التي عاهد النبـــي ﷺ عليها أهل يثرب من قبل عند العقبة، يوم أن كانوا اثنـــى عشـــر رجلا، وهو من باب الموافقات القرآنية، وهى كثيرة كما نعلم.

أما أن تكون المعاهدة قد جاءت غير مشتملة على ما يوجـــب على أهل يثرب منعة النبي ﷺ والقتال دونه، فسببه أن القوم قد بايعوا النبي، ولم يكن هناك إشارة بنص شرعى إلى قتال، والنبـــي ﷺ فـــي نفس الوقت لم يرد أن يضخم الأمر دفعة واحدة أمام من أسلموا حديثـــاً وأمر الهجرة لم يتضح بعد.

لقد رضى القوم عن مجلسهم مع النبي، ورضى النبي ﷺ عن مجلسه معهم، ولقد رضى القوم عما أخذوه من النبي ﷺ وأعطوه إياه من عهود ومواثيق، ولم يكن النبي ﷺ أقل منهم رضىً بما أخذ منـــهم وأعطاهم.

وانقضى الموسم وانصرف الناس مشتملين على رضى النبـــي ﷺ ودعوته لهم، وهم سعداء بذلك كله مغتبطون.

وقد وصلوا يثرب تعلو وجوههم هذه الغبطة، ويضئ سرائرهم هذا الاطمئنان.

واستقبلهم أقوامهم، وقد علموا منهم أنهم مكلفون بأمرين: يجب عليهم الاشتغال بهما.

وأحد هذين الأمرين: يلزم كل شخص منهم لزوماً لايفارقه، إذ إنه يجب على كل إنسان أن يقبل على الدين، فيتعلم أصوله وفروعه، ثم يطبق على نفسه ما تعلمه من هذا الدين، ويتجاوب معه روحاً وجسماً.

أما ثانى هذين الأمرين: فهو يلزم الجماعة والأفراد جميعاً، إذ هو يتصل بنشر الدعوة، وإتاحة الفرصة لها كى تتسلل إلى الأفئدة والعقول، فتخاطب كل عقل بغير تهيب، وتضئ كل فؤاد بغير معوقات.

وأنت تستطيع أن تضيف هذين الأمرين إلى ما عقد القوم عليه من عزيمة صادقة على نبذ الخلاف وتنحية الشقاق، وهو ما عانى منه القوم فترة طويلة من الزمن.

لكنه لا يخفى عليك أن تعلم الدين ونشره لابد أن يسبقهما وجود فقيه ثبت، عالم يوثق بعلمه، يكون قد تربى على يد النبي ﷺ وأخذ منه مباشرة.

والمؤرخون يتفقون على أن النبي ﷺ قد أدرك حاجة القوم لمعلم يعلمهم، فأرسل إليهم مصعب بن عمير لهذا الغرض، ولكن المؤرخين يختلفون فيما بينهم، فمنهم من يقول: إن النبي ﷺ قد أرسل مصعباً مع الرجال الاثنى عشر الذين بايعوا النبي ﷺ، ولم يخرجوا من مكة إلا ومصعب معهم، ومنهم من يقول: إن القوم قد عادوا إلى يثرب وحدهم، وقد أدرك الأوس والخزرج بعد عودة المبايعين، أنهم يحتاجون إلى فقيه ومعلم، فقيه يشرح لهم أمور دينهم، ومعلم يعلمهم القرآن الكريم، فأرسلوا إلى النبي ﷺ في ذلك فاستجاب إليهم النبي وبعث إليهم بمصعب.

والأمر ليس فيه كبير شئ يترتب على ما يقوله هؤلاء أو هؤلاء، المهم أن مصعب قد ذهب إلى يثرب، وأنه قد نزل على أسعد بن زرارة بها، وأنه قد جمع الناس للصلاة وصلى الناس معه بصلاته.

انصرف القوم إلى يثرب، وقد أصبح النبي ﷺ بعد انصرافهم يتطلع إلى الإذن من الله للمسلمين، أن يهاجروا إلى هذه الجهة المأمونة من الأرض.

واستقر الوفد بيثرب ومعهم المعلم والمقرئ والفقيه، وقد أصبح كل واحد من المؤمنين في يثرب حريصاً على نشر الدعوة في جميع أرجائها.

وما كان رجال يثرب كرجال مكة، إذ القوم يختلفون عن المكيين في طبائعهم واستعداداتهم، وفى معرفتهم بالنبي ﷺ.

فجميع سكان يثرب من العرب على الرغم من أنهم وثنيون، إلا أنهم كانوا قد عرفوا النبي ﷺ بصفاته لا تغيب عنهم منها صفة، وقد أتتهم هذه المعرفة اليقينية من اليهود الذين جاوروهم، أو من صالحى اليهود الذين وفدوا إليهم من بلاد الشام على نحو ما حدثناك قريباً.

وسكان يثرب من الأوس والخزرج قد انحدروا من أجداد وآباء كانوا يعيشون بين الخضرة والماء، وعلى أرض سبخة خصبة، وبين قرىً يسكنونها تتخللها قرى ظاهرة يسير الناس بينها أياماً وليالى آمنين.

فلما أراد الله أن يقبض أسباب الحضارة في جنوب الجزيرة العربية، كان حظ الأوس والخزرج من الأرض هذه المنطقة الخصبة التي ينتشر فيها النخيل والأعناب، ولا تبخل عليهم بما يطلبونه من زروع أو ثمار.

وتلك بيئة تضفى على من تضمهم خلائق وسمات تختلف عن غيرهم ممن يعيشون في بيئات مختلفة، عن تلك البيئات التي نزلوا بها وعاشوا فيها.

وهذا ما يفسر لك أحياناً ما تراه من غلظة في الطباع، وجفاف في المعاملة، من أولئك المكيين الذين عاشوا على أرض كلها من الصخور البيضاء أو السوداء، وهى صخور بازلتية فيها من الصلابة والعنف ما يلقى بظلاله على أخلاق الناس الذين يعيشون فوق هذه الصخور وبينها، وعلى سلوكهم جميعاً.

بدأت يثرب تتهيأ إلى استقبال الإسلام يدخل كل بيت، ويضـــئ كل نفس دون أن تكون هناك مقاومة تقف في وجه الإسلام وانتشـــاره في المجتمع، وإضاءته للنفوس كتلك التي كان يجدهـــا الإســـلام مـــن المكيين الأصلاء، أو من بعض الوفود الواردة إلى مكة للنسك أو لغير النسك.

وأنت إن أردت أن تقف على سرعة انتشار الإسلام في يـــثرب وعلى سرعة استجابة النفوس له فإني أدعوك إلى تأمل هذين المثلين:

أحدهما: إسلام أسيد بن حضير.

وثانيهما: إسلام سعد بن معاذ.

والرجلان قد أسلما على يدى أسعد بن زرارة، والقارئ الفقيـــه مصعب بن عمير مندوب النبي ﷺ إلى أهل يثرب.

وقد ذكر المؤرخون إسلام الرجلين في قصـــة يتفقـــون علـــى روايتها:

[قال ابن إسحاق: وحدثنى عبيد الله بن المغيرة بن معيقب وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الشهل، ودار بنى ظفر، وكان سعد بن معاذ بن النعمان ابن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر.

قال ابن هشام: واسم ظفر: - كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس-قالا: على بئر يقال لها: بئر مرق فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم وسعد بن معـــاذ، وأســـيد بـــن حضير، يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لاأبـــالك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قـــد أتيـــا دارينـــا ليســـفها ضعفاءنـــا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أســـعد بـــن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتى، ولا أجد عليـــه مقدَمـــا قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أســـعد بـــن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فـــاصدق الله

فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تصلى فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فو الله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك[1] قال: فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوفاً للذى ذكر له من بنى حارثة فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتخشانا في دارينا بما نكره- وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان-:قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسّهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين قالا: تغتسل فتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع

---

[1] ليخفروك: لينقضوا عهدك.

ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يابنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فو الله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون][1] .

أرأيتك قد وقفت على ما قلت لك من سرعة انتشار الإسلام بيثرب، وقد ساعد على انتشاره أمورٌ كثيرة أهمها: ما فعله اليهود بهؤلاء القوم، وهو يتصل بالمادة أو يتصل بالمادة والمعنى وهو جميعه مؤلم، وبعضها يتصل بطباع القوم المنعكسة عليهم من بيئتهم؟.

أما أن قد وقفت على حقيقة ذلك كله، فإني أرى من الواجب عليّ أن أصارحك بأمر يتفق المؤرخون جميعاً على روايته والإشارة إليه، وهذا الأمر هو: أن الخزرج كانوا أسرع إجابة لرسول ﷺ من الأوس، بل إن الخزرج قد ظهروا في التاريخ ألين أريكة، وأكثر بشاشة، وأشد وضاءةً في القلب والوجه على السواء.

والتاريخ لم يُحدث أن النبي ﷺ قد لقى من الخزرجيين عنتاً

ولم يقع منهم عليه أذى في حين أن النبي ﷺ قد لقى بعض العنت من الأوسيين، سجله التاريخ عليهم في قصص تروى ويتناقلها المؤرخون إلى آخر الدهر.

---

[1] ابن هشام سيرة جـ ٢ ص٥٨ وما بعدها.

صحيحٌ أن الإعنات الصادر عن الأوسيين، وإن كان قد سبب بعض الأذى للنبي ﷺ لم يكن متوقعاً من القوم، سيما وأنهم يعيشون نفس الظروف الطبيعية والاجتماعية التي عاشها إخوانهم الخزرجيون.

وهذا كلامٌ يحتاج منى ومنك إلى أن نتتبع التاريخ، ونتتبع روايات المؤرخين لنحصل من التاريخ وروايات المؤرخين على أمرين:

أما أحدهما: فهو أننا نريد أن نتأكد ولو من خلال بعض الأمثلة من أن النبي ﷺ قد أصابه رهقٌ، وناله العنت من الأوسيين أو من بعضهم مهما كانت درجة الرهق، ومهما كانت قسوة العنت.

وأما ثانيهما: فهو أننا نُريد أن نقف على بعض الأسباب التي جعلت الأوسيين يظهرون أمام المؤرخين بمظهر غير الذي ظهر به إخوانهم من الخزرج، مع أن الظروف الطبيعية والاجتماعية واحدة في الفريقين.

وإنا لنجد روايات التاريخ، وإنا لنجد ذاكرة المؤرخين من السخاء بحيث يُلبيان ما نطلبه منهما من غير تلكؤ ومن غير مُداراة.

فمما يُلبى مطلبنا الأول هذه الرواية التي أنقلها الآن بين يديك لتطلع منها بنفسك على ما يؤكد لك قسوة بعض رجال الأوس.

[قال ابن إسحاق: وحدثنى الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد ابن معاذ، عن محمود بن لبيد، قال: لما قدم أبو الحيسر، أنس بن رافع، مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثنى إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأُنزل علىّ الكتاب.

قال: ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له.

قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع، حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا.

قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة][1].

ولدى المؤرخين ما يؤكد المطلب الثاني بنفس الوضوح الذي رأيته في تلبية المؤرخين لمطلبنا الأول.

في سيرة ابن هشام كلام يُعقب به على إسلام سعد بن معاذ وأسيد، قال: [قالا:- أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير- فو الله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفى، وكان شاعراً لهم وقائداً يستمعون له ويُطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة][2] .

ومع هذا التحفظ على ما فعله بعض الأوسيين، فإننا لا نستطيع إلا أن نؤكد مع جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه على أن أهل المدينة من خزرجيين وأوسيين، كان الرجل منهم يُقبل على النبي ﷺ في الموسم ويُسلم بين يديه، ثم يعود إلى بلده، فيدعو إلى الله عز وجل فيُسْلم بدعوته رجال ونساء كثيرون.

وفى رواية جابر بن عبد الله التي أخرجها الإمام أحمد رضى

---

[1] المرجع السابق حـ ٢ - ص ٥٣،٥٤.

[2] السابق حـ٢ ص ٦٠.

الله عنه، ما يُفيد فوق ذلك أن المسلمين في يثرب قد بلغوا من الكـثرة والقوة والحماسة والاقتناع بالدين الجديد، ما يجعلهم يتجاوزون الأمرين اللذين أشرت إليهما سلفاً، وهما اعتناق الدين والدعوة إليه إلى أمر ثالث يترتب عليهما، ولا ينقص قدراً عنهما، وهذا الأمر الثالث يُعـبر عنـه جابر بقوله [.... ثم بعثنا الله تعالى فائتمرنا واجتمعنا فقلنا: متى نذر رسول الله ﷺ يطوف في جبال مكة ويخاف؟].

موضوعٌ جديد لم يكن مطروحاً من قبل، يفـرض الآن نفسـه على اليثربيين من الأوس والخزرج من آمن منهم بالله واليوم الآخر.

إن القوم منذ أيامٍ قلائل كانوا قد أرسلوا إلى النبـي ﷺ فـي طلب فقيهٍ مُعلم يُعلمهم القرآن ويفقههم في الدين وأرسل النبي ﷺ إليهم أو مع وفدهم مُصعب بن عمير رضى الله عنه، وباشر مصعب مهمته قريباً من عام، وكانت ثمرة جهوده وجهود إخوانه أن أصبح الإسـلام في عُمق دور يثرب لايكاد يخلو منه بيت.

ولم تكن حماسة تلك التي ذكرها جابر بن عبد الله، تلك المسألة التي طرحت على مجتمع المسلمين للبحث والنظر، وإنما هـي نتيجـة تلقائية انبثقت عن العقيدة في القلب، التي وجهت أصحابها إلـى هـذا السلوك الرشيد.

اجتمع القوم وطرحت المسألة على المجْتمعين للنظر فيـها، إذ كيف يعيش المسلمون آمنين في المدينة لا يخافون، والنبي يعرض نفسه على القبائل بمكة يتبعه الناس بالأذى، وينالونه بما يُسيئه، ومع أن جابر لم يقص علينا ما الذي حدث داخل هذا الجمع الذي عُرضت عليه هذه المسألة، إلا أن نتيجته قد دلت عليه دلالة قاطعة، ونتيجته هـي تلـك الأحداث التي سنذكرها الآن بين يديك.

لكننا نستطيع ولا شك أن نقف بعقولنا على ما ذكره القوم كـي يتصوروا المسألة بتمامها، وكى يقفوا على المستقبل القريب وما يحمله من أحداثٍ ضخام تترتب كلها على ما هم مُقدمون عليه من اسـتضافة النبي ﷺ إلى يثرب والتعهد له بمنعته والدفاع عنه وعن دعوته.

وليس من الصعوبة أن نتصور أن القوم قد طرحوا مسألة اليهود ومجاورتهم لهم، وما يحمله ذلك من خطر اليهود عليهم.

لقد كان بينهم وبين اليهود مُعاملات اجتماعية، ومُعاملات جوار قائمة على أساس هش وعلى نظام غير عادل، إذ اليهود كانوا يُبيتون كل ليلة للأوسيين والخزرجيين الخطط التي تُباعد بينهما، وإذ اليهود كانوا يُرسلون إلى الأوس والخزرج كل يوم من يُوغرون صدور الأوس على الخزرج، ومن يوغرون صدور الخزرج على الأوس وفى كل من الأوس والخزرج سماعون لهم.

واليهود بالإضافة إلى ذلك كانوا يتعالون على الأوس والخزرج بحضاراتهم المزعومة، وبأن منهم أنبياء ومنهم ملوكاً، وأنهم يتربصون بالأوس والخزرج الدوائر، ريثما يظهر هذا النبي ﷺ الجديد في أرض العرب فيبيدونهم جميعاً تحت لوائه.

علاقة هشة قائمة على نظمٍ غير مستقرة ولا عادلة، ومع ذلك فهي علاقة قُدر لها أن تستمر فترةً من الزمن، والإقدام على استقدام النبي ﷺ معناه تقطيعٌ لهذه العلاقة مع اليهود والذهاب بها، ثم يحل محلها العداوة والبغضاء الظاهرتان، وقد ينبذون إليهم على سواء في حروب لا يعلم مداها إلا الله.

إنني لا يصعب عليّ أن أتصور أن تكون هذه المسألة قد طرحت على جماعة القوم، وهم يدرسون مسألة استقدام النبي ﷺ إلى المدينة.

ثم إني لا يصعب عليّ كما لا يصعب عليك أن نتصور القوم وقد طرحوا على أنفسهم مسألة أخرى هي محلّ للاهتمام والنظر، تلك هي مسألة العرب من قرشيين وغير قرشيين، وهم يعلمون أن دعوة النبي ﷺ خطرٌ على العرب جميعاً، لما فيها من عوامل انتشارها وبقائها، وأنها ستعمل على تغيير ما عليه العرب من عقائد ونُظم توارثوها جيلاعن جيل.

لا يصعب علينا أن هذه المسألة قد طرحت للبحث والنظر، ذلك أن جماعة القوم قد أدركوا بالظن الغالب أو باليقين المحتوم، أن العرب ستكون عليهم ألباً واحداً، وأنها سترميهم عن قـــوسٍ واحـــدةٍ إن هـــم استقدموا النبي ﷺ إلى بلادهم، وأحاطوه بالمنعة وقاتلوا دونـــه ودون دعوته ومعنى ذلك أنهم قبل أن يستقدموا النبي، لابد أن تكون الأمـــور مُنقدحة في أذهانهم انقداحاً يُبدد الغيوم ويُزيل الحُجب.

ثم إنه لا يصعب علينا أن نُدرك أخيراً أنهم قد طرحوا مســـألة المال والولد، وأنهما سيكونان الميدان الحقيقي للتضحية، وأنـــه ليـــس هناك من جزاءٍ على ذلك إلا الجنة، ولابد أن يتأكد كل واحدٍ من نفســـه ويقف على مكنون فؤاده ليعلم إن كانت نفسه ستطاوعه أن يبـــذل مـــن النفس والمال والولد مقابل الجنة، أولا، فإن وجد الجميع مـــن أنفســـهم إقبالاً ورضى، استقدموا النبي ﷺ غيرُ هيابين، وإن وجدوا غير ذلـــك من أنفسهم تركوا النبي ﷺ في مكانه بين أهله وعشيرته، فهذا أكـــرم لهم من أن يستقدموه ثم يتخلوا عنه.

ليس من الصعب علينا جميعاً أن نتصور أن ذلك كله قد حدث وأن هذه المسائل بتمامها قد طرحت على جماعة القوم، ويؤيدنـــا فـــي تصورنا مجموعة الأحداث التي تلت اجتماع المؤمنين من خزرجييـــن وأوسيين.

ولئن كان جابر بن عبد الله لم يشأ أن يقص علينا ما حدث فإنما ذلك منه رغبة في أن يُجنبنا سماع كلامٍ يُمكن لنا أن نستنبطه بأنفســـنا مُستقلين، لا نحتاج فيه إلى معونة معين، ولا إلى إشارة مُشير، خـــرج القوم من اجتماعهم هذا، وقد قرروا أن يُرسلوا في الموسم وفـــداً إلـــى النبي ﷺ يعرض عليه القدوم إلى المدينة، وهذا الوفد مفوض أن يأخذ من النبي ﷺ ويُعطيه، وأن يعاهده، على ما يُريد، ويُبايعه علـــى مـــا يُحبه الله ورسوله.

ولقد ذهب القوم في الموسم، وقابلوا النبي ﷺ أرسالاً الرجـــل والرجلين، والنبي يسمع منهم وهم يستمعون إليه.

ثم واعدهم النبي ﷺ العقبة الكبرى أوسط أيام التشريق ليلة النفرة الأولى من مِنى، ووجههم النبي ﷺ قائلاً ما خُلاصته: إنه يجب عليهم أن يحضروا إلى العقبة في الموعد الذي حدد لهم مُتفرقين، وألا يبدأ واحدٌ منهم الذهاب إلى العقبة قبل أن ينصرم الثلث الأول من الليل وأن يحذروا العيون الكافرة فإن عليهم منهم رقباء، وإن صناديد الكفر لحذرون.

وتجاوب القوم مع نصائح رسول الله ﷺ، فلم يُفاتحوا أحداً من اليثربيين غير المسلمين في شئ إلا ما كان من أمر عبد الله بن عمرو بن حرام أبى جابر.

روى ابن إسحاق بسنده إلى كعب بن مالك، قال: [.. ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق.

قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة.

قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً][1].

دخل القوم في فُرشهم ليلة الموعد، أضطجعوا يقظين، وناموا مُتفرقين في قومهم، من يرونهم لا يدركون الرابطة بينهم، ولا يقفون على سر الميعاد الذي ضربه لهم رسول الله ﷺ.

---

[1] ابن هشام سيرة حـ٢ ص٦٣

وأخذ أقوامهم ما يأخذ النائمين، وتسللوا وهم حـــذرون حتـــى

قدموا على النبي ﷺ مُتفرقين، لم يشعر بهم أحدٌ من النـــاس، وكـــان عددهم في رواية جابر بن عبد الله الذي ذكرنا حكاية إسلام أبيـــه آنفـــاً سبعين رجلا.

والمؤرخون يذكرون هذا العدد قد يزيدون عليه واحداً أو اثنين أو ثلاثة.

وفى رواية ابن إسحاق السالفة الذكر عن كعب بن مالك أنـــهم كانوا ثلاثة وسبعين رجلا.

وكان بين الذين قدموا على النبي ﷺ امرأتان شـــهيرتان فـــي الإسلام، لبلائهما في الدعوة إلى الله عز وجل، والحرص على نُصـــرة دينه بالنفس والولد والمال.

وإحدى هاتين المرأتين نسيبة بنت كعب، أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار.

وهى من هي شهرة في تاريخ الإسلام، وحرصاً على علاقتـــها بالله وتمسكاً بالدفاع عن الدين، ونصرةً لنبيه ﷺ.

وكانت المرأة الثانية هي: أسماء بنت عمرو بن عدى بن نـــابى إحدى نساء بنى سلمة، وهى أم منيع.

امرأتان عظيمتان يعرفهما من أراد أن يعرفـــهما لأول وهلـــة حين يبحث عنهما في كتب التاريخ والسير.

ولقد شاء الله لهما أن يدخلا في بيعـــة رســـول الله ﷺ مـــع الداخلين وشهد شعب العقبة ليلة النفرة الأولى من مِنى في هذا العام بعد

أن قضى رسول الله ﷺ أكثر من عشر سنين يدعو إلى الله، ويعرض نفسه على القبائل، يقبله من يقبله ويرده من يرده، شهد شعـــب العقبـــة ليلتئذٍ تجمع المسلمين تصحبهم إرادة كانوا قد أمضوها، وعزيمة كـــانوا قد عقدوها.

واجتمع بهم النبي ﷺ بعد أن تكامل عددهم، فأوصاهم ألا يرتفع صوتهم، وألا يُطيلوا الحديث في خُطبهم تقيّة حتى لا يقف المشركون من مكة ومن أقوامهم على ما عزموا عليه أمرهم مما هم مُقدمون عليه من البيعة فيُفسدوها، ولم يكن أحدٌ من البشر فيما رأيناه من حكاية المؤرخين، قد أقبل مع النبي ﷺ ليلة العقبة هذه فيما عدا عمه العباس، وكان ليلتئذ على شركه، وكان مجيئه مع النبي ﷺ حمية إن شئت، أو عصبية إن أردت، أو شفقة على ابن أخيه إن كان يروق لك أن تقول ذلك.

وحين اجتمع الجمع رأى العباس بن عبد المطلب أن يستوثق لابن أخيه، فطلب أن يكون في أول المتحدثين، يُسمع القوم صوته ويُبصر القوم بما ينبغي عليه أن يُبصرهم به، من الحوادث التي ستقع في المستقبل وليس وقوعها احتمالاً، بل هو المحتوم الذي لا فكاك عنه.

ويبدو أن العباس قد خفى عليه حكاية جابر، من أن القوم قبل أن يأتوا إلى الموسم، كانوا قد اجتمعوا وقلبوا الأمر على وجوهه المختلفة، وانتهوا إلى عقد العزم على أن يُبايعوا النبي ﷺ على ما يُريد، وهم واعون بما هم مُقبلون عليه، وهم راضون بعقد الصفقة بتمامها، وهم متحملون لجميع النتائج التي تترتب على بيعتهم للنبي دقت أو عظمت، لطفت أم اشتدت، ما دام الجزاء هو الجنة.

وسواءٌ خفى ذلك على العباس أو أدرك بفطنته أن مثل ذلك قد حدث، فإن قرابته من النبي ﷺ وعصبيته منه وحميته المذكورة في طبع أمثاله، أمورٌ كلها تدفع لكى يكون أول المتحدثين، يبصر القوم بما هم مُقبلون عليه، ويُبصرهم بنتيجة فعلتهم تلك، ثم يُخيرهم بين أمرين أيهما أفضل لهم يختارونه ويسلكونه، ويتركون ما لا خير لهم فيه، فهو أكرم لهم وأفضل لابن أخيه.

وإن كعباً بن مالك ليُتابع روايته، ليوضح مقولة العباس فيقول:

[... فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحسب أن

يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج – وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها "إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده".

قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت][1].

ولعلك لا يفوتك هذه الجملة التي نقلها كعب بن مالك.

ولئن كانت قد فاتتك أو فاتك مغزاها، فإني سأنقلها الآن مرةً أخرى منفصلة عن سابقها ولا حقها– قال: [فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت] وهذه كلمة لها من الدلالات ما يخفى على مثلك، إذ إنها لا تُقال إخبارا عن جمع في موقفٍ كهذا، إلا إذا كان قد سبقها مواقف مُحددة، وأمورٌ مُبرمة وإرادات لا تلين.

وهذا ما نعتقد أنه قد كان.

وما كان هو ما حدثناك عنه بالاحتمال حين كان حديثنا معك عن اجتماع المسلمين، قبل أن يأتي المسلمون أو ممثلوهم ليلتقوا بالنبي في موسم الحج.

لقد انتهى العباس من مقولته كما رأيت، ولم يُناقشه[2] أحدٌ فيما قال، ولم يُعقبوا على قوله بأكثر من هذه الجملة الفقيرة التي لها دلالتها

---

[1] ابن هشام سيرة جـ ٢ ص٦٣

[2] حكى ابن سعد كلاماً رأيناه بعد أن سطرنا ما سطرناه من تعليق على رواية جابر، قال ابن البراء بن معرور يُجيب العباس: [قد سمعنا ما قلت، وإنا والله لو

ومغزاها، إذ الوقت لا يحتمل إطالة الكلام وحكاية المراقف السابقة

ولا يحتمل الموقف إلا شيئاً واحداً، هو أن ينتقل النبي ﷺ ليأخذ لنفسه ولربه ولدينه ما يشاء.

ولذلك فإن الكلمة قد أعطيت إلى رسول الله ﷺ، كي يعرض عليهم أموراً يُريد أن يُبايعهم عليها وهم يسمعون، وجزاءً يُخبرهم بأن من بايعه على ما عرضه عليه من أمور البيعة، وصدق في بيعته فله الجنة.

في رواية جابر عند الإمام أحمد والبيهقى أن القوم قالوا: [يا رسول الله علام نبايعك؟

قال: "تبايعونى" :

على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

وعلى النفقة في العُسر واليسر.

وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم لومة لائم.

وعلى أن تنصرونى إذ قدمت عليكم يثرب، تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم.

ولكم الجنة"][1] .

واستمر النبي ﷺ يقرأ القرآن، ويُرغب في الإسلام، ويدعو القوم إلى ما يُصلحهم في الدنيا، ويُنجيهم في الآخرة.

وحين فرغ النبي ﷺ من كلامه أقبل الناس يُبايعونه وهم يزدحمون عليه.

كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ] طبقات ابن سعد حـ١ ص١٧٢

[1] سبل الهدى والرشاد حـ٣ ص٢٧٧.

والمؤرخون وكُتاب السير مُختلفون في أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ مُبايعاً.

فمنهم من يراه أسعد بن زرارة وهو أصغر القوم، ومنهم من يراه البراء بن معرور، ومنهم من يراه أبو الهيثم بن التيهان أما أسعد بن زرارة فله سابقته في الإسلام، وبلاؤه في الدعوة، ومواقفه في العقبة مع النبي ﷺ ثلاثة أعوام متواليات لم يفته واحدةٍ منها.

وأما البراء بن معرور فقد حفظ له التاريخ كلامه، وهو كلامٌ جيد يحسده عليه الحاسدون، هذا الحسد المشروع الذي ينفع صاحبه ولا يضره.

فحين عرض النبي ﷺ ما عرضه على القوم، تقدم البراء بن معرور فأخذ بيد النبي، [ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر][١] .

وأما أبو الهيثم بن التيهان فقد أراد أن يستفز همة قومه، ويُقبل بالعزيمة على ربه، يؤازر نبيه وينصر دينه، فقال مُتسائلاً ومستوثقاً ومُستنفراً الهمم: [يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها- يعنى اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ .... فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم][٢] .

والذى حمل أبا الهيثم على هذا التساؤل هو أنه يُدرك الفرق الدقيق بين المُهاجر والمُقيم أو المستوطن.

---

[١] سيرة ابن هشام جـ٢ ص٦١،٦٢.

[٢] المرجع السابق ص٦٤.

فالمُهاجر شأنه ألا يطلب دار المهجر له وطناً دائماً، وإنما هـو فيها يقضي أربه، ثم يَؤُوبُ عائداً إلى بلده الأصلي الـذي نـزع عنـه وتركه لأمر عارض.

أما المستوطن فهو المرء يترك وطنه إلى وطن آخـر يعـتزم الإقامة به، ولا يعدل بالإقامة به إقامة أخرى بغيره.

والقوم بالمدينة ليس لهم قائدٌ يجمعهم إلا ما يطمعون فيه مـن

قيادة النبي ﷺ، يجبر كسرهم ويجمع مُتفرقهم، وينزع ما في صدورهم من غل، حتى يكافئوا مجتمع اليهود الذي له ما ليس لمجتمعـهم مـن الخواص، وهم يتعاظمون بما لهم من ميزات على هذا المجتمع العربى المتفرق، والذى كان ولا يزال لليهود يد في تفرقه.

واستناداً إلى هذا الفهم الذي فهمه أبو الهيثم، فإن أحداً لا يُنكـر شرعية سؤاله، ولا يستطيع أن يوجه إليه بسببه لوماً كثيراً أو قليلاً.

وكأنى بالنبي يبتسم لأنه أدرك فطنة الرجل، ودقة فهمه وكياسة عرضه، واستحسن ذلك كله منه أفضل الاستحسان، فأجابه بما أجابـه به.

وتقدم أبو الهيثم قبل سؤاله أو بعده من النبي ﷺ يضرب على يده يُبايعه وهو يقول مع قومه: نُبايعك على مصيبـة الأمـوال وقتـل الأشراف.

ثم وقع القوم في لغط، منشأه ومُثيره هذا التزاحم علـى النبـي ﷺ لمبُايعته.

ولقد خاف العباس عم النبي ﷺ: وهو ما هو عليه من الشرك وقتئذ ، أن يخرج صوت القوم خارج الشعـب، ويعلـم بـهم النـاس فيُضايقونهم بالأذى، ويحملون كواهلهم رهقاً، فقال العباس ناصحاً وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ: [.. أخفوا جرسكم فإن علينا عيوناً، وقدمـوا

ذوى أسنانكم، فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم، فإنا نخاف قومكم عليكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم][1].

وبايع القوم رسول الله ﷺ وهم في غبطة وحبور، غير نادمين على شئ ولا هيابين من شئ، بل إنهم ليستعجلون القتال في سبيل الله، علهم ينالون من ورائه شرف النصرة لرسول الله ﷺ أو ينالون من ورائه الشهادة وفى كل خير.

لقد كانوا يستعجلون الجهاد نصرة للدعوة أو حرصًا على الشهادة، أو طمعاً فيهما جميعاً، ولقد قال قائلهم وهو العباس بن عبادة بن نضلة تعبيراً عن ذلك: [يا رسول الله والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره].

وأجابه رسول الله ﷺ بقوله:"إنا لم نؤمر بذلك".

ثم أمرهم النبي ﷺ جميعاً أن ينفضوا إلى رحالهم، فانفض القوم مأجورين، وعادوا إلى رحالهم لم يشعر بهم أحد من أقوامهم حين انسلوا، ولم يشعر بهم أحد من أقوامهم حين عاد كل واحد منهم وأخذ مضجعه.

ولم يشأ الله عز وجل أن يسير الأمر كله على ما كان يهوى العباس عم النبي ﷺ من السرية التامة، حيث شاء أن يتسلل الأمر إلى قريش ليكون مرارة في حلوقهم، وليظهر بين الناس ردود فعلهم.

أصبح أهل الموسم جميعاً على هدوئهم وعزيمتهم أن يرتحلوا إلى بلادهم، بعد أن قضى كل واحد منهم تفثه، وأتم نسكه، غير أن قريشا قد ذهبت إلى أهل يثرب تجوس خلال منازلهم بحثاً عن كبرائهم وزعمائهم، الذين هم أهل الرأى فيهم، وما أن جلسوا إليهم حتى حدثوهم بما يشعرون به من قلق، وما يخافونه من أحداث المستقبل قائلين: [يا معشر الخزرج، إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه أن

---

[1] طبقات ابن سعد حـ١ ص١٧٢

تبايعوه على حربنا، وأيم الله ما حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينه الحرب منكم].

أما زعماء يثرب فقد انبعثوا يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمنا، وجعل ابن أبي يقول: هذا باطل وما كان هذا وما كان قومي ليفتاتوا على بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني.

وعادت قريش قانعة أو مرتابة، وتركت القوم يجمعون عليهم أغراضهم وأشياءهم، وقد عزموا أمرهم على أن يرحلوا إلى بلادهم بعد أن أتموا نسكهم بمكة.

وعاد كل واحد منهم على نيته من النسك الذي قضاه، ومن الشعيرة التي أداها، والمسلمون لم يصبهم أذى، ولم يقع بهم مكروه إلا ما كان من أمر سعد بن عبادة، حيث كشفت قريش أمره خارج مكة، وكان معه رجل يسمى "المنذر بن عمرو" وكان الرجلان من النقباء على قومهم، اختارهما لهذه المهمة رسول الله ﷺ.

أما المنذر بن عمرو فقد أفلت من يد القرشيين بقدرته، أو بحيلته، لكن سعداً قد وقع في أيديهم فأوثقوه بالحبال إلى رجل بعيره وجذبوه من شعره جذباً شديداً، وأوجعوه ضرباً ولطماً.

فلما دخلوا به إلى مكة، أقبل عليه سائر القرشيين من المشركين ومن بينهم رجل وضئ وسيم، قال سعد فيما يحكيه عن واقعته: لئن كان في القوم خير فإنه لن يخطئ هذا الرجل، فلما أقبل الرجل على سعد لطمه بشدة حتى أوجعه، فقال سعد والله إني لا أتوسم في القوم خيراً بعد ذلك.

وظل القوم ينالون من سعد ويؤذونه أذىً شديداً، حتى أقبل واحد منهم وقال لسعد: ويحك أو ليس بينك وبين أحد من القوم جوار؟ فقال سعد: بلى، إنى كنت أجير لجبير بن المطعم بن عدى وللحرث بن حرب بن أمية تجارتهما بيثرب لا يظلمان بها، ولا ينال من تجارتهما أحد، فقال الرجل: ويحك، ما يمنعك أن تهتف باسميهما، وتذكر الذي بينك وبينهما؟! فهتف سعد بالرجلين وذكر ما بينه وبينهما، ثم تركه ناصحه من القرشيين وذهب إلى المسجد، فإذا بجبير بن المطعم

والحرث بن حرب موجودان به، فقال: أنتما هنا وبالبطحاء رجل يهتف باسميكما ويزعم أنه كان يجير لكما بيثرب؟ فقال جبير وصاحبه: وما اسم الرجل؟ قال: سعد بن عبادة، فقالا: والله لقد صدق، لقد كان يجير لنا تجارتنا بيثرب، ويحول بينها وبين أن ينالها أحد بظلم، ثم ذهبا إليه وأطلقا سراحه[1].

ويروى ابن سعد في طبقاته أن خبر سعد بن عبادة مع قريش قد تسلل إلى قومه من اليثربيين، فعزموا أمرهم على أن يعودوا إلى سعد يخلصونه من يد قريش بالحيلة إن نجحت الحيلة، أو بصارم القوة والاقتدار إن أبت قريش إلا أن تنبذ إليهم على سواء، ولقد كان اليثربيون جميعاً على عزيمة صادقة، وإرادة قوية، وقرار رشيد حين عزموا على تخليص سعد، فمنهم من انعقدت إرادته على ذلك تديناً ومنهم انعقدت إرادته على ذلك حمية.

ولم يشأ الله أن يقع بين الناس في هذا العام قتال أو شجار إذ إنهم حين عقدوا العزم على نجدة سعد، وجدوا سعد وقد عاد إليهم بعد أن تدخل جبير وصاحبه، فأطلقا سراحه، وأعادا إليه حريته.

انتهت البيعة بكل ما لها وما عليها، وعاد القوم إلى المدينة فرحين ببيعتهم، ولكنهم أشد فرحاً بشئ آخر هو بداية لعهد جديد من التنظيم، طالما اشتاق إليه الأوس والخزرج جميعاً، ذلك أن النبي ﷺ قد اختار من القوم اثنى عشر نقيبا، يأتمر القوم بأمرهم، ويستجيبون لإرادتهم على أن يكون النقباء ممثلين للنبي، أشبه ما يكون بالمقربين من موسى عليه السلام، أوهم أشبه ما يكون بالحواريين الذين ارتضاهم عيسى لنفسه.

ولقد كان النبي ﷺ في اختياره للنقباء واعيا الوعي كله بحساسية العرب وشعورهم القبلى، فاستعان بربه أن ينزع ما في صدور القوم جميعاً من غل موروث، ثم قال لهم ما خلاصته" أيها القوم لا يجد أحد منكم في نفسه أنه لم يكن من النقباء، فإن جبريل كان يختار معي".

---

[1] راجع سبل الهدى والرشاد حـ ٣ ص ٢٨٥،٢٨٦

ورضى القوم بما حصلوا عليه.

إنهم راضون لأنهم وبلادهم سيكونون مطلع النور إلى العـــالم كله.

وإنهم راضون لأنهم وبلادهم سيستقبلون نظامـــاً فـــي الحكـــم والقيادة لم تعرفه العرب من قبل، وقد بدأت تباشيره باختيار النقباء.

عاد القوم إلى المدينة، وقد أشرق نور الإسلام فيـــها، وتتـــابع المسلمون من مكة أرسالاً، ليكونوا إلى جوار إخوانهم بيثرب إلـــى أن هاجر النبي ﷺ.

فلما هاجر النبي ﷺ والمسلمون، وبدأ النبـــي فـــي مبـــاشرة أعماله، توفر للمدينة أمور كانت غائبة عنها وعن أهلها من العرب.

أولها: هذا الالتئام بين الأوس والخزرج بعد فترة من الخلاف صنعها اليهود بينهما بالوقيعة والفتنة، التي يراها اليهود شريعة لـــهم لا يخجلهم أن ينتسبوا إليها، ولا يخجلهم أن يقول الناس إنها لهم شرعـــة ومنهاجاً.

وثانيها: هذا الدين الذي يربط بين أتباعـــه، برابطـــة الأخـــوة المؤسسة على العقيدة المستقرة، والتى لاثمار لها إلا المحبة والرحمـــة تشيع بين صفوف المسلمين، وإلا الشدة والقوة يصطنعهما المســـلمون حين يحملهم أعداؤهم من غير المسلمين على أن يصطنعوهما.

ثالثها: تلك القيادة الرشيدة المؤسسة على حب القـــائد لرعيتـــه وحرصه على مصالحهم، وتفانى الرعية في محبة قائدها لا يعصون له أمراً، ويحملون هواهم أن يدور مع هواه حيث دار.

أصبح حال المدينة بعد الهجرة علـــى هـــذه الخـــواص وتلـــك المميزات.

ولقد كنا على وفاق معك، ونحن معك الآن على أتم وفاق حين قلنا ونقول: إن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة قد ساعد عليها اليهود، فهم الذين مهدوا الأرض للنبي ﷺ، وهم الذين نشروا صفاته بين النـــــاس

على نحو ورودها في التوراة التي بين أيدهـم، وهـم الذيـن كـانوا يستفتحون بهذا النبي ﷺ على الذين كفروا من أهل يثرب ومن غـير أهل يثرب، وهم الذين كانوا يتعالون به على جيرانهم من العرب الذين كانوا قد أنهكوهم بالوقيعة، واستلوا قوتهم بالفرقة، وأوقعوهم في بـئر المهانة يرتكسون فيه المرة بعد المرة.

الآن وقد استعاد اليثربيون شخصيتهم فاتحدوا، وآمنوا بـالدين الجديد، وتابعوا النبي وساروا تحت لوائه، يستقبلون التاريخ الجديد بفتح جديد.

خواص ثلاث قد امتاز بها الآن اليثربيون، وماكان اليهود فـي يوم من الأيام يسمحون لحى من أحياء يثرب أن يمتاز بميزة منها.

ولعلك ما زلت تذكر أنى قلت لك أوائل هذا الحديث، أن اليهود لا يحبون أن يكونوا محاربين لجيرانهم وجها لوجـه، وأن اليـهود لا يحبون أن يدخلوا في معاهدة سلام مع جيرانهم ويلتزمون بـها، ومـا يحبه اليهود ولا يحبون سواه هو أن يسيروا بالوقيعة بين جيرانهم حتى تسعر نار الحرب بينهم، كلما خبت زادها اليهود اشتعالا، ثم هم يتبعون ذلك بهذا اللون من الإذلال الفكرى والثقافى والدينى.

تلك هي حيلة اليهود، فإن سلبت منهم تلك الحيلة لم يعد أمامهم إلا الذلة والمسكنة، لأنهم لا يحبـون البدائـل المطروحـة، والبدائـل المطروحة إما حرب بالمواجهة، وإما معاهدة سلام لا يحبون أن يدخلوا فيها.

ولما جاء النبي ﷺ إلى يثرب مهاجرا، وأصبح الناس تحـت قيادته، دعى اليهود إلى الدخول في دينه فأبوا عليه، وكاد اليثربيون أن يصعقوا من الدهشة، أوليس هذا هو النبي الذي كنتـم تسـتفتحون بـه علينا؟! أو ليس هو هذا النبي الذي ذكرتموه بصفاته ونعوته؟! واليـهود يكابرون والقرآن يواكب هذه المكابرة بشرح مستفيض لطبـاع اليـهود وموقفهم من المسلمين.

لقد عكف اليهود بعد أن رأوا ميزان القوة في يثرب وقد اعتدل، وبعد أن رأوا شخصية الأنصار وقد استقامت وبعد أن رأوا قيادة النبي وقد سيطرت على تفكير طال مقامه فيه.

تُرى ماذا عساهم يفعلون؟.

لقد رأى اليهود أنها أمور ثلاثة: قيادة رشيدة، ووحـــدة صــف قوية، ودين هو الحق الأبلج بعينه، ولا بقاء لليهود ولا حيلة لهم خارج أسوار هذه الأمور الثلاثة، فإن أرادوا أن يكون لهم بقـــاء فعليــهم أن ينالوا من القيادة الحكيمة الرشيدة، أو ينالوا من هذه الوحدة الاجتماعية القوية، أو ينالوا من هذا الدين الذي هـــو الحــق الســاطع والطريــق المستقيم.

واليهود قد حاولوا أن ينالوا من هذه الأمور جميعاً ولكن علـــى طريقتهم الخاصة وأسلوبهم المميز.

١ - أما هذا القائد الرشيد عليه السلام فلقد حاولوا أن ينالوا منه بالقتل أكثر من مرة، والله ينجيه من كيدهم.

والذى أغراهم بمحاولة قتل النبي ، أن أجدادهم قد حاولوا قتل الأنبياء من قبله ونجحوا في هذه المحاولة، حيـــث أراد الله أن يخلـــى بينهم وبين أنبيائهم يؤذون البعض، ويقتلون آخرين.

أما هذا النبي فإنه له من الله منعة، لأنه خاتم الأنبيـــاء، ولأنـــه يُناط به أمور لا بد من أن يصل إليها ويطبقها حيث إنه هو العاقب فلا نبي بعده.

وإنى لن أستقصى معك جميع المحاولات التي حاولها اليـــهود لقتل النبيﷺ، وإنما يكفيك من هذا البحث مثال يوضح هذا القصد من مقاصد اليهود، ويجليه تجلية تجعلك تتمكن من جمـــع أمثلـــة أخـــرى مشابهة لهذا المثال، وهى كثيرة منتشرة في كتب التـــاريخ وروايـــات المحدثين.

والمثال الذي سأذكره الآن لك هو شديد الصلـــة بطائفـــة مـــن طوائف اليهود، هي طائفة بنى النضير.

وبنو النضير كبنى قريظة وبنى قينقاع كلهم قد دخلوا مع النبي ﷺ في معاهدة قومية، يدافعون جميعاً عن المدينة وأهلها، ما احتاجت المدينة وأهلها إلى دفاع، ويتقدمون بالأموال والأنفس فداءً لهذا الوطن وفداءً لأهله، لا يتقاعسون عن ذلك ولا يترددون فيه.

وتلك سنة من سنن الاجتماع، أو قل هو تشريع تعارف عليه البشر قديماً وحديثاً.

وأنا إذ ألفت نظرك إلى هذا، إنما ألفت نظرك إليه باعتباره تمهيداً أو توطئة، لما أريد أن أقوله لك من قصة النبي ﷺ مع بني النضير، ومحاولتهم الاعتداء عليه، وقرار النبي ﷺ بعد أن نجاه الله منهم، باجلائهم عن المدينة باعتبار أنهم غرباء لا وطن لهم هنا ولا تاريخ.

والمؤرخون مختلفون في السبب الذي من أجله قرر النبي ﷺ إجلاء اليهود من بنى قينقاع عن المدينة، ولكنهم مع اختلافهم يتفقون على شئ واحد مهما اختلفت الوسيلة إلى تحقيقه، وهو: أن اليهود عقدوا العزم على التخلص من هذا القائد الرشيد لتخلص لهم الساحة، بعد ذلك يفعلون بالأوس والخزرج ما يُريدون.

قلت إن المؤرخين يختلفون حول السبب الذي من أجله عزم النبي ﷺ على إجلاء اليهود من بنى النضير عن المدينة المنورة.

فمنهم من يقول: إن أهل مكة حين انهزموا في بدر أرادوا أن ينتقموا من النبي ﷺ بأيدي أناس من سكان المدينة، فكاتبوا عبد الله بن أبى بن سلول، وهو زعيم المنافقين الذين يُساكنون النبي ﷺ أرضه ويُشاطرونه معيشته ووطنه، وعبد الله بن أبى بن سلول رجلٌ قد برح به الحقد، وأثر فيه الحسد على النبي ﷺ ودعوته، حيث أقبل النبي ﷺ إلى المدينة داعياً إلى الله، وكان بعض أهلها قد أعدوا تاجاً يضعونه على رأس عبد الله بن أبى بن سلول شعاراً له بالإمارة عليهم

فلما جاء النبي ﷺ واحتل مكانته في القلوب، تأخر عنه كل شئ ونزل عن رتبته كل من في المدينة، كي يتأخر عن رتبة النبي ﷺ التي لا تُدانيها رتبة.

وقريشٌ تعلم ذلك كله، فأرسلت إلى عبد الله بن أبى بن سلول تُغريه وتتوعده في شأن قتال محمد ﷺ وصحبه، ولقد علم النبي ﷺ بأن قريشاً قد خاطبت عبد الله بن أبى في شأن قتال المسلمين والنبي معهم، فقابله النبي ﷺ يخبره بأنه قد علم أمره مع قريش، وقال له: [لقد بلغ وعيد قريش معكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تُريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟].

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا وعرفوا الحق وعلم كفار قريش بما وقع من النبي ﷺ، وأنه قد احتوى آثار كيدهم، وفوت عليهم أغراضهم من مراسلاتهم عبد الله بن أبى بن سلول فاتجهت قريش إلى يهود بنى قريظة، وخاطبتهم بنفس المنطق الذي خاطبت به عبد الله بن أبى بن سلول من الإغراء والوعيد، فقالوا لهم إنكم أهل الحلقة وأصحاب حصون ومنعة، وإنكم تملكون من فنون الحرب ما يميزكم على أقرانكم بالحيلة أو بالاقتدار، وإنه قد كان من أمر محمد معنا في بدر ما لا يخفى على أحد، وأنتم أقرب الناس منه، وأقدر الناس عليه، فإن قاتلتموه وهزمتموه، وخلصتم العرب والعجم منه، كان ذلك ما نُحب وتُحبون، وإن أبيتم كدنا لكم وأوقعنا بكم ما لا يُرضيكم، وما نساؤكم وذراريكم وأموالكم منا ببعيد.

وعلمت يهود بنى النضير ما تُريده قريشٌ منهم، وهم كما تعلم أناس لا يُريدون حرب الجيران، ولا يصبرون على مُعاهدتهم فلجأوا إلى ما يُجيدونه من معاملاتهم لغير اليهود، وهم لا يُجيدون إلا الخديعة والغدر.

اتفق يهود بنى النضير على حيلةٍ أو مكيدة تُمكنهم من النيل من رسول الله ﷺ، والتخلص منه، فأرسلوا إليه بما يحب وقالوا له: اخرج

إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثون حبرا من أحبارنا وعلمائنا، ويسمعون منك وتسمع منهم، فإن صدقوك وآمنوا بك: آمنا بك وصدقناك، فقبل النبي ﷺ منهم ذلك، ولكنهم حين رأوه قادما في ثلاثين رجلا من أصحابه، خلا زعماؤهم بأنفسهم وقالوا: كيف تخلصون إلى الرجل وهو في ثلاثين من أصحابه كل واحد منهم يحرص غاية الحرص أن يموت قبله، ثم تشاوروا وانتهوا إلى أن يقولوا للنبي ﷺ هذا العدد كثير، ومع كثرته قد يختلط أمامنا الحق بالباطل، فاخلص إلينا في ستة نفر ونخرج إليك ستة من أحبارنا، ففعل النبي ﷺ وخرج إليه ستة يشتملون على الخناجر، يستعملونها في اللحظة التي يرونها مناسبة للفتك بالنبي ﷺ، بعد أن يبرز إليهم ويبرزون إليه على ناشز من الأرض.

وقد أوشك اليهود أن يُدركوا حيلتهم، لولا أن سخر الله إمرأة منهم، فأرسلت من يُخبر بعض أصحاب النبي ﷺ بحيلة اليهود وخرج الرجل من أصحاب رسول الله إلى النبي ﷺ وساره بما عزم عليه اليهود من الأمر، وعاد النبي ﷺ إلى مكانه يأخذ في مباشرة إخلاء اليهود من بنى النضير عن المدينة.

هذا وجهٌ ذكره بعض علماء الحديث بإسناد صحيح في سبب إجلاء بنى النضير عن المدينة، حيث رواه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود، والبيهقى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، "لم أقف على اسمه".

أما ابن إسحاق فله كلام آخر في سبب إجلاء النبي ﷺ ببنى النضير عن المدينة يوافقه عليه ابن عمرو، وبن سعد وبن عائذ وجُل أهل المغازى، وكلهم يذهبون إلى [أن عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه أقبل من بئر معونة، حتى إذا كان بقناة لقى رجلين من بنى

عامر بن صعصعة، قد كان النبي ﷺ وادعهما، فنسبهما فانتسبا فقال[1] معهما حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلهما، ثم خـــرج حتـــى ورد علـــى رسول الله ﷺ في قدر حلب شاة، فأخبره خبرهما، فقـــال رســـول الله ﷺ: بئس ما صنعت قد كان لهم منا أمان وعهد فقال: ما شعرت كنت أراهما على شركهما، وكان قومهما قد نالوا منا ما نالوا من الغدر بنـــا وجاء بسلبهما، فأمر رسول الله ﷺ بسلبهما فعُزل، حتى يبعث به مـــع ديتهما. وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقـــد وحلـــف، فســـار رسول الله ﷺ يوم السبت فصلى في مسجد قباء، ومعـــه رهـــط مـــن المهاجرين والأنصار، ثم جاء بنو النضير ومعـــه دون العشـــرة مـــن أصحابه، فوجدهم في ناديهم، فجلس رسول الله ﷺ يكلمهم أن يُعينـــوه في دية الكلابيّين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، قد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا، اجلس حتى تطعم وترجـــع لحاجتك، ونقوم فنتشاور ونُصلح أمرنا فيما جئتنـــا، ورســـول الله ﷺ مستند إلى بيت من بيوتهم، ثم خلا بعضهم ببعض فتناجوا، فقال حُيـــيّ بن أخطب: يامعشر يهود قد جاءكم محمد في نفـــر مـــن أصحابـــه لا يبلغون عشرة- ومعه أبو بكر، وعمـــر، وعثمـــان، وعلـــى والزبـــير وطلحة، وسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضـــير، وســـعد بـــن عبـــادة- فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، ولـــن تجدوه أخلى منه الساعة، فإنه إن قُتل تفرق عنه أصحابه، فلحـــق مـــن كان معه من قريش بحرمهم، وبقى من كـــان هـــا هنـــا مـــن الأوس والخزرج، فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوماً من الدهر فمن الآن، فقال عمرو بن جحاش - بفتح الجيم وتشديد الحاء المهملـــة وآخـــره شيـــن معجمة- النضرى: إذا أظهر على البيت فأطرح عليه صخـــرة. قـــال سلام بن مشكم: ياقوم أطيعونى هذه المرة وخالفونى الدهر، والله لئـــن فعلتم ليخَبرن بأنا قد غدرنا به، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه فلا تفعلوا، وهيأ عمرو بن جحاش الصخرة ليرسلها على رســـول الله ﷺ

---

[1] قضى معهما وقت القيلولة.

ويُدحرجها، فلما أشرف بها جاء رسول الله ﷺ الخبر من السماء بمـــا هموا به، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً، كأنه يريد حاجة، وتوجه نحو المدينة، وجلس أصحابه يتحدثون وهم يظنون أنه قام يقضى حاجة.

وروى عبد الله بن حميد عن عكرمة قال: فبينما اليهود علـــى ذلك إذ جاء جاءٍ من اليهود من المدينة، فلما رأى أصحابـــه يـــأتمرون بأمر النبي ﷺ، قال لهم: ما تريدون؟

قالوا: نريد أن نقتل محمداً ونأخذ أصحابه، فقـــال لـــهم وأيـــن محمد؟.

قالوا: هذا محمد قريب، فقال لهم صاحبهم: والله لقـــد تركـــت محمداً داخل المدينة، فسقط في أيديهم، واستبطأ الصحابة الذين كـــانوا مع رسول الله ﷺ، النبي ﷺفقاموا وراث عليهم خبره، فلما يئسوا من ذلك قال أبو بكر: ما مقامنا ها هنا بشئ، لقد توجه رسول الله ﷺ لأمر فقالوا في طلبه.

فقال حُيىّ بن أخطب: لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضى حاجتـــه ونقريه، وندمت يهود على ماصنعوا فقال لهم كنانة بن صويراء: "هـــل تدرون لم قام محمد؟ قالوا: لا والله ما ندرى، وما تدرى أنت!

قال: بلى والتوراة إنى لأدرى، قد أخبر محمد بما هممتم به من الغدر، فلا تخدعوا أنفسكم، والله إنه لرسول الله، وما قام إلا أنه أخـــبر بما هممتم به من الغدر وإنه لآخر الأنبياء، وكنتم تطمعون أن يكون من بنى هارون فجعله الله حيث شاء، وإن كتبنا والذى درسنا في التوراة لم تغير ولم تبدل: أن مولده بمكة، وأن دار هجرته يثرب، وصفته بعينـــها ما تخالف حرفا مما في كتابنا، وما يأتيكم به أولى في محاربته إيـــاكم ولكأنى أنظر إليكم ظاعنين يتضاغن صبيانكم، قد تركتم دوركم خلوفـــاً وأموالكم، وإنما هي شرفكم فأطيعونى في خصلتيـــن والثالثـــة لاخـــير فيها".

قالوا: ما هما؟

قال: إن تسلموا وتدخلوا مع محمد، فتـــأمنون علـــى أموالكـــم وأولادكم، وتكونون من علية أصحابه، وتبقى بـــأيديكم أموالكـــم، ولا تخرجوا من دياركم، قالوا: لانفارق التوراة وعهد موسى.

قال: "فإنه مُرسل إليكم: اخرجوا من بلدى فقولوا: نعم، فإنه لا يستحل لكم دماً ولا مالاً، وتبقى أموالكم لكم، إن شئتم بعتم وإن شئتـــم أمسكتم" قالوا: أما هذا فنعم، قال سلام بن مشكم:" قد كنت لما صنعتـــم كارهاً وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من دارى، فلا تعقب يا حيى كلامه وأنعم له بالخروج، واخرج من بلاده".

قال: أفعل، أنا أخرج.

فلما دخل رسول الله ﷺ المدينة تبعه أصحابه فلقـــوا رجـــلا خارجاً من المدينة، فسألوه: هل لقيت رسول الله ﷺ؟

فقال نعم، لقيته بالجسر داخلاً، فلما انتهى إليه أصحابه وجـــدوه قد أرسل إلى محمد بن مسلمة يدعوه، فقال أبو بكر يا رسول الله، قمت ولم نشعر فقال رسول الله ﷺ: همت يهود بالغدر بـــي فـــأخبرنى الله تعالى فقمت.

قال ابن عتبة: وأنزل الله تعالى في ذلك قوله **{يأيـــها الذيـــن آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون}**[(١)].

ورواه عبد بن حميد عن عكرمة[(٢)].

ثم توالت الأحداث بعد ذلك يترتب بعضها على بعض، حتـــى خرج يهود بنو النضير من المدينة كما خرج يهود بنى قينقاع من قبل.

وسواءٌ أخذنا برواية أصحاب السير والمغازى، أو أخذنا براوية من قبلهم، فإن دلالة الخبرين على كل حال واحدة، وهى محاولة الفتك

---

(١) المائدة: ١١.

(٢) سبل الهدى والرشاد حـــ٤ ص٤٥٢ وما بعدها.

برسول الله ﷺ، حتى يحرموا أهل المدينة من العرب من ميزة اجتماعهم على قائد رشيد، وهى ميزة كما قلت لك طالما كان الأوس والخزرج يتطلعون إليها مُشتاقين، ويتمنون حصولها عاجلين وهى ميزة في الوقت نفسه طالما حرص اليهود على حرمان الأوس والخزرج منها، لأنهم يُدركون أن الأمم تقوى إذا اجتمعت كلمتهم على رجل واحد يتميز بالرُشد والحكمة والأناة، وما كان اليهود يُريدون ذلك لجيرانهم من العرب، وحرصوا دائماً على أن يحولوا بينهم وبينه، فكان ما كان مما رأيت ومما لم تر من محاولات الفتك برسول الله ﷺ.

٢ - وأما وحدة الصف، ووحدة الهدف، ووحدة الأمة التي أحدثها هذا القائد الرشيد، فكانت هي الأخرى من أعظم المشاكل التي واجهت اليهود، بعد أن شاء الله أن يُعرض اليهود عن اتباع النبي العربى، وأن يتبعه الأوس والخزرج رجالهم ونساؤهم وذراريهم.

لقد حرص اليهود من أول وجودهم في يثرب إلى هذا الوقت الذي جاء فيه هذا النبي الخاتم، على أن يُفرقوا بين الأوس والخزرج وعلى أن يشعلوا بينهم نار الحرب، وعلى أن يحرموهم من لحظة يجلسون فيها معاً، يتدارسون أسباب الخلاف، ويحملون الحرب الضروس على أن تضع أوزارها، وعلى أن يتخذوا قراراً رشيداً يُهيئون به الجو لأبنائهم، والأجيال التالية أن يعيشوا في أمان، ويهيئوا فيها الجو لأموالهم ومعايشهم، أن تنمو وترتفع أقدارها بالمتابعة المستمرة لها.

لقد حرص اليهود منذ أن جاءوا إلى المدينة على أن يفعلوا بالأوس والخزرج هذا كله وكثيراً غيره، وهم بفعلهم هذا مُغتبطون وهم بالنتائج التي حصلوا عليها من وراء أفعالهم تلك مسرورون غاية السرور، لم يستطع أحد في تاريخهم الطويل مع العرب أن يُعكر عليهم صفوهم، أو أن يأتى على بنيان خططهم من القواعد، حتى يخر عليهم سقفها من فوقهم، إلى أن جاء النبي محمد ﷺ، فجمعهم تحت لواء واحد، ورفع عنهم أسماءهم وألقابهم التي كانت تُثير ضغائنهم، وتحملهم على الحرب والنزال.

وأنت لا يغيب عنك أن كثرة الحروب بين الأوس والخـــزرج أوصلت الفريقين إلى مرحلة كان الواحد منهم يكفيـــه أن تُلقـــى علـــى مسامعه بألقاب بنى عمومته كى تثار ثائرته، ويقوم متوشحاً سيفه، لابساً درعه، مُختصراً عنزته ليواجه أبناء عمومته، فيقتل منهم أو يقتلوه.

معنى ذلك أن الرجل من الأوس كان يكفيه أن تذكر أمامه اسم الخزرج أو واحداً منهم، لكى تبلغ به ما تريد من الانفعال، وما يــترتب على الانفعال من تصرفات طائشة، وقل مثل ذلك فـــي الرجــل مــن الخزرج يذكر أمامه اسم الأوس أو واحدٌ منهم.

بلغ اليهود بالفريقين هـــذا المبلـــغ مـــن المؤثـــرات النفســية والانفعالات الشخصية التي لا سند لها من الواقع يؤيدها، فإنمـــا هـــي تستند إلى وهم كاذب يربض اليهود خلفه يحمونه ويذودون عنه.

فلما جاء النبي ﷺ خلص الأوس والخزرج من هذه المثيرات ووضع عن كواهلهم هذه الأوهام وآثارهـــا، وأنســـى الأوســيين اســم الأوس، وأنسى الخزرجيين اسم الخزرج أو كاد، وجمعهم جميعاً تحت اسم واحد يُحبونه و يألفونه ويشتاقون إلى أن يخاطبوا به، وهذا الاســم الجديد هو: أنصار رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ يُخاطبهم جميعـــاً أوسهم وخزرجهم بهذا الاسم وارتفع شرفهم أكثر حين خاطبهم القـــرآن الكريم به.

وبهذه الطريقة ذابت المحـــن، وتبخـــرت البغضـــاء، وارتفـــع الخلاف، وصار القوم إخواناً متحابين، كلهم يتمنون رضـــى الله، ثـــم رضى نبيه مهما كلفهم ذلك من النفس والمال والولد.

فماذا عسى أن يفعل اليهود مع هذا الوضع الجديد، وهو وضعٌ لا يحُبونه، ولا يألفونه، ولا يُطيقون التعامل معه؟

وأنت تعلم علم اليقين أن اليهود ما كانوا يحبون قتـــال الأوس والخزرج وهم متفرقون، وهم الآن لا يفكرون في قتالهم بعد أن جمعهم هذا القائد العظيم.

وأنت تعلم علم اليقين، أن اليهود لا يصبرون على معـــاهدات سلام مع جيرانهم في جميع العصور، وصبرهم على معاهدة سلام مع

الأوس والخزرج، بعد أن جمعهم القائد العظيم، والنبي الكريم، وصاروا أنصار رسول الله ﷺ أشد إيلاماً لنفوسهم وأكثر شدة على قلوبهم وأفئدتهم.

وليس أمام اليهود بعد ذلك إلا أن يتصرفوا بالحيلة مع هذا المجتمع الجديد، لعلهم يُدركون بالاحتيال ما لم يتمكنوا من إدراكه بالحرب أو بمعاهدات السلام.

وانصرف اليهود للحيلة جادين يصطنعونها في التفريق بين صفوف الأوسيين والخزرجيين على السواء.

وكانت الحيلة التي اصطنعوها للتفريق بين عوام الأوس والخرزج، أنهم كانوا إذا رأوهم مُجتمعين، يُرسلون رجلاً أو رجالاً يندسون بينهم، سواءٌ كانوا من اليهود أو من عملائهم ووظيفة المندسين بين الأوسيين والخزرجيين، أنهم يذكرون بين الناس أيام الحروب والآلام، ويذكرون ما قال الفريقان في هذه الحروب من أشعار الفخر والحماسة التي قيلت وقتها، لتحمل الناس على حمل السلاح والنزول إلى أرض القتال.

وكان اليهود يعتقدون أن التذكير بهذه المواقف وإنشاد هذه الأشعار، إنما سينتهى حتماً بالفريقيين إلى العداوة من جديد، حيث إن رجال كل فريق سيذكرون موتاهم في هذه الحروب، وحيث إن كل فريق سيستاءُ مما يراه ويسمعه من هذا الشعر الذي يتضمن النيل منه، ويتضمن الفخر ببنى عمه رأى اليهود ذلك وأقدموا على تنفيذ ماراأوا وأرسلوا رجالاً منهم أو من التابعين لهم، يندسون في هذه المجتمعات يذكرون الأيام الخوالى، ويُنشدون ما تُجيد به القرائح من الأشعار التي ذكرت تُحمس الرجال في مواقع القتال.

ولقد أوشكت خطة اليهود أن تنجح، لولا لطف الله عز وجل بالقوم، حيث هيأ لهم هذا القائد العظيم، وهذا النبي الخاتم الذي لا تُخطئ بصيرته الحكمة حين يُعرض عليه أمرٌ، أو يراه واقعاً أمام عينه، ويعهد إليه أن يحسمه.

كان الناس يندسون في هذه المجتمعات، يذكرون ما يذكرونه بين الناس من الأيام والأشعار، فيقوم أبناء العمومة بعضهم إلى بعض

بما في أيديهم من جريد النخل أو صارم الحُسام، وما هي إلا لحظات

حتى يصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فيخف النبي سريعاً إلى القوم ويتحدث إليهم مُعاتباً فيقول: أيجوز أن يحدث هذا وأنا بين أظهركم؟!
فيُدرك القوم الحيلة اليهودية التي ألمت بهم، ويشعرون سريعاً بالوقيعة التي أحاطت بهم، وكادت تذهب بهيبتهم، ثم هم فوق ذلك يذكرون هذا

التعدى على حُرمة النبي ﷺ وهو بين أظهرهم، فلا يُجيبون النبي ﷺ بشئ إلا أنهم يُلقون ما في أيديهم ويستسلمون للخجل ولا يُطيق الواحد منهم أن ينظر في وجه أخيه من شدة الحياء الذي ألم به.

وما كان هذا هو السبيل الوحيد الذي كان يصطنعه أملاً في الذهاب بريح القوم، ورغبة في تفتيت قوتهم، وإنما كانت هناك وسائل أخرى، وسبل متعددة أهمها أنهم كانوا لا يفوتون فرصة من الفرص يتمكنون من خلالها من اصطياد رجل خسيس الطبع، أو عنده استعداد لأن يبيع مُقدساته بالمال أو بالمنفعة على العموم، إلا انتهزوها حتى استطاعوا أن يجتذبوا مجموعة من البشر من سكان يثرب، يلتفون جميعاً حول عبد الله بن أُبيّ بن سلول ينتهجون في المسلمين منهج

اليهود أو منهج بعضهم، الذين يُعلنون أنهم من أتباع النبي ﷺ ويُبطنون العداوة والبغضاء، مُنتظرين فرصة سانحة تلوح لهم، حتى يفتكوا بالنبي ويتخلصوا من الإسلام وأنت تعلم أن هذه كلها أساليب لا تستند إلى فطرةٍ سليمة، ولا ترتكز إلى خليقة من الخلائق التي يُقدرها ويوقرها بنو الإنسان، ولذا لم يتمكن اليهود من شق صفوف المسلمين من الأوسيين والخزرجيين، وما استطاعوا أن ينالوا من جدار محبتهم بمعاول بغضائهم شيئاً قليلاً أو كثيراً.

وعاد اليهود يجلسون في مجتمعاتهم يأخذون رءوسهم بأيديهم من شدة القلق ومن شدة الخوف على السواء.

إنهم قلقون، لأن أساليبهم الفعالة في كل عصر لم تعد في هذا الزمان تؤتى ثمارها.

وإنهم خائفون، لأنهم يعلمون من خلال كتابهم وصفات النبي ﷺ فيه أن النبي ﷺ ظاهرٌ لا محالة، وأنه سيُجلى أعداءه عنه وعن

أرضه، ويباعد بينهم وبين أتباعه ومُريديه، وأنه وأصحابه قد رأوا تباشير ذلك تأتى بها الأحداث، ويُعلن عنها توالى الليل والنهار، أما اليهود فهم لا يرون إلا النُذر تترى يتلو بعضها بعضاً بغير انقطاع، لا تُمهلهم لحظة، ولا تتركهم في التفكير في أمر النبي ﷺ ساعة.

عاد اليهود إذاً واجتمع كُبراؤهم يأخذون رءوسهم بأيديهم قلقين خائفين، ثم حاولوا أن ينظروا في أمر النبي ﷺ ودينه وصحبه من جديد، فانتهوا إلى ما ينبغي أن ينتهوا إليه، مما سنحدثك عنه في الفقرة التالية.

٣ – أما هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ، والذى يُعد العنصر الثالث من عناصر قوة اليثربيين، فهو المقصد الأخير الذي انتهى إليه حاخامات اليهود، يعملون فيه بقوة حتى يحولوا بين الأوس والخزرج وبين أن يستمتعوا بهذه الميزة.

ولكن ما السبيل إلى ذلك؟

واليهود لم يُعجزهم الحيلة في الإجابة عن هذا السؤال، إذ هم قد فكروا وقدروا، وانتهى بهم التفكير والتقدير إلى وجوب الفصل بين المسلمين ودينهم، إن أرادوا أن يفعلوا شيئاً يتصل بهذه الميزة الجديدة.

نعم، وجوب الفصل بين المسلمين ودينهم، إذ إن اليهود يعلمون قبل غيرهم أن الدين ظاهرٌ بسلطان الحُجة معه، وهو ظاهرٌ بوجود عوامل الحياة فيه، ومن يحاول قتل هذا الدين، لا يكون أكثر حكمة ممن يحاول أن يُطفئ نور الشمس بفمه، وهى محاولة حمقاء لا تصدر إلا عن إنسانٍ أحمق، سيعود بعدها خاسئاً صفر اليدين من النتائج التي كان يبتغى الحصول عليها.

يئس اليهود، وحق لهم أن ييأسوا من أن ينالوا شيئاً، إذ هم توجهوا بمعاولهم ليضربوا الإسلام في جانبٍ من جوانب حصنه فحصنه منيع قوىٌ متين.

والله قد أيأسهم وأيأس من على شاكلتهم، وأخبر عن ذلك فيما بعد بقوله **{اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون}**.

وحين يئس اليهود من هذا الدين لم يبق أمامهم إلا هدف واحد قد تتعدد السبل إلى بلوغه، وهذا الهدف هو الفصل بين المسلمين وبين دينهم، بحيث يذهب الدين إلى الخزائن يُحفظ بها، ويذهب المسلمون إلى الحانات والخمارات ويدورون مع المعاصي حيث دارت، لا يلوون على شئ، ولا يُفكرون في شئ من الأشياء، أو خليقةٍ من الخلائق، وهذا هدفٌ تتعدد الوسائل إلى بلوغه.

وأهم هذه الوسائل، وسيلتان عظيمتان:

الأولى: أن يعمد اليهود إلى المسلمين فيشوشوا عليهم عقائدهم وأفكارهم حول الإسلام، ويتركونهم إما حيارى لا يعرفون الحق من الباطل، وإما عُمى البصائر لا يرون مواقع أقدامهم، إن أرادوا أن يسيروا في الحياة كما يسير الناس.

الثانية: تتصل بالسلوك غير السوى في تضليل الناس، حتى ينفضوا من حول النبي ﷺ ويتركوا دين المسلمين.

وما أن وقع اليهود على هذا الهدف، وعلى تلك الوسائل المؤدية إليه، حتى رأوا أنفسهم في حالة من النشوة، ورأوا أنهم ما وقعوا على مثلها من قبل، وأخذوا في سبيل الوصول إلى هذا الهدف واصطناع الوسائل المؤدية إليه.

والوسائل المؤدية إلى هذا الهدف وسيلتان على نحو ما ذكرت لك: وإنى سأحاول أن أقف معك وقفة قد تطول أو تقصر لنتبين كيف استغل اليهود أيام النبي ﷺ هاتين الوسيلتين، وبأى مقدرةٍ حاولوا اصطناعهما.

أ – أما الوسيلة الأولى: وهى تلك الوسيلة التي تتصل بفهم مبادئ الدين وإدراك حقائقه، فلقد سار اليهود في اصطناعها في اتجاهين أساسيين كما وضحهما التاريخ وذكرهما القرآن الكريم.

والاتجاه الأول من هذين الاتجاهين: هـــو أن اليـــهود كـــانوا يتفحصون الناس وما عندهم من علم، وما لديـــهم مـــن قـــدرة علـــى الإدراك، فإن رأوا بعض الناس عندهم شئٌ من الحقيقة، وقدر مقبـــول من الإدراك، أظهروا أنهم يستحسنون منهم ذلـــك، ومدحوهـــم بســـببه أفضل المدح، وأطروهم على ذلك أفضـــل الإطـــراء وأحســـنه، فـــإن وجدوهم وقد انتشوا بسبب هذا الاستحسان وهذا الإطراء، أدخلوا على ما يعلمونه من المبادئ قدراً غير قليل من التزييف والتضليل، ويظلون معهم يُلبسون الحق الذي عندهم بباطل إلى أن يتركوهم، وقـــد فتحـــت عيونهم وأفواههم من شدة الدهشة والاستغراب، ولم يُفارقوهم إلا بعـــد أن يتأكدو أنهم قد ضلوا السبيل.

وأما الاتجاه الثانى من هذين الاتجاهين: اللذين تشتمل عليهما الوسيلة الأولى: هو أن اليهود يُعيدون مرة أخرى تفحصهم للقوم مـــن أتباع الإسلام، وممن يعتزمون أن يدخلوا فيه، فإن وجدوهم لا يعرفون عنه شيئا، ولا يُدركون من أمره قليلاً أو كثيراً أخفوا عنهم الحق كلـــه وظهروا أمامهم بمظهر الناصح الأمين، وهم لا يُقدمون لهم إلا الباطل ولا يُظهرون لهم إلا ما يؤدى إلى الكفر والضلال.

والتاريخ يشهد على أنهم قد فعلوا ذلك بأصحـــاب رســـول الله ﷺ، وأنهم قد فعلوا ذلك بأناس كانوا مؤهلين إلى اتباع هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ، والقرآن الكريم قد أشار إلى اصطناع اليهود لـــهذه الوسيلة بشقيها، ولامهم على ذلك أشد اللوم، وعنفهم على ذلـــك أبلـــغ التعنيف وأعظمه.

فهو يقول وهو يُذكر بنى إسرائيل بنعمة الله عليهم: **{يا بنـــى إسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم وأوفوا بعـــهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مُصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون}**[1].

---

[1] البقرة: ٤٠: ٤٢

ثم يقول القرآن في موضع آخر يعيب على اليهود كفرهم، ثـــم يلومهم على اصطناعهم هذه الوسيلة منكراً عليـــهم الأمريـــن جميعـــاً بأسلوب يأخذ بالألباب، ويأسر الأفئدة **{يا أهل الكتاب لـــم تكفـــرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لـــم تلبســـون الحـــق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون}**[1] . واليهود في كـــل هـــذا لايُخجلهم أن يُسجل التاريخ عليهم هذه الوسيلة التي اتبعوها.

واليهود في كل هذا لايُزعجهم أن يُنكر القرآن عليهم ما يفعلونه بالناس، من إضلالهم أو إلباس الحق بالباطل بين أيديهم، إذ كـــل مـــا يهمهم من الأمر أنهم يُريدون الوصول إلى غاياتهم بكل طريقة مُمكنـــة وبكل سبيل مُتاح.

٢ - **وأما الوسيلة الثانية** التي اصطنعها اليهود في محاولة الفصل بين المسلمين وبين دينهم، فهى تلك الوسيلة التي تتطبع بطابع عملـــى واليهود يعتقدون أن الوسائل التي لها صبغة عملية، قد تكون أبلغ فـــي التأثير من تلك الوسائل التي لها طابع نظرى.

وهذه الوسيلة التي اصطنعها اليهود في هذا المجال، تدور كلها حول أن اليهود سيعمدون إلى نفر من الممتـــازين علميـــاً واجتماعيـــاً وسلوكياً، أو على الأقل يذهبون إلى طائفة يراهم النـــاس كذلـــك، وإن كانوا على غير ذلك، فيتفقون معهم أن يدخلوا في الإسلام، وأن يُظهروا الإخلاص له، وأن يُقبلوا عليه كأفضل ما يكون الإقبال عليـــه، حتـــى تلتفت إليهم الأنظار، وحتى يعتبرهم العوام في محل القـــدوة علـــى أي نحو من الأنحاء تكون تلك القدوة، تكون هذه القدوة في الدين، أو تكون في السلوك، أو تكون في العلم، أو تكون في التمـــيز الاجتمـــاعى، أو تكون في أي اتجاه آخر غير هذه الاتجاهات، المهم أن يراهم الناس في محل القدوة على أي نحو من الأنحاء تكون هذه القدوة، فإذا ما رآهـــم المسلمون كذلك ينسحبون من الإسلام علناً، وإذا ما قال لـــهم الدهمـــاء والعامة لماذا انسحبتم؟ سكتوا عنهم مُعرضين، أو قالوا لهم بالتلميح إنهم قد رأوا أنفسهم غير مُقتنعين بهذا الدين.

---

[1] آل عمران: ٧٠، ٧١

واليهود يرون أنهم لو تمكنوا من العثور على جماعة من البشر تقوم بتمثيل هذا الدور كله كما رسموه، فإنهم سيحصلون على نتائجه حتماً، ونتائجه التي لا شك في الحصول عليها، هي أن بعض المعتنقين لهذا الدين الذي رأوا في عملاء اليهود أنهم محل القدوة سيخرجون من هذا الدين ولا شك، وليس لهم من سبب يحملهم على هذا الخروج إلا أن يقولوا إنه لو كان في هذا الدين خيرٌ لما تركه هؤلاء العُظماء في العقل وفى التفكير وفى السلوك، أما وقد تركوه وهم متنورون فهذا دليلٌ قطعى على أن هذا الدين لا يصلح للفرد ولا يصلح للجماعة.

ويؤكد اليهود أنه بتكرار تلك المحاولة سيحصل اليهود حتماً على نتيجتهم التي لاريب فيها، المهم هو اصطناع الوسيلة والصبر على ثمرتها حتى تنضج.

وهذه الوسيلة لن تنجح وتؤتى ثمارها إلا إذا غلفت بلون من السرية المطلقة، بحيث لايعلم بها عند إرادة تطبيقها إلا بعض أقوام من اليهود، إذ لو ظهرت لعلم بها المسلمون قبل تطبيقها فيصعب حينئذ تطبيقها بينهم، ولعلم بها القادة من المسلمين، فيأخذون في مُكافحة الذين سيمثلون الأدوار الهامة فيها، ثم يتجرأ اليهود فيقولون: ولو أنكم أعلنتموها أيها اليهود، أو تسربت من بين أيديكم، لعلم بها ربكم، وإذا علم بها يأخذ في الاحتياط لعباده ودينه.

وأنت قد يؤذيك ما قاله اليهود من وجوب السرية حتى لا يعلم الله عز وجل، ولو علم لاحتاط لعباده ودينه، ثم تقول وأنت مُندهش: هل هناك على الأرض أو في السماء، أو بين الأرض والسماء من يقول: إن الله لا يعلم السر؟!

وأنا أقول لك: اقرأ تاريخ اليهود، وستعلم من قراءاتك الأولى: أن اليهود يقولون: إن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، فإذا وقعت في سرية لا يعلمها، بل إن تاريخ اليهود ليحتوى على هذه القصة وخُلاصتها: أن اليهود حين وقعوا في التيه، وتفرقوا في الأرض، ثم رضى الله عنهم بعد ذلك، أوحى إلى موسى وطلب منه أن يأمر كل يهودى أن يضع على بيته علامة، لأن الله قد قرر أن ينزل تلك الليلة فينتقم من أعداء اليهود ويهدم عليهم دُورهم، وهو يخشى أن يختلط

الأمر (تعالى الله عن ذلك)، عليه فيهدم بيتاً من بيوت اليهود على سبيل الخطأ، لا تندهش يا صاحبي، فإن لليهود عقائد خلف الأسوار التي يُحيطون بها أنفسهم يعتقدونها لا يُصدقها عقل.

وهم هنا يشترطون إن أرادوا أن تنجح الخطة في صفوف المسلمين، أن يبالغ اليهود في كتمانها لا يعرفها غيرهم، حتى لاتنتشر بين المسلمين، وحتى لا يقف عليها قادتهم، وحتى لا يعلم بها ربهم.

بل إنهم ليبالغون في السرية والحيطة فيقولون: إن كان الذين سيدخلون في صفوف المسلمين يؤمنون بهذا الدين، ثم يكفرون به بعد ذلك مُرتدين، إن كان الذين سيقومون بهذا الدور من غير اليهود، فإنه من الواجب إخفاء الخطة بتمامها عليهم، وكل ما يجب عليهم أن يعرفوه أول الأمر أنهم يدخلون إلى الإسلام مأجورين، ولكى يستحقوا الأجر كاملا عليهم أن يظهروا بين المسلمين كأحسن المعتنقين لهذا الدين وكأحسن المدافعين عنه، وكأكثر ما تملأ قلوبهم عليه غيره، ومشاعرهم له حماسة، شريطة أن يكون خلف هؤلاء القوم عيونٌ من اليهود ورُقباء، فإن وجدوا أنهم قد أصبحوا في محل القدوة علماً، أو سلوكاً أو مركزاً اجتماعياً، أمروهم بالردة، ولهم على الردة أجر شريطة أن تكون الردة مُعلنة، تُحيط بها ضجة عالية، وبريق آخاذ، ويرتفع الأجر بمقدار ما يُجيد صاحبه الدور الذي كلف بأدائه.

وقد يتردد البعض حين يؤمر بالردة مخافة على أسباب معايشه من أن ينالها الأذى، أو مخافة على سمعته الاجتماعية أن تتسلل إليها الدعاية فتُزلزل أركانها وتأتى على سقفها.

واليهود يُطمئنون هؤلاء الخائفين على مراكزهم الاجتماعية، وعلى أسباب معايشهم، لاينال منها شئ ولا يتسلل إليها ما يُزلزل أركانها.

لقد انتهى اليهود من دراسة هذه الوسيلة على هذا النحو، وبقى

أن يدفعوا بها إلى ميدان التطبيق أيام النبي ﷺ، وهم يحسبون أن أحداً من المسلمين لا يعلم بما يُبيتون، وهم يحسبون أن الله عز وجل لا يطلع على ما يُسرون، وما هي إلا لحظات حتى رأوا هذه الخطة وقد أعلنها

الله عز وجل كما نسجوا خيوطها، وأطلع النبي ﷺ على ما دبروه

لإنجاحها، فأصبح على إحاطة بها، كأنه كان يُشاطرهم المجلس يُتـــابع حديثهم واحداً واحداً لا تغيب عنه كلمة، ولا تعزب عنه فكرة.

ثم شاء الله أن يكون ذلك في قرآن محفوظ في صدور المسلمين ومكتوب في مصاحفهم، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حتى يتمكن المسلمون في كل عصر من أن يطلعوا على هذه الخليقـــة مـــن خلائق اليهود يحسبون لها حسابها، ويصطنعون لها ما يُبطل فاعليتـــها حتى يرتد كيد اليهود في كل زمان إلى نحورهم، كما ارتد كيدهم إلـــى نحرهم في عصر المبعث.

لقد سجل القرآن الموقف كله بعبارات تُبين عن المقصود منها

فقال: **﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب أمنوا بـــالذى أنـــزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحـــدٌ مثل ما أوتيتم أو يُحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[1].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية مـــن ســـورة آل عمـــران: **[﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل علـــى الذيـــن آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾** الآية هذه مكيدة أرادوها ليلبســـوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهـــو أنـــهم اشتـــوروا بينـــهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا من المسلمين صلاة الصبح، فـــإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس إنما ردهـــم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قـــالوا **﴿لعلهم يرجعون﴾**.

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد في قوله تعـــالى إخبـــاراً عـــن اليهود بهذه الآية، يعنى يهوداً صلت مع النبـــي ﷺ صـــلاة الصبـــح

---

[1] آل عمران: ٧٢:٧٤

وكفروا آخر النهار، مكراً منهم ليروا الناس أن قد بدت لهم الضلالة منه بعد أن كانوا اتبعوه.

وقال العوفى عن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا، وهكذا روى عن قتادة والسدى والربيع وأبى مالك][1].

لقد أصبح اليهود أو أمسوا، وإذا بأمرهم قد كشفه التاريخ، وقد أوضحه القرآن للمسلمين بحيث لم يعد يخف على واحدٍ من المسلمين.

ولقد أمسى اليهود أو أصبحوا، وإذا بهم قد أسقط في أيديهم حيث أصبحوا مع النبي ﷺ والمسلمين على طرفين مُتقابلين، لم يعد يسترهم خداع، ولا يحول بينهم وبين النبي ﷺ حائل.

غير أنه من المفيد أن أقول لك إن اليهود لم يشاءوا أن يُلقوا سلاحهم، ولم يشاءوا أن يُديروا للمسلمين ظهرهم ماداموا لم يقبلوا أن يدخلوا معهم في دينهم، بل إنهم ظلوا يصطنعون لهم هذه الوسائل في كل عصر منذ عصر المبعث و إلى الآن، يُلبسون لهم الحق بالباطل إن استطاعوا أن يفعلوا ذلك، ويُغرقون بعضهم في الباطل إغراقاً تاماً إن أتاحت لهم الظروف أن يفعلوا هذا الفعل، ثم هم يجتذبون إليهم بعض الشخصيات، ويجعلونهم أمام الأضواء حتى يصبحوا بين الناس ملء العيون والأسماع، ثم يدفعون بهم إلى مجال التدين حتى يثق الناس بهم ثم يحملونهم على الردة عن الإسلام بعد ذلك، أملاً في أن يقتدى بهم غيرهم ممن لا يجيدون الفهم في الدين، ولاتمكنهم الظروف من أن يخلصوا إلى القراءة فيه.

وفى هذا الزمان المتأخر تجد اليهود يصطنعون هذه الوسائل نفسها، فإذا ما اعترض بعض فقهاء المسلمين على أولئك النفر الذين مثلوا الدور بعناية، وانتهوا إلى الردة عن الإسلام بدافع النقص في الطبع، أو بدافع الأجر الذي يحصلون عليه يملأ جيوبهم أو بطونهم

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى جـ١ ص٣٧٣.

وقالوا: إن المرتد يُقتل، حرك اليهود من استطاعوا أن يُحركوه ليقولوا: إننا لا نجد للردة حداً في الإسلام، وأمامكم القرآن الكريم فاقرأوه، وأنتم إذا ما قرأتموه لن تجدوا فيه أن المرتد يُقتل، فإن قال لهم قائل من المسلمين: إن القرآن يقول: **{وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}**[1] والرسول قد قال : "من بدل دينه فاقتلوه"

قال اليهود ورجالهم ممن يعملون لحسابهم: إننا نعترض على هذه المقولة لأمرين:

أحدهما: أن هذا القول من كلام النبي ﷺ، ونحن لا نعترف للنبي بكلام، إذ كلامه سُنة والسنة ليست من أصول التشريع، لأنها لاثقة بهاوليس هناك ما يحملنا على اتباعها وفى المسلمين سماعون لهم من الذين لاصلة لهم بالعلم ولا بالمعرفة.

وثانيهما: أن المرتد إذا قُتل، حيث جعلنا للردة حداً يكون معنى هذا أننا نحجر على الحريات، ونحجر على الناس في مشيآتهم، والناس أحرارٌ فيما يؤمنون به، إذ ليس هناك أعز على الإنسان من إرادته يستعملها كيف يشاء، ويتوجه بها إلى ما يروق له دون أن يكون لأحد سلطانٌ عليه، ودون أن يتمكن أحد من أن يأمره في شئ أو ينهاه، ثم هم يرفعون حرارة النقاش قليلاً، فيستعملون عبارات تؤثر في العوام من البشر، وتأخذ بقلوب الذين لا صلة لهم بالمعارف، ولا معرفة لهم بنظم المجتمع، ولا خبرة لهم بقواعد التشريع، اللهم إلا أن يكون طرفاً من العموميات، أو ألقاباً للمبادئ لا ترتفع بهم في مجال العلم قليلاً أو كثيراً، فتراهم يقولون: إن من يهددون المرتد بالقتل يُريدون أن يغتالوا الحريات، ويُريدون أن يخلعوا الرءوس من الأكتاف، ويُريدون أن يقبضوا على النواصي كما يقبضون على قائم سَيفهم، ويُريدون أن يقولوا بين الناس أنهم آلهة أو أنصاف آلهة، يحكمون الناس من هذا المنطلق دون أن يكون لأحد حق الاعتراض أو إبداء الرأى.

---

[1] الحشر : ٧ جزء آية

وعبارات كثيرة من هذا النوع لو ذهبنا نُسطرها أو نستقصيها لأخذنا وقتك نستهلكه في استعراض زائفٍ من القول لا يُغنيك فتيلا أو قطميراً.

وأفضل منه أن نناقش قضية الحرية بشئ من الهدوء في سطور قلائل، مُستندين في ذلك إلى قضايا الطبع وقضايا الاجتماع وشرائع الناس الموحى بها وغير الموحى بها على السواء ونحن قد ناقشنا الحرية وأقسامها في كتبٍ قد صدرت لنا من قبل، ولا أظنك قد فاتك شئ منها فيما أعلم، والذى أحب أن أضيفه هنا: هو أن الحرية التي تأتي به الشرائع وتمنحها لرعاياها، تكون قيمة يُحمد صاحبها عليها، إذا هو قد استعملها في دائرة ما ينفعه من غير أن يقع على الآخرين ضررٌ، قل هذا الضرر أو كثر، وتنتقص الحرية من مكانتها بمقدار ما تتجاوز وظيفتها الحالية، فلو أن إنساناً باشر حريته فيما يُرضيه على حساب حرية الآخرين، لم تعد الحرية بالنسبة إليه قيمة ترتفع بها هامته، ويعلو بها كعبه، وإنما تتحول الحرية إلى فوضى وهى رذيلة من الرذائل يستهجنها كل نظام، وتقف دون تطبيقها كل شريعةٍ من الشرائع سماوية كانت هذه الشريعة أو غير سماوية.

فإن أردت تطبيق هذا الذي قلته لك على علاقة الإسلام وشريعته بالناس في مجال اعتناقه، أو الصد عنه ستجد أن الذي لا يدخل الإسلام، ولا يحب أن يعتنق مبادئه يأمر الله عز وجل المسئولين عن تطبيق الشريعة ألا يتعرضوا له بسوء، وليس لهم من دور معه إلا أن يعرضوا عليه الإسلام هو وأمثاله، ثم هم بعد ذلك محكومون بقوله تعالى: **{لا إكراه في الدين}**[1] وبقوله تعالى **{فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها}**[2]

وليس هناك من بأس على المسلمين ألا يؤمن هؤلاء.

وليس هناك من بأس على الإسلام ولا على المسلمين أن يبقى هؤلاء على ما هم عليه، بعد أن أتيح لهم أن يفهموا الإسلام على وجهه، ما دام هؤلاء يمارسون حرياتهم كما يشاءون.

---

[1] البقرة ٢٥٦ جزء أية

[2] الكهف ٢٩ جزء أيه

ولا بأس على الإسلام والمسلمين فيما يفعلون، فإنه لا يجوز لمسلم بمقتضى شريعته أن يتعرض إليهم بأذى يُصيبهم في أبدانهم، أو ممتلكاتهم أو أعراضهم، أو ما عسى أن يكون مما يملكونه أو يختص به.

والأمر ليس على هذا النسق حين يدخل الإنسان إلى الدين الإسلامي، ثم يرتد عنه، ذلك أنه حين يدخل إلى الإسلام ثم يرتد، يكون قد قام بتمثيل دور قد رُسمت له خطة القيام به من قبل، أو هو على الأقل يكون في منزلة من يفعل ذلك، والإسلام والمسلمون لا حاجة لهم فيه حين قرر أن يرتد، وهما لا حاجة لهما فيه إن أعلن مُجبراً أن يبقى على دينه، لأنه في الحالتين لاخير فيه للدين، ولا خير فيه للمسلمين، وأنه إن عاجلاً أو آجلاً سيعير إلى جهنم تُسعر به يوم القيامة، وماله ولأمثاله يومئذ من ولي ولا نصير.

لكن الأمر مع أمثال هؤلاء، يختلف من حيث تطبيق مبدأ الحرية عليهم، وما يجوز لهم أن يستعملوه منها وما لا يجوز.

ولقد اتفقنا من قبل، واتفقت معنا سائر الشرائع بصرف النظر عن مصدرها على أن الحرية تكون قيمة، إذا استعملها صاحبها من غير اعتداء على حريات الآخرين.

وطبقاً لهذا الشطر من مفهوم الحرية، منع الإسلام ذويه أن يتعرضوا لغير من يعتنقونه بالأذى.

ثم إن مفهوم هذا الشطر للحرية، هو أن المرء لو استعمل حريته فيما يؤذي الآخرين لم تعد الحرية قيمة، وإنما صارت الحرية رذيلة من الرذائل، يتعفف عنها كل ذي عقل سليم، ويزهد فيها كل ذي طبع مستقيم.

وتطبيقاً لهذا المفهوم الذي ليس للحرية مفهوم سواه، نحاول أن نقترب من المرتد عن دينه، فإن كان يستعمل حريته في إيذاء الآخرين، والنيل من الدين، حكمنا عليه بما نحكم به على أمثاله من الذين يُطبقون الحرية تطبيقاً خاطئاً، وإن كان غير ذلك فلا شأن لنا به في قليل أو كثير.

والمتأمل فى نطاق ما ذكرناه من النصوص، وفى نطـــاق مـــا نستطيع أن نفهمه من شواهد التاريخ، يجد: أن المرتد بعـــد أن يعتنـــق الدين، إنما يؤثر فى غيره من الآمنين فى أوطانهم، المطمئنين لدينـــهم، العاكفين على عباداتهم، فيرتدون خلفه لا زهداً فى الدين، ولا تأبياً على شرائعه، وإنما تقليداً لهذا المرتد الذى أوهمهم أنه صاحب عقل وفكـــر، وخدعهم بما أحاطه أعداء الإسلام به، بأنه صاحب مكانـــةٍ اجتماعيـــة مرموقة، وهو من أجل هذا يكون قد اعتدى على حريات الغـــير بمـــا دغدغ من عواطفهم، وفزع من قلوبهم، وأزعج من ساكن أفئدتهم، وهم أناس لاحول لهم فى العلم ولا طول، ولا إدراك لهم يُطـــاول إدراكـــه، حتى يقفو على خدعه ومكره.

والإسلام من أجل ذلك يفرض على الأمة ألا تســـمح لأمثـــال هؤلاء أن يعبثوا بحريات الآخرين، فيحملوهم على أن يخرجـــوا مـــن دينهم.

تلك شريعة الإسلام، ويبدو لى أنك قد أدركـــت أنـــها شريعـــة الفطرة، وأن الشرائع الأخرى قد ساروا على منهج الإسلام فى ذلك.

ودونك الشرائع فتأملها.

وتلك خطة يهودية قد طبقها اليهود فى المدينة، ولم يكـــن لـــها سابقة فى غير هذا المجتمع فيما أعلم.

غير أن اليهود لم يتمكنوا من أن يجنوا ثمار هذه الخطـــة، ولا أن يُدركوا الأهداف المرجوة من اصطناعها، إذ إنهم لم يتمكنوا من أن يفصلوا بين المسلمين ودينهم، وهو هدفهم من اصطناع هذه الوســـائل الذى لا يرضون عنه بديلاً.

عاد اليهود إذاً وقد خسروا كل شئ فى المجالات الثلاثـــة فلـــم يتمكنوا من ضرب القائد العظيم أو اغتياله.

ولم يتمكنوا من التفريق بين صفوف المسلمين، ولم يتمكنوا من الفصل بين المسلمين ودينهم، وكانت عاقبتهم فى النهايـــة أن أجلاهـــم النبى ﷺ عن المدينة التى احتلوها، وكان قد أذن لهم أن يُساكنوه فيها،

لكن على أصول الاجتماع، ومبادئ التعايش التى يرتضيها الأمم شرعةً يتعاملون بها فى كل عصر.

حرص اليهود قبل أن يأتى النبى ﷺ على أن يعتنقوا مبادئ النبى ﷺ، ويعملون تحت لوائه، فملأوا بصفاته بيوت يثرب، وأشعروهم بأنهم لا وسيلة لهم تؤدى بهم إلى اتباع هذا النبى، فلما جاء النبى ﷺ كانت المدينة كلها قد تعرفت عليه قبل أن تراه بفعل اليهود، فلما أذن الله باللقاء، قابل النبى ﷺ العرب من سُكان يثرب، وتعرفوا عليه فى وقت يسير، وذهب إليهم فآووه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه.

أما اليهود فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين.

وأنت ترى أن العناية الإلهية قد شاءت أن يأتى اليهود، فيمهدوا الأرض للنبى، حتى يستقبل الناس النبى ﷺ فى سهولة ويسر، ويُعرضوا هم عن النبى ﷺ فكأنهم أسباب قد جاءوا من الماضى البعيد ليمهدوا الأرض لمطلع النور، ولا ينتفعون به.

والله ينصر دينه بالرجل الفاجر.

وما ذلك على الله بعزيز.

الفصل الرابع

الهجرة إلى المدينة الواقع والمثال

لقد حاولنا فى كل ما حدثناك به من أول هذا الحديث إلى الآن أن ننقل لك حركة المسلمين خلف نبيهم، الموجود فى أم القرى يستقبل الوحى من ربه، ويبلغه إلى الناس من آمن منهم بما جاء به ومن كفر.

ولم نرد فى كل هذا أن نبسط الحديث كل البسط، وإنما كل ما أردناه هو أن نحدثك عن تلك السنن الطبيعية التى حكمت الهجرة خارج مكة، فكان حديثنا معك حول ثبات المؤمنين على المبدأ، وتعاليهم فوق الترغيب والترهيب مهما تعددت وسائل قريش للتأثير على القوم، مصطنعين فى كل ذلك ما استطاعوه من وسائل الترغيب والترهيب.

وحين استقر أمام النبى ﷺ مجموعة من أصحابه على مبادئهم، كان الأمر الطبيعى والاجتماعى الذى يترتب على هذا الثبات أن يأمر النبى ﷺ بعض الممتازين من أصحابه أن يخرجوا إلى مجتمعات معينة، يعيشون فيها ويخالطون أهلها، فى نفس الوقت الذى بقى فيه النبى ﷺ فى مكة يقابل الوفود بنفسه، ويعرض على القبائل فى الموسم من كل عام ما أمره ربه أن يبلغه للناس، وهو يأمل أن تجد دعوته صدى فى مجتمع من المجتمعات العربية، حتى ينتقل إليها هو وأصحابه الذين أصبحوا رجالاً قد رباهم النبى ﷺ بنفسه، وصقلتهم مبادئ الإسلام، وأزالت عنهم الشدائد كل خبث، ونحت عن قلوبهم كل شائبة.

غير أن النبى ﷺ مع استمراره فى عرض نفسه على القبائل، ظل فترة طويلة وهو لم يجد حياً من العرب قد تحمس لمنعته، أو أخذته الحمية لاستقباله والدفاع عنه، بل إن ما وجده النبى ﷺ ينذر كله بعكس ذلك، حيث استقبله كثير من الأحياء بالازدراء والاستهتار، باعتبار أنه صابئ أو خارج عن دين الآباء والأجداد، وأنه يخشى منه الفتنة التى يلحق ضررها الشباب والنساء والأطفال، ولا يشجع على استشراف المستقبل ما بقى من ردود فعل الوفود، لأنهم إما أن يكونوا

طامعين فى تميز اجتماعى، يحصلون عليه فى شئ من التهيب والحذر، ولا يعنيهم معه أن يكونوا مسلمين يحافظون على مبدأ، أو يمكنون له فى الأرض، وإما أن يكونوا على قناعة تامة بهذا الدين، غير أنهم هيابون يخشون بأس العرب إن رمتهم عن قوس واحدة، والأفضل لهم كما يرون أن يجنحوا إلى السلامة، وأن يميلوا إلى النجاة بأموالهم وأولادهم ما وجدوا لهذا الميل سبيلاً، لم تتضح الرؤية إذاً أمام النبى ﷺ، كما لم تتضح الرؤية أمام أصحابه مع أنهم جميعاً على يقين أن الله لم يرد لمكة أن تكون هى مشرق النور، ولن يرد لأهلها أن يكونوا حملة لواء هذه الدعوة الجديدة.

ولم يكن أحد يدرى أن الله قد سخر أقواماً لن يدخلوا فى الإسلام يعدون الأرض والنفوس، من قبل أن يولد النبى ﷺ وبعد ميلاده، بل وبعد أن أوحى إليه.

لقد أعدوا الأرض حتى استقامت الأرض، وأصبحت على شوق لاستقبال النبى ﷺ وصحبه.

ولقد عدوا النفوس إعداداً تاماً حتى تحفزت النفوس، وقامت تستحس الزمن ليسرع بها إلى الإسلام، ويسرع بالنبى إلى المدينة.

هذا كل ما حدثناك عنه من أول الحديث إلى الآن.

ويبدو أن الحديث قد وصل بنا إلى نقطة حاسمة، أو أنه قد وصل بنا فى أقل القليل إلى منطقة أقام عليها مجموعة من البشر، ثم انتقلوا عنها إلى منطقة أخرى، وكان انتقالهم فى حد ذاته حدثاً تاريخياً عظيماً، لولا أنه ثابت النقل والوقوع التاريخى، لقلنا: إنه حدث فكرى بحت، قد نسجته العقول على طريقة نسج العقول للأشياء، وقد عملت فيه المشاعر من التحسين والتزيين حتى يترآى أمامها كأحسن مثل للجمال، ثم أضفى عليه الضمير والخلق من القيم قدراً عظيماً وهاماً، حتى يبدو بالإضافة إلى مقاييس القيم والأخلاق فى غاية كما له، وأكمل قيمه.

لولا أن التاريخ قد سجل هذا الحدث وقت وقوعه، ولولا أن النقل الصحيح قد توفر لهذا الحدث فى كل عصر، لقلنا فيه قولاً من الأقوال التى ذكرت لك، وهو لولا هذا النقل الصحيح وشهادة التاريخ الثبت، كان يحتمل ذلك كله إلا أن يكون له واقعاً تاريخياً.

وهذا الحدث التاريخى على هذا النحو يحتاج منا إلى وقفة تأمل ولا شك، ويحتاج منا الى وقت يطول أو يقصر نتأمله فيه، كى نعود من تأملنا بمتعة العقول، ومتعة المشاعر، ومتعة الضمائر على السواء.

ولكن تُرى من أين نبدأ المسير، بل إنى لأقول شيئاً آخر، تُرى ما زاوية الرؤية التى يمكن أن ننظر منها عبر التاريخ إلى هذا الحدث العظيم؟

لقد تعود الناس إن أرادوا أن ينظروا إلى الأشياء وأن يتأملوها، أن ينظروا إليها باعتبار أنها موجودات واقعية، أو ينظروا إليها فى ظلال المثل العليا.

فإن هم تأملوا الأشياء التى يريدون أن يتأملوها من خلال زاوية النظر إلى الواقع، فإنهم لابد أن يتوقعوا قدراً متفاوتاً من النقائص والمعايب، لا يمكن للإنسان الذى صدرت الواقعة عنه أن يتلافاها جميعاً، وأن يزهد فيها بكليتها، وأن يترفع عنها بأثرها، وقصاراه أنه يحاول أن يقلل من هذه النقائص وتلك العيوب ما أمكنه ذلك، وما حملته نفسه على النزوع إلى الكمال.

وتلك هى طاقة الإنسان التى يقبلها منه الناس، وترضى عنه بها النفوس، ولا تجد أحداً يطالبه بالكمال المطلق ولا بالقرب منه، ولو أن أحداً قد طالبه بالكمال المطلق أو القرب منه، لكان قد كلفه أن يفعل مالا قبل له به، وأن يقوم بعمل هو إلى المستحيل أقرب، وما تلك طبيعة الإنسان، وما هذه طاقته.

وليس أمام من يختارون أن ينظروا إلى الإنسان فى علاقاته، أو إلى الأحداث باعتبارها واقعاً تاريخياً، إلا أن يكونوا جاهزين إلى التجاوز عن قدر من الأخطاء قد يزيد وقد ينقص، مادام هذا القدر المتجاوز عنه لا يهبط بالإنسان إلى ما هو أدنى من الدرجة المنتظرة

من أمثاله، ومادام هذا القدر يقبله منه أصحاب القيم، وأصحاب العقول، وأصحاب المشاعر جميعاً.

أما إن أردنا أن ننظر إلى الأشياء من زاوية ما هـــو مثـــالى، ونتأملها فى غير الواقع المحسوس، ونتطلبها فيما ينبغى أن يكون، فإن هذه النظرة نفسها، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما يسميه المثاليون بــــالنموذج الكامل للأشياء، الذى ينبغى أن تتطلع إليه جماعات البشــــر وآحادهـــا يقصدون إلى محاكاته، ويقصدون إلى أن تكون أفعالهم وأشخاصهم قد توفر لها قدر يسير أو عظيم مما فى هذا المثال من الكمال.

ولو أننا تجاوزنا أفلاطون فى عالم المثل الذى صنعه لنفســـــه، إلى شئ آخر يسهل تصوره، ويسهل الاقتناع به، فإنه بإمكاننا أن نقول: إن المثال لشئ ما من الأشياء، أو لسلوك ما يصدر مثله عن الجماعات أو الأفراد على نحو ما نتمناه، أو نحبه أن يصدر موافقاً له، إن المثـــال على كل حال شئ يصنعه الإنسان لنفسه فى ظروف معينة، ويشـــترك فى صنعه العقل والوجدان جميعاً، إذ العقل الرشيد يستطيع أن يتصور نموذجاً لشئ ما من الأشياء تصوراً فكرياً، ثم ينصب النموذج أمامــــه، ويتأمله تأملاً كاملاً، وينحى عنه النقص والعيب كلما وجد فيه نقصاً أو عيباً، ويضيف إليه من عناصر الكمال بالقدر الذى يطيقه العقل وبالقدر الذى يتصوره.

والعقل يفعل هذا كله، وكلما فعل منه شيئاً ازداد النموذج أمامه كمالاً واستقامة.

ثم هذا النموذج أو غيره يدخل عليه الخيال فيضيف إليه بقــــدر المستطاع أموراً هامة تجمله وتحسنه، وينحى عنه ما استطاع أمـــوراً أخرى لو بقيت فيه لكانت فى أعين النقاد قبيحة، ويظل الخيـــال يعمـــل عمله، والذوق المستقيم يرافقه حتى يبدو هذا النمـــوذج جميـــلاً يســـر الناظرين إليه ببصيرتهم، وبوجداناتهم وأخيلتهم.

ثم يتلقف هذا النموذج الضمير ليعالجه من الزاوية التى تدخـــل فى اختصاصه، فيضفى عليه قدراً من القيم يســـتطيعه، وينحـــى عنـــه نقائص هذه القيم ما استطاع إلى ذلك كله من سبيل.

وهكذا ترى المثال وقد اشترك فى صنعـــه العقـــل والوجـــدان والضمير جميعاً، يضفون عليه كل كمال مستطاع، وينحون عنـــه كـــل نقيصة بمقدار ما يطيقون أن ينحوا عنه النقائص.

والعقل والوجدان والضمير جميعاً يصنعون المثال أو المثـــل، وهم فى مأمن من قيود الواقع، التى لو قابلوها لرسمت هذه القيود قدراً ليس بالهين من العقبات والمعوقات أمام تنفيذ هـــذه المثـــل، بحيـــث لا يتمكن العقل من أن يفعل فعله، ولا يطيق الوجدان أو الضمير أن يصنع الواحد منهما فى المثال أو المثل ما يريده أو يبتغيه.

وأنت من حقك الآن أن تتساءل لماذا هـــذه التعقيـــدات كلـــها، بمعنى أنه لماذا أن يكون هناك واقع، وأن يكون هناك مثال؟.

ومن يطرحون هذا السؤال يضيفون بعده كلاماً يبرر دهشتـــهم واستغرابهم، كأن يقولوا مثلا: إنكم حين تردد تم بين الواقع والمثـــال، أثقلتم على الناظرين، ووضعتموهم فى حيرة، وشددتم على المتـــأملين، فألقيتم بهم فى أتون الدهشة، ولو قد وفرتم مجهودكم واقتصرتم علـــى الواقع وحده، لأرحتم أنفسكم، وأرحتم من جاء بعدكم.

وهذا كلام فى ظاهره أنه مقنع، وفى ظاهره أنه مـــن أوليـــات الحديث، وبدهيات الكلام التى لا تحتاج إلى دليل، بل ولا تحتـــاج إلـــى إيضاح.

لكن الذين يعمقون النظر فى الأمور، ويتـــأملون كثـــيراً فـــى الأشياء، ليعلمون علم اليقين أن الإنسان فى أفعاله الأخلاقية منها وغير الأخلاقية، يحتاج دائماً إلى قدوة يحاكيها، وينسج على منوالها.

والقدوة فى بعض صورها هى هذا المثال الذى نحته العقل من غير المادة، وجمله الوجدان بطريقته، وأضفى عليه الضمير كل كمـــال خلقى مستطاع، ونحى عنه كل نقص ممكن.

وهذا المثال ونظائره من المثل الأخرى إنما يضطر الإنســـان اضطراراً إلى صنعها، حتى يتخذ منها قدوة له، يحاكيها فـــى الواقـــع، ويصنع مثلها أو قريباً منها فى سلوكه اليومى الذى يربط بينـــه وبيـــن إخوانه، أو بينه وبين الكون الذى يعيش فيه.

ولو أن المرء تأبى على أن يصنع لنفسه مثالاً يحاكيه، وهو فى نفس الوقت لم تمنحه سلطة عليا نموذجاً يحذو حذوه، فإنه سيضل ولا شك، وإنه سيكبو ويقع على وجهه، ولن يصدر عنه فى الكثير الغالب إلا أفعال ناقصة شوهاء، لا قيمة لها فى عالم القيم، وتقديرات الأخلاق، وهذا كله لأنه رضى بالعشوائية منهجاً له، وأتم فى سلوكه بغير إمام، وسار فى بيدائه بغير مرشد، وما كان لمثله أن يصل إلى شئ، أو أن يحصل على خير إلا أن يسلك إلى هذا الشئ وذلك الخير طرقه التى تؤدى إليه، وسبله التى تلقى بسالكها بين يدى ما يريد لا تخطئه ولا تجاوزه.

وما كل البشر مضطرون فى جميع الأحيان إلى أن يصنعوا لأنفسهم مثلاً، خاصة فى مجالات العلاقات الإنسانية والأخلاقية، ذلك أن الإنسان فى هذه المجالات الاجتماعية والأخلاقية ومعهما المجال الدينى، حين يصنع لنفسه مثالاً ثم يحاكيه لا يكون بينه وبين عباد الأصنام كبير فرق، فعابدو الأصنام ينحتون أصنامهم بأيديهم، ويضفون عليها من التحسين والتجميل ما يرونه صالحاً ومناسباً لهيبة هذه الأصنام وجلال قدرها، ثم هم يرون أن أفعالهم فى الدنيا تكون ذات قيمة خلقية ما توافقت مع هذه الأصنام، وما اكتسبت من رضاها.

وقد يكون بعض الناس مضطرون إلى صناعة هذه الأصنام، ومضطرون إلى اتخاذ ما يصنعونه بأيديهم آلهة يسجدون لها، ويعملون على تحقيق رغباتها، قد يكون بعض الناس معذورين إن هم سلكوا هذا المسلك، وساروا فى هذا الاتجاه، وهم معذورون لأنهم قد وضعوا أنفسهم فى بيداء من الفكر، وبيداء من الاعتقاد، وبيداء من القيم، لا يعرفون لها حدوداً، ولا يجدون فيها مرشداً، فليس أمامهم إلا أن يتجهوا هذه الوجهة، وإلا أن يسلكوا هذه المسالك، وإلا أن يجتازوا هذه الأدرب، حتى ولو كانت مغلقة من آخرها.

إن الذين يصنعون المثل تماماً كأولئك الذين ينحتون الأصنام ثم يعبدونها، وقد يكون لهؤلاء وهؤلاء عذر فى بعض الأحايين، ولكن الإنسانية لا تملك أن تعذرهم فى كل حال.

ولما جاء عصر المبعث شاء الله عز وجل، أن يكـون الواقـع والمثال جميعاً فى مجال المحسوسات، وأن يكون القدوة للمقتدين جميعاً على أرض الواقع، يراهم من يرى، ويسمعهم من يسمع، شريطـة أن تخلص النية وأن تتوجه الإرادة بصدق إلى ميدان الرؤية والسماع.

والشيء العجيب فى مجتمع عصر المبعث أن الواقع، والذيـن يعيشون هذا الواقع قد قلدوا قدوتهم، وحاكوا المثال الذى نصـب بيـن أيديهم، يتحرك كما يتحركون، ويتراءى للناس كما يتراءون، تقليداً يشبه أن يكون معجزة، ولولا أن شرط القدوة أو المثال أن يتربع القمة وحده بلا منازع، لقلنا: إن من قلدوا هذا المثال قد اقتربوا قرباً شديـداً مـن درجته.

وهؤلاء الذين قلدوا مثالهم، وحاكوا قدوتهم، كانوا هم أنفسهم قدوة مـن الدرجة الثانية بعد النبى ﷺ للمجتمعات التى عاصرتهم، وللمجتمعات التى تلتهم إلى الآن و إلى ما بعد الآن.

لقد شهد الواقع المحسوس فى عصر المبعث دون سواه المثال ومحاكاة المثال، والقدوة وتابيعها، الكل على أرض الواقـع يـتراءون جميعاً للناظرين، ولا تعزب أصواتهم عن السامعين.

والعظمة هنا أن المثال من الدرجة الأولى لم يكن فكـرة مـن صنع عقل، ولم يكن الجمال فيه من نحت خيـال، ولـم تكـن القيمـة المنوطة به منحة من ضمير، يضفيها عليه حين يشاء، ويسـلبها عنـه متى أراد لا، وإنما القدوة والمثال كانا من صنع الله عز وجـل، أدبـه فأحسن تأديبه، واصطنعه لنفسه وصنعه على عينه، ثم حمله بالمنـهج الصحيح إلى أن وضعه على خلق عظيم.

وهذا المثال المطلق، وتلك القدوة التامة قد توفـر لـه أتبـاع ومريدون، تابعوه بجهد الطاقة، وتتبعوا آثاره بعمـق المحبـة، وهـو يرعاهم ويوجههم، فصاروا لغيرهم مُثُلاً، ولكنها مُثُل واقعيـة وليسـت فكرية، جَمَّلَهُم رعاية القدوة الأولى لهم، ولم يأت الجمال فيهم من صنع خيال، وجاء سلوكهم وفقاً للمنهج، فاكتسب قيمته من هذا التوافق.

وننتهى من هذا الإيجاز الموجز إلى القول الذى لا يملك أحد قولا غيره، وهو: أن القدوة والمثال فى عصر المبعث قد امتزجتا بالواقع امتزاجاً عجيباً حتى يصعب على الناظرين أن يفرقوا بين الواقع والمثال فى هذا العصر، إن أراد الناظرون أن يكونوا منصفين فى الأحكام، مقسطين فى الأوصاف والنعوت.

وليس على القاسط من بأس إن استطاع أن يقنع نفسه بعدالة فى حكم لم ير غيره العدالة فيه.

وليس على القاسط من بأس كذلك: إن ظن أن أحكامه ستطوى الدهر كله، وتضعه فى مهاوى الظلمات كما يريد القاسطون، والدهر يسمع لهم ويطيع.

ليس على القاسطين من بأس فى جميع الأحوال، إذ هم لا يؤلمهم لوم اللائمين، ولا ينال منهم أن يتوعدهم نص دينى، أويزجرهم كلام إله أو حديث نبى.

ليس على هؤلاء القاسطين من بأس، وإنما البأس علينا إن استطاع القاسطون أن يستخفونا فنطيعهم، أو يجتذبونا إلى أقوالهم فنصدقهم، أو أن يعبثوا بأحلامنا فنظن أنهم على شئ.

إن هذا المجتمع الذى اختلط فيه الواقع بالمثال ليتراءى لك فى جل عظمته، وفى أعظم صوره حين تستعرض سلوكه أمامك من كتب التاريخ الصادقة، وتنظر إليها وهى تتحرك أمامك فى كمال حيويتها، وأنت تتأمل هذه الحركة بقصد حسن، وعين باصرة، وبصيرة لا تخطئ.

وإنى سأسير معك فى هذا الطريق خلف المهاجرين من مكة إلى المدينة، بعد أن أذن لهم النبى ﷺ أن يهاجروا من مكة إلى المدينة، وبعد أن تحددت المدينة دار هجرتهم، وارتضاها الله ورسوله عاصمة أولى للدولة الإسلامية، ومطلعاً للنور فى عصر المبعث، ومزأراً للمسلمين والإسلام آخر الزمان.

غير أنى لا أحب أن أعدك بمالا أوفى لك به.

إنى لن أعدك بأننى سأتتبع أحداث الهجرة حدثاً، وإنما سآخذ منها وأدع، إنى سآخذ منها ما يوضح امتزاج القدوة بالواقع، والمثال بمن يحاكونه، وسأدع أحداثاً أخرى هى نظير ما اخترت، وشقيقة ما ذكرت استغناء بالمثال عن الاستقصاء، كى أستفزك لقراءة التاريخ الإسلامى بعين مفتوحة، وقلب بصير.

إنى سآخذ من أحداث الهجرة وأدع، سواء فى ذلك هجرة صحابة رسول الله قبل رسول الله، أو هجرة النبى ﷺ بعد أن أذن الله له فى الهجرة.

ولقد أتم النبى ﷺ مقابلته الأولى مع النفر الستة من أهل يثرب، كما أتم مقابلته الثانية مع الاثنى عشر رجلاً من اليثربيين فى العام التالى حين قابلوه فى موسم الحج، وأخذ منهم وأعطاهم فى البيعة الأولى، وأرسل معهم أو بعدهم مصعب بن عمير فقيهاً ومعلماً للقرآن، وإماماً فى الصلاة على ما يحبه القوم ويريدونه.

وعلم النبى ﷺ أن يثرب قد استقر الأمر بها، وأصبح أهلها جاهزين تماماً إلى استقبال قدرهم الذى يرضونه، ومصيرهم الذى لا يفضلون عليه سواه.

أما قريشٌ فقد علمت بأن النبى ﷺ قد أصبح له بأهل يثرب علاقة وثيقة، وقد آلمها ما علمت به ألماً شديداً لا تطيق عليه صبراً، واقتضت سنة الله الجارية أن يشتد القرشيون فى إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، خاصة ما كان منهم من المستضعفين.

والتضييق على المسلمين أمر قد أراده الله لحكمة يعلمها، ذلك أن المسلمين لو لم يُضيق عليهم فى مكة، لشق عليهم مفارقة بيت الله الحرام، ولصعب عليهم غاية الصعوبة أن يهاجروا عن بلد لهم به ارتباط تاريخى، ولهم فيه أهل ورحم، ولآلمهم غاية الألم أن يتركوا أرضاً هى مسقط رأسهم، ومدرج طفولتهم.

ولقد كان من الممكن أن ينزع الله هذه الآلام من صدور المسلمين بطريقة قدرية بحتة، فلله طلاقة المشيئة، ولله عموم القدرة لا

يحدهما حد، ولا يقف دونهما عائق، غير أن الله عـز وجـل قـد أراد لأحداث الهجرة فى عمومها أن تسير علـى سـنة الله الجاريـة، وأن تحكمها الأسباب التى هى من خلق الله، وما ذلك إلا لأن الله قد أراد أن تكون أحداث الهجرة معطاءة على طول الزمـان، فائضـة بـالدروس والحكم إلى أن ينقضى الدهر.

شاء الله عز وجل بالهجرة أن تسير على هذا النحـو لتتحقـق مشيئته العامة فى الهجرة، وليعلم المسلمون فى كل عصر أن الله يخلق بالأسباب، ويجرى الأحداث على السنن فلا يجـوز لأحـد أن يـهمل الأسباب، ولا يجوز لأحد أن يستدبر السنن.

أقبلت قريش على المسلمين تشتد عليهم، حتى أصبح المسلمون أنفسهم هم الذين يميلون إلى الهجرة، دون أن تترك فى قلوبـهم ألمـاً ودون أن تترك فى أفئدتهم شيئاً من الحزن.

فى طبقات ابن سعد بسنده إلى ابن شهاب [الزهرى عن أبـى أمامة بن سهل بن حنيف، وعن عروة عن عائشة قـالا: لمـا صـدر السبعون من عند رسول الله ﷺ، طابت نفسه وقد جعل الله له منعـة وقوماً أهل حرب وعُدّة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين مـن المشركين لما يعلمون من الخروج فضيقوا على أصحابه، وتعبثوا بـهم ونالوا منهم مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحـاب رسول الله ﷺ، واستأذنوه فى الهجرة، فقال: "قد أريت دار هجرتكـم، أريت سبخة ذات نخل بين لا بتين، وهما الحرتان، ولو كانت السـراة أرض نحل وسباخ لقلت هى"، ثم مكث أياماً ثم خـرج إلـى أصحابـه مسروراً فقال:" قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها"، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجـون ويخفون ذلك][1].

---

[1] طبقات ابن سعد جـ١ ص ١٧٥

استأذن النبى ﷺ أصحابه فـــى الــهجرة، وأذن النبـــى ﷺ لأصحابه أن يهاجروا، فاستقبل الصحابة كلام النبـــى ﷺ فـــى الإذن بالهجرة على ما يريده النبى ﷺ، وما يريده النبى ﷺ هـــو أن يـــأذن للناس فى الهجرة، لكن لا على وجه التكليف والإجبار، وإنما من شـــاء فليهاجر، ومن شاء فليبق.

ولقد تأملت هذا الإذن النبوى المرة بعد المرة، وتأملت الأحداث التى ترتبت على هذا الإذن أو بعضها، فاتضح لى من هذا الإذن أمران عظيمان.

أما أحدهما: فهو أن المسلمين قد فهموا أنه ينبغى أن يخرجـــوا متفرقين، وأن يخرجوا فى سرية تامة، وما ذلك إلا لأن النبى ﷺ يعلم أن قريشاً إن علمت بخروج القوم خرجت إليهم، ومنعتهم من الخروج، وحالت بينهم وبين الهجرة، وقريش إن فعلت ذلك تكون قـــد وصلـــت بالمسلمين إلى أمر لا يحبه النبى ﷺ ولا يريده، خاصة أنه بعـــد لـــم يؤمر بقتال، وأنه بعد لم تكتمل له العدة والعتاد اللذان على أساس منهما يقتحم القادة ساحة الوغى، وينبذون إلى أعدائهم على سواء.

ولقد فهم المسلمون مقصد النبى ﷺ فخرجوا من مكة علـــى الطريقـــة التى يرضاها النبى ﷺ، لم يخالف منهم أحد إلا ما كان من نحو عمر بن الخطاب كما سنشير إلى ذلك قريباً إن شاء الله.

أما المسلمون فى الجملة فقد خرجوا على الطريقة التى أشـــار النبى ﷺ بها، وهى الطريقة التى وصفها ابن سعد فى كلمات قلائل كنها معـــبرة، قـــال: [... فجعـــل القـــوم يتجـــهزون ويتوافقـــون(١) ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك](٢).

---

(١) هكذا فى طبقا ت ابن سعد (يتوافقون) وفى سبل الهدى والرشـــاد (يـــترافقون) والخطب هين فهمًا وخطأً.

(٢) المرجع السابق حـــ١ ص ١٧٥.

وأما ثانى الأمرين: اللذين اتضحا لىّ حين تـأملت إذن النبـى ﷺ للمسلمين فى الهجرة فهو: أن الهجرة وإن كانت أمـراً اختياريـا وإباحة صرفة، إلا أن هذه الهجرة نفسها لها من الأجر عند الله شئ لا نستطيع أن نتصوره.

فالله وحده هو الذى يعلم مدى ما يعانيه الإنسان فى نفسه حين يغادر أهله ووطنه الذى نشأ فيه، ويترك تاريخه علـى هـذه الأرض ونسبه وعشيرته، ويغادر تلك الأماكن التى له على كل شبر فيها حدث من الأحداث السارة أو المؤلمة، لكنها فى النهاية تربطه بالبقعـة التـى وقعت عليها برباط قوى متين، وهو يذكر تلك البقعة أو تلك كلما مـر بها، ويذكر ما وقع له أو به عليها من أحداث، فيبش حين يمـر بـهذه البقعة أو تلك، أو تجيش بها نفسه وتدمع عيناه.

إن الله وحده هو الذى يعلم مدى الألم الذى يصيب المرء عندما يقرر أن يهاجر، وعندما يقرر أن يترك وطنه، وماله به من عواطـف سارة أو مؤلمة.

والله وحده هو الذى يعلم مدى الحيرة التى تأخذ المهاجر مـن جميع أقطاره حين ينزل بأرض لا أهل له فيها ولا عشيرة، ولا تـاريخ له عليها ولا ارتباط، وهو لا يعلم ما الذى ستفاجئه به الأقدار على هذه الأرض الجديدة.

والله الذى يعلم ذلك كله قد أتاح للمهاجرين من الأجر والشرف ما لا يعلمه غيره، وليس ذلك إلا للمهاجرين أوائل عصر المبعث، سواء كانت هذه الهجرة من مكة إلى الحبشة،

أو كانت هذه الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة.

والصحابة قد علموا ذلك وأدركوه.

بل إن الأوس والخزرج الذين دخلـوا فـى الإسـلام حديثـاً استشعروا هذا الشرف الذى سيكون بالقطع لإخوانهم من سكان مكـة، ولن يكون مثله لهم كما يتصورون.

ولقد وقعت على قطعة هامة من بعض كلام المؤرخيـن لـهذه الفترة وهم يكادون يجمعون عليها، وفيها أن بعض سكان يثرب، حيـن

وقع فى قلوبهم هذا الشرف الذى أعده الله لعباده من سكان مكة، وعلموا أن التاريخ والزمن لا يمهلان أحداً من الناس، عقدوا العزم سريعاً على أمر وأخذوا فى مباشرته وتنفيذه.

أما هذا الأمر الذى انعقد عليه عزمهم، وأخذوا فى مباشرته وتنفيذه، فهو أنهم قد قرروا أن يخرجوا من يثرب إلى أم القرى، وأن يهاجروا منها إلى يثرب مع المهاجرين سراً كما يأمر النبى ﷺ، وإرسالاً كما يفعل إخوانهم.

يذكر ابن سعد أن نفراً [من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ فى العقبة الآخرة ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من مهاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه فى الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون، وهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد][1].

أرأيت إلى هؤلاء القوم كيف ينصاعون إلى أمر رسول الله وتوجيهاته؟ ثم أرأيت إلى هؤلاء المسلمين كيف يدركون بأرواحهم ما أعده الله للمتقين، ويحرصون على أن لا يفوتهم شئ منه؟

إنهم قوم قد ذهبوا إلى ما قدموا، ونحن لا نملك إلا أن نقول: **{ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان و لا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم}**.

وأنت من حقك أن تتساءل عن الأسباب التى أفصح عنها النبى ﷺ يعلل بها إذنه للمسلمين أن يخرجوا إلى يثرب، خاصة بعد أن وقفنا بك فى مرحلة سابقة، ونحن نتحدث عن هجرة المسلمين إلى الحبشة عند الأسباب التى ذكرها النبى ﷺ للمهاجرين يعلل بها اختياره إلى الحبشة، ويسبب بها أمره لهم أن يهاجروا إليها.

وسؤالك هذا مشروع لا يلومك أحد عليه، ولا يملك أحد أن يحجب عنك الجواب الذى يخص تساؤلك هذا.

---

[1] طبقات ابن سعد جـ١ ص ١٧٥

والشئ العجيب بل المتوقع أن النبى ﷺ قـد سـبب اختيـاره ليثرب، والإذن بالهجرة إليها بنفس الأسباب التـى سـبب بـها الإذن بالهجرة إلى الحبشة، مع اختلاف العبارات فى الموقفين.

فالنبى حين أذن فى الهجرة إلى الحبشة علل ذلك بأمرين:

(١) **الأمن**: الذى يضمن لصاحبه أن يمارس دينه، ويعلن عـن معتقده لا يناله ضر، ولا يقع به أذى.

(٢) **ولقمة العيش**: التى يسهل الحصول عليها لا يهدده فيـها أحد، ولا يساومه فى الحصول عليها صاحب هوى أو غرض.

لقد علل النبى ﷺ اختياره للحبشة، وتوجيه الناس إليها بهذين السببين وهما نفس السببين اللذين علل بهما النبى ﷺ اختياره ليـثرب، وتوجيه الناس للهجرة إليها.

وأنت على علم بما ذكره النبى ﷺ للمهاجرين إلى الحبشة مما ذكرناه لك قبل ذلك.

أما حين أذن النبى ﷺ للمسلمين فى أن يهاجروا إلى يثرب فقد قال معللاً لهذا الإذن [إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها][1].

واطمأن المسلمون لما ذكره النبى ﷺ من أسباب وتعليـلات، وهدأت نفوسهم بما هم مقبلون عليه فخرجوا مطمئنين [إلى المدينة، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ، وأبـو بكـر، وعلـى، أو مفتـون محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج][2] .

---

[1] سيرة ابن هشام حـ٢، ص ٨٠.

[2] طبقات ابن سعد جـ ١، ص ١٧٥.

وسواء أكان المسلمون فى المدينة أو هاجروا إلى يـــثرب، أو كانوا بين مكة ويثرب على الطريق مهاجرين، فإنك حين تنظر إليــــهم فى هذه الأحوال جميعها، فلن تجد إلا صدق ما قلت لك، أناســـاً علـــى أرض الواقع يعلنون عن عقائدهم، ويطبقون شريعتهم، ويتأسون بنبيهم، يفعلون مثلما يفعل، وينتهون مثلما ينتهى، ويديرون هواهم مـــع هـــواه حيث دار، والجميع على أرض الواقع يسمعهم من توفرت له ســـلامة السمع، ويراهم من سلمت له حاستى البصر والبصيرة، ويســـجل لـــهم التاريخ إقدامهم وإحجامهم والنتائج المترتبة على الإقدام والإحجام.

وأنا ما نسيت وعداً قطعته على نفسى أن أذكر لك أمثلة مـــن الذين هاجروا، ترى فيهم بعينى رأسك، وببصيرة قلبك هـــذا الاندمـــاج الحقيقى بين الواقع والمثال، وهى حالة حين تراهـــا ســـوف تعلـــم أن مراحل التاريخ لم تشتمل على مثلها، ولا على ما هو قريب منـــها، لا لشئ إلا لأن هؤلاء الناس قد احتلوا دون سواهم مرتبة القدوة والمثال، بعد أن علموا الناس مفهوماً جديداً للقدوة والمثال.

وأنا وإن كنت لم أنس وعداً قطعته على نفســـى بيـــن يديـــك، وأصبح الوفاء بهذا الوعد حقاً لك فى عنقى، وأصبح الوفاء بهذا الوعد واجب خلقى لا أملك أن أنخلع منه، فإنه يجب عليك وأنـــا أوفـــى لـــك بالوعد أن تستحضر ملكتك بما لها من دربة، وما تمتاز به مـــن قـــدرة على التمييز بين الجيد والردئ، حتى تنظر بكل همتك إلى ما أقدمه لك من أمثلة.

وسأحاول أن تكون هذه الأمثلة معبرة بغايـــة الوضـــوح عـــن جوانب شتى لتخرج من كل مثال بـــدرس، لا تخطئـــه ولا يخطئـــك، ولنعتبر كل مثال رسالة عالية الأسلوب بالغة الدلالة علـــى المقصـــود، موجهة إلى المسلمين فى كل عصر، علهم أو بعضهم يدركون منها ما يجب أن يدركوه من محاكاة المثال، واستحضار صورته العظيمة فـــى

النفوس، وجعله هو الوقود الذى يشتعل فى الأفئدة، فيحمل الأعضاء على الفعل الحسن فى الموطن الذى يتطلب الشرع منا فيه الفعل الحسن، وعلى الإحجام الحسن فى المواطن التى يتطلب منا الشرع أن نحجم فيها الإحجام الحسن.

١ – ومن الأمثلة البالغة الدلالة على المقصود منها فى هذا المجال هجرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

ولقد اخترنا عمر بن الخطاب هنا ليكون أول مثال نذكره بين يديك، لأنه مع تأخره نسبياً فى اعتناق الإسلام، إلا أنه كان واضح الدلالة بسلوكه على ما نقصده وضوحاً بالغاً.

فأنت تراه حين دخل فى الإسلام فتعجب غاية العجب بما ترى أمامك من حدث عظيم.

والمؤرخون يختلفون حول جزئية معينة فى إسلام عمر فمنهم من يقول: إن عمر قد تدرج فى اعتناقه الإسلام تدرجاً طبيعياً، حيث سمع القرآن وأعجب به وهو على جاهليته، وقرر أن يستمع إلى القرآن خلسة، والنبى يرتله ترتيلاً فى جوف الليل، ثم هو قد أخذته مقولة ليلى بنت أبى حثمة زوجة عامر بن ربيعة أخذاً شديداً، وأثرت فيه تأثيراً بالغاً حين رآها قد تأهبت للرحيل وتجهزت للهجرة.

فلقد روى الطبرانى بسنده [عن ليلى بنت أبى حثمة قالت: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة أتانا عمر بن الخطاب وأنا على بعيرى، وأنا أريد أن أتوجه فقال: أين يا أم عبد الله؟ فقلت: آذيتمونا فى ديننا فنذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى فقال: صحبكم الله].

وما كان عمر بن الخطاب على شدته لتصدر عنه هذه العبارة الرقيقة (صحبكم الله) إلا أن يكون قد تغير شئ فى نفسه، وإلا أن يكون قد طرأ على فؤاده حال آخر غير الحال الذى كان عليه هذا الفؤاد.

وهذا التغيير نفسه ليعد شيئاً جديداً على رجال مكة وقاطنيها على العموم.

فأنت ترى عامر بن ربيعة زوج ليلى، وهو يعبر عن معتقده فى شخصية كشخصية عمر، وموقفها من الإسلام حين عاد إلى بيته، وأخبرته ليلى وهى فرحة مسرورة بما كان من حديث عمر معها: [قال: ترجين أن يسلم؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب!].

من المؤرخين إذاً من يرى أن إسلام عمر مر فى أحوال بعضها يتلو بعضاً فى تطور طبيعى حتى انتهى به الأمر إلى أن أسلم.

ومن المؤرخين من يرون أن إسلام عمر بن الخطاب قد وقع طفرة، وأحل به فجأة حيث أراد الله فى لمحة أن ينتزع من صدره الكفر وعوامله، وأن يغرس فى سويداء فؤاده الإيمان ومبرراته، فتحول عمر من الجاهلية إلى الإسلام من غير مقدمات انتهت به إلى هذا التحول.

وسواء جاء إسلام عمر على سنة التطور، أو وقع فجأة بغير مقدمات، فإن هناك أمراً لا يتأتى للمؤرخين أن يختلفوا عليه.

وسواء جاء إسلام عمر على سنة التطور، أو وقع فجأة بغير مقدمات، فإن هناك أمراً لا يتأتى من المؤرخين أن يختلفوا عليه، وهو أن عمر لم يؤمن حين آمن رغبة ولا رهبة، وإنما آمن عمر حين أراد الله له أن يؤمن عن قناعة مطلقة تبعها قلب خاشع، وأعضاء مستسلمة تستجيب لله فى كل ما أمر الله به.

ولست فى حاجة لأن أذكرك بالآيات التى أدت إلـى إسـلام عمر وكانت هى السبب المباشر الذى دفعه دفعاً إلى البحث عن رسول الله ﷺ ، واعتناق الدين الذى جاء به.

ومع ذلك فإنه لا يخلو من الفائدة أن أضع الآيات بين يديـك لتتأمل فيها شيئاً ما من التأمل.

وأنت خبير أن عمر حين ذهب إلى بيت أخته، غيوراً علـى دين الآباء والأجداد، باحثاً عن السبب الدافع الذى دفع أختـه وختنـه عليها إلى أن يدخلا فى دين محمدﷺ، وإلى أن يتركا ديـن الآبـاء والأجداد، وإلى أن يخرجا على ما تعارف عليه القوم، قد سمع الخباب ولم يره يقرأ بعض آى القرآن الكريم، فلما أحس الخباب به تـوارى، ودخل عمر مغضباً متوحشاً سيفه، يسأل بشئ من الحـدة عـن تلـك الهمهمات التى سمعها قبل أن يدخل عليهم البيت، وقالت له أخته: مـا سمعت شيئاً، فقال مستمراً فى حدته: بل لقد سمعت وقد بلغنـى أنكمـا قد تابعتما محمداً، وبطش بختنه، وحاولت أخته أن ترده فشجها، فلما رأى الدم يسيل من أخته، قال فى هدأة الرجل العاقل العطـوف، إنـى أحب أن أطلع على هذه الصحائف التى كنتم تقرؤونها، وتحفظت أخته على هذه الصحائف مخافة أن ينالها بأذى، فلمـا طمأنـها، سـألته أن يتطهر وأن يطهر ثوبيه قبل أن تدفع بالصحيفة إليه، واستجاب عمر فى غير عناد ثم جلس ليقرأ، وكان كاتباً قارئاً، فإذا بالصحيفة {طـه مـا أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلاَّ تذكرةً لِمَنْ يخشى * تنزيلاً ممن خلـقَ الأرضَ والسموات العلى * الرحمن على العرش اسـتوى * لـه مـا فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى}[1].

---

[1] سورة طه: الآيات ١:٨.

قرأ عمر هذه الآيات، وما هي إلا أن ملكت عليه جماع نفسه، وأخذته من جميع أقطاره، فأعلن عن رغبته فـــي الإســـلام، وصحبـــه الخباب إلى النبى في دار الأرقم، وكان ما كان من قصة إسلامه.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات كما تأملها عمر، لن تجد في هـــذه الآيات وعداً بشئ، ولا إيعاداً بنقيضه.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات كما تأملها عمر، فلن تجد سبباً من أسباب التخويف يرهب النفس ويزعج الوجدان، ولن تجد فيها سبباً من أسباب الترغيب يجذب الفؤاد ويؤثر على المشاعر.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات كما تأملها عمر فلن تجد فيها إلا صفات الله عز وجل ظاهرة أمامك لا سترة بها، ولا غمـــوض يلفـــها، وليس بها سبب واحد من الأسباب التى تحمل علـــى الارتيـــاب أو تدفع إلى الشك.

وتلك هى نقطة الاشتراك التى لا يختلف عليـــها اثنـــان مـــن المؤرخين.

إن عمر قد أسلم حين أسلم عن قناعة، وقد آمن حين آمن عن رضى وطمأنينة.

قناعة ورضى وطمأنينة لا يحمل عليها سبب واحد من أسباب الخوف، ولا يدفع إليها عامل واحد من عوامل الترغيب التى تجـــذب بعض من يستويهم الترغيب إلى اعتناق المبـــادئدون التفكـــير فـــي الإخلاص لها أو الانتماء إليها.

آمن عمر حين آمن، وأسلم حين أسلم لأنه قد علم أن الله حين أنزل شريعته، أنزلها ليسعد الإنسان بها، ولم ينزلها ليشقى بها عبد من عباده، وإن هذا القرآن ليحمل بين طياته تذكرة لكل من كـــان عنـــده استعداد للخشية من الله الذى أنزله على عبده ليبلغه إلى الناس بعـــد أن مهد لهم الأرض وخلق السموات العلى، إنه إله متفرد في صفاته، فهو

الرحمن وهو المهيمن، وهو المالك لما فى السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهو العليم الخبير الذى يعلم خفايا الإنسان وما يظهر منه سواء أجهر بالقول أو أسر به، وعلى الجملة فالله لا إله إلا هو لا يستحق العبادة سواه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير.

ولو تأملت الآية كما تأملها عمر لوقفت على السر الحقيقى الذى حمل عمر على أن يؤمن، والذى حمله على أن يسلم لله مخبتاً له طامعاً فى رضاه.

وليس عمر بن الخطاب وحده فى هذا المجال الذى آمن من غير طريق الترهيب، ومن غير طريق الترغيب، وإنما كل من آمن مع النبى فى هذه الفترة كانوا على هذه الصفة لا نستثنى منهم أحداً، إلا من آمن على حرف ينتظر الفرصة كى يخرج من الدين كما يخرج السهم من الرمية.

ولقد ظلت هذه الأسباب التى حملت عمر على الإسلام تصاحبه وتزداد معه، إلى أن جاء وقت أذن فيه النبى للمسلمين بالهجرة، وقرر عمر أن يهاجر، فأبت عليه نفسه وأبى عليه دينه أن يخرج مستخفياً، فهو رجل ممنوع وهو رجل شجاع فى غير مخاطرة، وهو رجل مهاب بين قومه يهابونه ويخشونه، ويحسبون حساباً لاعتراض طريقه.

والرجل المسلم إذا كان هذا شأنه أعنى إذا كان ممنوعاً فى عزة، وإذا كان شجاعاً فى غير مخاطرة، وإذا كان مهاباً بين الناس، الرجل المسلم إذا كانت هذه صفته لا يجوز له أن يستخفى بدينه، وهو قادر أن يستعلن به، ولا يجوز له أن يقبل الدنية فى دينه، وهو قادر أن يرد الخسة عنه، ولا يجوز له أن يظهر بمظهر الضعف فى موقف هو يعلم أن الله عز وجل يرحم من أراهم من نفسه فيه قوة.

وهذا ما كان من ابن الخطاب آمن فى غير خوف، وأسلم على غير طمع، وعقد العزم على الهجرة وهوممنوع عزيز، وهو شجاع فى غير مخاطرة، وهو مهاب من عشيرته ومن الناس فاستنكف أن يقبل الدنية فى دينه، ونأى بجانبه عن موقف يراه ربه فيه ضعيفاً وهو قادر على غير ذلك، فارتدى أردية الحرب، ولبس لباس الميدان، عنزته فى خاصرته، وسيفه يتقلده، وتنكب قوسه، وفى يده أسهم يداعبها، وذهب تجاه الكعبة يطوف بها فى ثبات، ويصلى متخذاً من مقام إبراهيم مصلى، ثم خاطب القوم فى غلظة يعلن أنه مهاجر يخشاه الناس، وهو لا يخشى أحداً إلا الله.

وقصة خروجه بتمامها نرويها بين يديك من مصادرها لتقف بنفسك على أسلوب خروج الرجل، وعلى مبلغ العظة والعبرة من هذا الخروج.

روى ابن السمان فى الموافقة عن على رضى الله عنه، ووافقه على روايته ابن الأثير بسند فيه طول إلى على بن أبى طالب أيضاً: [قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهماً واختصر عنزته، ومضى قِبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم : شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يثكل أمه أو يؤتِمَ ولده أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى. قال على رضى الله عنه: فلم يتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم إليه ثم مضى لوجهه][1].

---

[1] سبل الهدى والرشاد جـ٣ – ص ٣١٥،٣١٦.

وفى أسد الغابة رواية أخرى نستكمل بها أحداث هجرة عمر بن الخطاب.

يقول ابن الأثير: [أنبأنا عبيد الله بن أحمد بن على بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثنى نافع، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب قال: لما اجتمعنا للهجرة اتعدت أنا وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل، قلنا: الميعاد بيننا "التناضب"[١] من أضاة بنى غفار، فمن أصبح منكم لم يأتها فليمض صاحباه، فأصبحت عندها أنا وعياش بن أبى ربيعة، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن وقدمنا المدينة][٢] .

وقصة عمر بن الخطاب مع صاحبيه عياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص يرويها أويستكملها ابن إسحق فيقول: [ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش ابن أبى ربيعة المخزومى، حتى قدما المدينة. فحدثنى نافع مولى عبدالله ابن عمر، عن عبدالله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال : اتعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمى التناضب من أضاة، بنى غفار فوق سرف وقلنا: أينا لما يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه: قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة، وكان

---

[١] التناضب: اسم موضع.

[٢] أسد الغابة - ابن اثير ٥٥٥ - ٦٣٠ هـ تحقيق وتعليق محمد ابراهيم البنا- محمد أحمد عاشور - محمود عبد الوهاب فايد - طبع دار الشعب جـ ٤.ص ١٥٣.

ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة ورسـول الله ﷺ بمكة فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لا ستظلت.

قال: فقال: أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه. قـال: فقلـت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلـك، قـال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل يا ابن أخي: والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه، قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخ ليتحول عليها فلما استووا عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحق فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقا، ثم قالا: يا أهل مكـة هكـذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا][1].

افتتن عياش كما افتتن من قبل هشام.

وتواتر النبأ إلى عمر بن الخطاب فظن هـو ومـن معـه أن رجلين آمنا ثم افتتنا فلن يقبل الله منهما بعد ذلك عدلاً ولا صرفاً، ولـو تابا وأصلحا ولجآ إلى الله مسلمين.

غير أن عمر يحدث أنه بعد هجرة النبـي ﷺ نزلـت هـذه الآيات: **{قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمـةِ الله،**

---

[1] ابن هشام – سيرة جـ٢ – ص ٨٥.

إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً، إنه هو الغفـــور الرحيـــم، وأنيبـــوا إلى ربكـــم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون}[1].

وعلم عمر والمسلمون معه أن هذه الآيات تلمس قضية عياش وهشام ومن على شاكلتهما.

وعلم عمر والمسلمون معه أن هذه الآيات قد نزلت لتطمئـــن المسلمين على علاقتهم بربهم، وأنها علاقة منزهة عن اليأس بعيدة عن القنوط.

وفرح عمر بن الخطاب بهذه الآية فرحاً شديداً فكتبها بنفســـه. وأرسل بها إلى هشام وعياش، فعادا إلى دينهما ولجآ إلى الله من جديد فحبستهما قريش وآذتهما إيذاءً شديداً، فأرسل إليهما النبى من يأتى بهما إليه مقابل الحصول على الجنة، واستقر الأمر بهما فى المدينة[2].

تلك هى قصة هجرة عمر بن الخطاب ذكرناها هنا لتكون مثلاً له دلالة واضحة فى نفوس المسلمين يستلهمون منه عزيمتهم وإرادتهم، ويحاكيه منهم من أتيح له أن يحاكيه فى حدود المأذون له به شرعاً.

٢- على أن المثل الذى ذكرناه بين يديك من هجرة عمر لا يغطى جميع المناحى الخاصة بهجرة المسلمين، وهو لا يعطى جميع الدروس التى يمكن لنا أن نستفيدها من هجرة المسلمين.

ومن أجل ذلك فإنا سنلقى بين يديك بهذا المثل الثانى آمليـــن أن يغطى جانباً آخر من جوانب الهجرة، وأن يشير إلى درس ثانٍ من الدروس التى يبتغيها كل مسلم من ورائها.

---

[1] الزمر : ٥٥-٥٣.

[2] المرجع السابق جـ٢ - ص ٨٦.

وهذا المثل الثانى سيلمس قصة أسـرة مـن زوج وزوجـة ورضيع.

أما الزوج فهو: عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله بـن عمر بن مخزوم.

وأما الزوجة فهى: هند بنت أبى أمية بن المغيرة.

وأما الطفل بينهما فقد سموه: - سلمة -

ولم يعرف جمهور المسلمين اسم عبدالله بن عبد الأسد.

ولم يعرف جمهور المسلمين اسم هند بنت أبى أمية.

ولم يغب عن واحد من المسلمين يشتغل بأمور دينـه كنيـة أم سلمة.

ولم يغب عن واحد من المسلمين يشتغل بأمور دينـه وتـاريخ رجال الإسلام كنية أبى سلمة.

عرف التاريخ والمؤرخون أبا سلمة، وأم سلمة كما عرفـوا الابن سلمة رضى الله عنهم أجمعين.

ونحن لن نقص عليك حديث هذه الأسرة بتمامـه، ولكننـا سنقتصر فقط على ما كان من أمر هـذه الأسـرة حيـن أذن النبـى للمسلمين بالهجرة.

والمؤرخون على رأيين فى مسألة أن يكون أبو سلمة أول من هاجر من المسلمين، أو أن يكون سبقه مصعب بن عمير إلى الهجرة.

أما كاتب هذه السطور فلا يرى من خلاف المؤرخيـن حـول هذه النقطة أمراً ذا بال ذلك أن كاتب هذه السطور يستشعر من ذهـاب مصعب أنه خرج من مكة بأمر النبى يعلم المسلمين أمور دينهم، وكان ذلك بعد العقبة التى اشتهرت مبايعتها بمبايعة النساء على نحو وضحناه سلفاً، وسواء سبق أبا سلمة، أو سبقه أبو سلمة إلى يثرب، فإن المسـألة لا تقدم أمراً على أمر، ولا تأخر أمراً عن أمر.

والذى يهتم به كاتب هذه السطور من هذا الحدث هو كل أمر يصلح للدرس ويصلح للعبرة.

وهذا ما نعتزم فعله، ونقصد إلى التحدث حوله.

علم أبو سلمة أن النبى قد أذن فى الهجرة فأمر أهله أن يتجهزوا للرحيل، وأن يحرصوا على أن يتم الأمر فى سرية تامة كما أوصى بها رسول الله ﷺ.

غير أن أبا سلمة وزوجه قد قصدا إلى شئ وأراد الله شئ آخر، فلقد علم بنو المغيرة بخروج أبى سلمة، ومعه زوجه وولده، فأرادوا أن يفجعوه فى زوجه، وأن يفجعوه فى ولده، فاعترضوه بعد أن تجهز للرحيل، وزوجه جالسة على بعيرها، وولدها سلمة فى حجرها رضيعاً، فسألوه أمهاجر أنت؟! فقال: نعم، وما الذى يضيركم فى هذا؟! فقالوا: لا، ولكن هذه ابنتنا قد زوجناك إياها ولا نأذن لك أن ترتحل بها إلى بلد آخر، فإن عزمت على رأيك، وكنت على موقفك فاخرج أنت بنفسك واترك لنا صاحبتنا.

وعلم بالموقف بنو عبد الأسد وهم رهط أبى سلمة، فأقبلوا إليهم مغضبين حمية لأبى سلمة سليلهم.

وحمى النقاش بين بنى المغيرة من آل مخزوم، وبين بنى عبد الأسد، حتى وقع الأذى على سلمة وهو فى حجر أمه، قال بنو عبد الأسد لبنى المغيرة دونكم صاحبتكم فخذوها حيث شئتم وكيف شئتم، أما سلمة فهو ولدنا لا نمكنكم منه، ولا نمكن منه أباه وأمه.

وظل القوم يتجاذبون الرضيع حتى خلعت يده.

وعاد بنو المغيرة بهند صاحبتهم.

وعاد بنو عبد الأسد بسلمة الطفل.

ومضى أبو سلمة لوجهه مهاجراً.

وهكذا نزل البلاء بأسرة ما يتحمل مثله غيرهـا، الأب فـي يثرب، والأم في مكة في حي من أحيائها تحرم رؤية زوجها، وتحـرم رؤية ابنها، وتحرم أن تضمه إليها.

وسلمة في مكة في حي آخر من أحيائها هم أعمامه وأجداده لأبيه، ولكنه يحرم مداعبة الأب، ويحرم أن يتغذى مـن أمـه كسـائر الأطفال، ويحرم مع ذلك المناخ المناسب لنموه.

أما الأب فقد شغلته عبادته، وكبت مشاعره، ولم يحدثنا التاريخ عنه بشئ في هذا المجال.

وأما الأم فقد برحت بها الأشواق، وقـد آذتـها آلام مفارقـة الزوج والولد، حتى كانت تخرج كل صباح إلى البطحاء، ومـا أدراك ما البطحاء لا تستظل من حر، ولا تشرب من ظمأ، ولا تطعـم مـن جوع، مستغرقة في حالها، مناجية لربها، متحملة هذه الآلام كلها، لكنها ليست على استعداد أن تعطي قريشاً على وجه العموم ما تريده قريـش منها، وهي ليست مستعدة أن تعطي هذا الحي الذي نبتت فيه وهو حي بني المغيرة، ما يشتهون أن تعطيهم إياه، وهو أن تكفر بمحمد ودينـه، وتعود إلى دين الآباء والأجداد.

وربك قد أراد من أفراد هذا الرعيل أن يضربوا للأجيال من بعدهم الأمثال وقد فعلوا.

أما أم سلمة فقد مكثت على ما وصفت لك مـن حالـها عامـاً كاملاً، لا تهادنها حرارة الشمس، ولا ترأف بها بطحاء مكة، ولا يرق لها من ذويها أحد، ولا يتعاطف معها من أهل مكة كبير ولا صغـير، ولا رجل ولا امرأة.

شاء الله أن يمر حالها عاماً كاملاً على هـذا النحـو، ولكنـها تعلمت من دينها أن الأمر قد يطول، غير أنه في النهاية لا بد أن يكون هناك مخرج يهيأه بطريقة قدرية أو سببية.

وأم سلمة تعلم من دينها كذلك أن الله قد ينصر دينه بالرجل الفاجر، أو بالرجل الذى لم يقدر له أن يدخل فى هذا الدين بعد.

وما أمر الصحيفة التى تمالأ عليها قريش، فمنعوا النبى ومن ينصروه طعامهم وشرابهم، وقاطعوهم مقاطعة تامة، ثم شاء الله أن يخرجوا من أمر الصحيفة على ما يريد بعد بعد وقت طويل، أقول وما أمر الصحيفة والخروج منها عن أم سلمة ببعيد.

صبرت أم سلمة على ما تعودت من أمرها تخرج إلى بطحاء مكة كل صباح، وتأوى إلى مضجعها فى المساء فى غير رحمة من أحد، وفى غير التفاتة من غريب أو قريب.

فلما شاء الله أن ينقذها مما هى فيه، قدر أن يمر عليها أحد أقاربها فيرق لها، ويعود إلى ذويه فيغلظ لهم فى القول، ويعاتبهم بشئ من الشدة قائلاً: [ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها].

فأذنوا لها بالرحيل.

ولكنه إذن على غير طريقة العرب، إذ العرب فيهم من الشهامة والأصالة ما يمنع الواحد منهم أن يحمل إحدى قريباته على أن تسير فى البيداء الليالى ذوات العدد، من غير أن يكون معها محرم، ومن غير أن يكون معها رفيق.

وهو إذن على غير مقتضى الفطرة السليمة، إذ الفطرة السليمة فى الإنسان السوى تأبى أن يقذف المرء بظعينة معها طفلها فى الصحراء تهبط واد، وتصعد إلى جبل ليس معها من يقوم على شأنها، وليس معها من يؤنس وحدتها.

أذن بنو المغيرة على أى حال كان هذا الإذن لأم سلمة بالرحيل بعد أن يئسوا من أن يبلغوا منها ما يريدون.

أما بنو عبد الأسد فلم يكونوا أكثر شهامة، ولا أعظم نجـــدة، ولا أعدل فطرة من بنى المغيرة.

علموا بخروج أم سلمة، وبأن أهلها قد أذنوا لها فى الرحيـــل، فدفعوا إليها بابنها سلمة فكان هو بعد الله عز وجل الذى يؤنس وحدتها فى طريق طويل غير مهاد من مكة إلى يثرب.

وركبت هند بعيرها، وولدها فى حجرهـــا، ويممـــت المدينـــة (يثرب) تتحسب ما تلاقيه فى طريقها من الصعاب، وهى تتأمل الرجال من أقربائها وأقرباء زوجها فتجيش بها نفسها وتغلبها على البكاء، ثـــم تعود لتوها فتذكر أن ربها له فى الكون مشيئـــة، وفـــى العبـــاد إرادة، فتسكن إلى إيمانها مطمئنة بهذا الإيمان الذى يقـــوى عزيمتـــها علـــى الرحيل، ويسكن بفؤادها من الاضطراب.

يممت الظعينة يثرب ولم تقطع من الطريق إلا يســـيراً حتـــى بلغت التنعيم أدنى الحل من مكة، وإذا بها ترى رجلاً تعرفه لم يكن قد دخل فى الإسلام بعد، ولكن الله قد هيأ له فطرة سليمة، وحمية غلابة، فغلباه على أن يسأل هذه الظعينة الذى يعرفها وتعرفه، إلى أيـــن أنـــت ذاهبة يا أم سلمة، فقالت فى غير تلعثم ولا تردد: إنى فى طريقى إلى يثرب ألحق بأبى سلمة، فقال لها: من صاحبك فى هذا السفر، فقـــالت: الله عز وجل ثم هذا الصبى فلم يقل شيئاً يعتب به على أقربائها، ولـــم يقل شيئاً يعتب به على أقرباء زوجها، فليس هنا محل لعتاب هـــؤلاء، ولا هؤلاء، وإنما كل ما قاله الرجل هو: [والله مالك من مترك].

أتدرى من صاحب هذه العزيمة القوية، ومـــن صـــاحب هـــذه الفطرة النقية، ومن صاحب هذه المنزلة العالية من الحمية ؟ إنه عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخو بنى عبد الدار، عمه فى ذلك الحين هـــو عثمان بن أبى طلحة الموكل بمفتاح الكعبة.

والرجل وإن لم يكن قد أسلم بعد، فإن الله قد شاء له أن يسلم وأن يموت مؤمناً، وأن يحظى بشرف سدانة البيت.

والله مالك من ترك.

ولهذه الكلمة دلالتها، وهى تستكمل عظمتها حين أوقفك على الرجل، يحمل الظعينة على كف الراحة وهو يسافر بها، تركب بعيرها، ويمشى على قدميه يقوده، يستريح إذا تعب، ويواصل المسير إذا ما استراح فى أمانة الرجال، ونبل الغيورين.

وأنا لن أحدثك عما تم فى هذا المسير، وإنما سأخلى بينك وبين أم المؤمنين أم سلمة لتحدثك عن صنيع الرجل بها وبولدها، قالت أم سلمة من حديث لها طويل [.... فأخذ بخطام البعير، فانطلق معى يهوى بى، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى، ثم استأخر عنى، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى، فحط عنه، ثم قيده فى الشجرة، ثم تنحى عنى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ثم استأخر عنى، وقال: اركبى. فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بى حتى أقدمنى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك فى هذه القرية وكان أبو سلمة بها نازلا فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة][1].

وهذا مثال آخر نضمه إلى المثال الأول، فنجد أنه يعطى من الدروس رصيداً جديداً، لم نستشعره ولا عشر معشاره من حديثنا عن هجرة عمر.

ولو قد اقتصرنا على ما قلناه عن عمر، لكنا قد وجدنا أنفسنا فى حاجة إلى ما يضفيه علينا هذا المثال الثانى من أمور نحن فى بعض مناحينا أحوج ما نكون إليها.

---

[1] سيرة ابن هشام جـ٢ – ص ٨١.

فليس جميعنا صاحب منعة فى قومه، وليس جميعنا ذا بـــأس شديد، وإنما فينا من يغلبه الظالمون، وينال منه الأشداء، ويحاول غيره أن يقعدوا به، ولا يجد له إلا ربه ملجأ فيلجأ إليه، ويستنجد به.

وفى الحديث عن أم سلمة وزوجها وولدها مـــا يغطـــى هـــذا الجانب من جوانب النفس الذى لا غنى للإنسان عنه فى حياته العامـــة والخاصة.

٣- بقى أن أحدثك عن هذا المثل الثالث حتى تكتمل بيـــن يديـــك المثل الثلاثة التى وعدتك بها.

وسترى معى أن هذا المثل لا يزهد فى أخذ العـــبرة منـــه إلا إنسان صاحب هوى، أو إنسان ذو ميل شديد ينـــأى بـــه عـــن تتبـــع الأحداث، وينأى به عن أن يكون له فى أحوال الرجال عبرة وعظة.

والمثل الذى أريد أن أسوقه الآن بين يديك يدور حـــول هـــذا الصحابى الجليل :صهيب بن سنان" الشهير بـــ "صهيب الرومى".

وما كان صهيب رومياً بحكم النسب، لأنه كان عربى وســـليل أسرة عربية كما صرح هو بذلك مراراً، وكانت إقامته وإقامة أســـرته بـــ "نينوى" من أعمال الموصل فى أرض العراق.

ولقد اعتدى الرومان على القوم من سكان الجزيرة فى العراق، وكان نصيب صهيب أن وقع فى أيدى الرومـــان أســـيراً علـــى رأى الكثيرين من المؤرخين، أو أنه قد هرب منهم ومعه مالـــه علـــى رأى الأقلين.

ولقد انتهى به المقام آخر الأمر بمكة اشتراه بها عبـــدالله ابـــن جدعان وأعتقه، أو هو قد جاء إليها حراً هارباً من الروم، ثم ربطت المصالح المالية بينه وبين عبدالله بن جدعان بمكة.

ولقد كان صهيب من أوائل من دخل فى الإسلام، فله سابقته

بين أصحاب رسول الله ﷺ، وله بلاؤه كذلك، حيث إنه لم يكن له فى مكة منعه من أهل أو عشيرة، ولم ينفعه حلفه مع ابن جدعـــان فعـــذب صهيب مع من عذب مثله، مثل عمار بن ياسر، ومثل ياسر

وسمية، ومثل بلال وخباب إلى غير ذلك من أولئك النفر الذين صاروا حلياً على صدر التاريخ، وأضاءوا بفعلهم جبينه.

ولقد كان النبي ﷺ يحرص عليهم، ويمنعهم من أن يؤذى مشاعرهم أحد.

في صحيح مسلم من طريق [حماد بن سلمة، عن ثابت، عن معاوية بن قرة، عن عائذ ابن عمرو أن سلمان، وصهيباً ، وبلالاً كانوا قعوداً فمر بهم أبو سفيان، فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها بعد. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها؟ قال:

فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: " يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك". فرجع إليهم، فقال: أي إخواننا لعلكم غضبتم؟ قالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك][1].

حرص النبي إذاً على مشاعرهم هؤلاء لا يخدشها أحد، ولا ينال منها أحد أياً كانت مرتبته ومكانته في الإسلام.

ولم يكن النبي يقتصر على هذا بل إنه كان يؤاكلهم ويشاربهم ويمازحهم، ويبتسمون له ويبتسم لهم.

فأنت تراه حين هاجر وكان النبي قد سبقه بالهجرة إلى المدينة، فلما لحقه بقباء كان قد أصابه الرمد في عينيه ، وحين أقبل على النبي وعمر بن الخطاب معه يتناولون طعامهم، فقال النبي لصهيب: ادنه، ثم أمره أن يأكل فأكل الخبز، ووقعت يده على الرطب يأكله، فقال: عمر مازحاً: يارسول، إن صهيباً يأكل الرطب وهو أرمد فقال النبي له في ذلك، فقال صهيب: إني آكل على شق عيني الأخرى، فابتسم رسول الله وابتسم الحاضرون.

---

[1] أخرجه مسلم (٢٥٠٤) في فضائل الصحابة، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم.

ولم يكن القصد من الحفـــاظ علـــى مشاعرصـــهيب، إلا أن يحتفظ النبى لهم بنفس مستقرة لا تضايقها الوحشة، ولا ينال منها فقد الأهل والأحباب.

بقى صهيب فى مكة يعذب كما يعذب المســـضعفون، تلبســـه قريش دروع الحديد ثم تلقى به فى الشمس، وتحول بينه وبيـــن المـــاء والطعام حتى يبلغ منه الإيذاء مبلغه، وهو ثابت على عقيدته.

ولقد أذن النبى فى الهجرة لمن استطاع أن يُهاجر، فهاجر كل من تمكن من الهجرة إلا أن صهيباً وأصحابه ممن كانوا على شاكلته قد حبسوا.

أما صهيب فقد حاول الهجرة، وكان رجـــلا يجيـــد صناعـــة السلاح فربح منها مالاً كثيراً، لكنه منذ اعتنق الإسلام قد وجـــد أن الله جعل المال فى يديه ولم يجعله فى قلبه، فكان ينفق منه فى حلـــه، ولا يحتفظ لنفسه منه إلا بالقليل، لكن المال القليل عند صانع وتاجر السلاح يجتمع منه الشئ الكثير فى الزمن اليسير.

وفى يوم من الأيام عزم صهيب أن يغادر مكـــة، وأن يلحـــق بالنبى فى المدينة، لكن الملأ من قريش قد علموا بخروجه فتصدوا له وأعادوه، فعاد معهم لكنه قد عاد إلى مضجعه بينهم قلقلا يقوم وينام

وما به من بأس غير هذا القلق، وما به من ألم يشتكى منه غـــير ألـــم النفس الذى تجمع عليها، حين حال القوم بينه وبين مـــا يشتهيـــه مـــن القدوم على رسول الله ﷺ.

فلما رآه القوم يكثر القيام بالليل ظنوا أن به علـــة، وفرحـــوا بذلك فرحاً شديداً وقالوا: إن الفتى قد شغل بنفسه ولـــن يتمكـــن مـــن الخروج الليلة، واستسلموا للنوم وذهبوا فى أحلامهم السعيدة إلى آخر المدى الذى يستهويه.

أما صهيب فقد لبس سلاحه، وعزم الأمر على الرحيل وانسل من بينهم يقصد إلى الخروج فى سرية كما أوصاه النبى مع غيره فـــى وصية عامة.

ولم يكد الرجل يخرج من حدود مكة حتى علم القوم بخروجه وذهبوا في إثره مسرعيين حتى لحقوا به، والرجل فى سلاحه كافلا معه سيفه وقوسه، ومعه سهامه التي يرمى بها.

ولم يكن الرجل قليل الحيلة فى ميدان القتال، ولكنه كان يجيد الضرب بالسيف لا يخلص إليه أحد ما دام قائم السيف فى يده. ولم يكن الرجل ناقص الدربة فى ميدان الرماية، ولكنه كان يجيد الرمى لا يخلص إليه أحد ما دامت كنانته تسعفه بالسهام.

علم القوم بخروج صهيب، وانطلقوا يريدون اللحاق به حتى أصبحوا على مقربة منه، فاستدار إليهم صهيب، ثم خاطبهم في حدة الواثق، وفى ثبات المؤمن قائلا: والله إنكم لتعلمون أنكم لن تخلصوا إلى ما دامت فى كنانتى سهام أنسلها الواحد بعد الواحد، فإن انتهت السهام، فوالله لن تخلصوا إلى ما دام قائم سيفى فى يدى، وإنكم لتعلمون أنى أرماكم، ولن يخطئكم سهمى، إنكم لتعلمون أنى أقدركم على استعمال السيف ولن يخلص واحد منكم إلى حتى أنال واحد منك بسهم، يأتيه فى مقتل، أو يأتيه فى مكان يعيق حركته إلى آخر الدهر وأنتم لن تخلصوا إلى حتى يتحطم سيفى كله فى يدى قطعة بعد قطعة، ثم تستطيعون بعد ذلك أن تخلصوا إلى، ولكن بعد أن تكون خسارتكم فادحة.

ثم سأل صهيب القوم الذين يتبعونه قائلا: ما الذى أغراكم بى إلى هذا الحد؟ قالوا: إنك منا حيث تعلم لا أهل لك بيننا ولا عشيرة، ولقد أتيت إلينا ولا مال لك، أفبعد هذا الثراء كله تأخذ المال وتهاجر به؟

وعلم صهيب أن القوم يتحدثون فى توافه الأمور وحطام الدنيا، وهذا هو ما يشغلهم، وليس لهم بعد ذلك أمل يبتغونه، ولا هدف يسعون إلى تحقيقه، وأنه رجل قد شغلته أهداف عظام، وآمال كبار والآمال إذا كانت كبيرة، والأهداف إذا كانت عظيمة تعبت فى مرادها الأجسام.

لم يأخذ التفكير من وقت صهيب قليلاً ولا كثيراً، ثم سألهم إن كان المال هو الذى يشغلكم فهل يرضيكم أن أدلكم على مكان المال

تأخذونه، وأذهب أنا إلى حالى، ويكون كل واحد منا قد ذهب إلى طريقه الذى يرتضيه لا يعارضه الآخر، ولا يحول بينه وبينه فرضيت قريش بهذا العرض وفرحت به، واستشرقت نفس صهيب بهذا البيع ورضيت به، فدلهم صهيب على مكان ماله، وخلت قريش سبيله، فانطلق إلى وجهه ووجهته لا يلوى على شئ، يستحث الخطى إلى رسول الله ﷺ، وإلى إخوانه الذين سبقوه إلى الهجرة، وإلى إخوانه المؤمنين من الأنصار.

وما أن وصل صهيب إلى قباء حتى وجد النبى بها، بين يديه طعام من خبز ورطب، وإذا بالنبى يفاجأه بهذا الخبز، وهذه الكناية قال له النبى: ربح البيع أبا يحيى.

وما كان لصهيب ما يبرر هذه الكنية، وما كان لصهيب من الأسباب الطبيعية والاجتماعية ما يسوغ له أن يكنى بأبى يحيى.

ولقد بقى عمر بن الخطاب بعد النبى لا يمل من مداعبة صهيب قائلاً: أنت رجل عظيم لا يسبقك الرجال إلى خير أو فضل لولا ثلاث، **الأولى:** أنك تكنيت بأبى يحيى وليس لك ولد اسمه يحيى **والثانية:** أنك رومى ولست بعربى، **والثالثة:** أن المال لا يبقى فى يديك، وإنما يأتيك المال لا تحتفظ به، فكأنما يدخل من باب ويخرج من آخر.

وكان صهيب دائماً يجيب عمر بقوله: أما الكنية فشرفى فيها أن النبى هو الذى كنانى، وأما العجمة فى حديثى فليست تدل على أنى غير عربى، فأنا عربى لكن الروم قد أسرتنى صبياً، وعشت بينهم فأصابتنى العجمة، وأما السرف فى المال، فإنى لم أنفقه فى محرم أبداً، وإنما حرصت غاية الحرص أن يكون إنفاقى كله فيما يرضى الله عز وجل.

هاجر صهيب، ورأت قريش فى هجرة صهيب أمور سجلها التاريخ له.

أحدها: هذا الثبات على المبدأ لا يزحزحـــه عنـــه أذى، ولا يحول بينه وبين الثبات عليه شئ عظيم أو حقير من إغراء، أو تعذيب، أو تعزير.

وثانيها: هذا الإزدراء الشديد بقوة أعدائه، وإعلانه أنه قـــادر بما عنده من رصيد الإيمان، والدربة على القتال والنزال، علـــى أن لا يخلص إليه أحد بمكروه حتى يكون قد أخذ من أعدائه عدداً لا يستهان به، ويقذف بهم جميعاً فى وطيس الموت.

وثالثها: هذه العلاقة التى يفهم أبعادها بينه وبين المال وحطام الدنيا كله، فهذا المال لا يعدو أن يكون مطيته لقضاء الحاجات ولا تعدو مكانته كفيه، وهو لا يسمح له أن يدلف إلى قلبه، أو أن يركب هامته، فحين برز المال ثمناً للنفس دفعه بغاية الرضى، واشترى بـــه نفســـه، ورمى فى وجه قريش ما تلهو به عنه، وما أن قدم إلى المدينـــة حتـــى وجد النبى يمدح فعلته" ربح البيع أبا يحيى" فقـــال صـــهيب: والله يـــا رسول الله ما أخبرك إلا جبريل، لأنه منذ ترك مكـــــــــة قـــد حرص على أن لا يكون أحد أسرع منه فى بلوغ النبى واللحوق به.

ولقد أجمع علماء التفسير على أن آية سورة البقـــرة: **{ومـــن الناس من يشـــــرى نفســـه ابتغـــاء مرضـــات الله والله رءوف بالعباد}**[(1)] إنما نزلت فى صهيب.

وأنت تستطيع أن تستشعر عظمة هذه الآية بمجرد قراءتك لها ولكن عظمتها تبدو لك أكثر نصاعة حين تقرأمعها الآية السابقة عليـــها لتعطيك صفات لأناس قد بعدت بهم صفاتهم عن معالم الرجولة الحقة.

واقرأ هذا المقابل إن شئت فى قوله تعالى **{ومن الناس مـــن يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهـــو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفســـد فيـــها ويـــهلك**

---

(1) البقرة : آية ٢٠٧

الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد}[٢].

أرأيت أنى بعد أن ذكرت بين يديك هجرة عمر، وهجرة أسرة أبى سلمة، وهجرة صهيب أنى قد وفيتك حقا قد تعلقت ذمتى به حين وعدتك أن أضرب لك من الأمثال ما يوضح لك أن حال المسلمين فى الهجرة قد برهن على أنهم قد اختلط فى سلوكهم الواقع بالمثال؟.

أما أنا فإنى أعتقد أنى قد وفيت.

وأما أنا فما زال لى فى عنقك حق، وهو أن تتأمل فيما ضربت لك من الأمثال لتقف على حقيقة سلوك هؤلاء الرجال، إنهم قد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وإنهم ما بدلوا تبديلا، وإنهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنهم كانوا يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وما اخترناه من الرجال للتمثيل قد اخترناهم ليمثلوا جماعة بأسرها، لها مبادؤها، ولها عقائدها ولها شريعتها، ولها قدوتها، إنها جماعة قد حُدد لها هدفها فتدارسوه فيما بينهم، وآمنوا بالعمل الجاد على بلوغه، مهما كلفهم ذلك من مال أو بنين.

هذه الجماعة قد أنصتت إلى النبى ﷺ وهو يأذن لهم فى الهجرة، من سمحت له الظروف منهم أن يهاجر فليهاجر، ومن قعدت به ظروفه، وأحاطت به أحواله فليبق بمكة وسيجعل الله له مخرجاً وأنصت القوم إلى النبى وهو يلقى إليهم بالتوجيهات التى ينبغى عليهم أن يتبعوها، وهم يتركون أوطانهم وديارهم إلى وطن آخر، شاء الله لهم أن يقيموا به، وأن يحملوا منه مشاعل النور إلى غيره من الأوطان والمنازل.

والقوم حين هاجروا من مكة إلى المدينة، هاجروا وهم يعرفون لماذا يهاجرون؟.

---

[٢] البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦.

فمن الناس من يهاجر طمعاً فى تغيير الموقع، ورغبة فى أن يقطن فى مكان آخر له من أسباب التميز التى تتصل بالبيئة أرضها وماؤها وهواؤها، ما يجعله بفضله على غيره، ولو كان هذا الغير من الأمكنة يحمل ذكريات طفولته، ويشتمل على مثيرات أحزانه وأشجانه.

ومن الناس من يهاجر طمعاً فى تغيير الموقع، ورغبة فى أن يقطن فى مكان آخر له من أسباب التميز التى تتصل بالموارد المختلفة والتى تمده بالثراء، وتحيطه بالغنى، وتمده بشئ من الاعتداد بالنفس يحمله على أن يرى نفسه من علية القوم، حين يكون التمييز بين الناس قائماً على أسباب الغنى ، ومحتكماً إلى موازين الثراء.

ومن الناس من يهاجر طمعاً فى تغيير الموقع، ورغبة فى أن يقطن فى مكان آخر له من أسباب التميز التى تتصل بالمعرفة اتصالاً مباشراً، فتوفر له من أسبابها شيئاً قليلاً أو كثيراً لكنها ليست موجودة فى جميع الأحوال فى وطنه الذى قضى قسطاً من حياته فيه، والناس تستهويهم المعرفة وأسبابها المؤدية إليها بدرجات متفاوتة، لأن المعرفة على كل حال جزء لا يتجزأ من منظومة الحياة التى تأتلف من البيئة، والموارد والمعرفة، بحيث لا توجد الحياة إذا انعدمت هذه العناصر الثلاثة أو كادت.

من الناس من يهاجر إذاً رغبة فى بيئة أفضل، ومنهم من يهاجر جرياً وراء موارد أكثر غزارة ويسراً، ومن الناس من يهاجر طمعاً فى تحصيل المعرفة أو قسط يناسبه منها، ومن الناس من يهاجر رغبة فى أن ينال بقسط وافر من كل ذلك.

أما هؤلاء القوم الذين هاجروا حين أذن النبى لهم فى الهجرة، فما كانوا يبتغون شيئاً من ذلك، وما كان يستهويهم شئ من ذلك، فبيئتهم فى مكة قد تعودوها جميعاً، فأنفقوا قسطاً غير يسير من أعمالهم على أرضها، وعلى هذه الأرض تكونت ذكرياتهم، وامتدت فيها جذورهم، وارتبط بها تاريخهم، وموارد مكة تقنعهم جميعاً، فهى تلك البلد التى يجبى إليها ثمرات كل شئ، إنها بلد يمتاز بشهرته الدينية،

وشهرته الاقتصادية على السواء، ومكة بجميع المقاييس وعاء تصب فيه جميع الثقافات، فهى بمثابة القلب فى شبه الجزيرة العربية تفد إليه الثقافات، رغداً من كل مكان، وتأتيه الوفود من كل صوب تحمل ثقافات أوطانها فتؤثر فى ثقافات المكيين وتتأثر بهم، بحيث يغنيهم ذلك عن أن يكون لهم مطمع إلى مهجر يغريهم بمعارفه وتستهويهم مكانته العلمية، أضف إلى ذلك أن القوم الذين يعتزمون الهجرة، قد اعتنقوا هذا الدين الجديد الذى صاغ عقولهم صياغة جديدة ونقى أفكارهم من العوالق والشوائب التى يلفظها كل ذوق سليم، وتنأى عنها كل فطرة مستقيمة.

وهذا الفهم فى إجماله قد يتراءى للبعض أنه يجعل الإجابة على هذا السؤال أكثر تعقيدا وأصعب منالاً، ذلك أننا بصدد الإجابة على سؤال مؤداه: لماذا هاجر المسلمين من مكة إلى المدينة تاركين أهلهم وديارهم وأموالهم؟ وهذا التحليل السالف الذكر يجعل من يحاول الإجابة على هذا السؤال فى شئ من الحرج قد يسبب له شيئاً من الضيق.

والأمر فيما أرى أهون من ذلك كله وأيسر، ذلك أنه ينبغى علينا منذ اللحظة الأولى أن نفهم أنه ما من دعوة، أو مذهب اجتماعى أو دين رشيد من الأديان السماوية إلا هو يحتاج إلى مجموعة المقومات، بدونها يفقد فعاليته، وتقعد به الظروف عن أداء مهمته.

ومن أهم هذه المقومات أن يكون للدين أو المذهب دولة فيها حاكم ومحكوم، وفيها دستور وشريعة، ولأفراد الدولة وجماعتها أهداف ووسائل إلى هذه الأهداف.

وهذا كله لا يمكن أن يتحقق بدون أن يكون للجماعة وطن تمارس عليه علاقاتها الاجتماعية بعضها ببعض، وتطبق عليه دينها الذى تعتنقه وتعمل جاهدة فى سبيله.

ومن غير هذا الوطن، وبدون هذه الأرض لا يقوم للدين قائمة فى بعض جوانبه على الأقل.

والنبى محمد ﷺ ما جاء بهذا الدين ليطبقه فى بعض نواحيه ويؤجل البعض الآخر رهن محبس الظروف التى قد تواتيه فى المستقبل أو لا تواتيه.

وما كانت أرض مكة فى عصر المبعث وطناً صالحاً لكى تمارس عليه شريعة هذا الدين، ولكى تنطلق منه أضواءه خارج مكة يمنة ويسرة،وفى الأمام وفى الخلف.

إذ إن مكة كانت تقوم عليها تيارات متنازعة تفرق أهلها شيعاً وتحول أوصالهم إلى تقاسيم وتفاريق، تتحول هذه الأوصال إلى شعث لا يلم، وإلى صدع لا يرأب إلا أن يكون ذلك على سنة من سنن الله الخارقة، وهو أمرٌ لم يرده الله لهذه الأمة فى كثيرمن الأحايين، وجل ما أراده لها فى عصر المبعث وما بعده أن تسير فى اجتماعياتها كما تسير الأمم المحيطة بها، يحكمهم جميعاً سنن الاجتماع لا فضل فيه لأمة على أمة إلا بمقدار الاستفادة من هذه السنن التى بثها الله بين الخلائق، وأتاح لهم أن يستفيدوا منها.

وما كان لمكة أن تصلح أن تكون وطناً أولياً لهذه الدعوة، كما حدثناك عنه من أن الجماعات التى سكنت مكة يومئذ قد تحولت إلى صدع لا يرأب، وإلى شعث لا يلم، وتلك أمور لا يصلح معها أن ينمو هذا الدين الجديد، وأن يضرب بجذوره فى الأرض حتى تكون هاماته باسقة إلى أعلى تلامس كبد السماء.

هنا وهنا وحده يكمن السبب الحقيقى الذى دفع بالمسلمين إلى أن يهاجروا من مكة الىالمدينة ، تاركين وراءهم ما يقعد بغيرهم عن

الهجرة من أسباب المتاع، ومثيرات الوجدان وروابط التاريخ وأواصر القربى.

لم يكن صعباً على واحد من المسلمين أن يدرك هذه الحقيقة وأن يعيها بقلبه المؤمن وفؤاده المرهف.

ولم يكن صعباً على واحد من المسلمين كذلك حين يدرك احتياج الإسلام إلى وطن جديد ملائم تحيى عليه جماعة آمنت به تطبق مبادئه، وتعلى قيمته أن يعتبروا أن هجرتهم فى مثل هذه الحال

نوع من العبادة، لها فى هذا الظرف كل الأولوية التى تجعلها تحتل مكان الصدارة بين العبادات.

من أجل ذلك هاجر المسلمون، وقد تركوا ديارهم تصفر فيها الرياح، تعلن بين الناس أن قاطنيها قد أجابوا داعى الله، تركوا أرضاً لا تصلح وطناً لهذا الدين الجديد إلى أرض قد احتضنت مبادئ هذا الدين وأمدته بأساليب الاجتماع الصحيحة، وأتاحت له أن يتنفس فوق الأرض هواءً نقياً حتى تعلو بين الأديان قامته، وترتفع بين المبادئ هامته.

هاجر القوم أرسالاً فى خفية، كما نصحهم النبى ﷺ وهم يعلمون أنهم يمارسون عبادة من أفضل العبادات وأحسنها.

وأنت تستطيع أن تفهم هذا السبب وراء هجرة المسلمين حين تتأمل فى العصر الحديث ما صنعته اليهودية العالمية فى شعب فلسطين، وما أوقعت به من الأذى، وما أحاطته به من المكايد والنكبات.

إنك تستطيع أن تتفهم السبب الحقيقى وراء هجرة المسلمين حين تستحضر فى مخيلتك ما صنعه اليهود فى العصر الحديث، مع الفارق بين الموقفين الذى لا يخفى على مثلك إدراكه.

عاش اليهود متفرقين فى الأرض، لكنهم قد رأوا أنهم سادة العالم وشعب الله المختار، وأنهم لا تتحقق لهم السيادة على هذا العالم والعمل على إبادته والتخلص منه، والسيطرة على أمواله وموارده واستحياء نسائه واستعباد رجاله، إلا أن يكون لهم وطن يهاجرون إليه

جميعاً، ويخرجون منه أهله وذويه بالحيلة أو بالاقتدار، أو بجميع ذلك ما أتيح لهم أن يصطنعوه.

وشهد القرن الماضى حركات نشطة من خلال جمعيات سرية أنشأها اليهود، وكان الموضوع المطروح دائماً أمام الصفوة من أبناء يهود، هو البحث عن وطن قومى وأرض ملائمة يعيشون عليها.

ولقد طرحت البدائل، وعرضت الأماكن المتعددة ليختار زعماء يهود منها المكان الذى يرونه صالحا، ووقع الاختيار على أرض فلسطين، حيث رأى زعماء يهود أنها أولى من غيرها.

وحملت الدول الكبرى حملا على أن تعمل على تسليم أرض فلسطين وما يليها لليهود وكان ما كان، ثم عمل زعماء اليهود باصطناع حيلهم على أن يحملوا يهود العالم على اختلاف أجناسهم على الهجرة إلى فلسطين لتحقيق الغرض المنشود.

وهاجر اليهود إلى فلسطين.

ترى لماذا؟

لا لشئ إلا لأنهم يريدون أن يكون لهم وطن قومى يتخذونه مركزا لتطبيق مبادئهم الآثمة، وأفكارهم التى لم تعد تخفى على أحد. ومع الفرق الشاسع، والبون العظيم هاجر المسلمون أيام النبى، ولحقوا بإخوان لهم من الأنصار الذين قد أدركوا الغرض نفسه، وهو ضرورة أن يكون هناك وطن ينطلق منه المسلمون إلى جميع أقطار الأرض بنور الله الذى يبدد ظلام الشيطان، وبعدل الإسلام الذى يبدد جور الأديان، وبعقيدة الإيمان الصحيح بالله عز وجل التى ترفع درجة الوعى بالتوحيد.

لقد هاجر الرجال والنساء، وضربوا للناس الأمثال، وتركوا مكة فى زلزال اجتماعى عظيم أحس فيه كل مجرم بجرمه، وأدرك معه كل آثم الإثم الذى جانفه، ولكنها عادة الآثمين حين تحيط بهم خطيآتهم فيرمون بها بريئا.

حدث التاريخ أن مكة بعد أن هاجر رجالها وتركوا ديارهم: [نظر المشركون، فإذا ديار بـ (مكة) كانت عامرة بأهلها قد أقفرت ومحال مؤنسة قد أمحلت.

مر عتبة، والعباس، وأبو جهل، على دار عمر بن ربيعة بعد ما غلقت، فقد هاجر رب الدار وزوجته، وأخوه أحمد – وكان رجلا

ضرير البصر - ونظر عتبة إلى الدار تخفق أبوابها، ليس بها ساكن فلما رآها تصفر الريح فى جنباتها قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً، ستدركها للنكباء والحوب

ثم قال: أصبحت الدار خلاء من أهلها، فقال أبو جهل للعباس هذا من عمل ابن أخيك، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا.

وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة.

فهم يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم، ويقهرون المستضعفين، فإذا أبوا الاستكانة، فإباؤهم علة المشكلات ومصدر القلاقل][1].

أيقن المسلمون جميعاً وأيقن النبى معهم أن الدعوة تحتاج إلى وطن جديد يجتمع المسلمون فيه، ويأتلف عليه شملهم، وتكتمل فى جنباته جماعاتهم يتطلعون إلى المستقبل يطلع المؤمنين بالمبدأ الراغبين فى نشره، وترغيب غيرهم فى الدخول فيه.

وشاء الله أن يحقق لهم مبتغاهم على سنة من سنن الله الجارية، التى تكشف عن أسبابها لمن شاء أن يتعرف عليها، ولم يشأ أن يحقق لهم أهدافهم على سنة من سننه الخارقة، ولو قد أراد لأنجز ما أراد.

وما كانت مكة بصالحة على سنة من سنن الله الجارية أن تكون هى الوطن الذى ينطلق المسلمون منه.

أما **أولاً:** فلأنها ليست بهذه الأرض الخصبة الغنية بأسباب الحياة التى ترغب الناس فيها، وتغريهم بالهجرة إليها، وهم مطمئنون إلى وفرة الرزق، واثقون من أنها سوف تمدهم فى كل حين بكل ما يحتاجون إليه من أسباب المعايش ، ووسائل المحافظة على الحياة، لا يحتاجون إلى غيرها، ولا يضطرون إلى النزوح عنها، فهى أرض

---

[1] فقه السيرة/ محمد الغزالى - ط. دار الكتب - الطبعه السابعة ١٩٧٦م. ص ١٦٥،١٦٦.

صخرية فى جملتها، وهى فى نفس الوقت شحيحة بالماء العذب لا تمد به أهلها وذويها، فيما عدا آبار متناثرة هنا وهناك لا تكفى إلا لإمداد الأكباد الرطبة من إنسان أو حيوان، أما أن يتوفر الماء لغير ذلك فهذا مما لا تجود به هذه الأرض على ترامبها الذى يشمل ربوع مكة بأسرها، ولو قد أمدت هذه الأرض الناس بالماء العذب الذى يكفيهم للزراعة والرى، فإنها لا تكف عن الشح بهذه التربة الخصبة التى تصلح لنمو النبات وأشجاره من زروع أو ثمار.

أرض مكة إذاً لهذا السبب ليس فيها ما يغرى القادمين إليها بالإقامة بها، وهى لا تغرى الناس إلا للتردد عليها فى مواسم الحج محملين بمشاعر النسك، حاملين على أبعرتهم ما يحتاجون إلى التعامل فيه من عروض التجارة، ثم هم بعد أن يرووا ظمأهم من المناسك التى قصدوا إليها، وبعد أن ينتهوا من المبادلات التجارية لا يرغبون فى الإقامة بمكة، ولا يستهويهم شئ بعد ذلك على أرضها يحملهم على أن يطيلوا المقام بها وقتاً طويلاً أو قصيراً.

هذا **أولاً:**

وأما **ثانياً:** فلقد علم الله عز وجل أن لو أقام الناس بمكة وكانت هى الوطن الأول للناس ينطلقون منه فى عصر المبعث، لكان هذا الوطن نفسه مثار شغب تشغب به الأجيال القادمة ضد الدعوة الإسلامية، وضد القائمين عليها أول أمرها على السواء، إذ يسوغ للأجيال القادمة أن تقول: إن هذه الدعوة الإسلامية ليس فيها من القوة الذاتية ما يحملها على الذيوع والانتشار، ولقد أبدلها الله من ذلك برجال أشداء هم أهل النبى وعشيرته، كانت أخص خواصهم أنهم أناس يتعصبون لما يصدر عنهم ولو كان باطلاً، فتعصبوا للنبى ولدعوته، حمية لا قناعة، وعصبية لا إيماناً بما جاءهم النبى به فحملوا دعوته

إلى العالمين، وأجبروا الناس على اعتناقها إجباراً والناس قد أقبلوا على هذه الدعوة رغبة فى إرضاء القرشيين، أو رهبة من سطوتهم دون أن يكون للدعوة الإسلامية ميزة ذاتية، تحمل الناس على الإقبال عليها، والأخذ منها، والتحمس لنشرها وإذاعتها بين الناس.

علم الله أن لو كانت مكة هى الوطن اللائق بالمسلمين فى عصر المبعث، لتحملت الدعوة الإسلامية فى المستقبل من عنت الأجيال القادمة، وعبء التشهير بها على ألسنتهم، الشئ الذى يصد عنها رجالاً ونساءً قد يرغبون فى اعتناقها فى المستقبل، وما كل الناس قد رزقهم الله ملكة فاحصة، وروية متأنية حتى يحققوا جميعاً فيما يسمعون، وفيما يثيره الناس أمامهم من أحاديث باطلة أو صادقة وفيما يحاوله بعض المغرضين من إلصاق التهم بالمبادئ، ومن حمل الزور على أصحاب تلك المبادئ المخلصين لها، المتحمسين لرفع لوائها، ما كل الناس إذاً بأصحاب ملكة فاحصة، وما كلهم بأصحاب روية متأنية، بل إن منهم عدداً غير قليل من يزيدهم كلام الناس خبالاً وتفرقاً، خاصة أولئك الذين يتحدثون عن المبادئ، لا يبغون إلا أن يفترق الناس عنها، يبغونهم الفتنة، ويحملونهم على الإثم دون أن تكون لهم رغبة فيه، مستندين إلى هذه الخاصية فى البشر، وهى خاصية الاصغاء والسماع، ثم الاستحسان بغير فحص، واعتناق الباطل المدعو إليه بغير روية وإننى لأعلم أنه يكفيك ما ذكرته بين يديك، لتعلم أن مكة لا تصلح أن تكون الوطن الأول للدعوة الإسلامية فى عصر المبعث.

ولو شئت لزدتك فوق هذين السببين أسباباً أخرى لها صلة بهذا المجتمع الذى فرقته الأهواء، وحملته العصبية على تقطيع الأرحام البعيدة رغبة فى الزعامة أو حباً فى الظهور.

أما كاتب هذه السطور فهولا يرغب فى أن يفتح هذا الباب الواسع ليدخل منه معك، لأنه لو فتحه ودخل معك منه إلى عمق التاريخ، قد لا نعود من هذا المشوار الفكرى الطويل إلا بعد أن ننفق وقتاً غير يسير فى شئ لا تحتاج أنت فيه إلى مرشد يرشدك، أو إلى صاحب يرافقك غير مصاحبة أحداث التاريخ التى لا تضن عليك بأسرارها، ولا تأبى أن تبيحك مكنون صدرها.

علم النبى وعلم المسلمون أن أرض يثرب وسكانها فيهما من المقومات الذاتية ما يجعل منهما وطناً ومجتمعاً، يصلحان ليكونا الوطن الأول والمجتمع الأول اللذان تنطلق الدعوة منهما، ولا بأس أن ينضم إلى هذا المجتمع على هذه الأرض كل من صاغته العقيدة الجديدة

صياغة جديدة، وأصبح إنساناً ربانياً نــزع الله مــن صــدره صفــات الجاهلية، وغرس فى سويدا ء فؤاده مقومات هذا الدين الجديد.

وشاء الله عز وجل أن يبيح نبيه والمسلمين معه هــذه الأرض الجديدة، ورضاء أهلها عنه، وفتح صدورهم لاســتقباله واســتقبال دعوته، واستقبال إخوانهم المهاجرين على طريقــة مــن الســعة فــى الصدور لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، ولم تشهد الأجيال التاليــة إلــى الآن ما يماثلها.

شاء الله أن يهاجر المسلمون، وأباحهم هذه الــهجرة، ورضــى النبى عن هجرة المسلمين، فأذن لأصحابه بهذه الــهجرة، وانســجمت الهجرة مع سنن الله الجارية، فكانت حدثاً ممتازاً فى التاريخ.

الفصل الخامس

مع النبى على طريق الهجرة

لقد أذن النبى ﷺ بالهجرة للمسلمين فهاجر كل على طريقته ولقد حرصوا جميعا على أن يخرجوا من مكة أرسالاً وفى خفية حتى لا تعلم بهم قريش، وتحول بينهم وبين ما يشتهون. ولأمر يريده الله عز وجل علمت قريش بهجرة المسلمين ولم يكن علمها بهجرتهم من قبيل الأمر العسير الذى يصعب إدراكه على أمثالهم، بل إنه على العكس من ذلك كان أمراً يسهل إدراكه على من يريد أن يدركه فهذه الديار قد خلت من ساكنيها فلا تجد فيها دياراً، وهذه الأدرب والطرقات كان الناس يتقابلون فيها وجهاً لوجه، ويتناقشون فيما بينهم يشتد النقاش بينهم حيناً، ويهدأ حيناً، ولكنهم كانوا يتقابلون ويناقشون وإذا بالطرقات والسبل قد افتقدت بعض الرجال والنساء لم يعودوا يسلكونها.

وهذا هوالبيت الحرام كان يشهد كل يوم العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم، فعز عليه أن يجد العاكف فيه والطواف إلا قليلاً من هؤلاء، من حبسه ضعفه عن الخروج، ومن منعه مانع لا يقوى على اجتيازه، وغير ذلك مما يجده المكيون ويجدون فيه دلالة على هجرة المسلمين، وهم لم يعد عندهم من شك أن هؤلاء جميعاً قد انضموا إلى أهل يثرب من الأوس والخزرج، وهم طوائف وحد بينهم الإيمان مهما فرقتهم السبل، وجمع بين قلوبهم اليقين مهما فرقتهم الإحن، وهم حين يجتمعون على هذا النحو، إنما يجتمعون على رغبة صادقة فى نشر هذا الدين والعمل على إذاعته بين الناس، ولو قد أحالت قريش بينهم وبين ما يبتغون، فإن أمامهم أحد أمرين يصطنعونهما معاً أو يكتفون بأحدهما حين يريدون أن يكيدوا إلى القرشيين، وهذان السببان هما: أن يجمع المسلمون شملهم، ويلبسوا للقتال لبوسه تدفعهم عزيمة صادقة، وينضوون تحت لواء متين، ثم ينقضون هم ومن يكونون معهم على دينهم من العرب والأعراب على قريش فى عقر دارها، أو فى أى مكان يقدر الله أن يلقى هذا الجمع فيه الكافرين من القرشيين، ومن يكون هواهم معهم من غير القرشيين.

وهذا سبب يكفى لكى يبلغ بالمؤمنين أهدافهم ويصل بهم إلـــى ما يريدون.

وهناك سبب آخر متاح أمام المسلمين فى يثرب أن يصطنعوه إن أرادوا أن ينالوا من المشركين، وهو : أن يحول المسلمون بيـــن قريش وبين مقاصدها من الاتجار فى أموالها وعروضـــها، وأنـت خبير ولا شك أن جل عمل قريش فى التجارة هو ما تقوم به فى كثير من الأحوال من الارتحال إلى بلاد الشام، يبيعون ما يفيـــض عليـــهم هناك، ويشترون ما يحتاجون إليه، وهم فى ذهابهم إلى بـــلاد الشـــام، وعودتهم إلى مكة سيمرون على يثرب إذ ليس لهم طريق يســـلكونها غير هذه الطريق، ولو قد أراد المسلمون أن يحولوا بين المكيين، وبين الذهاب إلى بلاد الشام لفعلوا، ولو قد فعلوا لأوقعوا قريشاً فى ضائقة لا يخرجهم منها إلا الموت، أو أن يعقدوا مع هؤلاء معاهدات السلم إن لم يدخلوا فى الإسلام كافة لا يشذ عنهم إلا قليل منهم.

وهذا هو الآخر سبب لا يستهان به، لو أراد سكان المجتمـــع الجديد من المهاجرين والأنصار أن يصطنعوه لكى يضايقوا قريشاً كما ضايقتهم فى دينهم، وفى إيذائهم لنبيهم ولمعتنقى هذا الدين.

إنهما لسببان عظيمان يتاح لأهل يثرب ولإخوانهم المهاجرين معهم أن يصطنعوهما جميعاً أو يصطنعوا واحداً منهما، إن أرادوا أن ينالوا من قريش نيلاً فى أنفسهم وفى أموالهم.

ولقد أدركت قريشاً هذا كله، وعلمت أنه الخطر الداهم الـــذى ينتظرهم ولا ريب، وأنه لهو الألم الموجع الذى لا يمكن الصبر عليـــه مهما أوتى المرء من جَلد، ومهما أتيح له من مقدرة على التحمل.

ولا يكفى أن تدرك قريش هذا كله، ولكن لا بد من إيجاد حـــل والعثور على منقذ ينقذهم مما هم مقبولون عليه مـــن الخطـــر الـــذى ينتظرهم.

ولم يكد زعماء قريش يفيقون من دهشة ما أدركوه حتى أدركوا شيئاً آخر هو أشق على نفوسهم من هذا كله، وهو احتمال أن يـــهاجر

النبى ﷺ، ويلحق بهذا المجتمع المؤتلف من الأوس والخزرج، ومن المهاجرين الذين أسلموا فى مكة، وأذن النبى لهم فى الهجرة.

وحين وقع فى نفس قريش هذا الاحتمال أسقط فى أيديهم وأيقنوا أنهم قد مُحقوا لو أن النبى ﷺ قد ترك مكة وهاجر إلى المدينة.

وتصور قريش على هذا النحو كان تصوراً معقولاً فى زمانهم، لا يصعب على الأفذاذ أو عوام الناس أن يدركوه.

وهذا إجمال يحتاج إلى البسط والتفصيل.

وتفصيل ذلك أن نقول : إن الله عز وجل قد أرسل نبيه بالهدى ودين الحق ليعلن كلمة الله فى مجتمع جاهلى له نظامه، وله ثقافته، وله أفكاره وعوائده، وما كان النبى فى قومه بالرجل الذى يبغضه قومه، ولكنه كان رجلاً محبوباً من الجميع، إنه كان محبوباً لسمته حين يتراءى لك سمته، وكان محبوباً لوضاءة وجهه، واتساق أعضائه حين يطلع عليك أو يواجهك فى الطرقات، تراه كذلك لا يختلف عليه رائ من الذين يرونه أو يقابلونه، وهم يحبونه مع ذلك لاستقامة خلقه، حيث يرونه أخذ من كل خليقة بقسط وافر، لا ينحاز لخلق على حساب خلق آخر، ولا تنهزم فيه فضيلة أمام فضائل أخرى بل توازنت الأخلاق النظرية فيه، فطبقها على الأرض أصدق تطبيق.

لهذا كله وكثير غيره نقول: إن النبى ﷺ ما قلاه قومه، وما زهدوا فيه، وما سمعنا أن واحداً منهم مهما كانت عداوته له قد رغب عنه ونأى بنفسه عن مجالسته، ومع ذلك كله كنا نرى قريشاً إلا من رحم ربك قد أخذت موقف العداء من النبى ﷺ ، لا لشئ إلا أنه قد جاء بنظام يصادم ما تعارفوا عليه من النظم، وأمرهم بسلوك يعارض ما تعارفوا عليه من موروثات الآباء والأجداد، وجاءهم بمعتقد يهدم جميع ما يعتقدون، ويقوم فى وجه ما يعبدون من الأصنام المتخذة من الأحجار أو من غير الأحجار.

ويظهر لك أن ما بين النبى وما بين قريش من عداوة وبغضاء قد بدت من أفواه القرشيين، وانطوت صدورهم على ما هو أكبر مما

بدى من أفواههم، إنما يمت بسبب إلى هذا الصراع بين ما جاء به النبى من عقيدة وشريعة، وما توارثه هؤلاء من نظم ومن معتقدات.

ولقد وقع فى صدور القوم حين رأوا النبى يظهر يوماً بعد يوم، وحين رأوا شريعته تنتشر فى أم القرى وما حولها، علموا أن فى هـذا المد الخطر الداهم، وعلموا مع ذلك أنه لا بد من صنع الشـئ الـذى ينجيهم مما هم مقبولون عليه فى شئ من العجلة التىلا تحتمل البطئ ولا تقبل التريث.

هكذا أدركت قريش الأمر بكلياته وتفاصيله، ووجـب علـى قريش حين أدركت الأمر على هذا النحو مـن الإدراك أن تتصـرف بغير أناة أو تؤده، فلم يعد الزمان يجود عليهم بوعاء الأناة والتؤدة.

وفكر القرشيون فى أمر المهاجرين من المسلمين، وقـرروا أن يحولوا بينهم وبين الهجرة ما استطاعوا إلى ذلك سـبيلا، وهيـأ الله للمسلمين الأمر فهاجروا، وخرجت المسألة كلها من أيدى القرشيين أو كادت، ولم يبق عندهم من المسلمين سوى المستضعفين منـهم، وهـم أناس لا نفع فى استبقائهم فى مكة، ولا خطر فى خروجهم منها بالقياس إلى من هاجر ولحق باليثربيين من كبراء المسلمين وأشدائـهم وذوى الرأى والنهى منهم.

ولكن رأت قريش أن الأمر لم يخرج من يدها خروجاً كاملاً، وإنما ما زال فى القوس منزع، وما زالت فى الكنانة أسـهم، إن هـم أحسنوا التصرف يمكنهم أن يدركوا بتصرفهم ما قد فوته عليهم سـوء تدبيرهم.

وبيان ذلك أن النبى ما زال بين أظهرهم، وهذا النبـى هـو نفسه الذى تجسد الإسلام فيه، وهو نفسه صانع القرار بأمر من الله دون سواه، وهو نفسه الركن المتين بعد الله الذى يأوى إليه أصحابـه وهـو بهذه الصفات جميعها وكثير غيرها، يعطى فرصة سانحة لقريـش أن تتصرف فى أمرها فتدرك ما فاتها منه، وتعصم نفسها من خطر يحيط بها لو قصرت فى أن تنتفع بالفرصة التى أتيحت لها، إنـها لا بـد أن تقلب الأمر كله على جميع وجوهه.

ولقد تنادى القرشيون جميعاً إلى الاجتماع فى دار الندوة للنظر فى أمر محمد ﷺ خاصة، إذ هم قد نظروا من قبل فى أمر المسلمين قبل أن يهاجروا، وأجمعوا أمرهم على حصارهم لا يخرجون، واتخذوا لذلك من الأساليب ما قد علمت، من التفريق بين الزوج وزوجته، وبين الأبوين وطفلهما، وبين الرجل وماله إلى غير ذلك مما اصطنعوه من الوسائل، وما اصطنعوه من الوسائل يبيح كل وسيلة، ويجيز ارتكاب كل جريمة إلا القتل، إذ لو قد أقدموا على قتل المهاجرين لكانت الفرقة الاجتماعية لا محالة، ولوقعت الفتنة بين البطون فأتت عليهم جميعاً من غير أن يعرف أحد لخطرها حداً.

لقد درس القوم أمر المهاجرين الأوائل على هذا النحو وحولوا ما استنتجوه من دراستهم إلى واقع عملى، ثم أدركوا أن ما درسوه وما طبقوه كله لم يغن عنهم شيئا، وبلغ المسلمون ما أرادوه دون أن يحول بينهم وبينه ما درسته قريش وما طبقته، وهاهم الآن أمام النبى ﷺ وحاله معهم، ولا يريدون أن يخطئوا كما أخطأوا فى معاملتهم لأصحابه من قبل.

وتنادوا جميعاً إلى دار الندوة، وهى تلك الدار التى يجتمعون فيها إذا مارغبوا فى السمر، وهم يجتمعون فيها إذا ما حزبهم أمر من الأمور.

ووجد النداء صداه فى كل بيت، وأقبلت جماعة القرشيين إلى دار الندوة فى موعدها المحدود، وكان الموضوع الذى ينبغى عليهم بحثه، هو هذا النبى الذى أعياهم أمره، وما هو مقبل عليه من احتمال الهجرة إلى يثرب، وفى هذا من الخطر عليهم ما قد علمت.

موضوع واحد ليس أمام القوم سواه، والقوم جميعاً مقتنعون بالخطر القادم عليهم، وهم مدركون فى الوقت نفسه أنهم قد أخطأوا فى تعاملهم مع المهاجرين من المسلمين، إذ كان من الواجب عليهم أن لا يستثنوا وسيلة من الوسائل فى إقدامهم على الحيلولة بين المسلمين وبين أن يهاجروا، والقوم فى نفس الوقت مقتنعون أنه يجب عليهم أن

يصطنعوا كل وسيلة، لا يستثنوا وسيلة من الوسائل فى الحيلولـــة بيـــن النبى ﷺ وبين أن يهاجر ليلحق بأصحابه فى يثرب.

والقوم مقتنعون فى ذات الوقت مهما كانت درجة اقتناعـــهم من الصواب أو الخطأ أن من تجسدت الثقافة فيه، ومن أصبح رمـــزاً للمنهج، إذا قضى عليه قضاءً كلياً أو جزئياً أصبح منهجه أثـــراً بعـــد عين، ولم تزد قيمته بين الناس على أن تكون روايـــة مـــن روايـــات التاريخ، أو قصة من قصص القصاص يتناقلـــها النـــاس فيمـــا بينـــهم ليصوروا حقبة من حقب التاريخ أو ليلهو بها بعضـــهم حيـــن يريـــد البعض أن يلهو، ليقطع الوقت أو يريح النفس.

ضمن هذا الإطار العام اجتمع الناس فى دار الندوة لدراســـة أمر النبى وحاله معهم.

وما أن عرض على الناس هذا الموضوع المطلـــوب إبـــداء الرأى فيه، حتى توالت الاقتراحات، وحمى النقـــاش المتصـــل بكـــل اقتراح، لا يقصد من النقاش مجرد الجدل، فليس فى الوقـــت متســـع لإظهار البراعة فى القول، أو لإثبات الذات بين الأقران.

لقد توالت الاقتراحات، وحمى النقاش على هذا النحو الذى رواه الرواة وحدث به الثقات.

[روى ابن إسحق وعبد الرزاق والإمام أحمد وابـــن جريـــر وابن المنذر والطبرانى عن ابن عباس، وعبد الرزاق وعبد بن حميـــد عن قتادة والبيهقى عن ابن إسحق أن قريشاً لمـــا رأت أن رســـول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قـــد نزلـــوا داراً وأصـــابوا جواراً ومنعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه قد أجمـــع لحربهم، فاجتمعوا له فى دار الندوة – وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها – يتشاورون فيها مايصنعون فـــى

أمر النبى ﷺ حين خافوه، فاجتمعوا لذلك واتعدوا، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم إبليس (لعنه الله) فى هيئة شيخ جليل

عليه بت له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا تعدموا منه رأياً ولا نصحاً. قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش: (من بنى عبد شمس): عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان ابن حرب – وأسلم بعد ذلك – (ومن بنى نوفل بن عبد مناف): طعيمة بن عدى وجبير بن مطعم – وأسلم بعد ذلك –(والحرث بن عامر بن نوفل ومن بنى عبدالدار بن قصى) : النضر بن الحرث بن كلدة، (ومن بنى أسد بن عبد العزى): أبو البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود – وأسلم بعد ذلك – وحكيم بن حزام – وأسلم بعد ذلك – (ومن بنى مخزوم): أبو جهل بن هشام، (ومن بنى سهم): نبيه ومنبه ابنا الحجاج، (ومن بنى جمح): أمية بن خلف، ومن كان معهم، وغير ممن لا يعد من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم – نقل السهيلى عن ابن سلام أنه أبو البخترى بن هشام – احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدى – لعنه الله – لا والله ما هذا لكم برأى والله لو حبستموه كما يقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم – ذكر السهيلى أنه أبو الأسود ربيعة بن عمرو أحد بنى عامر بن لؤى – نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا (كما كانت) فقال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة

منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه

حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم (فى بلادكم)، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتىً شاباً جلداً نسيباً وسيطاً، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه بأجمعهم فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم فقال الشيخ النجدى أخزاه الله: القول ما قال الرجل، هذا الرأى لا رأى غيره][1].

كان هذا هو موقف قريش حين رأوا أن النبى يمكن له أن يهاجر ويلحق بأصحابه فى المدينة، ويترتب على ذلك من الخطر الذى سيحدق بهم، أو بتجارتهم ما قد علمت، ولعله قد وقع فى صدورهم أنهم ولو منعوا النبى من الهجرة، فإن منعهم له لا يؤمنهم من الخطر القادم، إذ من الممكن بل هو الواقع الذى لا ريب فيه أن يأتى أصحابه من يثرب مجتمعين فينتزعوه من أيديهم، ويوقعون بهم النكال فى بلادهم، ثم يقطعون عليهم سبل الذهاب إلى بلاد الشام، وهم آمنون فى كل ذلك من لوم اللائمين، إذ كيف يسوغ لأحد أن يلومهم على فعال قد سبقتهم قريش إلى أقبح منها والنبى بين أظهرهم، فهم الذين أوقعوا بالمسلمين أشر العذاب، فلا بأس وقد أصبحت الدائرة الآن عليهم أن يسومهم المسلمون سوء العذاب، وهم الذين منعوا المسلمين والنبى معهم ومعه عشيرته وذووه من غير المسلمين الطعام والشراب، بل إنهم قاطعوهم مقاطعة اجتماعية شاملة، واستودعوا هذه المقاطعة وثيقة علقت فى جوف الكعبة، لتكون عهداً ملزماً لا يجوز لأحدهم الخروج

---

[1] سبل الهدى والرشاد – جـ٣، ص ٣٢٤ : ٣٢٦.

عليه مهما هاجت به عواطفه، ومهما حاول عقله أن يصده عنه، ظلوا على ذلك عامين ونصف العام، حيث اكتملت عدة شهور المقاطعة

ثلاثون شهراً، ولا بأس والحالة هذه أن يعترض المسلمون تجارتهم بعد أن ملكهم الله ناصية الأمر، وأصبحت الغلبة لهم وللدين الذى يعتنقونه.

لقد فكرت قريش فى ذلك كله، ورأت قريش أنه لا مخرج لها من ذلك كله إلا أن يتخلصوا من مصدر هذا الدين الذى يدعو إليه وتتحول مبادؤه على يده كائنا حياً يمشى على الأرض، فيستجيب الناس لقوله وفعله مغتبطين بهذه الاستجابة، لا يضرهم من خالفهم، ولا يلتفتون للوم من يلومهم.

رأت قريش أنها لو قد تخلصت من النبى ﷺ فستعود إلى مكة ألفتها، وإلى العرب اجتماعهم عليها كما كانوا من قبل.

وانتهى بهم الأمر فى دار الندوة إلى ما قد رأيت من اجتماعهم على رأى أبى جهل (الحكم بن هشام).

هذا هو موقف قريش من هجرة النبى ﷺ، وهو موقف بالغ الدقة كما ترى قد أوقع القوم فى حيرة واضطراب، ودفع بهم إلى اقتحام موقف طالما سبق لهم أن تحاشوه.

ولم يكن موقف النبى ﷺ بأقل دقة من هذا الموقف، فقد لاحت له ولأصحابه تباشير النصر، وفتح الله بين يديه أبواباً من الأمل ما كان لغيره أن يزهد فى الاستمساك بها.

إن هذا الدين الذى يدعو إليه هو دين الحق، غير أن الله قد أراد أن تصطدم الدعوة إلى هذا الدين بعقبات هى أشبه بالصخرات تتكسر عليها كل خطوة يخطوها الداعى أو الداعون إلى هذا الدين، مما جعل الدعوة فى مكة كانت تؤتى ثمارها على مهل، وتمنح المسلمين من مظاهر التقدم الشئ القليل فى الزمن الطويل، فلما أراد الله ما أراد من أن يمنح نبيه هذه الأرض المهاد، فتح له أبوابها على مصاريعها فى وقت يسير جداً بالقياس إلى ما أنفقه المسلمون والنبى معهم من أوقات

يدعون فيها الناس إلى الإيمان بربهم منذ أن بعث الله محمداً ﷺ. رأى النبى ذلك أمامه رأى العين، وهو وإن كان على يقين من أن هذا

الدين قادم إلا أن الرؤية المباشرة تزيد المرء إيماناً على إيمان وتمنحه يقين على يقين.

وعلم النبى أنه مهاجر، ولكنه لا يعلم متى سيهاجر، ورأت قريش من النبى أنه يأمر أصحابه بالهجرة إلى يثرب، ويبقى هو على طبيعته من الهدوء والسكون لا يشغله إلا دعوة المكيين إلى الله عز وجل، الأمر الذى يحمل من يرونه على أن يعتقد أن النبى لن يترك وطنه، ولن يغادر أهله وقومه، يحملهم على ذلك سلوك النبى الذى يشاهدونه منه، ويحملهم على ذلك حوادث التاريخ القريبة التى رأوها رأى العين.

فالنبى قد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرتين، ورغبهم فى هذه البلاد وفى ملكها، وبقى هو يدعو الناس فى مكة، ولم يشأ أن يلحق بأصحابه، ولم يرد أن يهاجر كما هاجروا وحوادث من التاريخ كهذه تشرح طبيعة هذا النبى، وتبين عما عساه أن يفعله فى المستقبل.

والنبى على حاله تلك لم يغير منها شيئاً هو وإن كان يعلم أنه مهاجر، إلا أنه لم يتحدث بذلك لأحد من الناس، ولم يصدر عنه إلا عبارة واحدة حمالة وجوه قالها لأبى بكر، حين أراد أبو بكر أن يهاجر، وهم فعلاً بالرحيل واستأذن فيه حتى لا يفوته ما أدرك إخوانه من المسلمين، قال النبى له حين أراد الإذن بالهجرة [لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا].

وبقى أمر النبى فى غاية من الكتمان.

وهذا شئ طبعي لأن الأمر بالنسبة للنبى الآن أمر سياسة فى مواقف حساسة، وإنه لأمر خطير يتعلق أولاً وأخيراً بمستقبل أمة وبمصير دين، والنبى قدوة ينظر إليه الناس فيقتدون به، وينظر إليه الناس فيحاكونه فى كل ما يقول ويفعل.

وسوف ترى من رحلتنا معه أن الله لم يشأ لنبيه أن يهاجر على طريقة عمر فحسب، فيقهر الناس ويتركهم فى أماكنــــهم لا يحركــون ساكنا، ولا يقدرون على أن يجيبوا عمر حين خاطبــهم بــأبلغ آيــات التعنيف والازدراء، ولو أن الله قد أراد له من ذلك شيئاً لم يبلغه عمر،

حيث إن عمر خاطب الناس وهم جلوس يسمرون فى ناديـــهم وحــول البيت العتيق، فأخذهم من الدهشة ما أقعدهم عن الحركة وما قعد بـــهم عن الكلام، أما ما أراده الله للنبى، فقد أراد له أنه يعنـــف بـــهم وهــم مغضبون، وأن يستفز هممهم وقد تأبط كل واحد مـــهنم شــراً، وقــد ازدراهم وهم له كارهون، قد امتلأت قلوبهم عليه حسداً، وامتلأ إهــاب كل منهم بغضاءً وغلاً.

ولم يشأ الله لنبيه أن يهاجر كهجرة أبى سلمة وكفـــى، وأنــت خبير بأن أبا سلمة قد ناله من أذى قريش ما أوقع به وبزوجه وبولـــده السوء، والنبى قد ناله من أذى قريش على طريق الهجرة ما نعــتزم إن شاء الله أن نطلعك عليه، وسترى أن قصارى ما أوقعوه بـــأبى ســلمة وزوجه وولده وإخوانه أذىً لا يبلغ إلى إنهاء الحياة، أما هــذا الــذى كانوا يريدون أن يوقعوه بالنبى فهو أمر يفوق ذلك كله، إذ هــم كــانوا يريدون قتله، ويحيلون بين قومه، وبين أن يثأروا له، وقصارى مـــا رأوا أنهم يجودون به أن قومه يرضون بالدية فيدفعونها لهم.

ولم يشأ الله أن تكون هجرة نبيه على نحو من هجرة صـــهيب الرومى يشرى نفسه بالمال ابتغاء مرضاة الله وكفى، ولكن الله جعــل نبيه يهاجر، وليس معه من الزاد ما يكفيه ويكفى صحبه الذين رافقـــوه على طريق الهجرة، حتى تعرض إلى أن يشترى طعاماً من أم معبـــد فلم يجد إلى ذلك سبيلاً، بل إنه لم يجد عند أم معبد ولا أمثالها ما تقريه أو تضيفه عليه هو وأصحابه، وكأنى بالله عزوجل قد شاء لنبيه وهـــو القادم المسافر أن يستضيف أم معبد وولدها وزوجها وهم المستوطنون أصحاب الأرض، القاطنون فى المكان إكراماً لهذا النبـــى وإعــلاءً لقدره.

لم يشأ الله لنبيه أن يكون قدوة لعمر وأمثاله فحسب، ولم يشأ الله لنبيه أن يكون قدوة لأمثال أبى سلمة فقط. ولم يشـــأ الله لنبيـــه أن تقتصر القدوة فيه ويضيق مجالها، حتى تكون قدوة لأمثال صهيب دون

سواهم، وإنما ستعلم من الأحداث التالية على طريق الهجرة إن شـــاء الله أن النبى قد اجتمعت له هذه النماذج كلها، وأصبحت وقد تفرقـــت فى أصحابه ليجد كل واحد منهم قدوته فى نبيه

أرأيت إلى دقة موقف قريش، وإلى دقة موقف النبـــى مـــن الهجرة؟

إن كنت قد أدركت ذلك كله بعقلك وقلبك، فستجدنا وتجدك مع النبى على طريق الهجرة فى رحلة ممتعـــة لا يحـــول بينـــك وبيـــن الاستمتاع بها ما تجده أحياناً من التواء الطريق، وما تجده أحياناً مـــن أذى الريح المحملة بالرمال، وما تجده أحياناً من حرارة هـــذه الرمـــال الملتهبة التى تؤذى عزيمة الرجل الشديد، وما تجده أحياناً من انعكاس أشعة الشمس على عينيك وسط الظهيرة، فلا تجد منها إلا أذىً يرمـــد العينين، ويؤذيهما أذىً شديداً.

إن كنت قد فهمت عنى ما قلت لك فسوف تجـــد مـــن متعـــة مصاحبة النبى على طريق الهجرة الشئ الكثير، الذى لا يصرفك عنـــه صارف من الصوارف التى ذكرت بعضها بين يديك.

استقرت قريش فى دار الندوة على أمرها الذى اعتزمت أن تنفذه وشيكاً، وهو قتل النبى ﷺ بيد شباب يمثلون طوائف مكة كلها ممن أخذهم الشنآن على رسول الله من جميع أقطارهم.

واستفاض من هذا الأمر فى مكة كلها، إذ لم تحـــرص قريـــش على كتمانه والاحتفاظ به سراً مستوراً.

وكان من الطبعى إذا كان الأمر يتعلق بغير رســـول الله ﷺ أن يكون لهذا الأمر صدىً فيه، فيخرج من مكة بطريقة يراها فاراً من وجه قريش، ناجياً من مكرهم ما وجد للنجاة من مكرهم سبيلا، أما وقد تعلق الأمر بالنبى ﷺ فإن ذيوعه بين الناس، واستفاضته فى جنبات مكة، لم يحرك للنبى ساكناً، ولم ينل من مشاعره قليلاً أو كثيراً، ولـــم يتخذ قراره بالهجرة، بل إنه لم يستشر فيها أحـــداً مـــن أصفيائـــه ولا خلصائه، ولو كان هذا الصفى المخلص هو أبو بكر رضى الله عنـــه،

فأبو بكر على قربه من النبى ﷺ لم يعلم شيئاً عن ميعاد هجرة النبى، بل إنه لم يعلم شيئاً من أصل هذه الهجرة إلا أن يكون قد ظن ظناً غالباً أن النبى ﷺ سيهاجر فى وقت ما، وأن الله سيكرمه بالصحبة، وهذا

الظن من أبى بكر حمله على أن يشترى راحلتين، ويعمل على إعدادهما لوقت يرجوه من الله عز وجل، وظل على تعهده لهاتين الراحلتين ولا يجرؤ مع ذلك أن يسأل النبى فى شئ، والنبى نفسه لا يبيح له بشئ على علم منه بتشوقه لسماع هذا الشئ.

استفاض أمر قريش الذى اعتزموا تنفيذه بعد أن ارتضوه فى دار الندوة، والنبى يسمع فلا يزعجه السماع، ولا تدفعه استفاضة الخبر إلى تصرف يجنح إليه، فربه قد ثبت فؤاده، وما كان لمثله أن يستفزه من الأرض أن قريشاً قد عقدت العزم على قتله، ذلك لأنه لا بد وأن يعطى القدوة لمن بعده من نفسه، إنساناً يثق بربه، ويهيئ لكل أمر ما يناسبه، فالأمر هنا أمر سياسة بريئة منزهة عن الخطأ والخطيئة.

وظل النبى على حاله يعطى المثل الأكبر لمن وراءه من نفسه، حتى أذن له ربه فى الهجرة، فكان خروجه باجماع الكتاب أمراً تكليفياً، ليس فيه شائبة الفرار من الموت، وليس فيه احتمال أن يكون قد ألقى بنفسه إلى التهلكة، وإنما هو تعامل مع الأحداث على سنن التاريخ والاجتماع.

أذن الله لنبيه بالهجرة فأسر بها النبى إلى أبى بكر فى بيته بعد أن استوثق من خلو الدار عن أناس تتأتى منهم الوشاية، أو يتأتى منهم نقل الأخبار لا يؤتمنون عليها، وطمع أبو بكر فى الصحبة وأذن النبى لأبى بكر فى أن يصحبه، و ناهيك عن هذا الوقع لهذا الإذن على نفس أبى بكر، لقد فرح بذلك فرحاً شديداً حتى انقلبت معه معايير وأساليب التعبير عما يجد المرء فى نفسه، فرح أبو بكر فرحاً شديداً وعبر عن فرحه بالبكاء، وهى حالة لا يمر بها المرء إلا إذا بلغ به الانفعال مداه.

سبحانك ربى أنت تخلق ما تشاء، وسبحانك ربى أنت تضع فى كل قلب سره.

فهذا أبو بكر الصديق ابن الصحراء بجفافها وجفائها، وهذا أبو بكر الصديق ابن مكة بصخورها وجبالها، وهذا أبـو بكـر الصديـق يتصور الرحلة بقسوتها وشدتها، وهذا أبو بكر الصديق يعلم أنه مقـدم على رحلة فيها من المجازفة مالم يسجل التاريخ مثلها لرحلة من

الرحلات، هذا أبو بكر تحيط به جميع ظروفه على هذا النحـو، ومـع ذلك تملك عليه السعادة بالموافقة على الصحبة للنبـي جميـع أقطـاره حتى لا يملك وسيلة من الوسائل يعبر بها عن هذا السـرور إلا هـذا الدمع الغزير، الذى لا يعرفه الناس إلا تعبيراً عن الحزن والألم وكأنى أنظر إلى أبى بكر وقد اختلطت فى مواقفه الضحكات بـالدموع حيـث ينظر إلى صحبته للنبى فيسعد ويعبر عن ذلك بالابتسامة العريضة، ثم هو ينظر مرة أخرى إلى النبى وقد جفاه قومه، وحنت إليـه الطبيعـة بعناصرها، وقلاه ذووه، وقد شرف به الكون بأسـره فيأسـى لـهؤلاء الجفاة، ويألم من قوم قلو نبيـاً بـأرض ألفتـه ضبابـها والظبـاء، وأخرجوه من بلده، وضمه إلى صدورهم الغرباء، يـرى ذلـك كلـه بخياله وقلبه وعقله فتنسكب دموعه، وما تزال الضحكات مرتسمة على شفتيه.

إنها حالة من حالات النفس تشتد على صاحبها حين تختلـط الدموع بالضحكات، ويرحم الله الصديق.

ترك النبى أبا بكر يصلح من شأنه ثم أقبل على علـيّ يـهمس إليه بما يريد، وما يريد النبى أن يهمس به إلى عليّ، هو أنه قد أمره أن يبيت فى مكانه حيث يريد القوم أن يتخطفوه بسيوفهم، وهم قوم كثيرون يشد من عضدهم كلمات يحمسهم بها ذووا أسنانهم، وحقد دفيـن فـى الصدور يطل برأسه حيناً بعد حين من الأفواه، وما تخفى القلوب منـه أعظم وأكثر شراً.

همس النبى إلى عليّ أن يبيت مكانه، ويتسجى ببرده الخضراء الحضرمية، ثم هو يعهد إليه إذا أقبل الصباح أن يرد على كل قرشـى أمانته التى استودعها عند رسول الله كاملة غير منقوصة.

ياله من نبى عظيم، وياله من حوارى كريم.

ياله من نبى عظيم ترفع فى وجهه السيوف والرماح، ولا تهتز القلوب لوفاته أو قتله، وهو ينشغل فى ذات الوقت بأمانات يجب أن ترد لمن يحملون فى وجهه السيوف والرماح.

وياله من حوارى كريم يُعْرَض عليه أن ينام مكان النبى ﷺ، وهو شاب آمال تنتظره فيرمى بنظره إلى الأمام فلا يجد لها منتهى ينتهى إليه، ثم يعود ببصره فيرى سيوفاً تلمع، هى بلا شك ستتخطفه ظناً من أصحابها أنه هدفهم المنشود، وغرضهم المبتغى.

وليس مناسباً هنا إلا أن نقول: إن عليا قد تلقى هذا الخبر بالسرور، مع إدراكه لهذه المخاطر التى ستحول بينه وبين آماله فى وقت لم يعد هو منه ببعيد، سروراً يفوق سرور الشبق الذى يقال له إنك ستزف إليك الليلة أكثر نساء العالمين حسناً.

وليس مناسباً هنا أن يعبر عليّا عن فرحه بالدموع كما عبر أبو بكر، إذ لو قد حدث ذلك لأوهم عليٌّ بأسلوب تعبيره هذا أنه يبكى فرقاً من الموت، وخوفاً من السيوف التى قد تتلقفه وشيكاً.

سبحانك ربى لقد أجريت فى كل قلب ما يناسبه، وقرنت بكل حدث ما يتلائم معه.

وإن كاتب هذه الصفحات لعلى ظن غالب، أنه لو استبدلت أساليب التعبير عن خوالج النفس بين أبى بكر وعلىّ فابتسم أبو بكر تعبيراً عما يجد من السرور، وبكى علىّ تعبيراً عن السرور نفسه لكان وقع الأمرين على النبى مختلف، فقد يظن النبى أن أبا بكر لم يقع منه خبر الصحبة موقعه، وهى صحبة طريق فيه من الأخطار والأهوال ما فيه، ولن يبلغا قصدهما إلا بعد أن ينفقا عدداً من الأيام والليالى غير معلومة، وقد يظن النبى أن ما همس به إلى علىّ قد أوقعه فى شئ من الفرَق والرعب ما يجعله يخشى القوم على نفسه.

فماذا يكون هذا إلا أن يكون من تدبير العليم الخبير.

لقد أصلح أبو بكر من شأن نفسه، وجهز راحلتيه، وعهد بهما إلى عبدالله بن أريقط، ثم عهد إلى ابنه عبدالله أن يأتى إليهما بأخبار

قريش حيث يستقر بهما المقام في غار ثور، وعهد إلى عامر بن فهيرة أن يرعى الأغنام بياض النهار، ثم يروح عليهما حتى يحلبا ويذبحا، ثم حين يعود عبدالله إلى مكة يسير عامر بن فهيرة بأغنامه خلفه فيقفو أثره.

أصلح أبو بكر من شأنه على هذا النحو الذى لا يحتاج بعد إلى شئ من الإصلاح.

ولقد تجهز عليّ لمهمته، وأصبح يعلم كل العلم ما هو مقدم عليه من النوم فى فراش النبى، والتسجى ببرده الحضرمى الأخضر.

وقريش قد جهزت نفسها إلى اللقاء المرتقب، وشحذت إرادتها المتمثلة فى بنيها وفتيانها للاجهاز على هذا النبى من ليلته تلك.

والنبى مع هذا كله قاصد إلى وجهه لا يلوى على شئ.

فلما أقبل الليل تسجى عليّ ببرده، والكافرون أمام البيت ينظرون إلى المسجى بهذا البرد لا ينكرون منه شيئاً، إلا أنه كان يتقلب فى فراشه، وهم يعرفون من النبى أنه إذا نام ينام على يمينه لا يغير شيئاً من وضعه الذى ابتدأ به نومه، حتى يأتى الميعاد الذى يحسب أن يناجى فيه ربه من الليل فيقوم إلى غرضه.

أقبل الليل إذاً وتسجى على ببرد النبى ونام مكانه، وقريش تنظر إليه من وراء الباب معتقدة أنه الرسول ﷺ لا تنكر من الأمر شيئاً إلا ما ذكرت لك، والنبى داخل بيته، والحال كله على ما رأيت.

ولقد سمع النبى ﷺ عمرو بن هشام (أبا جهل) يحدث فتيان قريش المجتمعين أمام بيت النبى ﷺ حديثاً يتصل بالنبى محمد، وبما جاء به النبى محمد يستهزئ بالنبى، ويسخر مما جاء به النبى قائلا: [إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن أنتم لم

تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها].[١]

وسمع النبى ﷺ ما قال أبو جهل فخرج إليهم النبى وهو يقول : [نعم أنا أقول ذلك وأنت أحدهم].

وأخذ النبى فى يده حفنة من تراب يلقى بها فى وجوههم ويضع منها على رءوسهم، وهو يقرأ مفتتحاً سورة **{يس~ * والقرآن الحكيم * إنك لمنَ المرسلين * على صراطٍ مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتُنذِرَ قوماً ما أُنذرَ آباؤهم فهم غافلون * لقد حقَّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنَّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مُقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون}**[٢] .

خرج النبى يُعلن ذلك الذى أعلنه، ويحثو فى وجوه القوم التراب، ويضع منه على رءوسهم واحداً واحداً لا يخطئه واحد منهم ثم انصرف إلى شأنه.

ولم يشأ الله عز وجل أن يخرج النبى من ظهر بيته، ولم يشأ الله عز وجل أن يصنع النبى لنفسه خوخة فى جدار بيته يخرج منها، وإنما شاء الله عز وجل أن يخرج النبى من باب بيته، ويمر من بين الناس لا يسرع خطاه، بل قد مشى متمهلاً، يملأ قلبه السكينة ويستوقفه عن الاسراع ما اعتزم أن يضعه على رءوس الناس من التراب الذى لا يخلو من قليل من حصباء الأرض، والناس مع هذا كله لا يحركون ساكناً، وقد أصبح مطلوبهم فى متناول أيديهم، وفى متناول سيوفهم ورماحهم، ومع ذلك فالقوم على يقظتهم كأنهم نيام قد نال منهم الرقاد، وعلى حدة أبصارهم كأنهم لا يرون النبى، وهم على ما يتمتعون به من قوة السمع وحدته كأنهم لا يسمعون للنبى قولاً.

ودعنى هنا أقف بك وقفتين قبل أن أستمر معك سائراً على طريق الهجرة، لعلنى من خلال هاتين الوقفتين أستطيع أن أؤكد لك

---

[١] انظر سبل الهدى والرشاد جـ٣ – ص ٣٢٦،٣٢٧.

[٢] يـس: ١:٩.

أمرا قد أشرت إليه من قبل، إشارة الرجل الذى قد حزبه أمر فلم يجد من الوقت ما يفصل لك من خلاله تلك الإشارة العابرة.

ولعلنى من خلال تلك الوقفة أيضا أستطيع أن ألفتك إلى خطـأ خلقى نقع اليوم فيه ونحن مسلمون، ما كانت عوائد الجاهليـة تسـمح للجاهلين أن يجانفوا بعضه.

أما **أولاً:** فإنى أحب أن ألفتك أو أشرح بين يديك أمـراً قـد أشرت إليه من قبل حين قلت: إن الله عز وجل لم يشأ أن تكون الهجرة النبى هجرة عمر بن الخطاب فحسب، بل لا بد أن تكون أشـد منـها وأعنف حيث إن النبى بالنسبة لعمر فى مكانة القدوة.

والأمر الذى أريد أن أضيفه هنا هو : أن هـؤلاء القـوم قـد اجتمعوا أمام بيت النبى، وهم يقصـدون إلـى قتلـه، وذوى أسـنانهم يحفزونهم إلى ما يريدون، ومثل هذه الحال تجعل أصحابها فى تمـام اليقظة لا يعرف النوم إلى جفونهم سبيلا، ولا يعرف الوهن إلى إرادتهم طريقاً، ولو قد كان النوم قد عرف له طريقاً إلى أجفانهم، ولو قد كـان الوهن قد اختط له سبيلاً إلى إرادتهم، لكان فيما يفعله ويقوله أمثال أبى جهل مانعاً قوياً يحول بين النوم وبين عيون القوم، ويحول بين الوهـن وبين إرادتهم.

ولقد علمنا من فعل الله فى مثل هذه الأحوال أنـه إن أراد أن يذل قوماً أهانوا نبيه أو حاولوا تركهم على تمام القدرة، وجعلـهم فـى غاية القوة، ومنحهم الأسباب جميعها، ولكنه يسلب من كل شئ خاصيته ولو إلى حين.

وأنت تعلم هذا الذى قلت لك حين تنظر فـى نـار إبراهيـم ولسوف تجد أنها نار لم يطفئها الله، ولسوف تجـد أن الله لـم يذهـب بإبراهيم إلى مكان سحيق، ولسوف تجد أن الله لم يَحُلْ بيـن إبراهيـم وبين النار بستار لا يقبل الاشتعال، وإنما الذى فعله أنـه تـرك النـار تشتعل كما هى، وترك إبراهيم عليه السلام جسماً قابلاً للاشتعال كمـا هو، وأطلق الأسباب جميعها، وحجب الموانع بأسرها: فلمـا اسـتقر إبراهيم فى النار، قال: [يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم.]

وأنت تستطيع أن تتأمل أمثال هذا في نحـو سـكين إبراهيـم وإسماعيل، وفي نحو ماء البحر الذي بقي على سيولته وسـلبت منـه خاصية الاستطراق، فانفلق البحرحتى صاركل فرق كالطود العظيم

وبين الفرقتين طريقاً يبساً يسير فيها موسى بقومه لا يخاف دركـاً ولا يخشى .

أمثلة كثيرة ومتعددة نستطيع من خلالها أن نتعرف على هـذا اللون من الفعل الذي لا يقدر عليه إلا الله.

ومن خلال هذا المناخ الذي أحدثته الآن أمام عينيك، أستطيع أن أقول مطمئناً لما أقول: إن الله عز وجل قد جعل القوم الذين وقفـوا أمام بيت النبي على كمال الوعي لا يغيب منه شيئاً قليل ولا كثير.

وأن الله عز وجل قد جعل القوم على مقدرة فائقة في قواهـم السمعية، ولقد رأيتهم وهم يستمعون إلى أبي جهل لا تغيب عنهم كلمـة من كلماته، فلما أعقبه النبي بكلامه كان ما سوف أؤكده لك.

وأن الله عز وجل قد حفظ على القوم القوة الباصرة، لم يصب عيونهم الأذى، ولم يداعب أجفانهم الكرى، وإنما مقلتهم صافية صفـاء السماء في أحسن أوضاعها،وهي لامعة متألقة لمعان السـيوف تسـقط عليها الأشعة من هنا أو من هناك.

إنهم كانوا على الجملة قد اكتملت لهم جميع قواهـم الحسـية والعقلية والتخيلية على السواء، وما حجب الله عنهم من ذلـك شيئـاً قليلاً ولا كثيراً، ولكنهم حين خرج النبي من بينهم لم يروه مع تمـام القوة الباصرة، وتوافر أسباب وانتفاء الموانع، ولم يسمعوه مـع تمـام القوة السمعية وتوافر أسباب وانتفاء الموانع وأقبل عليهم النبـي وقـد توفرت لهم الهمة على قتله ولم يعوزهم شئ مـن الغضـب أو الحقـد اللذان يحملونهما على قتل النبي، وتنفيذ ما جاءوا من أجله، ومع ذلـك أمكنه الله من رءوسهم ووجوههم فغبر وجوههم بالتراب، ووضع على رأس كل واحد منهم بقية من بقاياه.

ولم يتوفر شئ من ذلك لعمر، فعمر قد أقبل على القوم وهـم في ناديهم وهم يسمرون، واطلع عليهم وبعضهم حِلَقٌ حول البيـت

كل يحكى ما عنده، وكل يقول ما يعن له، فأعلمهم عمر بقصده وسيفه على عاتقه، وعنزته فى خاصرته، والأسهم فى يده يداعبها، ثـم هـدد وتوعد والقوم منصرفون عنه بدهشتهم، أوهم منصرفون عنه رغبة

فى تفادى الحرب الأهلية، أما النبى فقد خرج من بين القوم الذين مـا أقبلوا إلا لقتله، وما جاءوا إلا ليتخلصوا منه.

خرج النبى وترك التراب على وجوههم ورءوسهم حتى أقبل عليهم رجل من رجالات مكة يعلم ما اجتمعوا إليـه فسـألهم عمـن ينتظرون، فقالوا وهم يهزءون بالرجل: ننتظر محمداً يخرج من بيتـه فقال الرجل: والله لقد خرج محمد من بينكم وترك على رءوسكم آيـة فليتفقد كل واحد منكم رأسه وقلنسوته فوجدوا التراب وقد عمهم جميعاً كل واحد منهم قد ناله قسط منه لم يخطئه واحد من القوم.

ومع هذه الدلائل القوية أيقن القوم أنه لم يحدث من ذلك شـئ فلم يخرج محمد ولم يضع على رءوسهم تراباً ولو رأوه بأعينهم، ذلـك أنهم لم يتسلل النوم إليهم، ولم يكن هناك من مـانع يمنعـهم مـن أن يسمعوا النبى أو يروه.

فلما أقبل الصباح وأصبح القوم فى غبش الفجر، قـام علـىّ لشأنه من أداء الصلاه فرآه القوم فقالوا معلقيـن : [إنـك للئيـم، إنـك لتتضور[1] وكان صاحبك لا يتضور وقد استكرناه

منك][2] هذا وإن كاتب هذه السطور ليعجب غاية العجـب حيـن رأى القوم على هذه الحال من رؤيتهم لعلىّ قد نام مكان النبى، ففوت عليهم ما أرادوا وأوقعهم فى حرج مع أقوامهم.

وكاتب هذه السطور كان يرى بادى الرأى أن القوم كان من الممكن أن تحملهم طبيعتهم الغضبية على أن يبطشوا بعلـىّ البطشـة الكبرى، وكاتب هذه السطور قد ظهر له بعد ذلك أن فى الأمر سـراً مستوراً لا يعلمه إلا الله، ومن أظهر الله عليه ممن يقدرون على ملكـة

---

[1] يتضور : يتلوى ويتقلب.

[2] انظر سبل الهدى والرشاد، جـ٣، ص ٣٢٧.

التحليل والتركيب، والاجتهاد والاستنباط، والظن الغالب أن القوم قـد رجعوا عن علىّ مخافة الإسراف فى إراقة الدماء، وتوسيع هوة

الخلاف والشقاق، وهم فى غنىً عن ذلك كله إلا ذلك البعـــض الـذى ألجأهم الاضطرار إليه من نحو التخلص من النبى ﷺ.

إن هذا لهو الأمر الأول الذى أردت أن أوقفك عليه قبل أن نَجِدّ فى المسير خلف النبى على طرق الهجرة.

<u>أما الأمر الثانى:</u> فهو أنى قد رأيت وقد رأيت أنت أن القــوم قد وقفوا أمام بيت النبى، والنبى بداخله ينتظرونه كى يخرج من بيته، وسألت نفسى: لماذا لم يقتحم القوم بيت النبى عليه، ويريحوا أنفسهم من عناء السهر، ويجنبوا أنفسهم احتمال أن يفوتهم غرضهم بخروج النبــى من داره وهم لا يعلمون؟

ثم علمت مـــن خلائـــق العــرب وعوائدهـــا أنـــهم كـــانوا لا يقتحمـــــــون

البيت المسكون على من فيه حتى لا يروعــــوا الآمنيــن ولا ينتــهكوا حرمات النساء، ولا يدخلوا بالرعب على الأطفال الصغار.

والأكثر من ذلك أن القوم كانوا يرون فى اقتراف هـــذا الإثــم عاراً لا يغفره التاريخ لمن ارتكبه، وهو عارٌ يتوارثـــه الخلــف عــن السلف، وينوء به كاهل كل عقب فيسخط على آبائـــه وأجــداده الذيــن اقترفوا هذا الإثم.

من أجل هذا وقف الجميع أمام بيت النبى ومعهم كــــبراؤهم لا يجرؤ واحد منهم عل اقتحام هذا البيت مهما تحمل فى ذلك من أســـباب العناء، ومن عوامل النصب والتعب.

وإن عوائد القوم لتمدنا بكثير من الأمثلة التى تؤكد هذه القاعدة، من نحو أن أبا جهل قد مر على بيت أبى بكر حين فاته النبـــى وأبــو بكر ونجاهم الله من يد أقوامهم، يسأل أسماء بنت أبا بكر والغيظ مـــلء

إهابه أين ذهب أبوك وصاحبه؟ فقالت: لا أدرى. فلطمها حتى طـــار قرطها، ثم انصرف وكان معه صاحب له، فقال لصاحبه اكتم عنى مـــا رأيت حتى لا يتحدث العرب بأنى قد لطمت فتاة حملتها الرأفة على أن تستر على أبيها وصحبه.

وإنى لأتأمل هذا كله، ثم أتأمل هذا العصر المتحضر فلا أرى فى هذا العصر الأخير إلا أكثر الدنيا تحضراً بين الأمم، وأقلها علـــى سلم الحضارة ليس لهم من هدف إلا ترويع الآمنين بســـبب أو بغـــير سبب، وقد يصل الحال بالبعض إلى هتك الأعراض وإزعاج الأطفال لا لشئ إلا لأنهم يأخذون الناس بالظنة، وإلا لأنهم قـــد اســـتباحوا أن يأخذوا البرئ بذنب المجرم، وسوغوا أن يأخذوا الميت بذنب الحـــى واستجازوا أن يأخذوا النساء والأطفال بذنب ألصقوه بالرجال عن حق أو عن غير حق.

يرحم الله عائشة ومن رووا عن عائشةومن روت عنه عائشة.

لقد حدث أبو الفرج الأصفهانى نقلاً عن الطبرى قال حدثنـــى أبو الثائب (سالم بن جنادة) قال: حدثنا وكيع عن هشام بن عروة عـــن أبيه عن عائشة أنها كانت تنشد بيت لبيد:

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم قالت عائشة: يرحم الله لبيداً ماذا كان يفعل لـــو رأى الذيـــن نعيش بين ظهرانيهم.

قال عروة: يرحم الله عائشة ماذا كانت تفعل لـــو رأت الذيـــن نعيش بين ظهرا نيهم.

قال هشام: يرحم الله أبى ماذا كان يفعل لو رأى الذين نعيـــش بين ظهرانيهم.

قال وكيع: يرحم الله هشاماً ماذا كان يفعل لو رأى الذين نعيش بين ظهرانيهم.

قال أبو الثائب: يرحم الله وكيعاً ماذا كان يفعل لو رأى الذيـــن نعيش بين ظهرانيهم.

قال أبو جعفر محمد الطبرى: يرحم الله أبا الثائب ماذا كـــان يفعل لو رأى الذين نعيش بين ظهرانيهم.

قال أبو نعيم: الله المستعان.

وقفت بك بقدر ما وقفت كى ألفتك إلى ما أردت أن ألفتك إليه، ولعلى أن أكون قد بلغت بك بعض ما أريد.

فلنتابع معاً المسير.

خرج النبى من باب داره وسط هذا الجمع الحاشد، وقصد إلى بيت أبى بكر، ثم خرجا جميعاً من خوخة فى بيت أبى بكر يجدان فـــى السير ناحية الجنوب، ومقصدهما الحقيقى إلى المدينة شمال مكة، ومـــا كان ذلك إلا أخذاً فى الأسباب لتضليل القوم، ووضعهم فى أدرب مـــن التيه تأخذ بأبصارهم عن رسول الله وصحبه.

وما كان أبو بكر ليخرج من بيته فى صحبة النبى ﷺ إلا وقد أصلح من شأنه كله، ووضع كل شئ فى نصابه لا يقصر فى ذلك ولا قلامة ظفر.

فأسماء ابنته تجيد صنع الطعام وإعـــداد الـــزاد المصـــاحب للراحلتين، أو الذى ستذهب به إلى النبى وإلى أبيها فـــى الغـــار مـــدة بقائهما فيه فكلفها أبوها بذلك تصنعه على ضيـــق ذات اليـــد بعـــد أن اصطحب أبوها معه كل ما كان يملكه من مال وهو خمسة آلاف ليس له بعد ذلك مال يملكه إلا ما كان من بعض الأغنام والأشياء الأخرى.

أسند أبو بكر إلى أسماء ما تجيده أسماء من العمل، واستكتمها وأختها عائشة سره وسر نبيه، وهو آمن ألا يقف القوم منهما على شئ منه، مهما تعددت الأساليب، واختلفت الطرائق.

وإنى لأحسب أنى قد حدثتك قريباً عما صنع أبو جهل بأســـماء حيث لطمها وطار قرطها، وهو يريد أن يحصل منها على معلومـــات ترشده إلى مكان النبى وأبى بكر معه، وهى تأبى عليه أشد الإباء فلـــم يقف منها على شئ، ولم يحصل من فعلته النكراء تلك على طائل.

وإنى لأرشدك إلى أسلوب آخر كان من الممكن معه أن تحدث أسماء أو تحدث عائشة ببعض المعلومات الخاصة بأبيها والنبى معـــه ولكنهما لم يفعلا.

روى الرواة أن أسماء قالت: ["وخرج أبو بكر بمالـــه خمســة آلاف درهم".

قال البلاذرى : " وكان مال أبى بكر يوم أسلم أربعيـــن ألــف درهم، فخرج إلى المدينة للهجرة وماله خمسة آلاف أو أربعة، فبعــث ابنه عبد الله فحملها إلى الغار".

قالت: "فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: "والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه".

قالت: "قلت: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً".

قالت: " فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت، كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت فوضع يده عليه.

فقال: لا بأس إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفـــى هــذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أســـكن الشيــخ بذلك][1].

وعامر بن فهيرة عامل أبى بكر على ماله قد عرف منه أبـــو بكر أمرين جليلين:

<u>**أحدهما:**</u> أنه يجيد رعى الغنم ويعرف كيف يسوسها ويحكـــم مشيها فى الطرقات، لا يند منها شئ، ولا تشذ عن الجماعـــة واحــدة منها، وهو مع ذلك يعرف أماكن الرعى ومناطق العشب، مـــا يســمن الماشية منه وما ينالها بالأذى، ثم هـــو بعــد ذلــك خبــير بـــالأدرب والطرقات، عليم بالسبل فى فجاج مكـــة بدنـــها ومنتـــهاها، قاصيـــها ودانيها.

---

[1] سبل الهدى والرشاد جـــ٣، ص ٣٣٨.

وثانيهما: أنه كان رجلا مخلصاً لسيده، يكتم لسيده ما أراد سيده أن يكتمه عن الناس، ويحتفظ له بأسراره لا يبيح منها بشئ ولو قطع منه الحلقوم، وما ذلك إلا خلقاً لعامر يتصف به، وهو ما هو إلا عرفاناً بالفضل لذويه، حيث إن أبا بكر لم يكن بالرجل الذى يؤذى عماله الذين يعملون له فى ماله، ولو كانوا عبيداً أو خدماً، والذى رزقه الله فطرة سليمة يعلم أنه ليس للإحسان من جزاء إلا الإحسان.

إنهما خاصيتان يمتاز بهما عامر بن فهيرة، ويعرفهما منه أبو بكر الصديق، إنه كتوم للأسرار لا يفشيها، وإنه بصير بأدرب مكة وطرقها وأماكن الرعى فيها، حكيم ذو مقدرة على رعى الغنم، وإحكام سيرها على الطرقات.

ومن أجل هذا وجدنا أبا بكر يسند إليه من المهام ما يجيد العمل فيه، فقد كلفه أن يرعى الأغنام بياض النهار، ثم يروح عليه وعلى النبى ليلا فيحلبا ويذبحا، ثم هو بعد ذلك يسير بالغنم خلف الذين جاءوا لزيارة أبى بكر، وزيارة النبى يعفو على آثارهم حتى لا يستدل من خلالها على مكان النبى وصحبه.

ثم إن هناك شخصية ثالثة، هى شخصية عبدالله بن أبى بكر الصديق.

ولقد علم أبو بكر من ولده أمرين يمتاز ولده بهما، ويقلان فى كثير من الناس، خاصة ما كان منهم يلوذ بطائفة الدهماء

وأول هذين الأمرين أنه كان فتىً لقناً.

ومعنى أن يكون الفتى لقناً أنه يكون سريع البديهة يلتقط المسألة تعرض عليه لا يفوته منها شئ.

وهو مع ذلك كان ثقفا.

والثقف من الناس هوالفتى الثابت المعرفة يجد عنده منها كل ما يحتاج إليه.

ومن أجل هاتين الخاصيتين كلف أبو بكر ابنه عبدالله، أن يكون بين القرشيين بياض النهار، فإذا ما أقبل الليل ذهب إلى النبى وإلى

أبيه، وقد حفظ عن قومه ما يدبرون للنبى، وما يكيدون لأبى بكر، فهو يوقفهما على كل ذلك لا يغيب عنه منه شئ، ثم هو يبقى عندهما الليل فإذا ما أقبل الفجر، عاد من جديد إلى مكة فيراه الناس مصبحين كأن لم يذهب هنا أو هناك، وعامر بن فهيرة فى كل ذلك يعفو على أثره بمشى الأغنام خلفه.

قالت عائشة رضى الله عنها تتحدث عن النبى وعن أبيها وعما كان يصنعه معهما أخوها [... فكَمِنَا فى الغار ثلاث ليالٍ وكان عبدالله بن أبى بكر يبيت عندهما، وهو غلام ثَقِف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع بأمر تكيدهما به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام].

بقى أن يرتب أبو بكر الصديق أمر المرشد الذى سيدلهما على الطريق، وما كان أبو بكر الصديق ليهتم فى مسوغات هذه الوظيفة بشئ فوق أن يكون الذى سيقوم بهذه المهمة رجلاً بصيراً بما يفعل، خبيراً بالأدرب والطرقات، ثم هو فوق ذلك لابد وأن يكون أميناً يلقى إليه بالأسرار فلا يفشيها، ويلقى إليه بالقياد والزمام فلا يسلم النبى أو أبا بكر إلى شئ يكرهانه مهما كانت المغريات، ومهما كانت الأسباب التى تحمل بعض ضعاف النفوس على أن يخونوا العهد وعلى أن يفرطوا فى الأمانة.

ولا بأس بعد ذلك أن يكون هذا الرجل الأمين الخبير، مؤمناً أو كافراً، فلو قد توفرت هذه الشروط فى رجل من المؤمنين، كان ذلك ما يحب أبو بكر ويهوى، فإن فاته ذلك فلا بأس أن يكون مرشدهما رجلاً من المشركين ما دام خبيراً أميناً.

ووقع اختيار أبى بكر على رجل من المشركين يسمى عبدالله بن أريقط، وهو رجل من بنى الدئل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو.

وأبو بكر قد اطمأن إلى هذا الفتى، ولم يشأ أن يشغل النبى بأمره، كما لم يشأ أن يشغله بشئ مما مضى ذكره.

لم يبق إذاً إلا أن يشترى أبو بكر راحلتين، وقـــد اشتراهمـــا بالفعل، وعلفهما فى داره، ثم طلب إلى ابن أريقط أن يروح على النبى وأبى بكر بهما فى غار ثور إذا انقضى ثلاث.

والنبى حين أذن لأبى بكر فى الهجرة والصحبة، لم يسأله عن شئ من ذلك فيما وعاه التاريخ وحفظه الرواة، إلا أن يكون أبو بكر قد حدثه فى شأن الراحلتين اللتين أعدهما للرحيل، واحدة للنبى والأخـــرى

لأبى بكر، ومع أن النبى ﷺ كان يقبل الهدية لا يردها، إلا أننا نـــراه فى هذا الموقف يوضح لأبى بكر أنه لا يرغب فى الـــهجرة إلا علـــى راحلة مملوكة له، فقال: أبو بكر الصديق: هى لك يا رسول الله ويقصد أبو بكر أنه قد ملكها له على سبيل الهدية والهبة، وتوقف النبى قائلا: لا بل بالثمن، ثم سأله بكم ابتعتها؟ فقال: ابتعتها بثمانمائة.

على هذا النحو الذى حدثتك يكون أبو بكر قد أصلح من شأنه كله لم يفته منه شئ، وأخذ من كل سبب من الأسباب بتلابيبه، لا يفوته منه قليل أو كثير.

وما أعرف رجلاً يعد للأمر عدته يمكن أن يحتاط فى مثل هذا الموقف بأكثر مما فعل أبو بكر الصديق.

خرج النبى من بيته يفتح بابه على مصراعيه، ويَفْـــرُق القـــوم الذين تربصوا به، ويصنع بهم ما قد علمت، ثم يذهب إلى بيت أبى بكر يصطحبه معه، ويخرجان معاً من خوخة فى بيت أبى بكر.

وإن النبى ليحدثنا أنهما فى طريقهما لم يقابلهما إلا عمرو بـــن هشام يسير فى الطريق، يبصره ولا يغيب عنه منه شئ، ومع ذلك لـــم ير النبى ولم ير أبا بكر.

ويستمر أبو بكر يؤكد لنا أن الهجرة كلها تسير على ســـنن الله الجارية، وتحملهم جميعاً على الأخذ بالأسباب، إلا ما كان من بعـــض المواقف التى أراد الله فيها أن يعلى من قدر النبـــى، أو أراد الله مـــن خلالها أن يعلم المشركين أن الله له جنود السماوات والأرض.

ولم يفتأ النبى وأبو بكر يشرحان بســـلوكهما وأقوالـــهما هـــذه الحقيقة.

ففى حديث [عند البيهقى أن أبا بكر رضى الله عنه لما خـــرج هو ورسول الله ﷺ إلى الغار، جعل أبو بكر يمشى مرة أمـــام النبـــى ﷺ، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه ومرة عن شماله، فسأله رســول الله ﷺ عن ذلك، فقال: " يا رسول الله أذكر الرَّصَد فأكون أمامك وأذكــر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لآمن عليك فلما انتهينا إلى فم الغار قال أبو بكر: والذى بعثك بالحق لا تدخلـــه حتـــى أدخله قبلك، فإن كان فيه شئ نزل بى قبلك". فدخله فجعل يلتمس بيده،

فجعل كلما دخل جحراً قام إلى ثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعـــل ذلك بثوبه أجمع: فبقى جحر"فوضع عقبيه عليه، ثم دخل رســـول الله ﷺ فجعلت الحيات يلسعن أبا بكر رضى الله عنه وجعلـــت دموعـــه تنحدر.

وروى ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أبى بكر أنهما لما انتـهيا إلى الغار إذا جحر فألقمه أبو بكر رجليه. قال: "يا رسول الله إن كـــان لدغة أو لسعة كانت بى".

وروى ابن مردويه عن جندب بن سفيان قال: "لما انطلق أبـــو بكر مع رسول الله ﷺ إلىالغار قال أبو بكر: يار سول الله لا تدخـــل الغار حتى أستبرئه. فدخل أبو بكر الغار فأصاب يده شئ فجعل يمســح الدم عن إصبعه ويقول.

هل أنت إلا إصبع دميت * وفى سبيـــــــل الله ما لقيت

وفى حديث أنس عند أبى نعيم أن رسول الله ﷺ لما أصبـــح قال لأبى بكر "أين ثوبك؟ فأخبره بالذى صنع فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: " اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة".

فأوحى الله إليه:" قد استجاب الله تعالى لك][1].

---

[1] راجع سبل الهدى والرشاد جـ٣، ص ٣٣٨،٣٣٩.

ظل أبوبكر والنبى ﷺ يؤكدان بالقول والفعل أن الهجرة سائرة على سنة الله الجارية.

والنبى على ثقة من تدبير أبى بكر، وإصلاحه لما يلزمهما وإعداده الجيد لكل ما تحتاج إليه الرحلة من إعداد لا يقصر فى ذلك كله، ولا يفوته منه شئ.

وما أن اطمأن إلى تدبير شئون الرحلة حتى خرجا وقطعا الطريق جميعاً إلى جبل ثور، واستقرا فى غاره.

واستقرار النبى فى الغار وأبو بكر معه لا يعد نهاية المطاف لا من قبيل النبى، ولا من قبيل قريش التى تطارد النبى.

أما قريش فقد أدركت مع غبش الفجر أن النبى وصاحبه قد فاتهم أمرهما، ولم يجدوا فى الفراش سوى على فتىً دون البلوغ ضرب أمامهم أروع الأمثلة فى التضحية والفداء، ولم يجدوا إلا أن أوسعوه سباً ولعناً، واستهانة بشأنه الذى لا يستهان به عند ربه فاغتاظ فتيانهم لما فاتهم من مطلوبهم، وازدادت درجة الحقد عل النبى فى صدور ذوى أسنانهم، حيث طار من أيديهم هدف كانوا قد قبضوا عليه وأحكموا القبضة، فتبينوا أن ثقتهم بما فى أيديهم كثقة ناصح الماء بالغرابيل، بما للغرابيل من قدرة على الاستمساك بالماء.

وأسقط فى يد الجميع ورأوا أنهم قد غلبوا، وبإمكانهم لو تفرقوا فى الأرض هنا وهناك، ولو حفزوا الهمم بشئ من المغريات المادية أو الاجتماعية، لأدركوا ما تفلت من أيديهم، ولعاد إليهم سكونهم وائتلافهم بإدراكهم إياه وإنفاذهم ما أرادوا منه.

ولم تستسلم قريش لليأس، وإنما ضربت فى الأرض هنا وهناك، واستعانت بالخبراء فى اقتفاء الأثر، وسألت الرعاة فأرشدها بعض الرعاة قائلا: لقد مرّ علىّ من تصفون وتابعتهما قليلاً ثم اختلط على من أمرهما عند بلوغهما هذا الجبل، فلا أدرى شيئاً من وجهتهما

التى قصدوها، فربما يكونا قد قصدا شمالاً، وربما يكونا قد قصدا يميناً، وربما يكونا قد صعدا الجبل.

أما أمية بن خلف وهو من أشدهم على النبى حنقاً، فقد صعد إلى الجبل حتى أصبح قريباً من فم الغار، وزادت حركتى الشهيق والزفير عند أبى بكر تعبر عن حالة من حالات النفس، ليس لها من تفسير إلا هذا الحزن الذى انتاب أبا بكر لما أدركه من مقدرة المشركين على النبى، وما سيفعله المشركون بالنبى، وما سيترتب على ذلك كله من فوات خير كثير عليه وعلى الناس أجمعين.

أما النبى فقد طمأن أبا بكر، وأما أمية بن خلف فقد حيل بينه وبين أن يرى النبى وأبا بكر، فحين اطمأن لخلو الغار جلس أمامه يقضى حاجته مستقبلاً بابه، والنبى يقول لأبى بكر: لو كان قد رآنا ما صنع هذا الذى ترى.

هذه هى حال قريش لقد أصبحت فى أعلى درجات هياجها وانتشرت فى كل مكان، واسترشدت بمن تستطيع من المرشدين وسألت من تستطيع سؤالهم حتى انتهى المسير بجمهرتهم إلى منطقة الغار.

أما موقف النبى وأبى بكر فقد كان أكثر دقة.

فهما رجلان فى مقابلة جيش كبير قد اشتد حقده عليهما وغلى الدم فى عروقه حيث فات عليه شئ من أمرهما، وحيث شعر بالعجز لما فاته من شأنهما.

وهما رجلان فى مقابلة جيش عظيم قد اجتمع إليهما، ومن فى مكة من أنصارهما مستضعفون، إما مقيدون بالأغلال، وإما أن يجبروا على أن يحملوا السيوف فى وجوههما وهم لذلك كارهون.

وهما رجلان فى غار ثور قد اجتمعت عليهما القلوب المملوءة بالبغضاء، وقد شاء الله من قبل أن يهاجر أتباعه الذين كانوا معه فى مكة، وكان يتأتى منهم أن يؤازروه وأن يناصروه، وليس لهم من علم بخروج هذا النبى وصاحبه فى وقته المحدود وفى زمانه المعلوم وليس لهم من علم بهذا الجيش غير المنظم الذى جمع لهذين الرجلين يريد أن

يبطش بأفضلهما، حتى ينهار البناء كله، وحتى تعود لمكة حالتها التـــى كانت عليها قبل البعثة.

وهما رجلان فى الغار لهما قلوب فى يثرب تهفو إليهما وتنتظر مقدمهما، قد عاهدت النبى على أن تمنعه ممـــا تمنـــع منـــه نســـاءها وذراريها، وأنفسها وأولادها، وما أخذ النبى منهم فى سبيل الدفاع عنـــه أفضل مما ترك لهم، صُدُقٌ فى الحرب، صُبُرٌ عند اللقاء، لو كان لـــهم من تواجد أمام الغار لم يستطع واحد من القرشيين أن يخلص إلى النبى وصحبه وفيهم عرق ينبض، أو عين تطرف، وأنَّا للنبى بهؤلاء القـــوم ليس لهم بذلك من علم، ولو قد علموا لا حتاجوا إلى وقت طويل حتى

يتمكنوا من الحضور إلى مكان الغار، وليس إلى هذا الوقت، ولا إلـــى عشر معشاره من سبيل.

أحال الله عز وجل بين نبيه وصاحبه، وبين كل ســـبيل إلـــى نصرته، إلا سبيلاً واحداً عبر عنه النبى وهو يُهَدِّئ صحبه: يا أبا بكـــر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا أبابكر: لا تحزن إن الله معنا.

وقريب من هذا الموقف ما كان لموسى من قبل، حين فر مـــن فرعون وملإيه، وتبعه فرعون وملؤه، وانقطعت الأسباب الظـــاهرة، وقال أصحاب موسى لموسى : إنا لمدركون، قال لهم موسى: كـــلا إن معى ربى سيهدين.

أصبح النبى وصاحبه فى جانب ثانى اثنين إذ هما فى الغـــار وأصبحت قريش وقد أحاطت بهما من كل جانب يلبسون لـــهما لبُـــوس الحرب ويسلكون للكيد لهما كل طريق.

معركة لو صح أن نسميها معركة ليس فيها شئ من التكـــافؤ ولا ما يقرب منه.

ولقد شاء الله أن يكون الأمر على هذا النحو، ولو قد شاء غير ذلك لمنع أصحاب النبى من الهجرة، ولأمر النبـــى أن يســـتنفر الأوس والخزرج حتى يأتوا جميعاً وينتزعوا النبى من بين ظـــهرانى قريـــش، غير أن الله لم يشأ هذا، ولو شاءه لأنفذه، ولرأينا جيشين متقابلين بينهما من التكافؤ ما يغير سير المعركة، والنتيجة المطلوبة من ورائها.

شاء الله أن يكون النبى وصحبه فى جانب، وأن تكون قريشٌ كلها قد أحاطت به من كل جانب.

وكأنى بالتاريخ ساعتها قد جثى على ركبتيه، وهويسجل حدثاً هاماً لم يسبق له فى التاريخ حدث يماثله حتى يمكن القياس عليه، أو فهم النتيجة سلفاً من خلاله.

وكأنى بالكون يتحفز ليعلم ما الذى سينتهى إليه الموقف كله.

وكأنى برب العباد قد أراد أن يعلم الناس من بعد، أن الله له فى خلقه شأن لمن أراد أن يعتبر أو يتدبر.

فكلما كانت الأسباب متاحة تجد التشريع الإلهى يأمر المسلمين باصطناع الأسباب، واتخاذ الوسائل إلى النتائج، وحين لا تكون الأسباب متاحة يتدخل الله فيبلغ إلى النتائج بلوغاً قدرياً على ما يشاء هو.

وسوف يكون لنا حديث عما قريب يوضح بالأمثلة هذه الجزئية إن شاء الله تعالى.

أما رجال التاريخ فلقد رأوا أن المسألة قد حسمت بخيوط العنكبوت وبيض الحمام، ونمو الشجر على فم الغار، وذكروا فى ذلك روايات تصح على منهج المحدثين أولا تصح، وانتشرت هذه الروايات بين الناس وذاعت، يستحسنها منهم من يستحسنها، ويتوقف فى قبولها من يتوقف.

ومن يستحسنها يعتبرها من قبيل المعجزة الكونية التى يؤيد الله بها نبيه، أو يرفع بها قدره وشأنه ولها كما قلت نظائر وأشباه من نحو أن موسى حين قال لقومه كلا إن معى ربى سيهدين، أُمر أن يضرب البحر فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم بينهما طريق يبسٌ، يسير فيه موسى وقومه لا يخاف دركاً ولا يخشى.

ومعنى ذلك أن الله قد نجى موسى حين انقطعت الأسباب بإرادته المباشرة، وكان الناس يرون الوسيلة التى نجى بها موسى وصحبه.

ومن هذا الدرب نجاة النبى وأبى بكر فى الغار مــن بطــش قريش بأسباب ظاهرة، وإن كانت غير معتادة، فالحمام مرئى وبيضــه ظاهر، ، والعنكبوت محسوسة خيوطه واضحة آثاره، والشجر النــابت على فم الغار شجر يعلن عن نفسه، لا تخفى منه خافية.

وهكذا يرى البعض أن النبى قد نجى على هذا النحو الظــاهر الأسباب، وإن كان غير مقدور لغير الله عز وجل.

قلت: إن هذا الرأى قد تحمس له المؤرخون جميعاً، وكتــاب السير طراً، وفريق من المحدثين يقول به على شئ من الاستحياء.

أما بقية أهل الحديث فهم يعكفون على هذه الروايات يحـاولون دراستها سنداً لا متناً، إذ هم يــرون أنــه لا بــأس عندهــم إذا مــا صــــــح

سند هذه الروايات أن يسلموا بمتنها، باعتبار أنه من قبيل المعجزات.

أما كاتب هذه الصفحات فمع إيمانه الكامل بالمعجزات الماديــة وبوظيفتها فى عصر المبعث وبعد عصر المبعث إلا أنه يرى أنه ليــس من فرسان التاريخ، ولا من رجاله الأشداء، وهو يرى أنه لا يملــك أن يدعى أنه من جهابذة علم الحديث، ولا من رجاله المبرزين فيه، ومــن أجل ذلك فإن كاتب هذه الصفحات سيحاول أن يعكف علــى بعــض الآيات التى نزلت فيما بعد تسجل هذه الواقعة الفريدة فى التاريخ.

وشئ طبعى إن أراد كاتب الصفحات أن يســير علــى هــذا المنهج أن يقف أمام نص واحد من النصوص يتأمله ويحلله، ثم ينطلــق منه إن أراد أن ينطلق، ثم يأوى إليه إن كلت بــه قدمــاه، أو أراد أن يستعصم من الخطأ الوارد حين يريد الإنسان أن يستعمل عقله محلــلاً ومركباً، أو مسترشداً ومستنبطاً.

والآية التى يريد كاتب هذه الصفحات أن يعتبرها أصــلاً لــه ينطلق منها، ويأوى إليها هى آية سورة براءة، وهى قوله تعــالى: **{إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فــى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليــه**

وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيزٌحكيم}[1].

وأنت حين تتأمل هذه الآية تجد أنها تنتظم عدة جمل، لا بد من التمييز بينها، والوقوف عند كل واحدة منها.

وأنا سأحاول أن أكتبها بين يديك جملا بعضها فوق بعض وسنخص كل جملة منها برقم حتى يسهل التعرف عليها، والكلام حولها.

هكـــــــــــــذا.

١- {إلا تنصروه فقد نصرهُ الله}.

٢- {إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار}

٣- {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}

٤- {فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها}

٥- { وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا}

٦- {والله عزيز حكيم}

وهذه الآية يتأمل فيها المؤرخون وعلماء الحديث وعلماء التفسير، إن أرادوا أن يتأملوا فيها، فتمدهم بالمعانى التى لا ينضب معينها، ولعلها تريحهم من كثير من الجدال والملاحاة إن أرادوا أن يتجنبوا الجدال والملاحاة.

١- وأول جملة فى هذه الآية هى : **{إلا تنصروه فقد نصره الله}.**

وفى هذه الجملة وحدها إشارة إلى جوانب كثيرة فقد تحمل من عوامل التربية أموراً يمكن الاستفادة منها فى مجال التربية، وقد تحمل من الإشارة إلى القدوة ومن تركزت العظمة فيه شيئاً كثيراً يجنبه قسوة العتاب، إذا كان المراد عتاب من قصروا فى أداء الواجب، أو قعدوا عن أداء شئ منه.

---

[1] التوبة: آية ٤٠.

وفى هذه الجمله ذاتها لفت نظر المؤمنين وغير المؤمنين إلى أن الله غير محكوم بالأسباب التى خلقها وحاشاه.

وهذا إجمال يحتاج إلى شئ من التفصيل.

وتفصيل ذلك أن نقول: إننا نستطيع أن نتأمل هذه الجملة المرة بعد المرة، فتكشف لنا عن بعض أسرارها التى استودعها الله فيها وعهد إلينا أن ننتفع بما يظهر لنا منها.

فنحن نتأمل هذه الجملة أولاً : فنعلم أنها قد نزلت فى قوم الشأن فيهم أنهم مؤمنون، والشأن فيهم أنهم هم الرعيل الأول، سماء غيرهم أرض لهم، وسيآتهم حسنات لغيرهم، فهم القدوة والمثال لكل عقب أو تالٍ من الأحفاد الذين يحتاجون إلى القدوة والمثال، وقد وقع بعض التقصير من بعض هؤلاء القوم حين انتدبهم الله إلى القتال فى

"غزوة تبوك"، ولعل بعضهم قد وقع فى صدره أن النبى لا ينصر إلا به وبأمثاله، وأنهم لذلك عناصر هامة فى حسم المعركة، ولعلهم لذلك يعتقدون أنهم من حقهم أن يتعالوا على الإسلام وأن يتعاظموا على التاريخ، فنزلت هذه الآية تلفتهم إلى حادثة ما كنا ندرك الحكمة من وقوعها على هذا النحو، لولا هذه الآية التى لفتت الأنظار إلى الحكمة منها.

لفت الله الأنظار إلى أن نصرة النبى لم يربطها الله بالأسباب المعتادة وحدها، وإنما تمحضت القدرة الإلهية فنصرت النبى حين لم يكن أحد من المسلمين مع النبى، إلا ما كان من أمر أبى بكر الصديق الذى يعد فى هذه الواقعة بمثابة شاهد عيان.

والله حين يقول ذلك، إنما يقول ليبين لنا جميعاً، وليس ذلك للنبى وحده، ولا للنبى وشاهد العيان فحسب، وإنما كان ذلك للناس أجمعين بياناً عاماً.

وخلاصة هذا البيان أن الله يريد أن يقول لنا: إنه قد خلقنا ونحن صنعته، وأن من سنته فى التاريخ صراع الخير والشر إلى أبد الآباد، وفى معترك هذا الصراع كلف الله المسلمين أن يصطنعوا لمعاركهم مع الباطل كل ما أتيح لهم أن يصطنعوه من ذلك، وحينئذ

يمنحهم الله نصره وتأييده، ثم يثيبهم على ذلك الطمأنينة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة.

أما حين يتعذر الأخذ بالأسباب فإن الله لا يكلف بالمستحيل وفى نفس الوقت لا يترك صنعته عبثاً، يعبث بها من لا يرعى لله حرمة، فنرى الأحداث خير شاهد على أن الله يتدخل بنفسه ليحسم النزاع لصالح الخير، حين لا تكون هناك وسيلة ظاهرة أو متاحة لحسم الأمر على هذا النحو.

وتلك مسألة عقدية تثبتها الجملة فى نفوس المسلمين وتجعلها أمام أعينهم تحفز هممهم، وتشد عضدهم، وتباعد بينهم وبين الانصراف عن حلبة الصراع مخافة الهزيمة، أو رغبة فى متاع.

وفى الجملة إشارة أخرى تربوية لها صلة بالأفراد، ولها صلة بالجماعة بقصد إصلاح الأفراد وإصلاح الجماعات.

ومن النكبات التى تصاب الأمم بها، أن الأمة أمام عدوها تكون على أحد أحوال ثلاثة:

أما <u>الحال الأول</u>: فهو أن الأمة تنظر إلى عدوها على أنه جبار لا يغلب، قد اجتمعت له من أسباب القوة ما لا قبل لها به، فيوقعها هذا التصور فى حالة من اليأس يشيع بين أفرادها، يجعلهم يرضون من الحياة بمجرد العيش، ولا يهتمون بإثبات الذات، فإذا سألت الواحد منهم عن حاله وحال إخوانه، قال لك: إنا نأكل القوت وننتظر الموت.

وأما <u>الحال الثانى</u>: فهو أن الأمة تنظر إلى عدوها بشئ من الاستهتار البالغ، والتهاون الذى لا حدود له، فهى لا تهتم بتقدير قوة عدوها، ولا بالوقوف على أساليبه فى الحرب والنزال، ولا بالعمل على ما ينال منه ومن قوته، إذ هم أفراد وجماعات يتصورون أنهم قادمون على أن يسقطوا عدوهم من السماء فتخطفه الطير، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، أو هم قادرون إن أرادوا على أن يمنعوا من عدوهم الماء العذب، ثم يذهبوا به إلى البحر الأبيض يجبرونهم أن يشربوا من مائه حتى يجف ماؤه، ثم ينتقلوا بهم بعد إلى البحر الأحمر

يشربون منه ما شاء الله أن يشربوا، إلى غيرذلك من التصورات التــى هى إلى الخيال أقرب.

وهذه الحال الأولى والثانية ليس لها من غناء فـــى إصـــلاح المجتمعات. والله لا يرضى لأصحاب محمد ﷺ أن يكونوا على هــذه الحال أو تلك، وقد عالجهم الله وهو يربيهم فى عصـــر المبعـث فـى الحالين جميعاً.

وما نهتم به هنا ومن خلال هذه الجملة، هو أن المسلمين حين تقاعسوا عن القتال متصورين أن أعداءهم يكفيهم جزء منـــهم لحسـم المعركة ولا داعى لجميعهم، أو رغبة منهم فى تحصيل المتعةبالإقامـة فىالحضر، أو تعاليا منهم على القتال مع النبى ﷺ، أعلمهم الله أن هـذا ليس فى صالحهم فى جميع الأحوال، ولئن كان الأمر أمر نبيه فـإن الله قد ضرب لكم المثل الحى، على أن نبيه حين يكون وحده ولا تتوفر له

الأسباب للغلبة والنصر ينصره الله عز وجل، ولئن أردتم شاهد عيـــان فهذا أبو بكر صاحبه فىالغار يعيش معه كل ظروفـــه، ويعـانى معـه الآلام المادية والنفسية على السواء حين ألجأتهم قريـــش إلـى الآلام المادية والنفسية على السواء.

٢ الجملة الثانية فى هذه الآية هى قوله تعالى: **{إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار}.**

وهذه الجملة من تلك الآية قد اتخذها هى وما بعدهـــا بعـض الناس غرضاً لهم، يحاولون من خلالها أن ينشئوا جدلاً تاريخياً يفـــرق بين أفراد الأمة.

أما أنا فلا حاجة لى بهذا الجدال العقيم.

وأما قارئى فأنا أعلم منه أنه لا يريد منى أن أســير بــه فـى طريق الظلمات، الذى يسلكه البعض ومعهم أدواتـــهم، فينـالون مـن أوصال الأمة يقطعونها إرباً إربا، ويلقون بها إلى حيث لا يعلم بمكانـها أحد من الناس حتى لا يتعرف الناس على جريمتهم التى ارتكبوها.

قارئى لا يقبل منى أن أسير به فى طريق الظلمات، بل إنه لا يقبل منى أن أشير إلى هذا الطريق مجرد الإشارة بالبنان، ولو كانت إشارة الازدراء والاستهتار بهذا الطريق وسالكيه.

وعليه فإنى سأخرج من هذا الجدل سالم القلب نظيف اليدين،عف اللسان، أبيض الوجه إن شاء الله، لأحدثك عما فى الآية خاصة ما فى هذه الجملة من معانٍ، أفضل أن تدركها، وأن تقف معى على بعض أسرارها، إن أراد الله أن يتفضل علينا، ويمنحنا من أسوار تلك الجملة ما يشاء.

وأنت ترى مطلع هذه الجملة يشعرك أن الكفار قد أخرجوا النبى وصحبه، وروايات التاريخ تؤكد لك أن قريشاً ما أخرجت الرسول ولا رغبت فى ذلك، وإنما الذى رغبت فيه قريش ولم ترغب فى غيره هو حبس النبى وصحبه فى مكة لا يخرجون منها حتى لا ينتشر أمرهم خارجها، وما انتهى إليه القوم هو هذا القرار الذى اتخذوه، وصمموا على تنفيذه، وهو قتل النبى ﷺ والتخلص منه.

هكذا يقول التاريخ.

وهذه الجملة بين يديك تؤكد أن الله عز وجل قد أخبر أن القوم قد أخرجوا نبيه.

وقد يحار المرء بادى الرأى بين ما يسجله التاريخ وما يقوله القرآن الكريم.

غير أن المتأمل فى هذه الجملة قليلا من التأمل، والذى ينظر فى عوائد الناس وأحاديثهم قليلاً من النظر، يجد أن الأمر هين جداً إذ إن الإنسان منا حين يضيق عليه فى أمر لا منجى منه إلا أن يسلك مسلكاً لا يريده، اضطر إلى هذا المسلك، وأذعن لفعله، والناس يعلمون أن الذى ضيق عليه فى بعض شأنه يكون هو الذى ألجأه إلى فعل أمر لم يكن يريده، ويصح فى هذه الحال أن يقال: إن من ضيق على صاحبه حتى ألجأه إلى فعل أمر آخر يكون بمنزلة من أمره به.

وتلك حالة فى البشر يعترف بها علماء الاجتماع، وعلماء التشريع على اختلاف مللهم ونحلهم.

ودونك هذا المثال، أو هذين المثلين.

أحدهما: أن إنساناً يتحكم فى أخ له، ويحول بينه وبين الماء زمناً طويلاً، ليس للحياة بقاء معه، ثم يبيحه الخمر فيشرب منها ليحفظ على نفسه الحياة فشرب حتى روى، فمن الذى سيتحمل إثم هذا الفعل؟

إن جميع الشرائع ولا شك تحكم وتجرم من اضطره إلى هذا الفعل، وإن لم يكن قد طلب إليه أن يشرب الخمر.

والأمر على هذا النسق حين ننظر فى المثال الآخر وهو: أن يقوم إنسان بتعذيب إنسان آخر ويجبره على النزول فى سائل ملوث وهو لا يريد قتله، ولكنه حين نزل فى الماء الملوث الراكد فى منخفض تحت الأرض مملوء بالغازات السامة وبالميكروبات المدمرة، وبالسائل القاتل، فكانت عاقبة أمره أن أدركته الوفاة، وهو حدث لم يقبل عليه هذا الذى نزل إلى هذا الماء باختياره حتى نقول: إنه قد انتحر، فيأتى به ربه يوم القيامة ويعاقبه على فعلته فى الدنيا بمثيلتها التى تتكرر عليه فى الآخرة المرة بعد المرة، إمعاناً فى إيلامه.

ولم يكن الذى قد حكم عليه بالنزول إلى هذا الماء قاصدًا إلى قتله، ولكنه سد عليه جميع المنافذ إلا هذا المنفذ وحده، وألجأه إلى النزول إليه.

وأنت هنا تحار حين تريد أن تلحق وصف القتل بأحد هذين الرجلين دون سواه، فلا تدرى: أتلحقه بمن ألجأه إلى سلوك هذا الطريق، ونزول هذا المنخفض فى الماء الراكد، ونجرمه على أساس منه، أم تلحقه بهذا الذى سلك هذا الطريق رغماً عنه وتعده متهوراً أو منتحراً.

ليس عندنا من شك فى أن هذا الوصف يجب إلحاقه بمن ألجأه إلى سلوك هذا الطريق الخطر، ومن ألجأه إلى سلوك هذا الطريق يعد قاتلاً له ولا محالة.

فى هذين المثلين تجد أن الشرائع مجمعة على أن من شرب الخمر على هذه الحال التى ذكرناها لك لا يعد آثماً، وإنما يعد آثماً من ألجأه إلى شربها.

ومن مات على هذا النحو الذى ذكرت لك لا يعد آثماً ولا يعد ملقيا بنفسه إلى التهلكة، وإنما يأثم من ألجأه إلى أسباب ذلك واضطره إليها.

وهكذا يكون الثانى قد قتل صاحبه، وأما الأول فقد سقى صاحبه خمراً.

وعلى هذا القياس ذاته، وطبقاً لهذه القاعدة، يكون كفار قريش هم الذين أخرجوا النبى من مكة، لأنهم اضطروه إلى الخروج، ولو لم يقصدوا إلى إخراجه، وإن كان قصدهم الأول استبقاءه فى مكة ليقتلوه أو ليحولوا بينه وبين الخروج إلى أناس غيرهم يأوونه وينصرونه.

ولا بأس عليك بعد ذلك أن تتأمل التاريخ، وأن تتأمل النص وأن تتأمل عوائد الناس فى حديثهم وسلوكهم وشرائعهم، فلن تجد من ذلك كله تناقضاً يقلقك، ولا مفارقات تضايقك.

إنك ستجد أن الله يقول لك:
(إذ أخرجه الذين كفروا) وستعلم علم اليقين أنهم هم الذين ألجأوه إلى الخروج، حيث لم يشأ الله لهم أن يخفوا لنجدته، وحيث لم يشأ الله لهم أن يتشرفوا بنشر دعوته.

أما أن يقول ربنا فى هذه الجملة "ثانى اثنين" فإن هذا السياق نفسه قد يوقعك بادى الأمر فى هذا الحرج الخلقى، وقد يوقعك بادى الأمر فى هذا القلق التربوى، وقد يعرضك لأول وهلة لشئ من جرح المشاعر الدينية، إذ قد يهيئ الخيال لك أن هذا التعبير يجعل أبا بكر أولا والنبى ثانياً له، فترتاع من هذا الفهم ارتياعاً تختلف درجته من إنسان إلى آخر حسب درجة الشعور الدينى عنده، غير أن الجميع على درجة قلب رجل واحد فى الإيمان والمبدأ، وهو أن النبى أولا ثم يأتى أبو بكر أو ما يشاء الله "ثانى اثنين" أو "ثالث ثلاثة"، أو "رابع أربعه" أو ما شئت من النظائر والأشباه.

وهذا الموقف قد يعرضنا إليه الفهم الخاطئ لدلالات الألفاظ والجمل، فما من أحد يفهم الغة العربية إلا وهو يعلم: أن الصياغة على هذا النحو لا تفيد أكثر من التئام العدد المعبر عنه بـ "ثانى اثنين"، أو "ثالث ثلاثة"، أو "رابع أربعه"، أو ما شئت من النظائر والأشباه.

فرابع أربعة يصلح أن نطلقه على كل فرد من أفـــراد العـــدد المندرج تحت هذه الكلمة: كمحمد وعلى وبكر وخالد، أو ما شئت مـــن الأسماء، فكل واحد من هؤلاء الأربعة يصلح أن يقال عنه أنـــه رابـــع أربعة، إذ بغيره لا يكتمل العدد.

وقل مثل هذا فى ثالث ثلاثة.

والأمر عينه يقال فيما معنا،فأبو بكر يصلح أن يكـــون ثـــانى اثنين، والنبى يصلح أن يكون ثانى اثنين، وسواء قلـــت هـــذا أو ذاك، فليس فى هذا أو ذاك دلالة على ترتيب أو تمييز رتبة على رتبة.

ومن هذا الباب قوله تعالى : { ألم ترَ أنَّ الله يعلـــمُ مـــا فـــى السمواتِ وما فى الأرض ما يكون من نجْوَى ثلاثة إلاَّ هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين مـــا كانوا ثم يُنبئهم بما عمِلوايوم القيامة إنَّ الله بكل شئ عليم}[1].

والآية تفهم على نحو ما ذكرت لك لا تزعـــج عقيدتـــك، ولا تجرح مشاعرك إن كنت من المهتمين بدراسة العربية، والوقوف علـــى طريقة الأداء فيها.

ثم ينقلنا سياق القرآن إلى ظرف عجيب أحاط بالنبى وصحبـــه "إذ هما فى الغار".

وأنت خبير الآن أن وجود النبى ومعه أبو بكر فى الغـــار، لا يعنى إلا أن يكون النبى قد أصبح فى داخل الأسوار، ليس له إلى شـــئ من الفرار من سبيل، وليس له من مقدرة على الاستنصار بغـــيره دون الله وسيله أو طريق.

ولك أن تتصور فى جو هذه الجملة العام، وتتأمل التعبير "إذ" فيها مرتين "إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغـــار" ثـــم تتأمل مع ذلك حال المشركين معهما وقد أحاطوا بـــهما وظنـــو أنـــهم قادرون عليهما، وليس بين الواحدمنهم وبين أن ينالهما بالأذى إلا قـــاب قوسين أو أدنى، ولولا الإيمان ما كان لواحد منهما أملٌ فى النصـــرة ولا وسيلة إلى نجاة، فقد أدركهم القوم وانقطعت الأسباب.

---

(١) المجادلة : آية ٧.

وشاء الله لنبيه أن يكون على غاية من السكون كالجبال الرواسى أوأكثر من ذلك، لا يهتز بعاصفة تعبث بالنفوس البشرية، ولا يأخذه موقف من المواقف التى تحيط بالإنسان فتخرجه عن سمته المعتاد، أو تقعد به عن همة كانت تستهويه وتدفعه إلى غايات لا يرضى بغيرها بديلاً.

أما أبو بكر فقد شاء الله له أمراً آخر، شاء الله له أن يدرك حقيقة الخطر الذى أحاط بهما، ثم يدرك بعد الخطر نتيجته.

وما يتركه إدراك الخطر على النفس ليس هو ما يتركه إدراك عاقبته.

فإدراك الخطر يجعل الإنسان فى حالة من الخوف الشديد الذى تظهر آثاره المعروفة على وجه المرء وسائر أعضائه.

أما إدراك نتائجه خاصة فيما يتصل بفوات محبوب أو وقوع مكروه دون فقد الحياة الذاتية للشخص، فإن المرء مع إدراك آثار هذا الخطر تظهر عليه حالة أخرى من حالات النفس، أعراضها مختلفة، لا تشبه فى قليل ولا كثير تلك الأعراض التى تظهر على النفس حين تدرك الخطر نفسه.

وأبو بكر قد أدرك الخطر وأدرك آثار الخطر على السواء وظهر عليه آثار إدراك الخطر ،وظهر عليه آثار إدراك أثر الخطر وعواقبه فى مظاهر نفسية لايقف عليها إلا خبير بعوامل إثارة النفس وأثارها

والنبى ﷺ قد أدرك ذلك كله من أبى بكر ووقف على حقيقته.

والجملة التالية من الآية توقفنا على حقيقة ذلك كله

٣- **{إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}.**

وهذه الجملة من الآية الكريمة تؤكد ما ذكرت لك من إدراك النبى ﷺ لما ظهر على أبى بكر الصديق معبراً عن حالات النفس التى يمر بها ،ولو أنك ضممت إلى هذا النص الكريم الوارد فى القرآن الكريم قول النبى ﷺ الذى رواه المؤرخون وكتاب السير ورواة

السنة، وهو قول النبى ﷺ لأبى بكر **{ما ظنك باثنين الله ثالثهما }** لاتضحت الصورة أمامك فى شىء من الجلاء الذى لايخفى معه شىء منها .

فأبوبكر الصديق يدرك الخطر وأسبابه فيخاف من هذا الخطر على النبى ﷺ وعلى نفسه، وعلامات هذا الخوف الظاهرة هو هذا البكاء المعبر عن أعلى درجات الانفعال النفسى .

صحيح أن أبا بكر الصديق يعلم أنه ليس مطلوب قريش ،وأن قريشا تزهد في قتله كما زهدت من قبل فى قتل علىّ، رغبة فى حقن الدماء وحصر الاشكال، وتضييقا لدائرة الشقاق.

وهب أن أبابكر قد تبين له أنه مقتول مع النبى ﷺ ،فإن مثل أبى بكر الصديق لايغيب عنه تقدير الأمر على ما هو عليه فى الواقع وكيف يغيب عنه تقدير الأمر وقد أدركته قريش على وجهه لم يفتها ولم تفته، ذلك أن قتل النبى ﷺ والتخلص منه هو فى الحقيقة إهلاك للأمة، وهو فى الحقيقة لو قد حدث لكان حجبا لهذا الدين، الذى أريد له أن يصلح وجه الأرض، وأن يكون رحمة للعالمين .

أدرك أبوبكر الصديق ما أدركته قريش وهو أولى بالإدراك من قريش، أدرك أبو بكر أنه رجل واحد لو قد مات أو قتل لما تأثرت الإنسانية بموته أو قتله، أما النبى ﷺ فوضعه مختلف، وحاله ليس كحال آحاد الأمة، إذ لو مات أو قتل والدين بعد لم يكتمل، لانقلب الناس على أعقابهم من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ولا نصرف عن هذا الدين كل من لم يكن قد انشرح له بالإسلام صدراً.

وهذا هو مجمل الإجابة التى أجاب بها أبو بكر نبيه حين سأله: أتخاف يا أبا بكر، فقال أبو بكر الصديق: ما على نفسى أخاف، فإنما أنا رجل واحد، ولم يُجبْه النبى ﷺ بخطة تعتمد على أسباب ظاهرة، تبلغ بهما إلى النصر، أو على الأصح تبلغ بهما إلى الخروج من هذا المضيق الذى وجدا نفسيهما فيه، وإنما أحاله على وسيلة أخرى للنجاة يدركها مثل أبى بكر، حيث قال له: يا أبا بكر **{ ما ظنك باثنين الله**

ثالثهما} وحينئذ ذهب عن أبى بكر الروع، ولعله قد حضره من التاريخ الدينى ما قد وقع لموسى وقومه، حين تابعهم فرعون وملؤه، وانقطعت الأسباب الظاهرة، وقال أصحاب موسى لموسى: **{إنا لمدركون}**

وقال موسى لقومه: **{ كلا إن معى ربى سيهدين }**.

وكان ما مكان مما هيأه رب العباد لموسى من أسباب نجاته والذين معه، ومن هلكة فرعون وملإيه.

لعل أبا بكر الصديق حين سمع كلام النبى ﷺ واستحضر صور التاريخ الدينى قد ذهب عنه الروع.

وما ذكرته إلى الآن هو جزء من الصورة الكاملة التى ذكرتها بين يديك لتصور الحالة النفسية لأبى بكر الصديق فى الغار مع النبى ﷺ.

إنها صورة نفسية تعتمد على حالتين من الانفعال فى وقت واحد هما الخوف والحزن.

وحين رأى النبى أبا بكر على هذه الحال المؤتلفة من عنصريها عالج أقربهما، وهو الخوف ليعود بالرجل إلى هدوئه وسكونه حين يُذهِبْ عنه الروع.

فلما ذهب عنه الروع أخذ النبى ﷺ فى علاج الحالة الثانية وهى حالة الخوف.

وسأقف بك لحظة قبل أن نستمر فى الحديث لنتأمل أبا بكر الصديق، كى نتعرف من ملامح وجهه على حالةٍ من حالات النفس التى يمر بها، والتى نحن الآن بصددها، فإذا علمنا أن هذه الحال هى حالة الحزن فمن حقنا أن نسأل: على أى شئ يحزن أبو بكر الصديق والحزن إلا بعد وقوع مكروه فيه من الضرر ما حرص المرء على تلافيه، أو فوات مرغوب، حرص المرء غاية الحرص على تحقيقه والحصول عليه، وأبو بكر الصديق لم يقع به مكروه إلى الآن كان قد حرص على تجنبه، ولم يفته مرغوب كان قد حرص على تحصيله، فلماذا الحزن إذا؟.

ومن يعرف بلاغة القرآن، ويعرف مع ذلك أن النبى ﷺ مرسل لا ينطق عن الهوى، وإنما يبلغ عن الله ما أوحى الله إليه به، يعلم أن الأمر سهل ميسور لا يعزب عن الرجل العادى إدراكه.

فأبو بكر الصديق حين ذهب عنه الروع، وهدأ انفعاله استسلم إلى التفكير المنطقى.

وكأنى به وهو يفكر علم من الأسباب المحيطة التى هى سنة الله المعتادة فى كونه وخلقه، أن النبى ﷺ قد سقط فى أيدى القوم ولا محالة، وأنهم قاتلوه ولاريب، وأنه ستنقطع الوسيلة بينه وبين ربه فلن يجد ما يبلغه وحى السماء، فيضل ويضل أمثاله، ويكون مآلهم جميعا العذاب الأليم فى الآخرة، والخسران والبوار فى الدنيا، وهذا شر كله يقع عشر معشاره بالمرء فيورثه الحزن الذى يحيط به ليله ونهاره وليس ذلك فحسب الذى انتهى إلى تفكير أبى بكر، وإنما هو فوق ذلك قد علم أن خيرى الدينا والآخرة سيفوتانه ويفوتان أمثاله بهلاك النبى ﷺ الذى يكاد يراه أبا بكر رأى العين، وفوات الخير كما نعلم مورث للهم والحزن بدرجات تختلف باختلاف درجات الإحساس بالخير الفائت، والشر النازل.

انتهى أبو بكر بتفكيره فى الأسباب العادية بعد أن ذهب عنه الروع، فحزن لذلك حزناً شديداً.

والنبى ﷺ أراد أن يرفع عنه هذا الحزن وآثاره فقال له: يا أبا بكر **{لا تحزن إن الله معنا}**.

وفى هذه الجملة من النبى ﷺ صرف لأبى بكر الصديق عن المنهج الذى اتبعه فى التفكير إلى منهج آخر مختلف تماماً، سيؤدى به ولا شك إلى نتيجة مغايرة للنتيجة التى انتهى إليها من المنهج الذى كان يفكر على أساس منه.

والمنهج الذى كان أبو بكر يفكر على أساس منه منهج مشروع ولاشك، لأنه يعتمد على سنن الله الجارية، وهى مخلوقة لله سبحانه، قد أقام نظام كونه على أساس منها، غير أن الخطأ الذى يقع المسلم فيه

فيقربه من الشرك أن يعتقد أن هذه السنن هى وحدها المتحكمـــة فيـــه القاضية عليه فى جميع الأحوال لايملك لها دفعا، ولا يملك ربه لها ردا (وحاشاه).

تعلق أبو بكر بمنهج مشروع فى التفكير، فانتهى به إلى ما قـــد علمت من النتائج، فأراد النبى ﷺ أن يلفته إلى المنهج الآخـــر، وهـــو لتكراره فى الحالات المماثلة يشبه أن يكون سنة أخرى مـــن ســـنن الله الجاريه { **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون**}[1]، وهو نفس المنهج الذى لفتـــه النبى ﷺ إليه ليتأمله بقلبه وعقله {**لا تحزن إن الله معنا**}، ويؤخذ أبـــو بكر من جميع أقطاره حيث ذهل عن هذا المنهج وانصرف عنه، وشغله عنه بقية من علم وشئ من تعلق بمنهجه الذى انتهجه، فسأله: أو نحـــن فى معية الله عز وجل؟ وأجابه النبى ﷺ بأن نعم، فهدأ وسكن.

أما أنا فأتأمل موقف النبى ﷺ مع أبو بكر الصديق فيظهر لـــى أمران:

__أحدهما:__ أن المفكر الحصيف، والعالم المجدد ليس هـــو هـــذا الرجل الذى يعرض إلى المسألة سبق أن بُحِثَتْ قبله، ونُسِجَت حولـــها الآراء والأفكار، واختلفت حولها عقول المفكرين، فيتناول المتأخر هـــذه المسألة يعرض فيها الآراء بشئ من البسط، ويتناول الأدلة بشئ مـــن الطول، ويبتكر أدلة يساند بها هذا الرأى وذاك من الآراء، ثم ينتصـــر لرأى يرى أن جماعة الناس قد روجوا له، وقد استراحوا إلـــى العمـــل بمقتضاه، فيجامل الكثرة باختياره لهذا الرأى ولوكان خاطئا رغبة فـــى مسايرة الناس، أو ينتصر لرأى يرى أن أصحابه قد قـــدر لـــهم مـــن الظهور قسطٌ يهوى أن يكون له مثله، وقد قـــدر لـــهم مـــن الذيـــوع والانتشار قدراً يبتغى أن يكون له ما حققوه منهما، فيعتنق هذا الـــرأى ويؤيده بالأدلة أو الشبه حتى ولو كان قلبه يبغضه.

---

[1] النمل: ٦٢.

المفكر الحصيف والعالم المجدد ليس هو الرجل الذى حدثتك عنه، وليس هو الرجل الذى يشبهه من الرجال، وإنما الباحث الحصيف والرجل المجدد هو هذا الرجل الذى يكتشف خطأ معيناً فى منهج من المناهج، أو فيما يعتقده الناس مسلمة من المسلمات، أو اعتقاداً لدى بعض الناس فى منهج من المناهج وإهمال ما عداه مما يجوز اصطناعه، فينتج من النتائج ما يثرى الفكر، وما يضبط الوجدان وما ينتظم السلوك.

وأنت خبير أن النبى ﷺ قد فعل ما فعله مع أبى بكر، من لفت نظره إلى منهج آخر فى التفكير يضيفه إلى المنهج الذى كان قد اصطنعه، فحين أخذ به أبو بكر ألقى عن كاهله أوزاراً ثقالاً، ما كان يبلغ إلى إلقائها عن كاهله إلا باصطناع المنهج الجديد: الذى لفت النبى ﷺ نظره إليه.

وثانيهما: أن النبى ﷺ حين لاحظ أن أبا بكر خائف وحزين معاً، أراد أن يزيل هذين الأثرين بعبارة واحدة ولا يكون ذلك إلا بنفى أسباب أبعد الأثرين وقوعاً، وأبعد الأثرين هنا هو الحزن، وأقربهما هو الخوف فإذا نفى أسباب الحزن يسقط مع هذا النفى أسباب الخوف ولاشك.

وأنت قد علمت الأثرين وأسبابهما مما ذكرته لك سلفاً أما الذى أريد الآن أن أضيفه إليك، هو أن القرآن فى حالات النفس الحرجة يعمد إلى نفى الأثر البعيد، ليحتوى الآثار القريبة ويتخلص منها جميعاً، فيكون ذلك فى مصلحة من تظهر الآثار النفسية عليه، ويخشى منها أن تفتك به.

وسوف أزودك الآن بمثال من التاريخ ذكره القرآن وغاب عن ذاكرة المؤرخين.

فأنت تعلم أن يوسف عليه السلام كان بينه وبين إخوته من المواقف ما تتحاماه الأخلاق الكريمة، وانتهت بهم اعتمالاتهم النفسية إلى أن اجتمعوا على فم البئر وأمسكوا بيوسف عليه السلام ليلقوه به.

والذى يتأمل يوسف عليه السلام فى موقفه هذا، سيجد أنه يفكر فى أسباب الموت التى أحاطت به من كل جانب، وألمت به من كل ناحية، فهو قد يموت بسبب نقص الأكسجين فى البئر بحكم انخفاضه وقد يموت بسبب هذه الغازات السامة المجتمعة فى هذا المنخفض، ثم هو قد يموت غرقاً إذا ما ارتفعت نسبة المياه الجوفية فى البئر وهو موجود به لا يملك أن يتحاشاها، وهو قد يموت جوعا حيث لم يتزود أو لم يزوده غيره بطعام يتبلغ به إلى حين قريب أو بعيد، ثم هو قد يموت بسبب هذه الصدمة التى سيلاقيها حين يرتطم بالقاع ساقطاً من أعلى أو حين تدفعه جوانب البئر أثناء سقوطه، فهو يتردد بينها حتى يسقط وأقرب الوسائل التى تؤدى إلى وفاته، وهى أسرع من غيرها تلك الصدمة العصبية، وهذا الخوف المروع الذى قد يؤثر على القلب فيتوقف عن ضخ الدماء إلى الدماغ فيموت لتوه.

فلما أراد الله أن يعالج اعتمالات هذه النفس، أنبأه بأنه سيعيش فى المستقبل عشرات السنين، وأن الله سيجمع له إخوته هؤلاء، وأنه سيعاتبهم وينبئهم فى موقف لا يحسدون عليه بأمرهم هذا الذى يعتزمون فعله، وسيكون له معهم شأن عظيم.

أوحى الله إلى يوسف بهذا كله خفية وفى سرعة وإخوته لا يشعرون {... **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**}[1].

مثل من القرآن الكريم أظن أنه يوضح لك قضية المنهج الآخر الذى لفت نظرك إليه سابقاً.

وهذا الأمر والذى قبله اللذان استوقفتك لأحدثك عنهما حديثاً قصيراً لايخلو تأملك لهما من فائدة، وعساك أن تستقبلهما بغاية الرضى والقبول.

أما هذه الجملة من تلك الآية {**إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**} فلم يعد فيها شئ مما أعرفه إلا أن أقول لك: إن الله عز وجل لم يخرج أبا بكر مع النبى ﷺ ليأنس به النبى ﷺ، إذ قد رأيت أن النبى

---

[1] يوسف :١٥.

ﷺ قد بذل من الجهد أقله وأعظمه، ليدفع عن أبى بكر الخوف والحزن جميعاً.

والله عز وجل لم يخرج أبا بكر مع النبى ﷺ ليدافع عن النبى ﷺ فى وجه الأعداء فأنت ستجد على طول الرحلة أن النبى ﷺ طالما بذل الجهد كى يحول بين أبى بكر وبين الخطر الذى كان يلاحقهما جميعاً.

وقل مثل ذلك فى جميع الاحتمالات التى يحتملها العقل ولن يبقى أمامك إلا احتمال واحد يكون هو المقبول دون سواه.

فأنا أرى (والله أعلم) أن أبا بكر خرج مع النبى ﷺ ليكون شاهد الواقعة فى أحرج ظروفها، فإذا ما امتن الله على نبيه بأنه ينصره فى جميع أحواله، وفى أكثرها حرجاً على الخصوص، وجد موضوع هذا الامتنان له شاهده من الناس، وليكن هذا الشاهد هو أبو بكر الصديق.

وصدق الله القائل: **{إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}** وهذه الجملة من الآية حين تصل بك إلى نهاية ما يريد قوله حولها، نجد أنفسنا فى حيرة أول الأمر حين نأخذ هذه الآية التى معنا، ونجمع بينها وبين آية الأنفال: **{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين}**[1]، وهى آية تتحدث عن طرف من غزوة بدر، حيث كان النبى وأبو بكر معه فى مكان واحد النبى يستغيث ربه، وأبو بكر يسكنه، أو يحاول معه ذلك [ففى روايات السير وكتاب السنة ما يؤكد هذه الحقيقة: روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وغيرهم عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال: حدثنى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: " لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل نبى الله القبله ثم مد

---

[1] الأنفال :٩.

يده وجعل يهتف بربه: **{اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض}**، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضى الله عنه فـأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يـــانبى الله كفـاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك مـــا وعـدك، فـأنزل الله تعـالى: **{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفيـــن}** فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين، فقتل منهم ســبعون رجـــلا وأسر سبعون" .. الخ.

وأما البخارى فروى عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ يـــوم بدر" **{اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد}** فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: **{ســيهزم الجمـــع ويولـــون الدبر}**[1] وروى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بـــن عتبة قال: " لما كان يوم بدر نظر رســـول الله ﷺ إلـــى المشـــركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال رسول الله ﷺ وهو فى صلاته " **{اللهم لاتـــودع منـــى، اللـــهم لاتخذلنى، اللهم لا تترنى، اللهم أنشدك ما وعدتنى}**.

وروى ابن إسحاق فى سيرته أنه ﷺ قال: "اللهم هذه قريـــش أتت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللـــهم فنصـــرك الـــذى وعدتنى"].

وأنت لو شئت لاستزدتك من هذه النصوص التى تحكى حـــالا من أحوال النبى ﷺ وأبو بكر معه، ولكننى سأحاول أن أكتفـــى بمـــا ذكرته لكفايته فى الدلالة على المقصود منه.

والمقصود من تسجيل هذا الموقف أن النبى ﷺ كان يوم بـــدر يستغيث ربه وهو فى حالة من الخوف على مستقبل الدعـــوة، وعلـــى أصحابه من المسلمين من نتيجة معركة لا يعلمها إلا الله وحده، وأبـــو

---

(1) القمر : ٤٥.

بكر إلى جواره ساكن ثابت، بل إنه ليحاول أن يسكن النبى ﷺ ويزيل عنه الخوف بتذكيره بوعد الله له.

ولم يكن حال النبى وأبى بكر يوم بدر مماثلاً لحالهما قبل ذلك يوم غار ثور.

فأنت تعلم من حال النبى ﷺ يوم غار ثور أنه كان ساكن الفؤاد هادئ الطبع، ولم يكن كذلك حال أبو بكر فقد كان مضطرباً خائفاً حزينا، والنبى ﷺ إلى جواره يهدئه ويسكنه، والأمر بين الموقفين عسير الفهم على بعض العقول، إلا أن يأذن الله بالفتح.

وابن حجر العسقلانى فى الفتح قد ذكر نقولا ينسبها لجهابذة العلماء كلها جميل وطيب، وكلها يضفى على المسألة شيئاً من وضوح الرؤية، غير أن القرآن الكريم كثير العطاء عظيم المدد، تقرأه المرة بعد المرة فتجد لقراءته حلاوة، وتجد للفهم فيه مجالاً يتسع ثم يتسع إلى حيث لا يكون له انتهاء.

وقريب من ذلك سنة النبى ﷺ وسيرته، إذ التأمل فيهما يضفى على الفهم كل يوم لوناً جديداً قد لا يكون موجوداً من قبل.

وتلك خاصية الإسلام بجميع روافده الفكرية، وهى لا تعيب أحداً من السابقين بالتقصير فى الفهم، ولا ترفع أحداً من اللاحقين حيث يعتقد بأنه قد أتى بمالم تستطعه الأوائل، وإنما ربك هو الذى قسم الرزق فى الأولين وفى الآخرين **{ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير}**[(١)].

وإنى لأحدثك عن هذا كله لأجعله بين يدى رأيى الذى أريد أن أعرضه عليك فى المسألة.

والذى أراه فى هذه المسألة أنها لا تفهم إلا إذا فهم قبلها نوعى الحدثين والظروف المحيطة بهما، إذ الحدثان وما يحيط بهما من ظروف مختلفان غاية الاختلاف.

---

(١) الشورى : ٢٧

فالنبى وأبو بكر حين كانا فى حدث الهجرة، كانا أمـــام حـــدثٍ تحكمه سنة من سنن الله الجارية، والنبى ﷺ وكذا أمته مطالبون جميعاً أن يصطنعوا فى كل حدث من الأحداث المعتادة الأسباب التى تـــؤدى بالحدث أن يصل إلى غايته المرادة منه، والأمـــة والنبـــى ﷺ معـــهم مكلفون أن لا يقصروا فى اصطناع الأســـباب واتخاذهـــا، والارتبـــاط بأحوالها يستثنى من ذلك شئ إلا أن يعتقد المرء فى أن هذه الأســـباب موصلة إلى غايتها حتما، وأنها مستقلة بالفعل استقلالاً تاماً.

وهذا الأمر الأخير يستثنيه الإســـلام حتـــى لا يشـــوش علـــى عقيـــدة المسلمين.

فعقيدة المسلمين تقتضى أن يصطنع المسلم الأسباب التى خلقـها الله فى الكون مرتبطة بالمسببات، ولكنه فى ذات الوقت لا يتوجه إلـــى هذه الأسباب بالعبادة بحيث يعتقد فيها أنها مستقلة بالفعل.

والذى يتخذ الأسباب المبثوثة فى الكون، ويترك النتائج على الله عز وجل يصلح أن نسميه فى الإسلام بالمسلم المتوكـــل علـــى الله، إذ ليس للتوكل فى الإسلام من معنىً إلا هذا المعنى أن المؤمن يأخذ فـــى الأسباب، ويترك النتائج إلى مسببها.

وهجرة النبى ﷺ حدث فريد فى التاريخ من حيـــث درجتـــه ولكنه حدث معتاد من حيث نوعه له سننه التى تحكمه، وله أسبابه التى يرتبط بها.

ولقد حدثناك سلفاً حديثاً مستفيضاً أو موجزاً حسب تقديرك لهذا الحديث حول الأسباب التى اصطنعها النبى ﷺ وأبـــو بكـــر خاصـــة بهجرة النبى وأبى بكر، وأنت لو تأملتها من جديد ستعلم أن النبـــى ﷺ وأبا بكر قد استوفيا الأسباب المتاحة جميعها لم يغفلا واحداً منها، غـــير أن هذه الأسباب مع مراعاة الدقة فى اصطناعها لم تحُلْ بينهما وبين أن تحيط بهما قريشٌ وهما فى الغار وأبو بكر لم يدرك مـــن الحـــدث إلا

ظاهره، فخاف من أجل ذلك وارتاع إذ استيقن أنه ليس بينهما وبين أن يقعا فى يد المشركين إلا أن ينظر أحد المشركين إلى ما تحت قدميه.

أما النبى ﷺ فقد رأى ماوراء ظاهر الحدث، لقد رأى أنه قد استوفى جميع الأسباب التى كلفه الله بها، لم يغفل منها سبباً زهداً فيه أو ازوراراً عنه، ولكنه أخذ بجميع الأسباب دقيقها وجليلها على السواء ومن يفعل ذلك تحمله عقيدته فى الله عز وجل أن يبقى فى مجال التوكل على الله يستظل بمظلة فضله، وينضوى تحت لواء سكونه.

فهم أبو بكر ظواهر الحدث، وفهم النبى ﷺ ماوراء الظاهر من الحدث، وحمل فهم النبى ﷺ ماوراء الظاهر من الحدث النبى ﷺ على أن يكون فى مقام التوكل بهدوئه وسكونه.

وحمل فهم أبى بكر لظاهر الحدث أبا بكر على أن يكون فى مقام الخوف بقلقه واضطرابه.

والفرق بين الموقفين عظيم.

إنه فرق عظيم لأنه مبنى على فهم دقيق، وعقيدة مستقيمة وعلى هذا المقياس نفسه نحاول أن نفهم حال أبى بكر الصديق مع النبى ﷺ، وهو حال كما رأيت كان النبى ﷺ قد بدافيه خائفاً قلقاً فى حين أن أبا بكر الصديق قد بدافيه هادئا ساكناً.

ولو قد تأملنا حال أبى بكر مع النبى ﷺ مقيساً إلى هذا المقياس الذى قسنا إليه حالهما أيام غار ثور، لكشف الحال لنا عن نفسه، ولأصبحنا مع هذا الكشف على كمال الثقة وتمام الفهم لا يغيب عنا منه شئ، ولا يتأبى هو على أن يبين لنا عن نفسه.

ونحن حين نتأمل حال النبى ﷺ وحال أبى بكر فى العريش يوم بدر، ونحن ننظر بملئ العيون إلى الساحة التى تشهد المعارك القتالية بين الفريقين، ثم نرتد بأخيلتنا قليلا إلى ما قبل المعركة،لنعلم كيف خرج المسلمون مع النبى ﷺ ولماذا خرجوا؟ ولنقف على حقيقة

العدد، وحقيقة العتاد اللذين اصطحبهما النبــى ﷺ معــه إلــى أرض القتال، وقبل هذا وبعده ننظر إلى إرادة القتال التى توفرت لدى الجنـــد ومتى شحذت هذه الإرادات.

إننا حين نتأمل هذا كله، ونتأمل أحواله وملابســاته، نجــد أن النبى ﷺ قد علم أن معركة بدر التى هى معركة الفرقان بيــن الحــق والباطل مثلها مثل سائر المعارك تسير كلها على سنن الله الجارية ومن يصطنع للمعارك أسبابها، ويدور فى فلك القانون والنظام الذى يربطــها ويسيرها إلى النتائج المرجوة منها، فهو أولى أن يجنــى ثمارهــا، وأن تدنو منه آثارها، ولا يكون كهذا الذى ازور عن الأسباب المرتبطة بهذه المعارك، وتأبى على الأخذ بها أو الانصياع إلــى مــا تقتضيــه مــن ضرورات، فهذا رجل لاتمكنه المعارك من نتائجها التى يرجوهــا، ولا تبيحه آثارها، ولوكان من العباد الصالحين، أو الأبرار المتقين.

إن هذا يعلمه النبى ﷺ ويعيه تمام الوعى لا يغيب عنه منــه شئ.

ونحن حين نكون مع النبى ﷺ فى العريــش بأخيلتنــا علــى الأقل، ونتأمل الساحة بملئ العيون، ثم نرتد بالأخيلة لنتأمل ملابســات المعركة والظروف المحيطة بها، فلن نجد إلا معركة قد أعد النبى ﷺ لها فى حدود طاقته، ومايسعفه به هذا الوقت القليل، وما يتيحه إليه هـذا الظرف المحدود، فجاء الإعداد للمعركة إعداداً ناقصاً فى العدد والعتاد، وفى استيعاب خطط العدو.

وهذا وإن كانت الظروف قد فرضته على النبى ﷺ فرضـاً إلا أن النبى ﷺ لم يشأ أن يعذر نفسه أمام ربه، ولم يشأ أن يغفــل مــن إدراكه لحقيقة الأمر شيئاً، قليلاً هذا الشئ أو كثيراً.

فالنبى ﷺ قد علم أن المسلمين لم يستوفوا الأسباب المطلوبــة لمعركة كمعركة بدر ولكنهم فى نفس الوقت وهو معهم لم يقصروا فــى

طلب واحد من هذه الأسباب، ولكن الظروف قد حالت بينهم وبين إدراك بعضها.

والنبى ﷺ يدرك أن الله لو تركهم يتعاملون مع سنة الله فى كونه لكانت الغلبة للأعداء فهم أكثر عدداً وعدة، ولو قد حدث ذلك فى أول معركة مع المشركين لضاعت هيبة الدين الجديد، ولانكسرت شوكة المسلمين، وهما أمران ينزعج لهما النبى ﷺ غاية الانزعاج وخاف منهما الخوف كله، وهو يعلم أنه لا منجى له من هذه الحال إلا أن يتداركه الله برحمته.

ومن هنا سجد النبى ﷺ وأطال السجود يدعو ربه بما قد علمت، ثم وقف يناجى ربه مادا يديه كالطالب الذى يسترحم غنياً، ويستمر فى الطلب والإلحاح حتى يسقط رداؤه عن منكبيه، وأبو بكر يحاول أن يرده إشفاقا عليه، ولكنه يصر على إقباله لا يرتد عنه إلى أن بشره الله بما بشره، فهدأ وسكن، وقام إلى أرض المعركة يحدد الأماكن التى سيصرع فيها المشركون.

أدرك أبو بكر هنا ظاهر الأمر، فحمله إدراكه لظاهر الأمر أن يكون فى مقام التوكل.

وأدراك النبى ﷺ ماوراء الظاهر من الأمر، فحمله هذا الإدراك لما وراء الظاهر على أن يكون فى مقام الخوف، ترى بعد هذا الشرح المبسط أو المستفيض هل يبقى مع هذا الفهم التباس؟

لقد كان النبى ﷺ يوم غار ثور فى مقام التوكل، حين أحاط بالأسباب العادية، وحين علم أنه ليس مكلفاً بإدراك النتائج.

ولقد كان النبى ﷺ يوم بدر فى مقام الخوف علىمستقبل الرسالة، وعلى جماعة المسلمين الأوائل حين رأى أنه لم يستوفِ أسباب المعركة، وحين رأى أن لا يجوز أن يلتمس لنفسه المعاذير وحين رأى أنه لا منجى له من هذا الضيق إلا أن يتفضل عليه ربه بما يشاء.

لقد كان النبى ﷺ فى مقام التوكل حين كان بقاؤه فى هذا المقام محتوما.

ولقد كان النبى فى مقام الخوف حين كان بقاؤه فى هذا المقام محتوما، أما أبو بكر فلقد وضع نفسه يوم غار ثور فى مقام الخوف وما كان ذلك أولى به، ووضع نفسه يوم بدر فى مقام التوكل، وما كان ذلك أولى به.

وسبحان من جعل هذا نبياً وجعل هذا صديقاً.

٤ - والجملة التالية فى هذه الآية لها صلة بهذه المواقف النفسية وهى قوله تعالى: **{فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها}**.

فأنت ترى أبا بكر الصديق وهو على حالتيه من حالات النفس وهما حالتى الخوف والحزن.

وأنت ترى النبى ﷺ على سكونه وهدوئه يحاول أن يهدئ من روع أبى بكر ويثبت من فؤاده، فيذكره معية ربه.

والله عز وجل يشاهد النبى ﷺ وحال أبى بكر ويحفظهما بمعيته لهما، ولم يكن غريباً ولا مستحيلاً أن يتدخل الله مباشرة، وبفعله بغير الوسائط، فيدفع أسباب الخوف والحزن عن أبى بكر الصديق الذى أخلص لهذا الدين، وأخلص فى اتباعه لهذا النبى ﷺ الذى جاءه بالهدى ودين الحق، وأخلص فى إيمانه بربه فوق هذا كله.

ولكن الله عز وجل أراد أن يعلم أمة ناشئة أن تعيش بين الأمم كما يعيشون، تصطنع الأسباب ، وتتخذ الوسائل إلى النتائج، ثم تتميز بعد ذلك على سائر الأمم بمنهجها الذى تتبعه إخلاصاً لربها، فتضفى منه شيئاً غير قليل على علاقاتها بأبناء نوعها، وعلى علاقاتها بالكون والحياة على السواء.

كان من الممكن إذاً أن يحول الله بين نبيه وصاحبه فى الغار وبين الشر الذى يلاحقهما بقدرته المباشرة وبغير وسائط، ولكنه لأمور أرادها بعضها قد وضحت لك، شاء أن تكون نصرته لنبيه وصاحبه تجرى على سبب من الأسباب، سواء عهده الناس أولم يعهدوه، فأنزل

الله على النبى ﷺ أو على صاحبه أو عليهما معاً السكينة والهدوء، ثم نصر الله نبيه أو صاحبه أو هما معاً بجنود لم يرها الناس، وما كان لهم أن يروها.

وليس عليك ولا علىّ من بأس أن نقول: إن الله قد أنزل السكينة يوم الغار على أبى بكر بعد ان حاول النبى أن يهدئ من روعه

وإذا كان الله قد فعل هذا لأبى بكر، فقد فعل مثله للنبى ﷺ مع سبق فى الزمن، حين وضعه فى مقام التوكل ورفع عنه أسباب الخوف والاضطراب.

ولست من أنصار هذه المعركة الفكرية المثارة حول مسألة السكينة وعلى من نزلت، وحول مسألة النصرة بالجنود التى لم يرها الناس، ولمن كانت.

فأنت تتأمل الآيات التى ورد فيها إنزال السكينة، فتجد أنها قد نزلت فى أربعة أماكن، يغلفها أربعة أحوال.

فالموضوع الأول والثانى لهما علاقة بصلح الحديبية.

وصلح الحديبية قد أحاطت به من الظروف والأحوال ما يجعل المسلمين يضيقون به ذرعاً، وتتألم من أجله وجداناتهم.

وفى هذا الصلح نفسه من الظروف والأحوال ما يجعل النبى يتألم لما يراه من ألم المسلمين، ولما يشعر به من الخوف عليهم إن هم عصوه، ولما رآه من صدمة نفسية أحاطت بالمسلمين، حيث قد رأوا

أنفسهم وقد فات عليهم الغرض الذى جاءوا من أجله، فالنبى ﷺ قد وعدهم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون وهاهم الآن ما دخلوا المسجد الحرام، بل حيل بينهم وبين ما يشتهون بأسلوب لا يرضونه، ولم يكن أحدهم يتصور نفسه فيه.

وأنت خبير بأن هذا الصلح قد أحاطت به ظروف ظاهرها الحط من شأن المسلمين، فى حين أنها كانت تحمل البشرى بالفتح العظيم فى باطنها غير المنظور.

وكيف يتحمل المسلمون أن ينزل النبى ﷺ على رأى المشركين متمثلين فى مفاوضهم سهيل بن عمرو، فلا يكتب **{بسم الله الرحمن الرحيم}** وإنما يكتب بدلاً منها **(باسمك اللهم)** ثم هو ينزل على رأيهم مرة أخرى فيزيل من الوثيقة وصف النبى ﷺ بالرسالة ويكتب بدلا منه اسمه واسم أبيه، ثم إن المسلمين أولاً وأخيراً قد وجدوا أنفسهم وقد نفد صبرهم، حين رأوا المعاهدة تفرض عليهم، أن من جاءهم مسلماً من قريش يردوه، ومن جاء قريشاً من المسلمين كافراً لايردونه ثم يعود المسلمون إلى المدينة بغير عمرة إلى العام القادم، تفتح أمامهم مكة ثلاثة أيام، ليس معهم من السلاح إلا السيوف فى جرابها.

لقد رأى المسلمون قريشاً فى قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية الأولى تظهر فى إصرارهم على كتابة (باسمك اللهم)، وعلى أن لا يتصف النبى ﷺ بوصف الرسالة، وعلى أن تضع الحرب أوزارها عشر سنوات بين الفريقين، وعلى أنه من جاء من المسلمين مرتداً تقبله قريش وتوقره، ومن جاء من قريش مسلماً يرده النبى ﷺ ولا يأويه وعلى أن يعود النبى ﷺ هذا العام ليعتمر فى العام القادم على شرطهم، والنبى ﷺ مع كل ذلك يقبل منهم ما يعبر عن هذه الحمية حمية الجاهلية الأولى.

والله عز وجل حين علم هذه الأحوال، وهو عليم بها، وحين أشرف المسلمين على مهاوى الافتتان، أنزل الله السكينة على المؤمنين وعلى نبيه العظيم، وعبر عنها فى موضعين من سورة الفتح.

<u>أما أحدهما:</u> فهو قوله تعالى: **{هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً}**[1].

<u>وأما ثانيهما:</u> ففى قوله تعالى: **{إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى**

---

[1] الفتح : ٤.

المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليما}[٢].

والموضع الثالث الذى ورد فيه إنزال السكنية على النبى ﷺ كان فى حدث أحاطت به أحوال من الشدة لها أثر شديد على النفوس حيث كان من أحوال وملابسات غزوة حنين ما تعلم ونعلم، وفاجأ الرصد جيش المسلمين بما لم يكونوا قد حسبوا له حسابه، فانهزموا لأول أمرهم، ثم ثبتهم ربهم، وامتن عليهم بما منّ عليهم به مما يحتويه قوله: **{لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين}**[١].

وأنت تستطيع أن تضم هذه الآية التى معنا **{فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها}** فلا تجد عليك من بأس حين تقول: إن الله قد أنزل السكينة على أبى بكر، ليزيل عنه أثر هذه الحالة النفسية، كما أنه لا بأس عليك إن قلت أن السكينة قد نزلت على النبى ﷺ، ليجعله يستقبل الموقف هادئا مطمئنا، وسياق اللغة قد يرجح هذا على ذاك، أو ذاك على هذا، لكن المعنى لا يأبىترجيحا من الترجيحات، وكذلك لا يأبى الشرع شيئا منها.

فالنبى ﷺ قد تعرض له من الأحوال النفسية ما يجعله يحتاج إلى ربه فينزل السكينة عليه.

وأبو بكر وسائر المسلمين قد يعرض لهم مثل ذلك، ويمتن عليهم ربهم بإنزال السكينة عليهم.

وأنا أحب أن أعفيك من هذا كله كما قلت، إذ لا بأس عليك فى معتقدك أن تميل إلى هذا أو تميل إلى ذلك.

---

[٢] الفتح :٢٦.

[١] التوبة: ٢٥،٢٦.

ولم يبق أمامنا فى هذه الجملة إلا أن نقف وقفـــة أمـــام قولـــه تعالى: {**وأيده بجنود لم تروها**}.

وأنت ترى أن الله عز وجل قد جزم أنه أيد عبـــده بجنـــودٍ لا ترى، أو بالأحرى لا يراها البشر.

فإن قلت: إن العبد الذى أيده الله بالجنود يوم غار ثور، هو أبـــو بكر الصديق، فما ينتقص ذلك من رتبة النبى ﷺ شيئا، فإن الله ما أيده بهذه الجنود، وما ثبت فؤاده بهذه السكينة إلا لأنه تابع نبيه، فتأييده لـــه تأييداً لنبيه بالدرجة الأولى.

وإن قلت: إن العبد الذى أيده الله بجنوده التى لاترى بـــالبصر هو النبى ﷺ، فإن الأمر أمامك يسع رأيك، ولا يعرضك للوم اللائميـن بالخطأ فيه.

واللغة العربية فى كل حال تسع هذا الـــرأى وذاك، لا يكـــون بينهما من فرق فيها، إلا هذا الفرق بين الراجح والمرجوح.

والشئ الذى لا أحتمله هو أن يجنح بعض الكاتبين إلى تحديـــد هذه الجنود التى لا ترى بالبصر، وتزداد الجرأة عندهم فيحصرونها فى نموذج واحد منها وهو الملائكة.

وأنا أرى أن لله جنوداً فى السماء وفى الأرض، وفيمـــا بيـــن السماء والأرض، لانراها ولانستطيع أن نراها، ودائرتها أوســـع مـــن دائرة الملائكة.

فليس الله بمحتاج لملـــك كـــى يـــأخذ علىأســـماع الكـــافرين وأبصارهم، فيخرج النبى ﷺ من بين أيديهم فلا يرونه ولا يســـمعونه وأنت خبير أن فى قانون السمعيات والبصريات أموراً عجيبة، وقيـــوداً صارمة إذا اختل قيد واحد منها، قد لايرى المرء ولا يسمع، وهو سليم فى آلتيه السامعة والباصرة، معاف فيهما ليس عليه من بأس.

وأنا لا أريد أن أستطرد معك فى هذا المجال، لأن إدراكه سهل ميسور من جهة، و لأنه سيخرج بنا عن موضوعنا من جهة أخرى.

غير أننى أعود فأوكد لك أن الله قد نصر عبده وصاحبه معــه يوم الهجرة بأسباب يظهر لنا بعضها، ولا يظهر لنا البعض الآخر.

فخروجه من بيته من بين الكافرين، يسمع حديثهم ولا يسمعون حديثه، ويشعر بهم ولا يشعرون به مع سلامة قواهم كان بجنود لاترى.

وحين اصطحب أبا بكر فى طريقه إلى غار ثور،وقابلهما أبــو جهل سائراً فى الطريق يدرك جوانبه كلــها، وهــم يريانــه، وهــو لا يراهما، قد نصرهما الله يومئذ بجنود لا ترى.

وحين دخلا الغار واستقرا به، وارتجف أبو بكر حيــن أحــاط القوم بهما، وهو ثانى اثنين، واشتد خوفه حين صعد إلى الجبل أميــة ابن خلف، وظن أبو بكر الصديق أن المانع له من رؤيتهما أنه قد وجــه نظره الى استقامته وظن أبو بكر أنه لو نظر تحت قدميه لرآهما، وألجأه الله إلى الجلوس حتى يبول فى مواجهتهما، مما جعل النبى يبتسم وهــو يقول لأبى بكر: لوكان يرانا ما فعل ذلك الذى ترى.

كل هذا قد فعله الله عز وجل لعبده وصاحبه، ونصرهما بجنـود لا ترى.

ولست أنا بالرجل الذى ينكر المعجــزات الماديــة، بــل إنــى لمـــن

المؤمنين بها، والمتحمسين لها، لكنى أرجــئ الحديــث عــن بعضــها هناحتى أعفى نفسى وقارئى من معركة جدلية مزعومة، قد يصطنعــها البعض ظاناً منه أنه قادر على أن ينتزع لنفسه بطولة وهمية فى ميدان محاربة الله ورسوله.

٥- **﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا﴾**

وما أن تصل الآية بنا إلى هذا المقطع منها حتى نجد المنة مـن الله قد وصلت إلى غايتها، ووضعت الأمور فى نصابها.

فالذين كفروا قد اتخذوا فى دار الندوة قــراراً صارمــاً بعــد مناقشات حامية فى شأن هذا النبى العظيم ودعوته، حيث أجمعوا علــى قتله، وأشركوا الشباب من قريش فى تبعة دمه، حتى يتفرق دمــه فــى

القبائل ويرضى بنو هاشم بالدية فيعطونـــها لـــهم، لا يضـــارون فـــى إعطائها.

ولقد وجد هذا القرار ارتياحاً فى أوساط القوم، وتحمساً له بيـــن رجالهم، كما لم يتحمسوا لمثله من قبل، واجتمعت كلمتهم علـــى هـــذا الأمر لا يتخلف منهم رجل واحد، وأصبح قتل النبى ﷺ والتخلص منه هو باب الفردوس المفقود، الذى لو قد فتح أمام قريش لدخلوا منه إلـــى ائتلاف بعد فرقة ولو على باطل، وإلى تجمع بعد شتات ولو على غـــير هدى، وإلى اجتماع على كلمة سواء ولو كانت كلمة الكفر، وإلى اجماع على عرف وعوائد انتهجهما الآباء والأجداد، ولو كان الآباء والأجـــداد لا يعقلون شيئا ولا يفقهون.

انتعش الأمل فى كل هذا، وقويت الهمم فى نفوس الرجال إلـــى تحقيقه، وكأنى بالجميع قد تعلقوا بحلقات باب الفردوس المفقود الـــذى حدثتك عنه، ينتظرون أن يفتح لهم بمقتل النبى ﷺ، فيدحلون منه إلـــى سعادة لا يعودون منها إلى شقاء بعدها أبدا.

وعقد القوم العزم كما رأيت، وحاصروا النبى ﷺ فـــى بيتـــه فأخرجه الله من بينهم بجنود لم يروها، فانتشروا باحثين عنـــــه فأحاطوا به وصاحبه فى الغار، فنجاه بجنود لم يروها، فأصبحت كلمتهم التى تضمنت قرارهم بقتل النبى ﷺ والتخلص منه فى موقف المنـــهزم الذى يشبه من قبض على الهواء أو على الماء يحبسهما فى كفه، فـــإذا به يفتح كفيه فلا يجد شيئاً.

لقد مكر القوم وظنوا أنهم قد أحاطوا النبى ﷺ بمكرهم ولكنهم لم يبلغوا من ذلك شيئا، وكانت كلمتهم المعبرة عن إراداتهم هى السفلى.

أما الله عز وجل فقد أراد لنبيه وأراد لصاحبه أن ينجـــوا، وأن ينجوا بواسطة جنده، وجنده الذين لا يمكن رؤيتهم.

ولقد انتصرت كلمة الله المعبرة عن إرادته، ونجا الرسول ونجا صاحبه، ونجت الدعوة الإسلامية مما يراد بها، فكانت كلمـــة الله هـــى العليا.

ولقد ذكر الله الكلمة المعبرة عن إرادة كفار مكة، كما ذكر الكلمة المعبرة عن إرادة الله عز وجل فى القرآن الكريم حيث قال: **{وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}**[1].

أترى إلى هذين الكلمتين المعبرتين عن إرادة الله وإرادة القوم ثم أرأيت إلى كلمة الذين كفروا التى عبرت عن إرادتهم وقد أصبحت السفلى بالإطلاق، ثم أرأيت إلى كلمة الله المعبرة عن إرادته وقد أصبحت العليا بلا حدود.

إن كنت رأيت ذلك كله، فإنى أدعوك إلى التأمل مرة أخرى فى قوله تعالى: **{ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا}**

٦ - **{ والله عزيز حكيم }**

وأدعوك إلى التأمل معه فى ختام الآية، فالله عزيز، والعزيز لا يغلب.

والله حكيم: والحكيم يضع الشئ فى نصابه لا يعدوه ولا يخطئه ولا يفارقه.

أما أنا فلا أرى مسوغا يحملنا على التصديق بأن كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى أقوى من هذا المسوغ الذى أورده الله ختاما لهذه الآية، يتضمن اثنين من أسمائه الحسنى.

وإنه لمسوغ أقوى فى قلب المؤمنين من روايات التاريخ، ولو كانت الروايات قد استندت إلى روايات من يحيل العقل تواطؤهم على الكذب.

بل إنى لأكاد أجزم أن هذا المسوغ فى قلب المؤمنين به، لهو أقوى فى الدلالة على المقصود منه، من الشئ الذى تراه العيون أو تلمسه الأيدى، أو تسمعه الآذان.

---

[1] الأنفال: ٣٠

لقد وقفنا مع النبى ﷺ فى الغار بأرواحنا نتأمله، ونتأمل صاحبه، نألف من أحوالهما مانألف، ويأخذنا العجب بنعمة الله عليهما إلى أن يبلغ بنا مداه.

ونحن مع ذلك كنا نتأمل فى آيات الله عز وجل نستوضحها المعانى، وهى لا تبخل علينا بمعانيها إلى أن انكشفت لنا الحقيقة أو بعضها، على نحو ما ذكرناها بين يديك.

وحين استوقفناك إلى جوار النبى ﷺ وصاحبه فى الغار نتأمل أحوالهما وأحوال الآيات النازلة فيهما، كنا نختلس النظرة من حين إلى حين لنرى الكافرين وما أصابهم، بعد أن شعروا بأن أهدافهم قد خرجت من أيديهم، فأصابهم خروجها بشئ غير قليل من الهياج نرى أثاره على وجوههم ونحن نختلس النظر إليهم.

وظنوا أنهم ينفعهم عثورهم على رجل عربى، أو بالأحرى أعرابى فى البادية يرعى غنيمات له، فسألوه عن الرجلين بأوصافهما فأخبرهما بما يسوؤهما ولا ينفعهما حيث قال: رأيتهما نعم ولكن لا أدرى من أمرهما شيئا، ولا أعرف عنهما أسلكا يمينا أم يساراً أم صعدا الجبل.

وظنت قريش أنها لو استأجرت خبيراً باقتفاء الأثر فسينفعها ذلك، فأستأجرت خبيراً عالى الخبرة اسمه فيما يقول المؤرخون (علقمة بن كرز بن هلال الخزاعى) فسار معها يقتفى أثر النبى ﷺ وأبى بكر، وقريش تسعد بسيرها معه، حيث يرتفع الأمل عندها كلما جد المسير، والأثر باقٍ لا ينقطع، وهو عما قريب واصل بها إلى إدراك الهدف، لاتستريب فى ذلك ولا تتشكك فيه.

ولقد وصلت قريش إلى جبل ثور، وهنا خرجت المسألة كلها من يد علقمة، حيث انقطع الأثر ولم يعد يدرى من أمر النبى ﷺ وصاحبه شيئا، وما إذا كان قد ذهبا يميناً أو يساراً أو صعدا الجبل ومع انقطاع الأثر انقطع عن قريش الأمل، إذ لم يعد الواحد منهم يدرى إلى أين يتجه، فانتشروا فى المكان ولهم جلبة لاتعود عليهم بطائل.

وظن أحد القريشين وهو أمية بن خلف أن صعوده على الجبل ينفعه، أو قد يبلغ به إلى شئ، فكان من أمره ما علمت وما ذكرت لك.

ونحن مع النبى ﷺ وصاحبه فى الغار بأخيلتنا نسترجع التاريخ، قد نظرنا إلى كل هذا الذى وقع من قريش كأننا نراه رأى العين.

ولقد انتهى هذا الهياج بقريش إلى فتور يائس، أو يأس فاتر لا يدرون معه ماذا يفعلون؟

ولقد هدأت عاصفتهم، ولكنه هدوء العاجزين، إذ لم يبق فى القوس منزع، ولم يبق فى كنانة الواحد منهم سهم ينسله، فعادوا إلى مكة عودة اليائس الذى يبحث عن مخرج، يقلب الأمور على وجوهها عله يجد من بينها وجهاً يصلح له.

هدأت العاصفة على أى حال فلم تعد هناك مطاردة ظاهرة، ولا متابعة مرئية.

أما النبى ﷺ وصاحبه فقد قدرا أن يبقيا فى الغار ثلاث ليال، يأتى إليهما بعدهن دليلهما فى الصحراء (عبد الله بن أريقط).

وفى الميعاد الذى ضرباه لابن أريقط، جاء ومعه راحلة أبى بكر وراحلة النبى ﷺ وكان يقال، إنها – الجدعاء– ثم اصطحب معه بعيراً يركبه.

أما أبو بكر الصديق فقد شاء أن يردف خلفه (عامر بن فهيرة) ليعينهما فى الطريق على بعض شأنهما، وعامر كان على درجة من الإخلاص لأبى بكر والنبى ﷺ تعفينا معها من عناء البحث عن أن يكون عاملاً لأبى بكر خادماً له لا يربطه به قرابة أو نسب، أو كان قريباً له يدلى إليه بسبب من أسباب القرابة التى تقوى الأواصر بين القريبين، وتفرض على كل واحد منهما أن يرعى حرمة الآخر.

وأما أسماء فقد حضرت ومعها زاد النبى ﷺ وصاحبه ومن معهما على الطريق، وضعته فى جراب، ونسيت أن تأتى بما تربط به

فمه وما تعلقه به فى رحلهما، فشقت لهذه الأغراض نطاقها استبقت لنفسها قدراً يصلح فقط لإصلاح ملابسها عليها، ثم تصرفت بباقيه فربطت فم الجراب، وأخذت منه ما تعلق به الجراب فى رحل أبيها وصاحبه النبى العظيم.

وغادر الركب الكريم يرشدهم الخبير بأدرب الصحراء (عبد الله ابن أريقط)، ولقد علموا جميعاً من أخلاق قريش أنها قد ترسل فى طلبهم، وتغرى الرسل بالمال الكثير، وأنها لن تشترط على الرسل أن يأتوا بالنبى ﷺ وصاحبه أحياءً، وأن من الناس أناس يغريهم المال فتطيش معه كفة الخلق على ميزان تقدير الرجال ولا يزعجهم ذلك ولايقلقهم العشرات من أمثاله، ولو أن قريشاً حددت جائزة لمن يأتى بالنبى ﷺ وصاحبه على أى حال أو صفة، لوجدت من ضعفاء النفوس من يخفون لذلك على غير ندرة، وعلى غير تردد، وعلى غير رادع من خلق أو حمية.

علم النبى ﷺ ذلك وعلم القوم معه فجعلهم يزدادون فى الحيطة، ويزدادون فى الحذر، ظهر ذلك فى مسلك ابن أريقط بهم، فهو لم يسلك بهم طريقاً ممهداً، وهو لم يستقم بهم على طريق واحد، وهو لم يسر بهم فى سبل مطروقة للناس، أو معتادة للسالكين، فهو قد يسلك بهم الطريق إلى الجنوب قليلاً ومقصده الشمال، وهو قد يجافى الساحل إلى الشرق، والأفضل له فى الظروف المعتادة أن يسير بالقوم محازياً الساحل، فلما أمن شيئاً ما من الأمن جعل وجهته إلى الشمال فى طريق وعرة توازى طريق الساحل، من غير أن يطلع سالكو طريق الساحل عليهم، وظلوا هكذا حتى انتهوا إلى قباء قريباً من يثرب.

وما كان لقريش أن تهدأ وأمرها على ما تعلم، فجعلت جعلاً عظيماً لمن يأتى بالنبى ﷺ وصاحبه على أى صفة من الصفات يأتى بهما فهو مستحق للجعل.

ولقد ذاع الأمر فى جنبات مكة، وعلم الناس بهذا الجعل المبذول من قريش، ورغب الطامعون فى هذا الجعل، والكثيرون منهم يحتالون حتى يفوز به واحد منهم.

وكان أكثرهم حيلة سراقة بن مالك بن جعشم (وأسلم بعد ذلك).

فما قصة سراقة بن مالك بن جعشم، وما النتيجة التـى انتـهى إليها؟

قال ابن هشام: [قال ابن إسحاق وحدثنـي الزهـري أن عبـد الرحمن بن مالك بن جعشم، حدثه عن أبيه، عن عمه سراقة بن مـالك بن جعشم، قال: لما خرج رسول الله ﷺ مـن مكـة مـهاجراً إلـى المدينة،جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، قال: فبينا أنا جـالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا، إني لأراهم محمداً وأصحابه، قال: فأومـأت إليه بعيني: أن اسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان، يبتغون ضالـة لـهم قال: لعله، ثم سكت، قال: ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتـي، ثـم أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لـي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأمتي ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السـهم الـذي أكـره "لايضره" قال: وكنت أرجو أن أرده على قريش، فآخذ المائة الناقة قال: فركبت على أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر بي، فسقطت عنـه قـال: فقلت ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخـرج السـهم الذي أكره "لايضره"، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، قال: فركبت فـي أثـره فبينا فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه، قال: فقلت: ما هذا؟ قـال ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكـره "لايضـره" قال: فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه مـن الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار، قال: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني، وأنه ظاهر، قال: فناديت القوم: فقلت أنا سراقة بن جعشـم: انظروني أكلمكم، فو الله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شئ تكرهونه قـال:

فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ قال: فقال ذلك أبو بكر، قال: قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك قال: أكتب له يا أبا بكر.

قال: فكتب لى كتاباً فى عظم، أو فى رقعة، أو فى خزفة، ثم ألقاه إلى، فأخذته، فجعلته فى كنانتى، ثم رجعت، فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ، وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعى الكتاب لألقاه، فلقيته بالجعرانة، قال: فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار قال: فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون: إليك ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزة كأنها جمارة، قال: فرفعت يدى بالكتاب، ثم قلت: يارسول الله، هذا كتابك، أنا سراقة بن جعشم قال: فقال رسول الله ﷺ: يوم وفاء وبر، ادنه، قال: فدنوت منه، فأسلمت ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أنى قلت: يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضى، وقد ملأتها لإبلى، هل لى من أجر فى أن أسقيها؟ قال: نعم، فى كل ذات كبد حرّى أجر، قال: ثم رجعت إلى قومى فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتى][1].

لقد رويت بين يديك قصة سراقة، فهى دالة دلالة قاطعة على ما انتهى إليه حال قريش بعد جلبتهم اليائسة حول الغار، وفى الفجاج التى تحيط به، ولقد عاد سراقة كما رأيت وحاله على غير الحال التى أقبل إلى النبى عليها.

<u>أما أولاً</u>: فلأنه قد أيقن أن النبى ﷺ ظاهر منصور، وأن له مع قومه نبأ عظيماً فى يوم قريب، لايبعد أن يلقاه فيه، فاستكتبه كتاباً يكون بينه وبينه، يبرزه إليه يوم أن يظهره الله على قومه، والنبى لم يرفض له طلب وكتب إليه أبو بكر بأمر النبى ﷺ كتاباً على ما رأيت نفعه يوم أن أظهر الله نبيه.

<u>وأما ثانياً</u>: فإن سراقة قد أخذ على عاتقه عهداً أن يصرف الناس عن النبى ﷺ ورفاقه ما استطاع إلى صرف الناس سبيلا، وقد وفى سراقة وبرئت ذمته.

---

[1] سيرة ابن هشام- جـ٢ ص ٩٦،٩٧.

وانتهت قريش إلى أن استسلمت لليأس، تجتر ما ضيها فتتفاخر به مع فؤاد مكلوم، وتعيش حاضرها فتستقين أنها قد خسرت الدنيا والآخرة، ولا راد لما خسرته.

وما لنا بقريش نغشى مجالسهم بعد أن أصبح هذا هو حالهم نألم كما يألمون، ونذوق من المرارة ما يذوقون؟

مالنا وذلك كله نعايشه ونطيل باسترجاعه ووصفه؟

إن من الخير لنا ولك أن نجوب الصحراء بحثا عن النبى ﷺ وصحبه،لا رغبة فى جُعْلَ قريش، ولا على نية سراقة حين هم بالبحث عن النبى ﷺ، ولكن أرغب أن أصطحبك ونجوب الصحراء بحثا عن النبى ﷺ نتأمل حاله وحال صحبه، فنحن حين نظفر بالنبى ﷺ وصحبه سيهون علينا هذا الظفر قسوة الطريق وعناء البحث والنظر بالبصيرة والبصر فى أدربها وطرقاتها.

وأنت خبير أن النبى ﷺ قد علم أن قريشا لن تهدأ، وأنها سترسل فى طلبه، وكان فى سراقة وفعله الدليل القاطع.

ولقد حرص النبى ﷺ الحرص كله بعد أن أدرك ما أدرك على أن يجهد نفسه والذين معه، فيأمرهم أن يجدوا فى السير، ويضرب أكباد الإبل فى كل طريق يرونها آمنة، فينشطون فى السير طوال الليل ويقيلون إذا ارتفعت الشمس واشتد القيظ.

فلما أمن النبى ﷺ بعد رحلة مضنيةعرضه ربه لقصة مثيرة فى حى من أحياء العرب أقام به بعضا من وقت، وشيئا من زمان.

وقد قدر لنا أن ندرك ركب النبى ﷺ ببصائرنا أمام خيمة لامرأة عربية، كان من شأنها أنها تقدم للناس الطعام والشراب، تبيع من تبيع منهم، وتقرى من الناس من تقريه.

أما أنا وصاحبى فتواجدنا فى هذا المكان تواجد بالبصيرة، وفى بحبوحة الخيال العلمى، ومن كان شأنه كذلك، فلن يحظى بشـــئ مـــن طعام أو شراب تقدمه إليه هذه البدوية، لا بالثمن ولا على سبيل القرى.

وأما نبينا محمد وصحبه فقد شاء الله لهم أمراً عجيباً، ذلـــك أن الله لم يشأ أن يكون لأحد على نبيه يد أو نعمة، يتعالى عليه بـــها فـــى الدينا، أو يظهرها له يوم يقوم الأشهاد، إذ النبى ﷺ من دون الخلائـــق قد أرسله الله رحمة للعالمين.

ألم أقل لك إننا الآن أمام قصة مثيرة، لاعلاقة لـــــها بـــأحداث الهجرة، إلا أن يكون الله قد أراد أن يذهب عن النبى ﷺ ومـــن معـــه وحشاء السفر، ويروح عن قلوبهم، فيزيل عنها ما أصابها مـــن قســـوة الطريق.

وأنا أحب أن أجعلك وجهاً لوجه مع رواية التاريخ الثبت يحكى لك المؤرخون قصة ركب النبـــى ﷺ مـــع هـــذه الأعرابيـــة وســـط الصحراء، واسمها (عاتكة بنت خالد بن خليف بن منقذ بن ربيعة بـــن أصرم الخزاعية) وكنيتها أم معبد.

ولقد كان لهذه البدوية من شهرتها بالكنية ما لم يتوفر لها مـــن الاشتهار بالاسم والمؤرخون يذكرون قصتها بشئ من الزهو، تســـتحقه وتستحق أكثر منه لما حباها الله عز وجل به من خلق وفصاحة.

[روى الطبرانى والحاكم وصححه، وأبـــو نعيـــم وأبـــو بكـــر الشافعى عن حبيش بن خالد الأشعر الخزاعى القديدى، أخى أم معبـــد رضى الله عنهما، وأبو بكر الشافعى عن أبى سَليط بفتح السين المهملـــة وكسر اللام فمثناة تحتية فطاء مهملة- واسمه أسيرة- بضم أوله وفتـــح ثانيه وسكون المثناة التحتية- ابن عمرو الأنصارى رضـــى الله عنـــه، وابن سعد والبيهقى عن أبى معبد، وابن السَّكن عن أم معبد رضـــى الله عنها، والبزار أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكـــة مـــهاجراً إلـــى المدينة هو وأبو بكر، ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة ودليلهم الليثـــى عبد الله بن الأريقط، مروا على خيمة أم معبـــد الخزاعيـــة، وهـــى لا

تعرفه، وكانت بَرْزَةً جلدة تحتبى بفناء القبة ثم تسقى وتطعم فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها

شيئاً من ذلك، وإذا القوم مرملون مسنتون، فقالت، والله لو كان عندنا

شئ ما أعوزناكم، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كِسْر الخيمة- وفى لفظ فى كِفاء البيت - فقال: ما "هذه الشاة يا أم معبد؟ " قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: "هل بها من لبن؟" قالت: هى أجهد من ذلك قال: "أتأذنين لى أن أحلبها؟" قالت: بأبى أنت وأمى نعم إن رأيت بها حلبًا فاحلبها فو الله ما ضربها فحل قط فشأنك بها، فدعا بها رسول الله

ﷺ فمسح بيده ضرعها وظهرها وسمى الله عز وجل، ودعا لها فى شاتها فتفاجَّت عليه ودرّت واجترت، ودعا بإناء تربض الرهط فحلب فيه ثجًا حتى علاه البهاء- وفى لفظ الثمال- ثم سقاها حتى رويت ثم

سقى أصحابه حتى رووا ثم شرب ﷺ آخرهم، وقال: "ساقى القوم آخرهم شرباً"، ثم حلب فيه ثانية بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها، فبايعها.وارتحلوا عنها.

وروى ابن سعد وأبو نعيم عن أم معبد قالت: " بقيت الشاة

التى لمس رسول الله ﷺ ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة وهى سنة ثمانى عشرة من الهجرة زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً، وما فى الأرض قليل ولا كثير"

وقال هشام بن حبيش: "أنا رأيت الشاة وإنها لتأدم أم معبد وجميع صرمتها" أى أهل ذلك الماء.

فقلَّ مالبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حيالاً عجافاً يتساوكن هزالاً مخهن قليل.

فلما رأى اللبن عجب فقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب ولا حلوب فى البيت؟ قالت: " لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا" قال: " صفيه لى يا أم معبد" قالت: " رأيت رجلا ظاهر الوضاءة أبلج الوجه حسن الخلق، لم تعبه ثجلة ولم تُزر به صعلة، وسيم قسيم، فى عينيه دعج وفى أشفاره وطف وفى صوته صحل- أو قالت صهل- وفى عنقه سطع، وفى لحيته كثاثة، أزجّ

أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق فصل لا نـزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدَّرن، ربعة لا تشنؤه من طـول ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضـر الثلاثـة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقولـه، وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا مفند"، فقـال أبـو معبد: " هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكـر ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا"][1]. ولـم تنته قصة أم معبد فى كتب التاريخ وفى ذاكرة المؤرخين عند هذا الحد بل إنهاعاشت ونمت ثروتها واتجرت فى الألبان ومنتجاتها، حتى كـانت تبيع فى أسواق يثرب (المدينة).

وحدث أن مر أبو بكر بها وهى تعرض بضاعتها فى أسـواق المدينة، فرآه ولدها فقال لأمه: أمه إن هذا لهو الرجل الذى كـان مـع المبارك يوم الشاة، فقامت أمه إلى أبى بكر وسألته عن المبارك من هو وما شأنه، فأخبرها أنه رسول الله ﷺ، فخفت لزيارته وأهدته شيئا مما كانت قد جلبته للتجارة، فهش لها النبى ﷺ وحملها ما يليق بـها مـن الكسوة والمتاع.

ولم تنته قصة الشاة التى حلبها النبى ﷺ عند هذا الحـد فـى كتب التاريخ، ولا فى ذاكرة المؤرخين، ولكنهم قالوا: إن هذه الشاة قـد بقيت إلى العام الثامن عشر من الهجرة، وفيه من الجدب والقحـط مـا تعلم ونعلم، وهذه الشاة عند أم معبد تأخذ منها اللبن صباحـاً وعبوقـاً وهى تمدها باللبن لا تمتنع أن تعطيها خيرها.

مكث النبى ﷺ فى حى أم معبد ما شاء الله أن يمكث ومعـه صحبه ورفاقه فى سفره، ثم عاودوا بعد ذلك يكملون رحلتهم، ويتابعون السير ويجدون فيه، وهم أكثر اطمئناناً وأهدأ بالاً، ظلهم السكينة، وتلوح بين أعينهم تباشير النصر.

---

(1) سبل الهدى والرشاد جـ ٣ ص ٣٤٦:٣٤٨.

لقد طوى النبى ﷺ وصحبه الفيافى والقفار، وقطعوا من الطرق مستقيمها ومعوجها، ترفعهم الجبال وتنزل بهم السهول، ويأخذ منهم لهيب الصحراء، وتنال منهم أشعة الشمس، ويؤذيهم صغار الرمال يعبث بها الرياح، وهم يستحضرون صورة مطاردة القرشيين، إلى أن أصبحوا الآن على مشارف المدينة، بينهم وبينها القليل من الزمن والقليل من الأميال.

وهم من أجل ذلك يسيرون الآن فى تؤدة، ويمشون مطمئنين عليهم من الله السكينة، وبين أيديهم منه تباشير النصر.

أما أهل يثرب فقد علموا بخروج النبى ﷺ، وعلموا بمطاردة قريش له، وهم أناس جلهم قد آمنوا به ولم يروه، الدهماء يسمعون به فيعلمون نسبه وسِطته فى قومه ومكانته الاجتماعية بين أهله وذويه وهم يعلمون مع ذلك خلقه وعفافه، وصبره وجلده على ما لاقاه من قومه من الأذى والعنت.

أما كبار القوم وسادتهم فما كانوا بأكثر حظ من عامتهم ودهمائهم، فقد آمن الكثير منهم، ودخل الإسلام دون أن يقابل النبى ﷺ، ودون أن يتشرف برؤيته.

والدهماء والسادة جميعاً كانوا قد سمعوا بهذا النبى قبل مقدمه وأنه قادم وظاهر فى هذا الحى من العرب، وأن اليهود سيسارعون إليه ويبادرون فيتبعون دينه، ويتخذون منه قائداً يعملون تحت قيادته فيقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

إن هؤلاء القوم فى يثرب ينتظرون النبى ﷺ تحيط بهم عوامل نفسية مختلفة.

إنهم ينتظرون النبى بشوقهم إلى لقائه بغير حدود.

وهم ينتظرون النبى ﷺ وخوفهم عليه من بطش قريش يجعلهم فى قلق بغير حدود.

وهم ينتظرون النبى ﷺ ورصيدهم من الإذلال الفكرى والحضارى، وآثار الفرقة المدمرة بين صفوفهم التى أوقعها اليهود بهم لا تكاد تفارق الواحد منهم.

وهم ينتظرون النبى ورغبتهم فى الانتصار على واقعهم الاجتماعى و الخلقى لايحدها حد من زمان أو مكان.

إنها أحوال نفسية استحضرنا أمامك بعضها، وتركنا لك استنباط البعض الآخر حين تلتقى ونحن معك بهذا اللقاء المرتقب، تتناهى إلينا وإليك حرارته التى لم يطفئها توالى السنين وتعاقب الأيام.

يقبل ركب النبى ﷺ رويداً رويداً يقترب من قباء، ويخرج أهل يثرب مطلع كل صباح ينتظرون مطلع النور، لا يصرفهم عن موقعهم إلا حرارة الشمس تنال منهم، وينال الظمأ من أجسامهم حتى يظهر أثر الجفاف فى حلوقهم.

ولم يشأ الله أن يطول المقام على هذه الأشواق طويلاً.

ولم يشأ الله أن يبقى ركب نبيه فى الصحراء بغير انتهاء

ومشيئته خير.

ولقد أقبل الناس إلى ثنيات الوداع، وكان مطلع النور من جهة مكة، فالتقت الإرادتان على خير هدف، هدف القائد والرعية، هدف النبى ومن جاء إليهم النبى، هدف الرسول ومن أرسل إليهم الرسول.

لقد أشرقت الأرض بنور ربها فى يثرب، حيث شاء الله أن تكون يثرب هى الوطن الذى سيشع النور منه ليعم أقطار الأرض.

أما القلوب المشوقة إلى النبى ﷺ، فليس أمامها ما تعبر به عن هذا الشوق إلا أن تسمع التاريخ حين تصب فى أذنه:

طلع البدر علينا　　من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا　　ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا　　جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة　　مرحباً ياخير داع

واستقر النبى ﷺ فى يثرب بعد أن مر بضواحيها مســـرعا أو مبطئا لتكون يثرب محياه بعد ذلك ومماته.

الفصل السادس

الحصاد

فيما مضى من حديث حرصت أن أكون واضحاً معك في مسألة الهجرة، أحداثها وأغراضها، وما وقع بين يدى الحدث والغرض من مقدمات ووسائل.

كما حرصت أن أكون قريباً من شواهد التاريخ الثبت، حتى تكون الحادثة خير شاهد يؤيد الأقوال ويزكيها.

ولقد انتهى الأمر بى وبك إلى أن ألقينا عصى الترحال على

مشارف يثرب، لم أشأ أن أدخلك فى تفاصيل دخول النبى ﷺ المدينة فيما سبق لى معك من حديث، حيث قد رأيت أن أرجئ الحديث عن هذه المرحلة إلى هذا الفصل، لأنى أرى أنه إلى الحصاد أقرب منه إلى

أحداث الرحلة المضنية، التى لاغرض منها إلا أن يخرج الله النبى ﷺ مخرج صدق من مكة، ويدخله مدخل صدق إلى المدينة.

وفى هذا الفصل على كل حال سنتحدث معاً حول مجموعة من المحاور، نوجزها إيجازاً، ونختصرها اختصاراً، ولكننا مع الإيجاز والاختصار سنحاول أن نبرز الحكمة من إثارة الحديث حول كل محور، حتى تظهر الحكمة بين يديك جلية واضحة.

إنها مجموعة من المحاور نحب أن نضعها بين يديك يتضمنها هذا الفصل من فصول هذا البحث.

يكون من **أولها** مثلا: أن نحدثك عن أول عهد النبى ﷺ بيثرب وما يحيط بها.

ويكون **منها** أن نحدثك عن أن النبىَ ﷺ قد عمد أول عهده بالمدينة، أن يؤسس بها مسجداً يأوى إليه الناس، يعبدون ربهم ويقضون مآربهم، والمسجد يستوعبهم من غير أن يكون فى ذلك شئ من حرج ومن غير أن يكون فى ذلك شئ من ضيق فى النفوس.

ثم قد يكون منها **ثالثاً:** حديث حول هذا الحدث الفريد في التاريخ، والذى لم يشهد المؤرخون نظيراً له، وهو محاولة إيجاد الوحدة الوطنية المتمثلة فى مجموعة من الروابط، لم يكن لهذا المجتمع اليثربى بها من عهد، ولم يكن لهذا المجتمع اليثربى بها من معرفة.

ولو أنى قصرت حديثى معك فى هذا الفصل، على هذه المحاور الثلاثة لكنت بهذا الحديث مغتبطاً، حيث قد أنهيت إليك شيئاً من الحصاد يجمع أحداثاً قد تفرقت، وباعد بين أجزائها هذا الطريق الطويل والمتشعب الذى سلكناه معاً على طريق الهجرة، نسعد ونألم ونضحك ونبكى، ونتعثر ثم ننهض، إلى غير ذلك مما لقيناه من صعوبات نفسية لا حد لها على طرفيها، ولا حصر لها فى أعدادها.

ولو أنى قصرت حديثى معك فى هذا الفصل، على هذه المحاور الثلاثة لكنت بهذا الحديث مسروراً، حيث أكون قد وضعت بين يديك شيئاً قد عقدت العزم منذ أول لقائى بك على أن أضعه بين يديك، وقد طال العهد بى وبك، وخشيت أن نفترق قبل أن ألقى به بين يديك مبيناً أن هذا الذى ألقيته بين يديك يشبه أن يكون حصاد الرحلة بتمامها إذ إن المتأمل فيه لا يفوته أن يدرك أن هذه المحاور الثلاثة، تصلح أن تكون نتيجة منطقية لهذه الرحلة المضنية، وهى فى نفس الوقت تصلح أن تكون قاعدة انطلاق جديدة، ينطلق النبى ﷺ والمسلمون منها إلى آفاق لا يعلم مداها إلا الله.

١- ولتكن بدايتنا هى الحديث عن المحور الأول، وهو حديث منطقى لأنه قد يتراءى لبعض الناظرين أنه امتداد من حيث الزمان والمكان لما ذكرناه بعد من أحداث.

ونحن لا نلوم من نراه كذلك، فإن النتائج انتزاع من مقدماتها بحيث تترآى للبعض وكأنها امتداد لهذه المقدمات، فى حين أن غيرهم يراها نتيجة وثمرة وحصاداً.

ولابأس على من يراها امتداداً زماناً ومكاناً خاصاً إن كان هذا البعض ممن يهتمون بالتاريخ وتسجيل الأحداث.

أما أنا فأتحمس لأناس آخرين يرون ما نحن بصدده نتيجة لما سبق حيث تستهويهم فلسفة التاريخ، وحيث يستهويهم علم الاجتماع الذى يضم قواعد العمران، ويأتلف نظمه وسننه.

ونحن على كل حال سنباشر الحديث عن هذا المحور مستعنين بالله فى تأمله، حتى نفهم الحدث ونفهم ما وراء هذا الحدث والله خير معين.

ترك النبى حى أم معبد مقبلا على يثرب، أو بالأحرى على ضاحية من ضواحيها، والناس كانوا ينتظرونه صباح كل يوم، فإذا ما أجهدهم الانتظار وقسوة الظروف المناخية، عادوا إلى بيوتهم آملين أن يقبل النبى ﷺ عليهم فى اليوم التالى.

وما هو إلا أن لقيهم يوم من الأيام أجهدهم فيه طول الانتظار فعادوا إلى ديارهم، ولم يستقر بهم المقام حتى تناهى إلى أسماعهم صوت يهودى، هم يكرهونه ولا يحبون لقاءه، كما يكرهون إخوانه الذين هم على دينه، لما نالهم منهم من أذىً فى أوصالهم الاجتماعية التى قطعوها بالتفريق بينهم، وفى أواصر قرابتهم التى نالوا منها بإشعال نار البغضاء بينهم، وفى مواضع الذم والمدح فيهم التى نالت منها معاول اليهود بمحاولة إذلالهم والتعالى عليهم، ثقافياً وحضارياً ودينياً.

لقد سمع الناس الذين انصرفوا من مواقفهم التى صدهم عنها عوامل المناخ وقسوتها، صوت يهودى تمج صوته الأسماع، ولكنه ينتهى إليهم بأحلى ما كانوا ينتظرونه من الأنباء والأخبار، فأخذ الموقف بأسماعهم وقلوبهم حتى ولو كانت أحلى القلائد وأجملها منظراً قد علقت فى رقبة حمار.

وهذا اليهودى نفسه ما كان يود أن يكون حامل الخبر إلى أسماع المسلمين يسرهم به ويسعدهم، غير أن الله الذى اتخذ منه ممهدين يمهدون الأرض، ويجهزون الساحة الطبيعية والنفسية أمام النبى ﷺ، وأمام الدين الذى جاء به، شاء الله أن يكون بعضهم هو

الذى يحمل النبأ إلى مسامع المسلمين على كره منـــه، وعلـــى بغـــض لمضمون ما يحمله إلى أسماع المسلمين.

لقد هتف اليهودى بالمسلمين أن قد جاء نبيكم الذين تنتظرونـــه وعلم المسلمون أن الأمر جد وليـــس بالـــهزل، وأنـــها بدايـــة تحمـــل المسئوليات، وليست هى النهاية التى تجنى فيها الثمرات.

فلئن كان النبى ﷺ قد أنهى رحلة الهجرة إليهم، فلقد بدأت فـــى حقيقة الأمر مرحلة الدعوة إلى الله بما لها من تبعات.

لقد خف القوم إلى السلاح فلبسوه، وإلى النبى ﷺ الـــذى لـــم يروه قبل فاستقبلوه، وفى هذه وتلك من رمزيات إلى المســـتقبل مـــالا يدركه إلا مهموم بمقادير الأمم، أو مشغول باستبطان أحداث التاريخ.

[روى البخارى عن عائشة، وابن سعد عن عبد الرحمـــن بـــن عويم بن ساعدة عن جماعة من الصحابة أن المسلمين بالمدينـــة لمـــا سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة وتوكفوا قدومه، كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر الحرة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس علـــى الظلال، ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا وذلك فى أيـــام حارة، حتى كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت، فأوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصـــر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يلوح بـــهم الســـراب فلـــم يملـــك اليهودى نفسه فصرخ بأعلى صوته: "يابنى قيلة"، وفى لفـــظ يامعشـــر العرب، "هذا جدكم"، وفى لفظ: هذا صاحبكم الذى تنتظرون، "قد جـــاء" فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة وذلـــك يوم الاثنين لشهر ربيع الأول، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو فـــى ظل نخلة ومعه أبو بكر فى مثل سنه.

وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق مـــن جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيّى أبا بكر حتى أصابت

الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائـــه فعــرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك].

ولقد كان النبى ﷺ ذا بصر شديد بخلائق العــرب وطباعــهم وما يصلحهم أو يفسدهم على درب هذه الخلائق والطباع.

وإن هذا الفهم ليبدو لك بعضه ظاهراً حين ترى النبـــى بيــن الناس فى موقف اجتماعى، يحتاج إلى حسم ويشتاق إلى قرار.

وإننا لا نرى بعض ذلك واضحاً أول مالقى الناس النبى خــارج يثرب.

ولو أن النبى ﷺ قد استقام على طريقه بعد أن لقيـــه النـــاس لوصل إلى يثرب بعد زمن قصير، ولكنه من هذا الوصـــول الســـريع يكون قد أهمل أشياءً لا يلومه على إهمالها اللائمون، ولكنه لو رعاهـــا لكان خيراً لهذا الدين، ولكان خيراً للمســـلمين، ولكـــان مثـــاراً لمـــدح المادحين.

والمدح وإن كان من الأشياء التى يزهد فيها النبى ﷺ، إلا أنه يمهد الطريق إلى قلوب يفتحها الله على الخير، و إلى شئ من الألفـة لا يزهد فى مثلها النبى ﷺ.

أعود فأقول من جديد لو أن النبى ﷺ قد أخذ الطريـــق علـــى استقامته بعد أن لقيه الناس، لكان قد وصل إلى يثرب فى وقـــت قليـــل غير أن النبى قد رأى أن يتجه يميناً حتى يصل إلى قباء وحوله النـــاس والتاريخ من خلفه يجثو على ركبتيه إذا ما وقف ركب النبى ﷺ وهـــو يسرع الخطى بكل ما أوتى من طاقة ليلحق بالنبى وركبه إذا ما تحـــوك ركب النبى ﷺ هنا أو هناك.

اتجه النبى ﷺ يميناً بركبه لينزل على حى من أحياء العــرب

هو حى – بنى عمرو بن عوف– وشاء النبى ﷺ أن ينزل على ســيد من سادات هذا الحى هو فى أرجح الآراء (كلثوم بن الهدْم).

وهو وإن كان يومها رجلاً مشركاً إلا أنه كان رجلاً مطاعاً فى قومه، يألف الناس ويألفونه.

وقد يقول قائل بل نزل النبى ﷺ على سيد آخر مــن ســادات القوم هو: (سعد بن خيثمة).

ويحاول أن ينتصر أصحاب هذا الرأى لما قالوه، بما يذكرونــه من أحوال سعد، وأنه كان رجلا عزباً لا أهل له معه فــى بيتــه، وأن الناس من المهاجرين كانوا يقيمون عنده لذلك، والنبى ﷺ قد أقام معهم لهذه الحال التى ترجح أن يقيم النبى ﷺ معهم.

ومع أن العقل يجيز هذا المسوغ، إلا أن التاريخ يرجح أن النبى كان قد أقام أيامه الثلاثة عند (كلثوم بن الهدْم).

وما أحسن ما ذكره بعضهم من أن النبى ﷺ أقام عند كلثــوم وهو سيد من سادات القوم، ولكنه كان يخرج إلى أصحابــه يجالســهم ويحدثهم فى بيت سعد بن خيثمة، لما ذكرناه قبل من أحواله التى تناسب أن يجتمع الناس عنده.

وهذا مما أراه يناسب طبع النبى ﷺ وثاقب رأيه، حيث أقــام عند سيد من سادات القوم، وجلس لأصحابه كلما أراد الجلــوس إليــهم عند سيد آخر من سادات القوم، ليكون فى ذلك أكثر اســتمالة لقلــوب السادة والعامة على السواء.

وتوسيعاً لدائرة الاستمالة هذه رأى النبى ﷺ أن يقيم صاحبــه فى الغار، ورفيقه على طريق الهجرة أبو بكر الصديق عند رجل آخــر من رجالات القوم هو – خبيب بن إساف أحد بنى الحـــارث– ويقــال نزل على– خارجة بن زيد بن أبى زهير أخى بنى الحارث بن الخزرج

- ولقد أقبل على بن أبى طالب من مكة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام أمره النبى ﷺ أن ينفقها بمكة، يؤدى فيها عنه ما تعلقت ذمته به من الودائع، وما كان عنده للقوم من أمانات، رأى النبى ﷺ أنها يجب أن ترد مهما كانت لهم معه من مواقف تؤذيه، ومهما كانت نفوسهم قد امتلأت عليه بالشنآن الذى لا يرضيه.

وحين أقبل علىّ لحق بالنبى ﷺ، وهو ما يزال بقباء، وأقام معه حيث أقام فى بيت - كلثوم بن الهِدْم-.

وشاء النبى ﷺ بعد مشيئة الله أن يبنى مسجداً بقباء قبل أن ينصرف عنها، يصلى فيه مقامه بها، ويجلس فيه إلى أصحابه المدة التى سيكون معهم فيها بقباء، ثم يتركهم يصلون به ويجتمعون فيه يناقشون أمورهم، ويصلحون من أحوالهم الاجتماعية.

ولقد كان لكلثوم هذا مربداً، وهو مكان فسيح يعده الواحد من القوم ليجفف فيه تمره، الذى هو محصوله السنوى من النخيل، فكلمه النبى ﷺ فيه يتخذه مسجداً، وفرح كلثوم لذلك فرحاً شديداً وأعطاه المربد وبنى مسجداً، وهو مسجد قباء المعروف اليوم بين الناس.

وهو مسجد قباء الذى أسس على التقوى من أول يوم.

وهو مسجد قباء الذى صلى به النبى ﷺ جماعة بالمسلمين أول عهده بهذه البقعة من الأرض.

ولأن النبى ﷺ يعرف منزلة المساجد عند الله وبين الناس.

ولأن النبي ﷺ يعرف دور المساجد الذى ينبغى أن تطلع به.

ولأن النبى ﷺ يعلم أن للمساجد من الجاذبية ما يجعلها تؤلف بين القلوب، وما يجعلها تعد نقطة انطلاق روحية إلى حركة المسلمين كى يصلحوا من شأنهم، وشأن دينهم، وشأن دعوتهم.

لأن النبى ﷺ يعرف هذا كله من شأن المساجد، حرص على أن يحمل الأحجار إلى بناء أول مسجد أسس على التقوى، حتى رآه المسلمون أو بعضهم وهو يحمل الحجر على بطنه، ينحصر عنه بسببه ثوبه أو بعضه، فيُرى بياض بطنه وقد علاه التراب، فيقبل المسلمون عليه إكباراً له لا شفقة عليه ويرجونه أن يجلس هو يستريح، ويكفونه العمل، وهو يأبى قائلا لمحدثه: "خذ مثله" أى مثل الحجر الذى حدثه فى أن يتركه له، وماذاك إلا لأن النبى ﷺ يعلم مكانة مثل هذا العمل عند الله عز وجل، وما ذاك إلا لأن النبى فى طبعه يكره أن يتميز على أصحابه.

ألم أقل لك إن النبى ﷺ كان ذا بصر شديد بخلائق العرب وطباعهم، وما يصلحهم أو يفسدهم على درب هذه الخلائق والطباع؟

لقد رأيت أن أقول لك ذلك، وأن أرشدك إليه بما أرشدتك إليه من انحيازه إلى جهة اليمين، وتركه الأخذ باستقامة الطريق، ونزوله على بنى عمرو بن عوف، وفى بيت يملكه أحد سادتهم يخرج منه ليلقى أصحابه فى بيت آخر لسيد آخر.

وأنا لم أشأ أن أذكر هذا كله، لكى أدلل على دعوى نصبتها أمام عينيك، فأنا أعلم أن هذه دعوى لا تحتاج إلى دليل حتى تستقيم أمام العقول، لأن بصر النبى ﷺ بالأمور قد استفاض بين الناس مؤمنهم وكافرهم، بحيث لم يعد بعد يحتاج إلى دليل يدل عليه.

وإنما رأيت أن أسوق إليك ماسقته بين يديك، ليكون عنصراً من هذا المحور الأول من محاور ثلاثة أردت أن أتحدث إليك حولها.

وما كان ترضية النفوس، وجذب القلوب هى وحدها التى جعلت النبى ﷺ، ينتحى إلى جهة اليمين لينزل على هذا الحى من أحياء العرب، وإنما يضاف إلى ذلك أمراً هاماً لا يجوز إغفاله، قد يجوز من وجهة نظر المسوغات الاجتماعية والطبيعية أن نقول: إن التجربة التى مر بها النبى ﷺ قد أمدته بشئ من الخبرة، ولون من الدربة جعلاه يدرك هذا الأمر وأمثاله.

وليس على مقام النبوة من بأس أن نقول: إن النبى ﷺ يـزداد خبرة فى مجال الاجتماعيات، حين يكثر تعامله مع سنن الله الجارية.

والأمر الذى أريد أن أضيفه الآن إلى ما قلته من قبل، هـو أن النبى ﷺ قد خرج من أحداث الهجرة الطويلة، ومن الإعداد السابق لها بانطباع لا يكاد يفارقه، وهو أنه لا يجوز أن يقدم على أمر ليس له بـه عهد، إلا على شئ من الحذر، وإلا بشئ من الأناة، وإلا بمنهج تكـون سمته الأساسية الرفق والبصر.

وأنت خبير أن النبى ﷺ قد تعلم أثناء رحلة الـهجرة كيـف يحسب لكل أمر حسابه، وأن يوغل فى كل أمر برفق شديد حتى يضـع قدمه على المكان الذى يطمئن إليه.

والنبى ﷺ قد جاء إلى يثرب وفيها مجتمع غير مؤتلـف هـو مكون من طوائف متنازعة، ومن مجموعات متناحرة.

ففيها المنافقون لا يعلنون ميلهم إلى الخير ولا يعلنون ميلهم إلى الشر، بل هم أناس، لايهتمون إلا بمصالحهم الشخصية، وفـى سـبيلها يكيدون للأخيار كما يكيدون للأشرار.

وفى مجتمع يثرب، الأوس والخـزرج، توزعتـهم الحـروب وأكلت يابسهم وأخضرهم، وهم قريبو عهد بوئام.

وقبل ذلك وبعده نرى مجتمع يثرب يضم من بيـن مـا يضـم اليهود بطوائفهم، لايحبون النبى ﷺ ولا غـيره مـن غـير اليـهود وكراهيتهم للبنى ﷺ ودينه أشد.

مجتمع غامض شديد الغموض، وهو جديد على النبى لايجـوز أن يدخله إلا برفق وعلى حذر.

صحيح أنه قد انقضى عامان على دخول الإسلام إلـى يـثرب وصحيح أن هذين العامين قد تخللتهما أدرب من المعاهدات والمواثيـق أعطاها النبى ﷺ إلى الأوس والخزرج وأخذ منهم، إلا أن النبـى لـم

يعاهده جميع الطوائف بيثرب، ولا أكثرهم، الأمر الذى يجعلــه أكــثر حذرا وحيطة.

وصحيح أن المهاجرين قد سبقوا النبى ﷺ إلى يــثرب وهــم سيكونون معه على غيره، إلا أن المهاجرين قليلون عدداً وعدة، وهــم فى يثرب غرباء، ليس لهم بها نسب ولا تاريخ، الأمر الذى يجعل النبى ﷺ يدخل المهاجرين فى حسابه ليدفع عنهم ولا يدفع بهم.

إنها لأمور بالغة التعقيد أمام قائد بصير، فكان لابد أن يحســب لكل أمر حسابه.

ومن بين حساباته التى حسبها، أنه لم يــأخذ الطريــق علــى استقامته، بل انحرف يميناً لينزل على بنى عمرو بن عوف، ويبقى فــى هذا الحى أياماً، إذ إنه يأنس إليهم، والمهاجرون قد نزلوا بــهذا الحــى وهو حى على أطراف يثرب، يحسن أن يكون النبى ﷺ به ليســتطلع الموقف، قبل أم يزج بنفسه وبأصحابه فى بحار مجتمع لم يختبره بعد.

وإنه لقائد عظيم، بل إنه لنبى مرسل.

بقى النبى ﷺ أياماً وليالى فى هذا الحى من أحيــاء العــرب باشر أثناءها أموراً انشرح صدر أرباب هذا الحى لــها، علــى نحــو ماحدثناك .

ولم يشأ النبى ﷺ أن يفجع هذا الحى فيصارحهم بأن إقامتــه بينهم موقوتة، بل إنه بنى وأسس فى أيام ما يجعل القوم يعتقدون أنــه سيقيم معهم، وأنهم أنصاره المقربون.

وهذا جانب من خلق رسول الله ﷺ، لايكاد الواحد أو الجماعة تجالسه حتى يعتقد كل فرد أن النبى ﷺ له وحده، وأن ما عداه إنمــا يأتى فى درجة متأخرة.

بنى النبى ﷺ بين الناس مسجداً، وشارك بنفســه فــى بنائــه وامتدح القرآن الكريم هذا المسجد والمحيطين به **{لمسجد أسس علــى**

التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطـهروا والله يحب المطهرين}[1].

وجالس النبى ﷺ أصحابه وجالسوه، منهم المهاجرون، ومنـهم سكان يثرب الأصليون.

أيام وليالى قضاها النبى ﷺ بين القوم لم تَضِعْ هبـاءً، وهـى على قلتها قد منحت النبى ﷺ فرصة يستوعب فيها الموقف بتمامه.

ولكنه مع ذلك لم يرخ العنان للظروف تمضـى حيـث تشـاء وتوجهه كيفما تريد، وما كان النبى ﷺ بالرجل الذى يفعل ذلك.

فأنت ترى التاريخ يحكى عنه، أنه من مكانه الـذى هـو فيـه أرسل إلى أخواله من بنى النجار فى عمق يثرب، فجـاءوه مدججيـن بالسلاح، حتى إذا أعلن المسير إلى يثرب كانوا من بين من يحيطـون بالنبى ﷺ، بل كانوا أدنى القوم منهم.

ولقد وقفت أمام هذا الحدث فترة أتأمله، إذ النبى ﷺ قد أحـاط به المهاجرون، وقد أحاط به الذين أعطوه ليلة العقبة، وأخذوا منه، وقد أحاط به الذين أسلموا من عامة اليثربيين وسادتهم، ومع ذلك تراه يبعث فى طلب أخواله من بنى النجار، الأمر الذى جعلنى أعجب ويـأخذنى التفكير حيناً من الزمن لم يشأ الله له أن يطول، إذ قد وقع فى صـدرى أن الرجل قد يدافع عن النبى ﷺ حمية، وأن الرجل قد يدافع عن النبى ﷺ تديناً، وأن الرجل قد يدافع عن النبى ﷺ لقرابته منه.

أما النبى ﷺ فقد أراد أن يستوعب هذه الأسباب حوله، تحسباً لأى ظرف جديد، أو احتياطاً من طارق لا يطرق بخير.

---

[1] التوبة: ١٠٨

وها هى الأسباب قد توفر بعضها بين يدى النبى، فمنهم الذين سيدافعون عن النبى ﷺ حمية إذا ما اقتضى الأمر ذلك، من نحو كلثوم بن الهدم وكان يومها مشركاً وكان سيداً مطاعاً فى قومه.

ومن الناس من يدافع عن النبى ﷺ تديناً، وهم يومئذ كثيرون من مهاجرين ويثربيين على السواء.

بقى أن يستنهض النبى ﷺ همم أقاربه ليكونوا فى صحبته حتى تكتمل له مجموعة الأسباب التى أراد أن تكتمل له.

إنه لأمر بالغ الدقة.

وإنه لحرص على الأخذ بالأسباب يشبه ما حدث قبيل غار ثور وما هو منك ببعيد.

وإنه لحَذرٌ بالغ فى التعامل مع حدث يحتمل النبى ﷺ وقوعه، يذكرنا بالحذر الشديد الذى اصطنعه النبى ﷺ، منذ أن خرج من الغار إلى أن استقر فى رابعة بنى عمرو بن عوف.

وما كان لمثل النبى ﷺ أن يغفل سبباً من الأسباب، التى يحمله على اصطناعها هذا الحذر، وما يستقبله به الزمان.

[روى الإمام أحمد والشيخان عن أبى بكر، وسعيد بن منصور عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم والبيهقى عن موسى بن عُقبة وابن إسحاق عن عويم بن ساعدة، ويحيى بن الحسن عن عمارة بن خزيمة أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يدخل المدينة أرسل إلى بنى النجار، وكانوا أخواله لأن أم عبد المطلب منهم فجاءوا متقلدين السيوف، فقالوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه: "اركبوا آمنين مطاعين" وكان اليوم يوم الجمعة].

جاء أخوال النبى ﷺ من بنى النجار تلبية لأمر النبى ودعوته إياهم، وجاءوا متقلدين سيوفهم فى أردية الحرب والقتال.

وفهم أخوال النبى ﷺ من بنى النجار ما الـــذى يرمـــى إليـــه النبى، فقالوا للنبى والذين معه: "اركبوا آمنين مطاعين".

وأنت تستطيع أن تتأمل فى هذه العبارة " اركبوا آمنين مطاعين " لتجد فيها إشارتين عظيمتين، الإشارة إلى الأمـــن، والإشـــارة إلـــى السيادة.

والقادم من بلد إلى بلد ليس له فيها أهل ولا وطن ولا تـــاريخ، وهو يدخل على مجتمع متعدد الأغراض، ومتنوع الآراء فى شأنه وهو

على مثل النبى ﷺ صاحب دين ودعوة لا يحتاج إلى شئ فوق هذيـــن الأمرين: الأمن حتى لا يزعجه شئ، ولايقدر عليه مقدر، والسيادة حتى لا يرد عليه أمره إذا أمر، أو يتمرد أحد على نهيه إذا نهى.

لقد جاء أخوال النبى ﷺ يلبســـون أرديـــة الحـــرب والقتـــال

ووضعوا أنفسهم وأموالهم تحت أمر النبى ﷺ، ينزلون علـــى رغبتـــه ويتحركون بإشارته.

وعلى الجملة: إن حاله الذى يرتضيه أن يكون مطاعاً فى أمره ونهيه، وأن يكون هو وأصحابه ودعوته آمنين.

لقد تنبه النبى ﷺ بعد أن استفاد من تعاملـــه مـــع ســـنن الله الجارية، إلى أنه لا يحوز أن يقحم نفسه وأصحابه ودعوته داخل نـــهر من المجتمعات لا يعرف نفوس البعض منهم، حتى يكون علـــى قمـــة الاستعداد لما هو مقبل عليه من أحداث.

ولك أن تتصور المسألة بطريقة أخرى.

لك أن تتصور رجلاً غير النبى محمد، وأن تتصور مـــع هـــذا الرجل جماعة من أصحابه وخلصائه قد أقبلوا معه، لينشروا مبـــدءًا أو مذهباً فى مجتمع مجهول لهم، ثم أقحموا أنفسهم فيه، ولهم فيه أعداء لا يريدونهم، من غير أن يتخذوا لهذا الاقحام عدته، أو يحسبوا له حسابه.

إنهم إن فعلوا ذلك فسوف يكونون قد أخطأوا خطأ ذريعاً، أقـــل ما يترتب عليه من الأخطار، أن هذا المجتمع الـــذى أقحـــم القـــادمون

أنفسهم فيه سينقسم إلى محبين وشانئين، وسوف يواجه المحبون لهذا المبدأ الجديد، الشانئين عليه بكل ما يملكون من قوة، وسوف يرد عليهم الشانئون بأقصى ما لديهم من عصبية للقديم الذى هو ميراث الآباء والأجداد.

وحين ينقسم المجتمع على هذا النحو، لا يصلح مع انقسامه أن يكون أرضا خصبة تغذى بثمارها هذا المذهب الجديد.

وهو لا يصلح مع انقسامه أن يكون أرضا صلبة، تصلح أن تكون منطلقا لهذا المذهب الجديد خارج هذه الأرض، حتى يملأ نفوس من حولها بما يريد أن يملأها به، لا يحول بينه وبينها حائل، ولا يعوزه فى الانطلاق إليها شئ من قوة، أو شئ من خصب وليس هذا هو الخطر الوحيد الذى سيترتب على خطأ القوم الذين لم يقدروا الأمر حق قدره، ولم يتخذوا إليه شيئا من حذر ولا شيئا من حيطة، وإنما يحدث بالإضافة إلى ذلك أن هذا المجتمع القديم صاحب الأرض والأصل والتاريخ، سيغرق هؤلاء الأفراد فى بحار عوائده وأعرافه، وعاداته وتقاليده التى لها من الثبات والاستقرار ما يجعلها صاحبة الأمر ومصدر السلم، حينئذ ينسى هؤلاء القادمون مبدأ هم الذى جاءوا بالدعوة إليه، ويستسلمون إلى رغد العيش وهدوء البال، يحافظون على الأموال والأولاد والنفوس.

وأنا قد حاولت من خلال هذا المثال أن أضعك على أبواب قاعدة يؤمن بها علماء الاجتماع، ويؤمن بها الزعماء والقادة والساسة لا يقبل واحد منهم النقاش حولها وهى: أن المجتمع الكبير المستقر صاحب الأرض والأصالة والتاريخ إذا ما قدمت إليه جماعة من الجماعات فإنه يبتلعها ابتلاعا ويزدردها ازدرادا، ويهضمها ويتمثلها، دون أن تكون لها من قدرة على التأبى، ودون أن يكون لها من طاقة على الامتناع.

المجتمع الكبير المستقر إذا قادر على ابتلاع المجتمع الصغير الوافد، وتلك قاعدة عامة لايستثنى منها العلماء إلا حفنة من أمثلة على مدار التاريخ كله.

ويتربع القمة فى مجال هذا الاستثناء الإسلام، ونبى الإسلام والداعون إلى الإسلام.

وأنت تستطيع أن تتتبع تطبيقات هذه القاعدة عبر التاريخ كلـــه قديمه وحاضره، ثم تنظر بعين الرضى إلى الإسلام باعتباره اســـتثناءً من هذه القاعدة، منذ أن هاجر النبى ﷺ وإلى الآن، وإلى ما بعـد الآن إلى أن يقضى الله بتوقف الحياة الاجتماعية على هذا الكوكب.

وبعد هذا الفهم أقول لك: إن النبى ﷺ حين استدعى أقاربه من بنى النجار، لم يكن استدعاؤه لهم عملاً عارضاً.

وهو حين مكث أياماً فى عوالى يثرب عند بنـــى عمـــرو بـــن عوف، لم يكن مكوثه هو الآخر عملاً عارضاً، وإنما هى أمـــور قـــد استفادها النبى ﷺ من تعامله مع سنن الله الجارية فى مجتمعات الناس الذين قد عايشهم، وأمثالهم من الذين سمع عنهم عبر عصور التاريخ.

إنها أمور قد استفادها النبى ﷺ، ولها ضمن هذا الحدث الــذى نؤرخ له نظائر وأشباه.

ولنتابع المسير مع النبى ﷺ قاصداً إلى يثرب، نازلاً من قباء.

بقى النبى ﷺ فى بنى عمرو ما شاء الله له أن يبقى فيهم.

ولا طائل من وراء خلاف المؤرخين حول المدة التـــى أنفقـــها النبى ﷺ فى هذا الحى من العرب، إذ إن بنى عمرو بن عوف يروون أن النبى ﷺ بقى عندهم مدة طويلة قد تبلغ العشرين يوماً فى بعض ما قالوه، أو تزيد قليلاً، فى حين أن بعض المؤرخين يذكـــرون أن النبـــى ﷺ قد بقى فى هذا الحى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميـــــس، وانصرف عنهم يوم الجمعة.

أما أنا فلا أرى من هذا الخلاف طائلاً أهتم بـــه أو ثمـــرة أقطفها، وكل ما أعرفه من هذا المقام فى هذا الحـــى أمريـــن حدثتـــك عنهما، وهما ترضية القوم، واستطلاع الموقف قبل أن يدفع النبـــى ﷺ

بنفسه ودعوته وأتباعه فى أنهار من المجتمعات، منهم المحبون، ومنـهم الشانئون.

بقى النبى ﷺ ما بقى فى هذا الحى، فاستطلع موقفه، وازدادت قلوب أبناء هذا الحى من العرب انشراحاً، حيث أقام النبى عندهـم أول قدومه من مكة، وحيث قد اتخذ لهم مسجداً أسس على التقوى مـن أول يوم.

هذا وكأنى أنظر إلى ركب النبى ﷺ وقد تحرك فـى اتجـاه يثرب، وكلثوم بن الهدم قد علاه شئ من الحزن ظهرت ملامحه علـى بشرته وتقاسيم وجهه، كما ظهرت ملامحه على صوته وهو يخـاطب النبى ﷺ، فبدا أكثر تهدجاً وانخفاضاً وهو يقول سـائلاً النبـى ﷺ: يارسول الله أقلوتنا أم رابك مناشئ؟

أما النبى ﷺ فقد عالج هذا كله بابتسامة لا إفـراط فيـها ولا تفريط، كأنى أنظر إلى ركب النبى ﷺ وقد تحرك فى خمسمائة مقـاتل من الأوس والخزرج، سكان يثرب الأصليون.

وقبل أن أروى لك القصة أو طرفاً منها، أحب أن تقف معـى أمام سلوك النبى ﷺ حين أراد لركبه أن يتحرك، ودوافع هذا السـلوك علك تدرك معى أو أدرك معك سر تسمية هذا الجزء من البحث باسـم الحصاد.

قلت مراراً أن النبى ﷺ لم يكن يتحرك حركة عشوائية، وإنما كان يحسب لحركته الحساب، فهو وإن كان خبيراً بسنن التاريخ وكيفيـة التعامل معها، فهو خبير كذلك بنفوس البشر ومشاعرهم ويعـرف مـا يؤلمهم وما يسعدهم، ويعرف ما يهتمون بـه مـن عوامـل السـعود والنحوس.

ولقد أعانته خبرته تلك على أن يفعل ما يقتضيـه خلقـه مـن احترام المشاعر لا يجرحها، وأن يفعل ما تقتضيه طبيعة الاجتماع فـلا يحدث فى الجماعة ما يشتتها أو يفرقها.

لأن النبى ﷺ يعرف هذا كله.

يعرف سنن التاريخ وكيفية التعامل معها.

ويعرف السلوك البشرى وما يصلحه.

ويعرف النفوس البشرية، وما يسعدها أو ينال منها.

لأن النبى يعرف هذا كله، رأيناه لا يصارح أحداً بمقامه الذى سينتهى إليه ركبه، لا يستثنى من ذلك أحداً إلا أن يكون بعض خاصته من المهاجرين كأبى بكر الصديق، وهم أناس لا يعنيهم أن يقيم النبى ﷺ عند هذا الحى أو ذاك، فهم حوله حيثما أقام أو ارتحل.

ولو قد صرح النبى ﷺ بأنه قد اختص قوماً بالإقامة عندهم

لوقع تصريحه على هؤلاء القوم الذين قد اختصهم النبى ﷺ بالإقامة عندهم موقع الزهو والفخر، ولوقع على غيرهم موقع الألم والحزن والحسرة.

وهى عوامل نفسية لا يؤمن معها أن يختلف القوم، وأن يتحاسدوا ويتباغضوا، وهم قريبو عهد بحسد وبغضاء لم يمض على

تخليهم عنهما سوى زمن يسير.

ولقد شاء الله للنبى أن يخرجه من هذا الحرج كله فألهمه أن يرخى العنان للناقة، وأن يقول للناس فى كل موقف يعرض عليه فيه من زعماء الأحياء أن يقيم معهم، دعوها فإنها مأمورة.

وأنت لا يغيب عنك أن البشر يختلفون على نظائرهم من البشر، فإذا ما أسند الأمر لله أطاع البشر، أو من آمن منهم أمر الله فيهم، معتقدين أنهم وإن فاتهم خير يرغبون فيه، فقد حصلوا بطاعتهم لله خيراً أكثر منه وأعظم، فتستل هذه العقيدة من صدور الناس عوامل الاختلاف، وينزع الله ما فى صدورهم من غل، ويتركهم إخواناً متحابين.

وأنا كأنى أنظر إلى ركب النبى ﷺ وهو يتحرك، تحيطه ما ذكرت لك من أسباب الحذر، وأمهات الخلق، والخبرة بالمجتمع والسنن، وفوق ذلك ومعه وبعده رعاية الله له.

وسأحاول أن أخلى بينك وبين روايات التاريخ ساعة من نهار ثم أعود فأمارس دورى معك، وهو لا يعدوأن يكون دور رجل سار فى هذا الطريق قبلك، وهو يسعده أن يلفت نظرك إلى كل ما التفت هو إليه، فضولاً منه أو حرصاً عليك، أن تقطع الرحلة وقد فاتك منها شئ لا تحب أن يفوتك، أو يغيب عنك.

حدث التاريخ أن النبى ﷺ قد نزل من قباء فأدركته الجمعة فى حى بنى سالم بن عوف، فنزل وصلى بمسجدهم، وهو المسجد الذى فى بطن وادى – رانوناء– فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.

[فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة بن نضلة فى رجال من بنى سالم فقالوا: يارسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة، قال: "خلوا سبيلها فإنها مأمورة" لناقته فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازت دار بنى بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو فى رجال من بنى بياضة فقالوا: يارسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: "خلوا سبيلها فإنها مأمورة" فخلوا سبيلها فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فى رجال من بنى ساعدة فقالوا يارسول الله هلم إلينا فى العدد والمنعة، قال: "**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**" فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة فى رجال من بنى الحارث بن الخزج فقالوا: يارسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة قال:"**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**" فخلوا سبيلها][1].

وظل ركب النبى ﷺ ينتقل من محلة إلى محلة، والناس يعترضون طريق النبى ﷺ، كل يريد أن يحظى بشرف مقام النبى

---

[1] البداية والنهاية –لابن كثير جـ٣ ص ١٩٨

ﷺ عنده، ورب العزة يخرجه من هذا الحرج الاجتماعى، ومن آثـــار سلوك قد يفرق بين الناس، فجعل النبى ﷺ يرفع هذا الشعار- دعوهـا فإنها مأمورة - وجعل الناس يقبلون أمـــر الله فيـــهم لايتحاســـدون ولا يتباغضون.

ودخل ركب النبى ﷺ إلى أماكن بنى النجار، وهـــم طوائــف مختلفة، وكلهم ينتمون إلى هذا الحى.

وكان أول ما لقيه من منازلهم هذا الحى من أبناء عـــدى بـــن النجار، طمع أبناء هذا الحى أن يكون منزل النبى ﷺ فيهم فهم أقاربه، وهم أهل منعة وعدد وعتاد، فاعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن خارجة فى رجال من بنى عدى بن النجار، فقالوا يارسول الله هلـــم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة، قال: "**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**" فخلوا سبيلها.

وانطلق ركب النبى ﷺ يجاوز المحلة بعد المحلة، والدار بعـد الدار، حتى انتهى إلى حى بنى مالك بن النجار.

وهناك تعلق الناس من أبناء هذا الحى بالنبى ﷺ يرغبـــون أن يكون بينهم، والنبى ﷺ قد أرخى لناقته الزمام لا يحركـــها بـــه، وإذا بالناقة وقد بركت فى مكان معين، طمع المحيطون به من بنى مالك بـن النجار أن يكون المنزل حيث بركت الناقة أول مرة، والنبى لـــم يـــنزل عنها ويقول: "**دعوها فإنها مأمورة**".

أما الناقة فقد نهضت وسارت بالنبى ﷺ وكأنما تحدد مسجده تبرك ثم تعود فتنهض، ثم تعود إلى مبركها الأول، وهكذا حتى انتـــهت إلى مكان منبره، ثم بركت واستراحت وتحلحلت وألقت بجرانها، فـــنزل النبى ﷺ عنها إلى عريش مجاور يستظل به، وأقبل رجل مـــن بنـــى مالك بن النجار اسمه(خالد بن زيد) وكنيته أبو أيوب رضى الله عنه.

ولقد شاء الله له، كما شاء لأم معبد من قبل أن يشتهر بكنيته ولا يشتهر باسمه.

جاء خالد بن زيد إلى النبى ﷺ يخبره أن بيته هو أقرب الأماكن إلى مبرك الناقة، ويستأذنه فى أن ينزل عنها رحله، ويدخله بيته، فأذن له النبى ﷺ فى ذلك.

ثم جاء رجل آخر يستأذن النبى فى أن يكون منزله عنده، فقال النبى ﷺ جملة جرت مجرى المثل: - المرء مع رحله -.

جاء النبى ﷺ إلى محلة مالك بن النجار وبنيه وسط ترحيب شديد وفى منظر مهيب، قد رآه أنس بن مالك رضى الله عنه وهو فى طفولته، فحدث أنه قد رأى النبى ﷺ يوم الهجرة، ورأى حال القوم يوم وفاته، فلم ير فى ذاكرة التاريخ يوماً يعدل هذين اليومين، من حيث الأثر الاجتماعى الذى أحدثه كل منهما.

وإن المؤرخين ليحدثون أن القوم قد استقبلوا النبى ﷺ وهم يعلنون عن فرحتهم، ويرمزون إلى استعدادهم للدفاع عن النبى بما يلبسونه من أردية الحرب.

وإن أطفال بنى النجار من جوار وصبيان ليستقبلون النبى ﷺ، بما يستقبل به الأطفال والصبيان كل حدث عظيم، يرددون ما يشيع البهجة فى النفوس، ويقبلون بآمالهم العريضة التى تأخذ بالألباب وتسبى العقول.

وإنه ليترامى إلى أسماع ركب النبى ﷺ ما يردده جوارى وصبيان بنى النجار من نحو قولهم:

نحن جوار من بنى النجار ياحبذا محمد من جار

أو غير ذلك مما كانوا يرددونه ويقولونه

وكأنى بالنبى يقبل على الجوارى والصبيان ويسألهم: إن كـانوا يحبونه، فيجيبون: أن نعم، والنبى ﷺ يقسم لهم على محبته اياهم.

ولما لا يسأل النبى ﷺ !

ولما لايجيب الأطفال !

ولما لا يعلن النبى عن محبته إياهم !

إن هؤلاء هم وعاء الدعوة الإسلامية وحماتها ودرعـها فـى المستقبل القريب.

وإن هؤلاء لهم الذين سيحملون الراية إلى الأجيال القادمة وكل

هذا لا يتأتى إلا بحب متبادل بين القائد والرعية، لا بل بين النبـى ﷺ والأمة، وبين من أريد لهم أن يكونوا حملة الرايـات، وبيـن الدعـوة والدين اللذين سيتحملون تبعتهما.

أما خالد بن زيد (أبو أيوب الأنصارى) فقد فاز بمقام النبى ﷺ عنده.

وكان بيته من طابقين نزل النبى ﷺ أول الأمر فـى طابقـه الأسفل حتى لا يؤذى أصحابه، أو يشق عليهم، ثم انتهى إلى أن اسـتقر فى الطابق العلوى، حين شعر أن أبا أيوب الأنصـارى وزوجتـه قـد تحملا من عنت النفس ما لايتحمله بشر، فرأى الرجل وزوجته معه أنه

لا يجوز لهما أن يتحركا بالأقدام على سقف يظل رسـول الله ﷺ، ولا أن تقع عليه سوائل من ماء أو غيره، قد يتسلل بعضها فيسـقط علـى النبى ﷺ فيؤذيه.

فاز أبو أيوب النصارى بمقام النبى عنده سبعة أشهر أو يزيـد وكان الطعام يأتى إلى النبى من بيت أبى أيوب أو من خارجـه علـى سبيل الهدية.

ولقد استوقفنى من ذلك كله الكثير، غير أن ما حدث مع زيد بن ثابت وهو غلام استوقفنى واستلفت نظرى، إذ إن زيداً كان أول غـلام

يحمل قصعة من هشيم خبز صب عليه اللبن والسمن، فلما قدم على النبى ﷺ قال له ببراءة الأطفال: إنى قد أرسلت إليك بهذه، فقال له النبى: بارك الله فيك.

وقد يظن الظانون أن هذه دعوة قد يقال مثلها اليوم كرد فعل لموقف اجتماعى، من غير أن يكون لها صدىً فى قلب قائلها.

أما أنا فقد استوقفنى ما قال النبى ﷺ لزيد بن ثابت، ثم تتبعت مستقبله، فإذا به رجل قد أصبح من كتاب الوحى حياة النبى ﷺ، ثم صار أمينا على القرآن يجمعه من صدور الرجال، ومما كتب عليه من أشياء بدائية بإملاء النبى ﷺ أيام أبى بكر من خلال منهج ضابط وأسلوب صارم، ثم صار أميناً على القرآن معه ثلاثة من قريش يجمعون مصحف عثمان، لينقذوا الأمة مما أريد لها أيام عثمان.

أترى بركة حصلت لأحد فى ذاته ومستقبله، كما حصل لزيد بسبب دعوة النبى؟

ثم أترى أمة قد استفادت فى دينها وأصولها، وقد بورك لها فى مجهود أحد أبنائها، كما حصل لأمة الإسلام على يد زيد بسبب دعوة النبى؟

إن هذا لمشهد عجيب، وإنها لأحداث ضخمة وفريدة فى التاريخ من حيث مكانتها لا من حيث جنسها أو نوعها.

ثم أنت ألم يتضح لك أن هذا الذى حدثتك عنه من المحور الأول، يصلح أن يكون جزءاً من ثلاثة أجزاء تعد كلها مجتمعة حصاداً للهجرة، ويصلح كل واحد منها أن يعبر وحده عن جانب من جوانب الحصاد؟

إن كان قد اتضح لك ذلك فإنه يكفينى ما حدثتك به حول هذا المحور، وأجهز نفسى لأحدثك عن محور آخر، نتعرض فيه معاً إلى أن يلهمنا الله الصواب، وأن يجرى على ألسنتنا خيراً يريد أن يظهره للناس.

استقر النبى ﷺ بيثرب كما رأيت، بعد أن بركت بـــه ناقتـــه حسبما أمرت، وحدت له حدود مسجده.

وأقام النبى ﷺ فى بيت خالد بن زيد (أبى أيوب الأنصـــارى) من سلالة مالك بن النجار.

وما أن استقر النبى ﷺ فى يثرب وسط المهاجرين والأنصار.

وما أن انتهت مراسم الاستقبال، حتى وجدنا النبى ﷺ وهـــو يأمر الناس أن يبنوا لهم مسجداً.

والمؤرخون جميعاً يجمعون على أن قرار بناء المســـجد كـــان أول قرار اتخذه النبى ﷺ بعد أن أقام بين الأنصار والمهاجرين.

والمرء قد يتساءل: لماذا كان قرار بناء المسجد، هو أول قـــرار اتخذه النبى ﷺ بعد وصوله إلى يثرب؟

ولماذا كان بناء المسجد هـــو أول فعـــل يباشـــره النبـــى ﷺ وأصحابه، وهم ما يزالون فى غمرة بحار الفرحة التى أحاطت بـــالنبى ﷺ والمسلمين، حيث قد تمت الهجرة، وأذن الله للجميع أن يقيموا على أرض يثرب، وهى أرض خصبة تنمـــو عليـــها العقيـــدة و الشـــريعة يضبطان مشاعر الناس وسلوكهم، وهى أرض صلبة ينطلق المســـلمون بدعوتهم منها إلى حيث يشاء الله لهم أن ينتـــهوا إليـــه مـــن المنـــازل والبلدان؟

والمرء إذا أراد أن يتحسس الإجابـــة الصحيحـــة علـــى هـــذه التساؤلات، فعليه أن يسير فى اتجاهين أحدهما يسبق الآخـــر، ويتقـــدم عليه من حيث تركيب الأفكار لا من حيث الأهمية الموضوعية التـــى تتصل بكل منهما.

وأحد هذين الاتجاهين: هو عبارة عن حديث تاريخى يتصـــل ببناء المسجد ووقائع هذا البناء، وما وقع فى ذلك من الآيـــات حســـبما يذكره المؤرخون، وما صح من روايات المحدثين.

وثانى هذين الاتجاهين: هو حديث إلى التحليل العقلى والاستنباط الفكرى أقرب، ذلك أن المؤرخين لم يشغلهم وهم يتحدثون عن بناء المسجد النبوى، أن يتحدثوا حديثاً أصيلاً أو عارضاً عن السبب الحقيقى وراء قرار بناء المسجد، ومباشرة فعله استجابة لهذا القرار.

وليس على المفكر من بأس إذا هو حاول أن يعلل للحدث الاجتماعى بعلة يرتضيها من نفسه، ويرتضيها الناس من أنفسهم.

والمرء لا يرتضى تعليلاً لحدث اجتماعى، ولا يرتضيه الناس منه، إلا أن يكون هذا التعليل ظاهر الارتباط بالحدث من حيث التفكير فيه، ومن حيث مباشرة عمله وإنشائه، ومن حيث الوظيفة أو الأثر المرتبطة بهذا الحدث المراد تعليله.

أما أنا فلا أرتضى أن أعلل أو يعلل غيرى لحدث من الحوادث بعلة يكون منشؤها الخيال، أو يكون منشؤها شئ من التنطع فى التفكير، بحيث يبعده الخيال أو التنطع عن الحدث ذاته.

وأشق من ذلك على النفوس وهو يشق علىّ أن يعمد المرء إلى التسطيح أو السعة فى العبارة وهو يعلل لحدث من الحوادث، بحيث تتراءى العلة أمامك ساذجة، أو تظهر بأسلوب فضفاض هو بحديث الخيال أشبه.

اتجاهان أرى أن السير فيهما أمر ضرورى كى نفهم هذا المحور أولاً، وكى نفهم ثانيا أنه جزء لا يتجزأ من حصاد رحلة الهجرة.

وأنا سوف أسير بك فى هذين الاتجاهين على الترتيب الذى ذكرت لك، أبدأ أولاً بحديث المؤرخين، وأثنى بعده بالفكرة التحليلية التى تصل بى وبك إلى السبب المعقول وراء قرار بناء المسجد.

وسوف يضبطنى معك ومع المؤرخين القاعدة التى تقول: (إن كنت ناقلاً فالصحة).

وسوف يضبطنى معك ومع المهتمين بتحليلات الأفكار فى العقول القاعدة التى تقول: (وإن كنت مدعيا فالدليل).

وما يضبطني ويضبطك في الاتجاهين جميعاً هو هذه القاعدة العامة التي اتخذها الآباء والأجداد أساساً لهم لا يفارقونه، وشعاراً لهم يعملون تحت لوائه: (إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل).

وياليتنا نسير على ماسار عليه الآباء والأجداد، نضبط أنفسنا بما ضبطوا أنفسهم به، ونلتزم من المناهج والأسس ما التزموه منها ولو قد فعلنا ذلك لكان خيراً لنا كما كان خيراً لهم.

ولنبدأ بعون الله في حديثنا إليك حول الاتجاه الأول، وهو كيفية بناء المسجد.

قلنا فيما قلناه: إن الناقة التي طلب النبي ﷺ إلى الأنصار أن يتركوها، مع رغبة الواحد منهم في أن يحبسها في حيه حتى يحظى بشرف بنزول النبي ﷺ عنده، قد انتهت إلى ساحة من الأرض، ثم بركت في مكان منها، ثم قامت وسارت إلى مكان آخر وبركت، ثم عادت إلى مكانها الأول وبركت وتلحلحت وألقت بجرانها، فنزل النبي ﷺ عنها.

وقد علم النبي ﷺ أن الناقة بذلك قد حددت مسجده طولاً وعرضاً فسأل النبي ﷺ عن هذه الأرض لمن تكون، فقالوا إنها ليتيمين في يثرب من أبناء بني النجار، كان يتعهدهما في أرجح الأقوال: أسعد بن زرارة، فأرسل النبي إلى أسعد، وسأله عن قطعة الأرض وكلمه فيها فقال : إنها لغلامين يتيمين في كفالتي، هما: سهل وسهيل، وأعلن النبي ﷺ عن رغبته في بناء هذه القطعة مسجداً.

فجاء اليتيمان وقالا: هي لك يارسول الله تصنع بها ما تشاء فرفض النبي ﷺ رفضاً تاماً أن يأخذ الأرض من يتيمي بني النجار بغير مقابل، ولو طابت بها نفساهما.

ونزل الناس على رغبة النبي ﷺ، وثمنوا هذه القطعة.

وسواء دفع النبى ثمنها من ماله، أو عوضهم أسعد بـــن زرارة من أرضه، فإن الأمر الذى يظهر لنا ولك هو أن النبى ﷺ لم يشـأ أن يبنى مسجده على أرض أخذت بغير ثمن، إذ قد يقول قائل فى المستقبل أن النبى قد أخذ الأرض اغتصاباً، أو أنه قد استولى عليـــها، مســتغلاً حالة الدهشة العالية التى كان القوم فيها متأثرين بمقدم النبـــى ﷺ، أو أنه قد استغل أن الغلامين اللذين ملكا هـــذه الأرض كـانت أهليتـــهما للتصرف ناقصة.

لم يشأ النبى ﷺ على أى حال أن يبنى مسجده على أرض قـد استولى عليها بغير مقابل.

فلما تقاضا الغلامان ثمن قطعة الأرض، قام إليها النبـــى ﷺ ونظر، فإذا بها ماء، وأحجار، ومقابر للمشركين، وبعض النخيل، فـأمر النبى ﷺ بالأرض فسويت، وبالقبور فنبشت، ونقل ما فيها مـــن بقايـا الأجساد وأمر بالماء فسربه القوم، وأمر بالنخيل فقطعه الناس.

لقد سويت الأرض وأصبحت جاهزة للبناء، وأمر رســـول الله ﷺ أن يباشر الناس البناء على قطعة الأرض التى ســـويت وأعـدت للبناء، فبنى الناس على مساحة مقدارها ستون فى سبعين ذراعاً.

ولقد حرص النبى ﷺ أن يكون إمامـــا للنـــاس فـــى حمـــل الأحجار، كما كان إماماً للناس فى حمل الأحجار يوم بنى مسجد قباء.

والناس قد شد من أزرهم، واستنهض عزيمتهم أن يقوم النبـــى ﷺ إلى الأحجار فيحملها، فقاموا إلى العمل يرددون:

لئن قعدنا والنبىعمـــــل لذاك منا العمل المضلل

واشتد العمل فى بناء المسجد لا يصد عنه نصب، ولا يمنع منه اشتداد لهيب الشمس.

والعمل الجماعى تختلط فيه المشاعر والأصوات، وترتفع فيـــه الحناجر بما يشد العزائم من حلو الحديث وجميل الألفاظ.

فأنت ترى القوم والنبى ﷺ معهم ينظرون إلى النبـــى فيشــتد أزرهم، ويرغبون إلى ربهم فترتفع مشاعرهم، وترق عواطفـــهم وهـــم يرددون:

لا عيش إلا عيش الآخـــــرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجره

والنبى ﷺ كان يردد معهم، أو يقول وحده هذا القول، ولكـــن ليس فيه هذا الرجز، وليس فيه هذا النغم، وإنما يقوله بعد أن يقدم فيـــه ويؤخـــر: **(لا عيـــش إلا عيـــش الآخـــــرة، فـــارحم المهاجريــــــــــــــن والأنصار).**

وأنت ترى الناس وهم حول النبى ﷺ يحملون الأحجـــار، لا يقعد بهم تعب، بل إن أرواحهم لتمد أجسادهم بطاقة غير معهودة فـــى الظروف المعتادة.

وأنت تراهم كذلك لا يلتفتون إلى أمر من أمور الدينا، وهـــم ينظرون إلى نبيهم وقد علا صدره التراب، فلا بأس على الواحد منـــهم بعد ذلك أن يعلو التراب وجهه ووفرته، ولا بأس عليهم بعـــد ذلـــك أن يستر التراب ملابس الواحد منـــهم مـــن إزار ورداء، لا يكـــاد يتبـــن ملامحهما الأساسية، وهم على ذلك مجمعون لا يستثنى منهم أحـــد، إلا ما كان من أمر عثمان بن مظعون، وكان رجلاً يلتفت إلى حسن ثيابه وجمال منظره لا يروقه أن يُغبر ثيابه بالتراب، فكان إذا وضع الأحجار التفت إلى ثيابه لحظة ينحى التراب عنها، مما جعل عليًّابن أبى طـــالب يداعبه برجز يتناقله الرواة:

[روى البيهقى عن الحسن قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد أعانه أصحابه وهو معهم يتناول اللّبن حتى اغبر صدره، وكان عثمـــان بن مظعون رجلاً متنطعا [1]، وكان يحمل اللبنة فيجافى بها ثوبه، فـــإذا

---

[1] التنطع: التأنق والتحزلق فى الفعل والقول، وقد وردت هذه الكلمة منسوبة إلـــى عثمان بن مظعون بغير هذه الصياغة، حيث رويت وكان رجلاً متنظفاً، وهـــى

وضعها نفض كمه ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شئ من التراب نفضـــه، فنظر إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه فأنشد يقول:

لايستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً

ومن يرى عن الغبار حائداً

ورجز على بن أبى طالب الذى قاله فى عثمان بن مظعون، لـم يعلق عليه عثمان بشئ حين قاله على بن أبى طالب.

غير أن عمار بن ياسر قد سمعه من على لايدرى فيمن يقولـــه فردده يصرف به عن نفسه وعن غيره الإحساس بالنصب، والشـــعور بالتعب، ويستنهض به همته، وهمم الناس حتى يباشروا أعمالهم بغـــير فتور.

والمؤرخون يروون أن عثمان قد سمع الرجـــز مـــن عمـــار فاغضبه وأغلظ لعمار فى القول، وحزن عمار لذلك حزناً شـــديداً، مـــا صرفه عنه إلا حديث رسول الله ﷺ إليه وإلى الناس.

وسوف أستكمل معك رواية البيهقى بألفاظها لعلك تقف منـــها على شئ.

قال بعد أن ذكرت لك مباشرة [فسمعها عمار بن ياسر، فجعـــل يرتجز بها وهو لا يدرى من يعنى بها، فمر بعثمان فقال: يا ابن ســـمية ما أعرفنى بمن تعرض، ومعه جريدة، فقال: لتكفن أو لأعترضنَّ بـــها وجهك. فسمعه رسول الله ﷺ فغضب ثم قال: "إن عمار بن ياسر جلدةُ ما بين عينيّ وأنفى فإذا بُلغ ذلك من المرء فقد أبلغ" ووضع يـــده بيـــن عينيه فكف الناس عن عمار، ثم قالوا لعمار: إن النبى ﷺ قد غضـــب فيك ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال: أنا أرضيه كما غضب، فقـــال: يارسول الله مالى ولأصحابك؟

عندنا أوفق وأليق بالصحابة إذا وردت منسوبة إليهم خاصة، وأنه قد ورد عـــن النبى قوله: هلك المتنطعون.

قال: "**مالك ولهم ؟**" قال: يريدون قتلى، يحملون لبنة لبنـــةويحملون علىّ لبنتين لبنتين، فأخذ بيده وطاف به فى المسجد، وجعل يمسح وفرته بيديه من التراب ويقول: "يا ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار"، ويقول عمـــار: أعـــوذ بالله من الفتن].

وقصة عمار على ألسنة المؤرخين والمحدثين مع رســـول الله ﷺ أيام بناء المسجد مثيرة للمشاعر، مهيجة للوجدان، مثبتة للعقائد.

فالناس كانوا يجتهدون فى العمل، ويحملون اللبنات لبنـــة لبنـــة يقربونها، من الذين يمارسون البناء، ويثبت لكل واحد أجره والنبى ﷺ يخبرهم بذلك.

أما عمار فقد وقع فى خاطره أن يحمل لبنتين لبنتيـــن، واحـــدة عنه، وواحدة عن رسول الله ﷺ إن رغب النبى ﷺ أن يســـتريح، أو لم يرغب فى ذلك على حد سواء.

وقد علم النبى ﷺ هذا الأمر من شأنه، فأقبل عليـــه يســـمح التراب عن وفرته، ويخبره بشئ سوف تستقبله به الأحداث فـــى آخـــر الزمان، وهو شئ من الفتن سيعصمه الله من شره.

وعمار بن ياسر يسمع هذا الكلام مـــن النبـــى ﷺ، فيتذكـــر ماضيه فى مكة مع الكافرين، وما حملت به الأيام من فتن، ألقت بـــها بين يديه، وبين يدى أمه وأبيه، وبين يدى المستضعفين من المســـلمين فما كان منه إلا أن توسل إلى ربه يستعيذ به من الفتن، من شرها ومـــن اشتداد وطأتها.

ففى مرويات عبد الرازق على شرط الشيخين بســـنده إلـــى أم سلمة، وقد رواه البخارى والبيهقى بسنديهما إلى [أبى سعيد الخـــدرى رضى الله عنه قال: "لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المســـجد جعل أصحاب رسول الله ﷺ يحمل كل رجل منهم لبنة لبنة، وعمـــار يحمل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن رسول الله ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ

ظهره وقال: يا ابن سمية للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة، ويدعونك إلى النار" وعمار يقول: "أعوذ الله من الفتن"].

تلك هى قصة عمار المثيرة للمشاعر المهيجة للوجدان.

وقصة عمار مع النبى ﷺ فى المسجد قد استقرت فى وجدانه، يستقبل حوادثها حادثة بعد حادثة، حتى لقى ربه مغفوراً له فى خلافة على بن أبى طالب.

ولم تكن قصة عمار وحدها هى القصة المثيرة، وإنما احتوى بناء المسجد على أشياء من الآيات، اهتم ببعضها المؤرخون، وبعض رواة السنة.

والذى أنتهى إليه معك من هذه الفقرة، هو أن النبى ﷺ قد بنى مسجده على مساحته تلك، وبنى معه حجرتين لزوجتيه، انتقل إليهما من بيت أبى أيوب، حين انتهى من البناء وحين قدم أهله.

وما أردت أن أشغلك هنا بما تستطيع أن تحصله بنفسك من كتب السير أو من كتب السنة، أو من كتب التاريخ، لأننا فى هذه الفقرة ما قصدنا إلى التأرخ، بقدر ما قصدنا أن ننبهك إلى جزء من الحصاد.

وإذا كان هذا هو ما أردت أن أحدثك عنه من بناء النبى ﷺ والصحابة للمسجد، فهذا لا يعدو أن يكون جزءاً من حديث عن المسجد يطول، أردت أن يكون بينى وبينك، مهما أخذ من وقت ومهما أخذ من جهد.

ويبقى منه أن أحدثك عن السبب الحقيقى وراء بناء المسجد أول عهد النبى بيثرب.

وهو جزء من حديث متصل بالتحليل والاستنباط، أكثر من اتصاله بالرواية ونقل الأخبار.

وإنا لملتزمون هنا بالمبدأ القائل – إن كنت مدعياً فالدليل – كما التزمنا من قبل بالمبدأ القائل : – إن كنت ناقلاً فالصحة –

فماذا عسى أن يكون السبب الحقيقى وراء بناء المسجد أول عهد النبى ﷺ بيثرب؟

سؤال يطرحه المرء على نفسه منفرداً فيجد نفسه قد غرق فى شئ من التأمل، قد يفيده هذا التأمل فى موضوعه، وقد لا يغنيه وهو سؤال يطرحه أحد أعضاء الجماعة فى مكان معين، وفى زمان بعينه على باقى أعضائها، فتأخذ الجماعة كلها فى شئ من الجدل، وفى شئ من المراء، قد ينتهى بها إلى نتيجة ترتضيها، وقد لا ينتهى بها إلى شئ.

أما أنا فإنى قد طرحت هذا السؤال على نفسى، وبقيت أتأمل الموقف ما استطعت من التأمل، على أنتهى من تأملى هذا إلى شئ أرتضيه، وإنى قد أقطع هذا التأمل أحياناً لأتصفح كلام الآخرين فى هذا الموضوع وأقرأ ما كتبوه.

وإنى أقطع هذا التأمل أحياناً أخرى، لأناقش أولى العلم والرأى فى هذه المسألة، وأستمع إلى ما يقولونه بشئ من العناية، وبشئ من المتابعة التى لا يزهد فيها مثلى، ولا ينصرف عنها لحظة تطول أو تقصر.

وإنى لفى هذا كله قد انقدح فى ذهنى شئ سوف أحاول أن أعرضه عليك، بعد أن استرحت إليه شيئاً من الراحة، قل هذا الشئ أو كثر.

ولكنى لا أستطيع أن أعرض عليك ما ارتأيته، قبل أن أعوض عليك شيئاً من الأمثلة، التى أرى أنها ستخدم الفكرة التى سأعرضها عليك، وتوضحها بقدر كاف من الوضوح يمكنك من استقبالها وهضمها بصرف النظر عن الأثر الذى ستحدثه فيك.

ومن أوائل ما أريد أن أعرضه عليك من الأمثلة، هذا المثال الساذج البسيط.

ويتجلى هذا المثال الساذج البسيط فى أن نكون فى ميدان حرب من الحروب البدائية، التى كانت تجرى على أرض الصحراء هنا أو هناك ننظر أنا وأنت إلى هذا القتال الدائر، لنتعرف على أركانه

وأدواته، وما تشتمل عليه ساحة القتال مما يلزم لنشوب معركة من المعارك.

إننا لن نجد فى هذه المعركة البسيطة إلا هذه الأصناف الثلاثة:

الرجال يصطفون على أرض المعركة متواجهين، كل منهم فى ميمنة وميسرة وقلب، فى تشكيلات من فريقين وقع بينهما العداء الذى سبب هذا القتال.

والسلاح الذى يصطنعه هؤلاء الرجال من الفريقين، كل منهم يحرص بواسطة هذا السلاح أن يحقق النصر والظفر على رجال الفريق الآخر الذى يقابله، وهو لا يقل عنه تطلعا لتحقيق النصر والظفر به.

ثم هذه الألوية المنعقدة، وتلك الرايات المرتفعة، التى يحملها قادة الجيوش، وقادة الأجنحة على السواء، وهم يسترشدون بها ويجتمعون تحتها، ويطمئنون لارتفاعها وتقدمها.

إننا لن نجد على أرض المعارك، شيئاً يمكن رؤيته بالبصر وإحساسه بالحواس جميعها إلا هذه العناصر الثلاثة.

ومع أن هذه العناصر الثلاثة ضرورية فى المعركة، لا يمكن الاستغناء عنها، إلا أنها تختلف اختلافاً يميز بعضها من البعض.

فالرجال والجند شئ.

والسلاح والعتاد شئ آخر.

والألوية والرايات شئ ثالث.

وهذه الأشياء يمتاز بعضها من بعض امتيازاً لا يخفى عليك.

فالرجال هم العنصر الحى المتحرك هنا وهناك، يجول ويصول، ويفهم خطط الجانب الآخر، ويرسم لها من الحيل ما يمكنه من التعامل معها.

والسلاح والعتاد كله على العموم وسائل للفتك بالخصم وإبطال حيله، بمقدار قوة هذا العتاد وكفاءته تحسم نتيجة المعركة لصالح هذا الفريق، المتميز فى كفاءة العتاد.

أما هذه الألوية، وتلك الرايات فلها فى المعركة وظيفة مختلفة عن وظيفتى الرجال والعتاد، ولكنها مع اختلافها ليست أهميتها بالأهمية الثانوية، وإنما دورها فى المعركة دور حاسم، مع اختلافه مع الأدوار السابقة عليه.

ودور هذه الألوية، وتلك الرايات، هو أنها تمثل الشارات والعلامات التى ينظر إليها الجند، فيجتمعون تحتها على قلب رجل واحد، خبير بالحروب، بصير بالمعارك، يتحركون بحركته، ويأتمرون بأمره، وهو يتعامل مع الجانب الآخر بمقدار مالديه من حنكة وخبرة.

ثم إن هذه الألوية، وتلك الرايات، لتتحرك جميعها أمام الجند فتنبئهم عن مقدار تغلغلهم داخل صفوف الآخرين، أو تراجعهم عن مواقعهم، فترتفع معنوياتهم حين يعلمون أنهم قد تقدموا، ويحتاطون لأنفسهم حين تكون الأخرى.

وأنا لا أريد أن أستفيض فى شرح هذا المثل.

غير أن الذى أريد أن أنبهك إليه، وألفتك إلى شأنه هو هذا العنصر الثالث، مخافة منى أن تنظر إليه بشئ من الازدراء، ومخالفة منى أن يقع فى صدرك اعتقاد مؤداه: أن هذا العنصر الثالث شئ ثانوى، له فى المعركة وفى حسمها قيمة محدودة، أو ليست له قيمة على الإطلاق.

والصحيح الذى لامراء فيه هو أن المعركة بغير هذا العنصر الثالث، ينقلب سلوك الجند فيها إلى شئ من الفوضى غير يسير، تبعث الوهن فى نفوس الجند بعد أن ينقطع صلة كل واحد منهم بأخيه، وبعد أن تتقطع صلة كل واحد منهم بقائده، وبعد أن يتبعثروا فى الأرض لاجامع يجمع بينهم، ولا رابط يحول بينهم وبين أن يتفرقوا.

إن هذا العنصر الثالث ولا شك عنصر فعال، لا يجوز الزهد فى قيمته ولا يجوز التقليل من أثره.

والذى يظهر لى الآن أن هذا المثل على سذاجته، قد أعطاك شيئاً من وضوح الصورة، إلا إن كنت من الذين يزهدون بطبعهم فى الحروب، والحديث عنها، وممن لا يحبون العنف، ولا يحبون أن ينفقوا من أوقاتهم شيئاً قليلاً أو كثيراً فى الكلام عنه، ولو كان من قبيل

التمثيل، الذى يتم من خلاله تشبيه صورة معقولة بصـــورة محسوسـة لتضفى الصورة الثانية على الأولى شيئاً من الإيضاح لم يكن يتضح إلا من خلال هذه المقارنة، وإلا من خلال هذا التشبيه.

على أنى لا أريد أن أحملك حملا على النظر فى هـذا المثـال وحده، فقد لا يروقك هذا الحمل القصرى على شئ لا تريده ولا تبتغيه.

ومن أجل هذا سوف أحاول أن أتحدث معك من خلال مجـال آخر، ربما يريحك أن أصطحبك إلى الحديث فيه وحوله.

فما رأيك مثلا أن نتخذ بعض الديانات الكبرى والشـهيرة الآن فى العالم، لتكون مثالاً يوضح الصورة أمامك شيئاً ما من التوضيح؟

لابأس فيما أرى أن يكون الذى نريد أن نتخذه الآن مثالا، هـو هذه الديانة المسيحية فيما استقرت عليه هذه الديانة المسيحية اليوم مـن أسس وأركان.

ولست بالذى يعمد إلى الحكم على هذه الأسس، أو بالذى يحكـم على تلك الأركان، إذ كل ما أبتغيه من هذا كله، هو أن أتخذ منه مثـالاً يوضح ما عسى أن أقوله فى المستقبل القريب.

إن المتأمل فى الديانة المسيحية، سيجد فيـها، مجموعـة مـن القواعد التى تشكل جانب العقيدة فى الديانة المسيحية.

وسيجد فيها مجموعة أخرى من القواعد التى لها صلة بالسلوك والأخلاق.

هو يجد فى المسيحية شيئا آخر، ليس له علاقة بالعقيدة، وليـس له علاقة بقواعد السلوك أو الأخلاق.

ومن هذا الصنف الثالث : الصليب.

فالصليب فى الديانة المسيحية، لا يدخل فى تشكيل العقيدة مـن حيث هو صليب.

وهو فى نفس الوقت لا يمثل قاعدة من القواعد الأخلاقية مـن حيث هو صليب كذلك.

غير أن هذا الصليب له فى الديانة المسيحية وظيفة، قد لا تستغنى عنها الديانة المسيحية فيما استقرت عليه هذه الديانة اليوم، ذلك أن الصليب فى الديانة المسيحية شعار، إذا ما رفع هذا الشعار فى محلة أو مكان من الأماكن علم الذين يرتادون هذه المحلة، أو الذين يرتادون هذا المكان، أن المقيمين بالمحلة والمكان مسيحيون.

وهذا الصليب نفسه لو رسم على يد إنسان أو جزء من جسمه أو ملابسه، لعلمنا أن من رسم عليه هذا الصليب يدين بالديانة المسيحية.

وقد يدخل هذا الصليب فى تشكيل جزء من العقيدة أو من الأخلاق، ولكن أهميته من هذه الناحية ليس لها من الظهور ما يوفر لنا درجة كافية من الإحساس بها.

وهذا الذى ذكرته لك حول وظيفة الصليب فى الديانة المسيحية هو نفسه الذى لاحظه بعض الكتاب المحدثين فى المسيحية من مسلمين ونصارى.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى المجال عينه [لا يرتفع تقديس الصليب إلى مرتبة العقائد السابقة لأن تلك العقائد أساس المسيحية أما الصليب فليس له ذلك الحظ وإن كان شعارهم وموضع تقديس الأكثرين، ولذا كان حمله علامة على اتباع المسيح.

جاء فى إنجيل لوقا: "وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى".

وحمل الصليب كما يقول كتابهم، إشعار بإنكار النفس، واقتفاء أثر المسيح فى هذا الإنكار، والسير وراء مخلصهم وفاديهم][1].

ولبعض كتاب الديانة المسيحية من المسيحين تخريج آخر لاتخاذ الصليب وحمله، لا يخرجه عن الرمزية، ولكنه يقرب بينه وبين بعض العقائد فى المسيحية من جهة، وبين الصليب باعتباره رمزاً والسلوك الخلقى من ناحية أخرى.

---

[1] محاضرات فى النصرانية- للشيخ محمد أبو زهرة- الطبعة الرابعة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م- ط دار الفكر العربى- ص ١٠١ مسلسل رقم ٧٣.

[جاء فى شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد : إن آثار قدمى المعلم تعين طريق خطوات التلاميذ، لأنه وإن كان المسيح قد صلب عنا فقال فى صلبه : (قد أكمل) لكنا قد أصبحنا بحكم صلبه عنا تحت التزام شرعى لأن نكون شركاء المسيح المتألم، إن شركتنا الشرعية مع المسيح المصلوب ينبغى أن ترافقها وتدعمها شركة اختيارية فعلية معه، إن صلب المسيح معناه مات عنا. ولكن صليب كل مؤمن معناه: (موت النفس عن الأنانية وحب الذات) وخلاصة هذه الذات هى النفس الأمارة بالسوء، هى تلك الإرادة المتمردة التى ينبغى أن نخضعها ونستأسرها لطاعة المسيح، فقول كل واحد ليس ما أريد أنابل ما تريد أنت يارب، إنه من أوجب واجبات كل مسيحى أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً، لأن التعبير بحمل صليبه مستعار من العادة التى قضت بها الأنظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم.

وهذه العبارة انفرد لوقا بذكرها، فهو صليب يتجدد كل يوم كلما تجددت الآمال فى الحياة اليومية العملية، فلا بد إذن لحمل الصليب من خطوة تسبقه، وخطوة تعقبه.

أما الخطوة السابقة له فهى إنكار النفس، بمعنى أن يقول تلميذ المسيح لنفسه الأمارة بالسوء لا، لأن حمل الصليب هو حمل العار مضافاً إلى ألم الموت، وهذا عمل يستلزم إنكار النفس، لأن الرومان لم ينفروا من الصليب فقط، بل فزعوا من ظله، كذلك كان شعور اليهود بأن الصليب هو حمل اللعنة، لأنه مكتوب فى ناموسهم: (ملعون كل من علق خشبة).

والخطوة اللاحقة لحمل الصليب بل الخطوات هى اقتفاء آثار المسيح كقوله: (ويتبعنى).

إذن ليس حمل صليبنا غاية لكنه وسيلة لهذه الغاية، وهى اتباع المسيح حيث (يمضى) أ. هـ][1].

لعلك وقفت من هذا المثل على أن الديانة المسيحية، تحتوى على عقيدة، وشئ من شريعة تتصل بالقيم والأخلاق، كما تحتوى على نوع آخر هو إلى الرمز أقرب على نحو ما مثلنا له بالصليب.

---

[1] المرجع السابق ص ١٠١، ١٠٢

وليست الديانة المسيحية استثناءً من الديانات الأخرى فى هــذا الموضوع، ولكنها جميعاً بغير استثناء تحتوى على هذه العناصر التــى ذكرت لك، وهى العقيدة والشريعة والرمز أو الشعار.

وتعد الديانة التى تخلو عن عنصر من هذه العناصر الثلاثـة أو شيئاً منها، ناقصة بمقدار ما يطرأ عليها من نقص فى هذا العنصـر أو ذاك.

ودعنى أدفع معك المسألة خطوة إلى الأمام فأقول: إن المذاهب الاجتماعية التى ظهرت منذ فجر التاريخ، واتسعت رقعتها فــى هــذه العصور، لتعد خاضعة هى الأخرى لقاعدة الكمال والنقص.

ومعيار الحكم بالكمال أو النقص هو وجود هذه العناصر الثلاثة أو اختفاؤها فى هـــذا المذهب أو ذاك.

وأنت خبير مثلاً بأن الذين أرخوا للمذاهب الاجتماعية الحديثـة ووازنوا بينها، قد عمد بعضهم إلى أن الشيوعية الماركسية برغـم مـا فيها، من عيوب ومسالب، إلا أنه يحسب لها فى ميزان الترجيح، أنــها قد استكملت العناصر الثلاثة ضمن فلسفتها.

فزعماؤها يتحدثون عن الكون والحياة، وعن الله والرسل حديثاً مستفيضاً فى بعض نواحيه، وعيبهم فى أنهم قد تحدثــوا حــول هــذا العنصر بحديث الهوى والعواطف مدفوعين إليه بغريزة من الغرائــز التى تجافى العقل، وتعادى الواقع خاصة فيما يتصل بالأحكـــام التــى انتهوا إليها فى هذا المجال.

وأرباب هذا المذهب كذلك تحدثوا حديثاً طويلاً حــول أمــور ضوابط السلوك الفردى والجماعى.

وهم وإن كان قد جانبهم التوفيق فيما فحصوه ودرســوه، ومــا انتهوا إليه من نتائج من خلال بحثهم ودراستهم، إلا أنهم لم يغفلــوا أن من أهم مقومات المذهب الاجتماعى اشتماله على قواعد ضبط الســلوك الفردى والجماعى على السواء.

وأرباب هذا المذهب كذلك لم يفتهم أن يركزوا على الرمزية وعلى ضرورة اتخاذ الشعار الذى يعلن بغاية الوضوح عن اتجاه هذه الجماعة أو تلك التى تخضع لهذا المذهب وتدين به.

وهم يعتقدون أن قيمة الشعار ليست فى ذاته، وإنما قيمته فيما يدل عليه.

فهم ليس عندهم من مانع أن يتخذوا المطرقة والسندال شعاراً لهم يدل على اتجاههم فى فلسفتهم الاجتماعية.

وهكذا يرى مؤرخو المذاهب الاجتماعية أن المذهب الشيوعى برغم ما فيه من مسالب، إلا أنه لم يغفل عنصراً من العناصر التى تعد أساسا لقيام المذهب الاجتماعى.

وهؤلاء المؤرخون أنفسهم حين درسوا المذهب الديمقراطى وهو لون من الفلسفة الاجتماعية، رأوا أنه ناقص فى بعض أركانه نقصا يشير إليه بسوء المكانة فى التاريخ بين أنداده، ونظرائه من المذاهب الأخرى.

فأنت تستطيع أن ترى فى المذهب الديمقراطى شيئاً غير يسيرمن قواعد التشريع.

وأنت تستطيع أن ترى فى المذهب الديمقراطى شيئاً غير يسير من الرموز التى اتخذها أرباب هذا المذهب علامات تدل عليه وعلى معتنقيه.

ولكنك مهما أجهدت نفسك، وبلغ منك الجهد كل مبلغ، فلن تعثر ضمن طيات هذا المذهب على شئ من التصور للكون والحياة فى أصلها واستمرارها، والإنسان فى مبدئه ومصيره وعلاقاته بموجده.

وأنت حين ترى هذا المذهب لا يكشف عن شئ من تصوره للعقيدة، أو للفلسفة العليا، تجد نفسك وقد وقعت فى شئ من الحيرة وليس أمامك إلا أن تؤمن بأحد احتمالين، كلاهما يعيب المذهب وينتقص من شأنه.

أما أحدهما: فهو أن تعتقد أن المذهب قد جاء خاليا عن العقيدة مجافيا لها.

وحينئذٍ يكون المذهب قد خلا عن أهم عناصر وجوده، وقد قـام على أركان ناقصة، يهدده النقص فى هذه الأركان بأفول نجمه فى وقت قريب أو بعيد.

وأما ثانيهما: فهو أن يكون أرباب هذا المذهب، حين أعدوه قد وضعوا ضمن أركانه تصوراً للكون والحياة والإنسان، من حيث المبدأ والانتهاء واستمرار الوجود، ومن حيث علاقة كل واحد منها بالآخر ولكنهم أخفوا هذه الفلسفة وهذا التصور لعلة يدركونها ولا ندركها وهذا احتمال عقلى وارد، ولكنه لا يميط الأذى عن هذا المذهب ولا يرفع عنه موجبات النقص التى تلاحقه، ولا تكاد تخطئه.

وإنى لأعتقد بعد هذا كله، أنك قد عقلت عنى ما أريد لك أن تعقله عنى، من الإيمان بضرورة أن كل مذهب أو دين لا بد وأن يقوم على عقائد وشرائع ورموز.

ولكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة دوره الذى يضطلع به ووظيفته المنوطة به، ومهمته التى لا يُقبل منه سواها.

وإذا كانت هذه القاعدة قد استقرت فى ذهنك، وأصبحت مقتنعاً على نحو ما أنا مقتنع بها، فلا بأس على ولا عليك أن نجعل الحديث مباشراً بحيث نتحدث بغير وسائط عن الموضوع الذى نحن بصدده والذى صورناه فى هذا السؤال الذى يحصر موضوعه حصراً، ويجمع أطرافه جمعاً، لايكاد يخرج عن حدوده منها شئ.

لماذا كان بناء المسجد هو أول عمل باشره النبى ﷺ والمسلمون فى يثرب بعد الهجرة الكبرى؟

وإنى أعتقد الآن بعد أن سرت معك على درجة واحدة من القناعة، بصدق القاعدة التى أسلفناها، أنه لم يعد هناك شئ من العسر فى تصور الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال.

لقد عاش النبى ﷺ فى مكة بمقدار ما عاش، ينزل عليه الوحى بأمور العقيدة على الخصوص، وبأمور الشريعة فى كثير من الأحايين.

والعقيدة والشريعة عنصران كما رأيت يمثلان ركنيين هـامين من الأركان الثلاثة التى يقوم عليها كل دين.

لكننا فى العهد المكى لم نكد نعثر على الركن الثالث الذى هـو الرمز، والذى هو الشعار.

ولقد كانت قريش حريصة الحـرص كلـه علـى أن يكـون للمسلمين رمز، وعلى أن لا يكون للمسلمين شعار.

ففى الرمز والشعار إعلان على ظهور هذه الجماعة بما لها من دين، وقريش لا تحب ذلك لهم، ولا تطيقه منهم إن اتخذوه.

وأنا سأروى بين يديك قصة حكاها ابن إسحاق بسند صحيح قـد تفيدنا فى هذا الموضوع الذى نحن بصدده:

[قال ابن إسحاق: وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنـه، كما حدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن عروة عن عائشة رضـى الله عنهما، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظـاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى، استأذن رسـول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرا، حتى إذا سار مـن مكـة يوماً أو يومين، لقيه ابن الدغنة، أخو بنى عبد مناة بـن كنانـة، وهـو يومئذ سيد الأحابيش.

قال ابن إسحاق: والأحابيش: بنو الحارث بن عبـد منـاة بـن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة.

قال بن هشام: تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش للحلف.

ويقال: ابن الدغنة.

قال ابن إسحاق: حدثنى الزهرى، عن عـروة، عـن عائشـة رضى الله عنها قالت: فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجنـى قومى وآذونى، وضيقوا على، قال: ولم؟ فوالله إنـك لـتزين العشـيرة وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فـأنت فى جوارى، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابـن الدغنـة فقـال: يامعشر قريش، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة، فلا يعرضن له أحـد إلا بخير، قالت: فكفوا عنه.

قالت: وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح، فكان يصلى فيه، وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ القرآن استبكى، قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته، قالت: فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا: ياابن الدغنة، إنك تجير هذا الرجل ليؤذينا ! إنه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى،وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فاته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء، قالت: فمشى ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا بكر، إنى لم أجرك لتؤذى قومك إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت.

قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال فاردد علىّ جوارى، قال قد رددته عليك.

قالت فقام ابن الدغنة، فقال: يامعشر قريش، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم صاحبكم[(1)].

وكأنى بقريش وقد ظلت حريصة كل الحرص على أن لا يكون لهذا الدين شعار يبين عنه، وعلى أن لا يكون لجماعة المتدينين رمز يجتمعون حوله لما قلنا من أن قريشاً قد حرصت الحرص كله أن يظل هذا الدين محصوراً فى أضيق مكان، وأن يظل متبعوه نكرة بين الأعلام يعلون عليهم بالمعايب، ويسترونهم بما يحاولون أن يلحقوهم به من النقائض.

وقد يقول قائل فما بال هذا المسجد الحرام، وقد أمه النبى ﷺ يصلى عنده لا يمنعه مانع، ويطوف به، فلا يحول بينه وبينه حائل إلا أن تحاول قريش أن تؤذيه بسبب ما جاء به من هذا الدين الجديد.

ثم ما بال هذا المسجد الحرام، وقد أتيح لأصحاب محمد جميعا أن يتخذوا منه مصلى، وأن يطوفوا به ليلا أو نهاراً وقريش تنظر، لا لا يزعجها هذا الطواف، و لاتلك الصلاة إلى البيت الحرام حسبما يظهر لها، ولا يقلقها من ذلك شئ!.

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٦،١٧

وما ذكرناه الآن صحيح إلى حد بعيد.

ولكن ما نذكره الآن أيضاً هو الآخر صحيح قد بلغ من الصحة أقصى مداها، وهو أن البيت الحرام لم يكن شعاراً للمسلمين في هذا الزمان خاصاً بهم، ولم يكونوا هم الذين تميزوا بهذا الشعار دون غيرهم، بل أكاد أقول: إن الحق على خلاف ذلك، فالبيت وما حوله كان شعاراً للعرب جميعاً، وقريش خاصة قبل الإسلام، وكانت لهم إلى جواره شعارات أخر قريبة من البيت أو بعيدة عنه.

ولقد كانت قريش حريصة على أمرين فيما يتعلق بهذه الشعائر:

أحدهما: أن تكون هذه شعائر لها، كما هي شعائر للعرب كافة.

وثانيها: أن يكون لها التميز في هذه الشعائر كلها.

فهم حماة البيت وسدنته.

وهم الذين يقومون على خدمة الحجيج، واستضافتهم يقدمون إليهم ماء زمزم وقد نقع فيه التمر والزبيب، ويقدمون لهم هشيم الخبز وقد سقى بما يصلحه من الحساء أو اللبن.

وهم الذين يقبضون على مفتاح البيت، يأذنون بدخوله لمن يشاءون أن يأذنوا له، ويصدون عنه ما يريدون أن يصدوه عنه.

ثم إن قريشاً هم الحمس لا يصعدون إلى جبل عرفات وهو شعيرة من شعائر الحج كما يصعد سائر الخلائق، وإنما يجعلون موقفهم دونه حتى لا يفيضوا كما يفيض الناس.

ثم هم في الحج يظهرون أمام الناس يأتون البيوت من أبوابها وغيرهم يحرم عليهم أن يدخلوا البيوت من الأبواب.

إلى غير ذلك مما هو كثير مشهور.

وأنت يتبين لك من كل هذا أنه لا محل للعجب، ولا محل للاعتراض بوجود البيت الحرام شعيرة تعلن عن نفسها بمكة لسبب بسيط، وهو أن البيت الحرام لم يتمحض شعيرة للمسلمين يومئذ كان النبي ﷺ بمكة وإنما في أحسن ظروفه أنه كان شعيرة مشتركة، تميز ما كانت قريش عليه من دين، ولا تمييز فيه لدين المسلمين.

وإنى لأنتهى معك من هذا كله إلى أن أصارحك بقناعتى، أن الإسلام فى مكة، وإن كان قد عالج قضية العقيدة، وشيئاً من قضايا التشريع، فإنه لم يعالج قضية الشعيرة، ولم يرسم للمسلمين شيئاً قليلاً أو كثيراً من شعائرهم التى تميز فى الظاهر دينهم.

ولعلى أقول لك: إنما ذكرته لك الآن من عقيدتى قد يقويه، ويشهد له أن مثل الحج لم يفرض فى مكة، من نحو العمرة، والعيدين، والأضحية، واتخاذ المساجد، والجهر بالأذان إلى غير ذلك مما يدخل فى باب الشعائر دخولاً مباشراً.

ثم أذن للنبى ﷺ بالهجرة بعد أن هاجر المسلمون،وبعد أن انتشر الإسلام فى يثرب، وهاجر النبى ﷺ بصاحبه فى رحلته أبو بكر الصديق، وقد سبقتهما قواعد العقائد الإسلامية، وما نزل من التشريع، فاعتنقهما أهل يثرب الذين استقبلوا بعد ذلك إخوانهم المهاجرين من المسلمين.

فما أن وصل النبى ﷺ وأبو بكر إلى مشارف يثرب، حتى استقروا فى حى بنى عمرو بن عوف، وكان أول ما فكر فيه النبى ﷺ أنه بنى مسجداً على مربد لكلثوم بن الهِدْم.

صحيح أن المسلمين قد اتخذوا لأنفسهم مساجد، غير أنها كانت مساجد خاصة تقريباً، والشعار لا يأخذ مكانته من هذا الدين إلا إذا توفر له قدر كاف من إمكان الانتفاع العام به، من غير حواجز أو موانع، وذلك لا يكون إلا إذا كان للقائد العام فيه قراره الواضح، وعمله الظاهر إن أمكن ذلك.

ثم أقبل النبى ﷺ إلى يثرب، واستقر فى بيت أبى أيوب وأمر أن يبنى له مسجداً يحمل اسمه على مربد لغلامين من سلالة مالك بن النجار، أخذه منهما بمقابله من الثمن.

وأنا أرى أنه ما كان للنبى ﷺ أن يفعل غير ذلك، إذ ليس له مندوحة عنه.

فنحن إن تصورنا المسلمين والإسلام ونبى الإسلام فى مكة، نتصورهم وهم لا يقدرون فى كثير من الأحوال على أن يعلنوا عن أنفسهم بشعار أو بشعيرة، ولا تحول قريش بينهم وبين ما يفعلون.

فلما كانت الهجرة، كان من أول حصادها بعد الاستقرار أن يتخذ النبى ﷺ المسجد فى كل مكان يتاح له فيه أن يتخذ مسجداً، إذ المسجد هو أخص شعار المسلمين.

وهذا فيما أرى هو السبب المباشر والمعقول الذى جعل النبى ﷺ يأمر باتخاذ المسجد الذى يحمل اسمه أول مقامه فى حى بنى النجار، وهو نفسه السبب المقبول والمعقول الذى جعل النبى ﷺ يأمر باتخاذ المسجد فى قباء، أول عهده بها.

ثم إن هناك أمرين بعد ذلك لا يحسن أن نغفلهما، ولهما بهذا الموضوع صلة.

١- **أما أحدهما:** فهو أن الشريعة الإسلامية قد بدأت تعالج بنصوصها موضوع الشعائر جنباً إلى جنب مع موضوعى العقيدة والشريعة.

ومن هذا الباب تجد أن الله قد شرع الأذان شعيرة للمسلمين واتخاذ البيت الحرام قبلة للصلاة شعيرة للمسلمين، وصلاة العيدين فى الخلاء شعيرة للمسلمين، والأضحية وما يماثلها من الدماء وإراقتها بأمر الله، واجتماع الناس على أن يأكلوا منها، أو استصحاب لحمها بعد ذبحها إلى بيوتهم شعيرة كذلك للمسلمين، ثم الحج والعمرة، وما فيهما من شعائر لا تخفى عليك.

٢- وأما ثانيهما: فهو أن الله عز وجل لم يشأ أن يجعل شعيرة المسلمين رمزاً مجرداً، لأنه لو فعل ذلك لتحولت الشعائر إلى أصنام تعبد، وأوثان تتخذ من دون الله.

وحتى يجنب الله المسلمين هذا الشر المستطير مزج لهم بين الشعيرة والشريعة مزجاً دقيقاً لاتكاد تفصل واحدة منهما عن الأخرى إلا في التمييز العقلي فقط.

فالمسجد مثلا يتخذ للصلاة وهى عماد الدين، ويتخذ للاعتكاف يعتكف فيه ضيوف رب العالمين، ويعد بناؤه وتشييده عبادة من أفضل العبادات لأن فيه استجابة لأمر الشارع الذى أمر بتشييدها وبنائها.

إلى غير ذلك مما يقال حول امتزاج المسجد بالعبادة فى كثير من نواحيها.

وقل مثل ذلك فى الأذان، وفى الطواف بالبيت، وفى استلام الحجر وفى الرجم، وفى الوقوف بعرفة والمبيت بالمزدلفة إلى غير ذلك مما نمثل له ولا نحصيه.

وفى امتزاج الشعيرة بالشريعة أحب أن أسوق بين يديك مجموعة من النصوص، أنهى بها هذا المحور الثانى من محاورنا الثلاثة، التى اخترنا أن نتحدث حولها، ونحن بصدد الحديث عن الحصاد.

والقرآن الكريم فيه كثير من النصوص التى تعالج هذا الموضوع، سأذكرها الآن بين يديك، وسأترك لك أن تطلع بنفسك على كتب السنة لترى كيف عالجت السنة جانباً هاماً يتصل بالشعائر، وكيف أبانت عن المزج الشديد بينها وبين الشرائع.

ثم إنى ثقة بفطنتك لم أقف عند كل نص أذكره بين يديك، لألفت نظرك إلى ما فيه، فهو بمشيئة الله سهل ميسور يبين عن نفسه، وعما يحتويه من المعانى بشئ من الظهور الذى لا يحتمل الخفاء.

قال تعالى **{إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج االبيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم}**[1] **{ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن**

---

(١) البقرة: ١٥٨.

كنتم من قبله لمن الضالين}[١] **{يأيها الذين أمنوا لا تحلو شـــعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا}**[٢] **{ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنـــها مـــن تقوى القلوب}**[٣] **{والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيـــها خـــير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون}**[٤] .

هذه آيات بينات تناولت قضية الشعائر ممزوجة بالشريعة مزجاً لا يخفى عليك إدراكه.

وإننا بعد ذلك لا نحتاج إلى شئ من التأكيد على جواب السؤال الذى أثرناه من قبل وهو: لماذا كان بناء المسجد أول عمل للنبى بعـــد الهجرة النبوية الكريمة؟

وأنت حين تضم الجواب الذى سقناه لك عن هذا التساؤل إلى ما ذكرنا من تأريخ لحدث بناء المسجد، يتضح بين يديك أن حـــدث بنـــاء المسجد النبوى بعد الهجرة مباشرة، يعد عنصراً هامـــاً مـــن عنـــاصر الحصاد الذى ترتب على أحداث الهجرة كلها، وما كان لـــه أن يكـــون لولاها مادمنا ننظر إلى الأشياء فى إطار سنن الله الجارية، وهى التـــى أراد الله لأمة الإسلام أن تستظل بظلالها.

٣- ونحن حين نصل بك إلى هذه المنطقة من البحث، نكـــون قـــد وصلنا إلى المحور الثالث، وهو آخر المحاور التى التزمنا أن نتحـــدث حولها ضمن هذا الإطار العام الذى سميناه بالحصاد.

وما ارتضيناه محوراً ثالثاً هو هذا الحديث الذى يـــدور حـــول عمل النبى ﷺ الدؤوب، لإيجاد نوع من الأواصر الاجتماعيـــة التـــى يبنى عليها مجتمعا متآلفا، يصلح أن يستقبل به ميـــلاد مجموعـــة مـــن

---

[١] البقرة : ١٩٨.

[٢] المائدة: ٢ (جزء آية)

[٣] الحج: ٣٢

[٤] الحج: ٣٦.

الحوادث قد حملت بها الأيام، وأتمت حملها، ولا يدرى أحد من النـاس أن تفاجئهم بليل أم بنهار.

وليس من قبيل الشئ المستور أن نقول لك: إن النبى ﷺ حين أقبل إلى المدينة قد وجد مجتمعاً فيه جماعات من البشر غير مؤتلفة وفيه سلالات من الناس يتربص بعضهم ببعض، ويكيد بعضهم لبعض لا يتوانون عن المكيدة، ولا يكفون عن التربص.

وفى المجتمع المدنى حين قدم النبى ﷺ جماعات قد ذاقت بعضها بأس بعض، فأعقبها غصة فى الحلق، ومرارة فى الفؤاد.

وفى المجتمع المدنى جماعات تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى لا يأمن بعضهم غدر بعض، ولا يأتلفون إلا فى الظاهر مخافة أن يدهمهم الشر فيأتى عليهم جميعا، وهم جميعا يشتركون فى صفة واحدة، وهى صفة الجبن إذا اشتد الأمر، والذلة والمداهنة إذا ما قدر عليهم القادرون.

وفى المجتمع المدنى جماعات قد عاشوا حياتهم كلها فى مكة وأقبلوا إلى المدينة مهاجرين، قد خلفوا وراءهم تاريخهم وأموالهم وديارهم وأهليهم، فهم فى المدينة بلا أهل ولا ديار، وبلا تاريخ، وبلا سلالة قد انحدروا منها ويأوون إليها.

مجتمع عجيب قد واجه النبى ﷺ أول مقدمه إلى المدينة، فيه اليهود، وهم على طوائف: بنو قينقاع، بنو النضير وبنو قريظة.

وفيه الأوس والخزرج: وهم أبناء عمومة، ولكن العداء قد باعد بينهم، وقطعت أواصر القربى بين أبناء العمومة بسيوف البغى التى يحركها الحسد والحقد، اللذين زرعهما اليهود فى قلوب الفريقين وأشعلوا نيرانهما، وكلما خبت زادوها سعيراً.

وفيه المهاجرون: وصفتهم كما حدثتك آنفا.

وقد لا تحتاج منى أن أحدثك حول أن اليهود قد سبقوا إلى يثرب منذ زمن بعيد فى التاريخ، كما يذكر الطبرى، حيث جاءوا إلى جزيرة العرب فارين من أعدائهم، واستوطنوا بيثرب أرضاً ليست لهم

وليس لهم من قبل بها عهد، ولكنهم جاءوا إليـــها واختـــاروا أكثرهـــا خصوبة، وأكثرها قدرة على العطاء، فاستوطنوا بها، وبنوا بها الجـــدر والحصون، وأنشأوا بها كل بيت ومِدْراس يحتـــاجون إليـــهما للإيـــواء والدرس.

ولما تهدم سد مأرب وتفرق الناس عن حاضرة اليمن التى كـان الماء قوامها، نزل الأوس والخزرج على يثرب جيراناً لهذا الحى مـــن يهود.

ولقد حدثتك فيما سبق حديثاً مستفيضاً، حول أن اليـــهود فـــى علاقاتهم بالآخرين لا يميلون إلى الحرب، ولا يميلون إلى السلام، وإنما هم يميلون دائماً إلى الفتنة، كل الميل، ولا يرتاحون ويطمئنـــون إلا إذا رأوا جيرانهم جميعاً وهم فى الفتنة قد سقطوا.

ومن أجل ذلك كان أمراً طبيعياً أن تجد الأوس والخزرج وقـــد غلت نار البغضاء فى صدورهم، لا تصرفهم عن الحرب والقتـــال، إلا ليعودوا إلى حرب وقتال.

أما المهاجرون فهم أحدث الجميع عهداً بـــهذه الأرض، وهـــم على ما فيهم من فقدان الأهل والعشيرة، ونقص المال ووسائل المعـايش والعوز الشديد إلى التاريخ والانتماء إلى الوطن إلا أنهم لم يكن بينـــهم وبين أحد من العرب سكان الوطن الأصليين أو الأقدمين من عـــداء أو شحناء، بل إنهم على العكس من ذلك ليجدون مـــن إخوانـــهم الذيـــن سبقوهم إلى يثرب من حسن الضيافة، وحسن الاستقبال مـــا يعوضـــهم عما خلفوه وراء ظهورهم من الأهل والأموال.

إنى لأجدك فى حاجة إلى أن أحدثك باستفاضة عمـــا أوجـــزت لك، لأن بعضه مشهور مستفيض، ولأن البعض الآخر قـــد ســـبق أن حدثتك عنه.

غير أن الذى يعنينى الآن ويشغل بالى، على نحو ما يعنيـــك و يشغل بالك، هو هذه العقبة الكأداء المتمثلة فى هذا المجتمع المتشـــرذم،

المقطع الأوصال والمتباين فى النفوس، والتى واجهت النبـــى ﷺ أول عهده بالمدينة، وأوشكت أن تحول بينه وبين أن يصنع من هذا المجتمع

دولة تقوم على هذا الوطن حتى يشتد ساعدها، ثم ينطلق أفرادها بدينهم ينشرونه بين العالمين.

هذه العقبة الكأداء لابد أن يتعامل معها النبى ﷺ، لا يبطئ فى التعامل معها، ولا يتهاون فى اتخاذ الطرق الجادة إليها.

فماذا عساه أن يفعل والأمر على ما قد رأيت من التعقيد؟

وكأنى بالنبى ﷺ يتأمل طوائف المجتمع كلها، وينظر فى كل واحدة منها على انفرادها لعله يجد لها ما يصلحها، ويعينها على أن تتجاوز محنتها.

ولم يطل تأمل النبى ﷺ حتى وجدناه يتخذ السبيل إلى ما يصلح شأن كل طائفة من الطوائف، وإلى ما يؤلف بين قلوب الناس، ويزيل عنهم أضغانهم.

أما اليهود: فهم أبعد الناس منه، وأكثرهم عداءً له وللدين الذى جاء به، وهم مع ذلك لا يكنون لجيرانهم مودة أو شيئاً من الألفة، يحرصون على بقائها فيما بينهم، بل هم على العكس من ذلك لا يحتفظون لهم فى صدورهم إلا بالبغضاء التى بدا بعضها من أفواههم واليهود مع ذلك غرباء عن جزيرة العرب، لا حق لهم فى أن يقطنوها ولا حق لهم أن يقيموا بها وقتاً طال هذا الوقت أو قصر.

والنبى ﷺ يعرف هذا كله وأكثر منه، ولكنه حين تعامل مع اليهود، تعامل معهم بما يناسب دينه وشريعته أولاً، ومايناسب طبعه وخلقه ثانياً، ولا فرق بين خُلقه ودينه يمكن لمؤرخ أن يدركه، أو يمكن لمحلل أن ينتهى إليه.

وما يناسب خلق النبى ﷺ ودينه أنه لا يبدأ القوم بشئ من الاستفزاز قل هذا الشئ أو كثر.

وانطلاقاً من هذه القاعدة تجد النبى ﷺ يستعمل من الألفاظ ما فيه شئ من اللين شريطة ألايتنازل عن شئ من شريعته، ولا عن شئ من عقيدته الموحى إليه بهما، لا ، ولا بمقدار الفتيل أو القطمير.

فى هذا الإطار كان النبى ﷺ يلين فى القول إلى اليهود، وهــم شركاؤه، على أرض لا حق لهم فيها.

ومن هذه الأقوال اللينة الهينة ما يظهر فى التشريع الذى شرعه النبى ﷺ للمسلمين.

فالله قد شاء أن يصوم المســلمون أول العــهد بالمدينــة يــوم عاشوراء، ليأتى تشريع الصيام تدريجا حتى تتعوده نفوس المسلمين.

وسواء أكان بالمدينة يهود أو لم يكن فإن هذا أمر قد مضى بــه قضاء الله عز وجل.

ولقد تصادف أن اليهود يصومون يوم عاشوراء، ولا يعرفــون من صيامه إلا أن موسى عليه السلام كان يصومه.

فما الذى يمنع النبى ﷺ والحالة هذه أن يقول هذه الكلمة التــى لا تخلو من بعض المجاملات الاجتماعية، دون أن يكون لها أثر علــى شريعة الصوم التى أوحى الله إليه بها.

قال النبى ﷺ نحن أولى بموسى منهم.

وأنا سأحاول أن أنقل من النصوص بين يديك ما يجعلك تطمئن إلى ما قلناه، من أن صوم عاشوراء شريعة إسلامية مقصودة فى وقتــها ومفروضة من الشارع، وما قاله النبى ﷺ لليهود لا يعــدو أن يكــون مجاملة اجتماعية، يصنعها القائد مع بعض مواطنيه حتى لا يؤخذ عليــه أنه يبغض مشاركته لهم فى الوطن بغير سبب ظاهر.

حدث البخارى بالسند إلى عمر بن محمد بن زيد بن عبـــد الله بن عمر عن سالم بن عبد الله بن عمر وهو عم أبيه قال فيمـــا يرويـــه عبد الله بن عمر قال: **[قال النبى ﷺ يوم عاشوراء إن شاء صام]**.

وفيه من طريق الزهرى إلى عائشة رضى الله عنها قالت [كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء، فلما فرض رمضان كان من شـــاء صام ومن **شاء أفطر]**.

وعن عائشة أيضا قالت **[كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه]**.

وعن ابن عباس قال: [قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا قالوا هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه][1].

وفي البخاري ومسلم وغيرهما أحاديث أخرى بروايات مختلفة تتصل بتشريع صيام يوم عاشوراء.

وأنت إذا تأملتها جميعها، فستجد أنها تتحدث عن قيمة يوم عاشوراء في الإسلام، وعن تكليف الناس بصيامه أول الأمر، وتركه على سبيل الندب بعد أن فرض صيام شهر رمضان.

وأنت لا يغيب عنك حين تتصفح هذه الروايات أن قريشا كان لها بهذا اليوم عهد وصلة، وأن النبي ﷺ قبل الإسلام قد استحسن صيام هذا اليوم وصامه، فهو إذن لا يجهله ولا يجهل صيامه مما يجعلك تعلم أنه حين سأل عن هذا اليوم الذي تصومه اليهود، ولماذا يصومونه، لم يكن ذلك ليعلم من جهتهم، وإنما هو فقط من باب المجاملة الاجتماعية كما قلت لك، في أمر لا يضر بشريعة ولا ينتقص من خلق.

ونحن نستطيع أن نتصور الأمر نفسه في مسألة الصلاة إلى بيت المقدس، ثم التحول عنه إلى الصلاة شطر المسجد الحرام.

ولئن كان النبي لم يقل شيئا لليهود في مسألة القبلة أول الأمر إلى بيت المقدس، إلا أنه لو شاء لقال، ولما ترتب على ذلك ضرر في دين ولا خلق.

---

[1] فتح الباري على صحيح البخاري- كتاب الصيام- باب صيام يوم عاشوراء جـ ٤ ص ٢٤٤.

وهناك رواية تتصل بالمسجد قد لا يصح سندها على قاعدة المحدثين، ولكنها بمجملها أدخلُ فى هذا الباب، حيث قال النبى ﷺ: ابنوا لى مسجداً كعريش موسى ٠٠٠

والشئ الذى لا أفهمه ولا أعقله أن بعض المستشرقين يلومون النبى ﷺ على فعله هذا من نحو: صيام يوم عاشوراء، ومن نحو اتخاذ القبلة إلى بيت المقدس ثم التحول عنها، ومن نحو قوله: ابنوا لى عريشاً كعريش موسى، فهم يقولون: إن النبى ﷺ قد جامل اليهود فى أول الأمر، ثم عدل عن المجاملة إلى الشدة بهم بعد ذلك.

ولقد قلت: إن هذه مواقف لا أعقلها عن أصحابها.

وبنفس القدر من الدهشة أقول: إنى لا أعقل عن بعض الكتاب المسلمين أن يقولوا: إن النبى ﷺ ما كان يلين فى القول إلى جيرانه من اليهود أول الأمر.

إنى لا أعقل عن هؤلاء، ولا أعقل عن هؤلاء، ما يقول هؤلاء وهؤلاء، لأنى أعلم أن النبى ﷺ كان يلين فى القول لجيرانه ولو كانوا على غير دينه، مالم تنتهك للدين حرمة، ولم ينتقص من الأخلاق خصلة.

والأهم من ذلك كله أن نقول: إن اليهود على غربتهم وضيافتهم فوق أرض يثرب، لم يقابلوا الحسنة بالحسنة، ولكنهم أعلنوا فيما بينهم عداءهم للنبى ﷺ ودينه، وانتقاصهم من مكانة النبى ﷺ وخلقه، مع حرص شديد على ألا يصل هذا العداء والتعبير عنه للنبى محمد، وأن لا يصله ما يقولونه، وما يعتقدونه من انتقاص شخصية هذا النبى الأمين.

والنبى ﷺ مقبل على أمر عظيم وهو اتخاذ دولة على هذا الوطن للإسلام والمسلمين، ليس لسكان الجزيرة بها عهد من قبل.

وإنشاء دولة على هذا النمط لا يجوز معها أن ينصرف الناس إلى سفاسف الأمور، ولا يجوز معها أن يترك اليهود لصفاتهم

وممارساتهم، وهى خلخلة الصلات بين مجاوريهم من غير اليهود، ونشر البغضاء بين صفوفهم.

إن الناس بقيادة النبى ﷺ لم يعد يجوز لهم أن ينصرفوا إلى مثل هذا، ولا إلى أقل منه، وهم فى نفس الوقت لا يجوز لهم أن يسمحوا لهذا المرض الاجتماعى الذى يستهوى اليهود أن يزرعوا ميكروبه فى كل جماعة قدر لهم أن يجاوروها، ولو كانت هذه الجماعة قد تفسحت لهم، حتى يقيموا معها على أرضها المملوكة لها بحكم التاريخ، والمملوكة لها بحكم ميراث الآباء والأجداد.

ومن هنا رأينا التاريخ يحدث عن أن النبى ﷺ قد عرض على اليهود أن يدخلوا معه فى دينه فأبوا.

فلما أبى اليهود وعلم النبى أن المشاركة فى المعيشة على أرض الوطن يتبعها الانتماء له والدفاع عنه، والانتماء والدفاع لا يتأتيان إلا على أساس من دين أو قاعدة من المواطنة.

ولما رفض اليهود الدخول فى الدين مع النبى محمد، وعلم النبى ﷺ منهم ذلك، لم يكن أمامه إذا إلا أن يعقد النبى ﷺ بينهم وبينه معاهدة وطنية، لعلمه أنه لم يعد أمامه وأمامهم بعد ذلك من سبيل، يجمع بينهم على قاعدة الاجتماع الصحيح فوق أرض يثرب.

فأرسل النبى ﷺ إليهم وعاهدهم على أنهم يقومون جميعا بالوفاء بما يتطلبه هذا المجتمع على هذه الأرض فى السلم وفى الحرب على السواء.

وفى بعض روايات المعاهدة تعميم لبنود تلك المعاهدة، حتى شملت طوائف المجتمع على ما ارتضاه النبى ﷺ من قواعد الاجتماع الشائعة يومئذ، إلى أن يقضى الله فوق ذلك كله بأمره.

ولقد استمر النبى ﷺ واليهود يتعايشون فيما بينهم فترة من الزمن، إلى أن بدأت قريش تكاتب اليهود فى شأن النبى ﷺ، فوافق شنٌ طبَقه ، ورأى بعض اليهود أن فى هذا فرصتهم للخروج عن بنود

المعاهدة، والتخلص من عروة الالتزام بأصول المواطنة السليمة التـــى وقعوها آنفاً مع النبى والمسلمين، ولم يمض عليها من الوقت إلا شـــئ يسير.

ولقد بدأ اليهود يكيدون للنبى والمسلمين على نحو ما حدثنـــاك فى فصل سبق، انتهى بهم هذا الكيد إلى أن أمر النبى، أو ظـــهر مـــن فعله أنه يرغب فى أن لا يساكنه اليهود فى المدينة.

ولو قد شاء النبى ﷺ أن يساكنه اليهود فى المدينة وســـجاياهم ما قد علمت، ما كان للنبى أن يستطيع أن يؤسس دولة بالمدينـــة تقـــوم على إنكار الذات وإيثار الغير، والعمل ابتغاء وجه الله عـــز وجـــل، إذ مثل هذه السجايا لا تكون إلا إذا اختفت عوامـــل البغضـــاء، وأصـــول الأثرة، وأسباب الحسد والشقاق، وتلك أمور لا تختفـــى فـــى مجتمـــع يجاوره اليهود، لأن من أهم مقومات شخصياتهم أنهم يشيعون الفرقـــة فى صفوف جيرانهم، أو غير جيرانهم ممن تطولهم رماح الرغبة فـــى تفريق الناس، وضرب وحدتهم.

وأيّا ما كان الأمر، فإن أول عهد النبى ﷺ بالمدينة قد ظـــهر منه الحرص على هذا التعايش السلمى مع اليهود، حتى ولو لم يكن لهم ملكية الأرض، وحتى ولو لم يكن لهم حق فى مقام.

هذا ما كان من شأن النبى ﷺ مع اليهود أول الأمر.

<u>وأما الأوس والخزرج</u> فكان شأن النبى ﷺ معهم أيسر من شأنه مع اليهود بمراحل شتى.

ذلك لأن الأوس والخزرج قد أدرك زعماؤهم منذ أول لقاعلـــهم بالنبى ليلة العقبة الأولى، أنهم إن حاولوا أن يعيشوا كما يعيش النـــاس فليس لهم إلا أن يتابعوا النبى ﷺ على دينه، ومتابعة النبى ﷺ علـــى دينه يترتب عليها من المشاق فى ذلك العصر ما ينبغى أن يحسبوا لـــه الحساب، فهم سيبذلون من أموالهم، بل ومن أنفسهم أشياء لا يعلمـــون مقدارها ولا منتهاها، وهم سيقطعون حبال قوم يربـــط بينـــهم وبينـــهم

الجوار، وهم أكثر منهم تحضرا، وأعلى منهم كعباً فى مجالى التنظيم والعتاد.

وهم سيعادون العرب كلهم أو أغلبهم لأن الذى يبدو من العرب أنهم لم يدينوا بدين النبى ﷺ فى وقت يسهل على هذا الجيل إدراكه.

أدرك زعماء الأوس والخزرج أنهم إن أرادوا أن يعيشوا كما يعيش الناس لا بد وأن يتابعوا هذا النبى ﷺ على دينه، وأن متابعته على هذا الدين كثيرة الأعباء عظيمة المؤنة، وهم لن يتمكنوا من أداء هذه التبعات من تحمل هذه المؤنة، إلا إذا جمعوا شملهم، ولموا شعثهم، ووصلوا ما انقطع من حبال الود وأواصر القربى بسبب عبث اليهود فيما بينهم، وبث أسباب الفرقه فى مجتمعهم.

وما ذكرته بين يديك مفصلا، ذكره زعماء القوم يوم العقبة الأولى موجزا مختصرا على ما يرويه المؤرخون وكتاب السير [قال الزهرى وابن عقبة وابن إسحاق: فلما أراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز موعده له، خرج رسول فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم،فبينما هوعند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم: من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج قال: أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، من أنت؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله لهم به من الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أو ثان، وكانوا قد عزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم إن نبيناً مبعوثا الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فقال بعضهم لبعض: ياقوم تعلّموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه إلى ما دعاهم إليه بأن

صدقوه و قبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ثم قالوا: قد علمت الذى بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حراص على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا، فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم، فإنا اليوم متباغضون متباعدون، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل فرضى بذلك رسول الله ﷺ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا] (١).

لهذا كان أمر النبى ﷺ أكثر يسراً مع الأوس والخزرج حيث أدركوا منذ أول الأمر أن خيرهم وخير الأجيال التالية من أبنائهم وأحفادهم فى أن يتابعوا النبى ﷺ مؤتلفين لا مختلفين.

والتاريخ يحدثنا أن متابعة النبى ﷺ المبنية على ضرورةالألفة، لم تكن رغبة فى صدور القوم فحسب، ولكن زعماءهم وحكماءهم، وأهل الحل والعقد فيهم قد حولوا هذه الرغبة إلى أمر واقع اقتنع به معظم اليثربيين، وحرصوا الحرص كله على تنفيذه.

غير أن هذه الرغبة فى الصدور، والتى دفعت القوم إلى أن يتخذوا خطوات عملية نحو الائتلاف، قد يعرض لها عارض عاطفى يعبث بها، خاصة وهم مقبلون على تأسيس مجتمع كبير، لا يؤمن عليه أن تأتيه الفتنة من بعض جوانبه يثيرها يهودى متعال أو منافق حاقد فلا يبعد مثلا أن يهتف رجل من الأوس بالنداء القديم - وا أوساه- أو يهتف خزرجى بقومه لأتفه الأسباب يستعدى كل واحد منهما أهله وأقاربه على بنى عمومته، فتنشب الحرب بينهما دون أن يقدر أحد على إطفاء جذوتها.

ولا يبعد أن تقع فى جنبات المجتمع الكبير جريمة قتل، أو يحدث قتلٌ خطأ لا تستكمل فيه الجريمة أركانها، ثم يختلفون فيما بينهم

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ ٣ ص ٢٦٧،٢٦٨

على مقدار الدية، أو طريقة أدائها، فيقع الخلاف، وتدق طبول الحروب التى لا ينتظر منها فى وقت قريب أن تضع أوزارها.

والنبى يتأمل الموقف فيقف على ذلك كله، ويقف مع ذلك على مدى خطورته، الأمر الذى يستلزم أن يأخذ النبى ﷺ فى السبيل إلى حله.

ولم ينفق النبى ﷺ وقتاً طويلاً فى النظر والتفكير حتى انتهى إلى ما يريد من القضاء على كل ذريعة تنتهى بالفريقين إلى عداء مستحكم، أو إلى حرب دروس.

ومما صنعه النبى ﷺ يقطع به كل ذريعة، هذه الصحيفة التى يذكرها كتاب السير، وهى تشتمل على كثرة هائلة من البنود، التى تعد جميعها قاعدة صُلبة، تبنى عليها أواصر المجتمع، ويُفتل بكفيها أواصر المودة التى لا يتطرق إليها الوهن.

وهذه الصحيفة التى كتبها النبى ﷺ، لم يشأ أن يعلن أنها عهد بين الأوس والخزرج، وإنما جعل صياغتها تشبه إلى حد كبير هذا الذى يعرفه الناس فى عصور متأخرة بالعقد الاجتماعى، أو الميثاق الوطنى.

وأنت تلاحظ أن هذه الصحيفة قد كتبت فى زمان متقدم، كان التشريع الجنائى والمدنى فيه لم تكتمل صورته بعد، فأقر القوم على أعرافهم وعوائدهم، حتى يجعل الله للجميع سبيلاً إلى تشريعه الذى يرتضيه فى مثل هذه الأمور التى هم بصددها.

وإمعاناً فى صياغة هذه الصحيفة أصر النبى ﷺ أن يسمى كل بطن وفخذ، وأن يشير إلى كل جماعة ومحلة، يسميهم جميعاً ويكرر مع كل جماعة نفس الألفاظ التى أراد لهم أن يتعاهدوا على تنفيذها مبرمة لا تحتمل النقد.

ومما صنعه النبى ﷺ يقطع به كل ذريعة إلى نفير الحرب أنه قد علم أن اسمى الأوس والخزرج من الأسماء التى ترددت فى

الماضى، تثير الغرائز وتهيج الوجدان، إذ إنه كان يكفى لنشوب الحرب أن يقول الخزرجى -واخزرجاه-، وأن يقول الأوس: -وا أوساه -.

لقد علم النبى ﷺ ذلك، وعلم ما فى هذين الاسمين من خطـر شديد، وأن كل واحد من هذين الاسمين يكفى بمفرده ليكون ذريعة إلـى نار حرب لا يخبو أوارها، ولا يهدأ سعيرها.

وكان لابد بعد علم النبى ﷺ أن يأخذ فى الطريق إلى سد هـذه الذرائع، فقرر النبى رفع هذين الاسمين بطريقة كلية أو جزئيـة، وأن يضع مكانهما اسماً مشتركا يندرج جميع أبناء العمومة تحت مظلته.

ويشترط فى هذا الاسم الجديد، أن يكون له من الجاذبية والقدرة على تحريك العواطف، ما يستطيع معهما أن ينسى الفريقين مـا كـان لهما من أسماء وألقاب، فينسى الأوس اسم الأوس الذى توارثوه وينسى الخزرج اسم الخزرج الذى أظلهم زمنا طويلا، والنبى ما قصر فى شئ من ذلك، وإنما علم ذلك كله، وكان موضع عنايته ورعايته.

ودونك هذا الاسم الجديد الذى اختاره النبى ﷺ، ليجمع به بين هذين الفريقين من أبناء العمومة تحت مظلة عاطفية لا يرضـون بـها بديلا، فتأمله وتأمل فى التاريخ آثاره.

لقد شاء النبى ﷺ أن يسميهم بالأنصار، لتفهم الكلمـة علـى معنى من معانيها، أو على معانيها مجتمعة، إذ لابأس من هذا الفـهم أو ذاك.

إن كلمة الأنصار تصلح كى تدل على أن القوم هـم أنصـار رسول الله، وهى تصلح فى نفس الوقت كى تدل على أنهم أنصـار الله أو أنصار دينه ولا بأس أن تطلق هذه الكلمة على هذه المعانى مجتمعـة فهم أنصار الله ورسوله ودينه.

ومن يوم أن أطلق رسول الله عليهم هذا الاسم، والقوم فرحـون به مغتبطون.

ومن يوم أن أطلق رسول الله عليهم هـذا الاسـم، والتـاريخ يذكرهم به، وإخوانهم لا يذكرونهم بغيره.

ومن يوم أن أطلق رسول الله عليهم هذا الاسم، وخطاب الشرع يستعمله إن أراد أن يخاطبهم، لايكاد يستعمل غيره.

وهذا شرف للقوم ما بعده شرف.

أما أنا فإنى أتأمل هذا الذى التفت إليه النبى ﷺ أول ذهابه إلى المدينة المنورة، فأجدنى فى بحار من الحيرة والعجب معاً، لا يخرجنى من بين أمواجها المتلاطمة إلا عقيدتى الراسخة فى أن محمداً رسول الله، وهو خاتم النبيين، وهو لا ينطق عن الهوى، وهو قد تكاملت شخصيته من جميع جوانبها، لايتأتى منها إلا كل صواب، ولا ينأى عنها إلا كل خطأ أو خطيئة.

أقول لولا هذه العقيدة فى النبى ﷺ لبقيت فى بحار الحيرة والاندهاش لا أرى لها ساحلاً، ولا أجد لأقدامى شاطئا تثبت عليه.

ولما لا أندهش، ولما لا أحار، والنبى قد التفت إلى أمر عظيم له أثر بالغ فى علاج النفوس، لا يكاد الناس يلتفتون إليه اليوم؟! وهذا الأمر العظيم الذى أدركه النبى العظيم هو أن الأسماء والألقاب، التى تستعمل فى أوقات الشقاق والنزاع ترتبط ارتباطاً وثيقاً فى الوجدان بهذا الشقاق، وذاك النزاع.

وتلك قضية قد مرت فى صمت عجيب حتى كشف عنها علم النفس الحديث فى تجربة الارتباط الشرطي، أو تجاربه المتكررة التي قام بإجرائها عالم من علماء النفس المحدثين، وانتهى منها إلى نظريته التي سجلها العلم باسمه وهى نظرية "بافلف".

ونظريته فى إجمالها أنه إذا ما عرض على الذهن أو الوجدان شيآن متلازمان عرضاً متكررا، يربط الذهن أو الوجدان بينهما، بحيث إذا عرض عليه أحدهما بانفراده، استحضر الذهن أو الوجدان صورة قرينه.

ولقد فتحت هذه النظرية باباً واسعاً أمام علماء النفس، وعلماء اللغة، وعلماء الاجتماع، بحيث وجد علماء كل تخصص فى هذه النظرية ما يصلح أساسا لحل بعض مشاكلهم.

ولقد التفت النبي ﷺ إلى هذه النظرية في غاياتــها فـرأى أن اسمى الأوس والخزرج قد ارتبطا بالعداء القديم بين الفريقيــن، الــذي ترتب عليه كثير من الحروب التى أكلت أموالهم وأبنــاءهم، وأن هــذا الارتباط وحده كافٍ إذا ما ذكر اسم الأوس أو الخزرج، أن يثير بيــن الفريقين حروباً لا تنقطع، وعداءً يتدفق سيله فى النفوس حتى يملأهـــا ويفيض عنها، فرفع هذين الاسمين، ووضع مكانهما اسماً محبوباً.

علم النبى ﷺ هذا كله وتصرف على أساس منه فــى العــام الأول للهجرة، وأمته فى العصور المتأخرة إلى أكثرها حداثة، لم يلتفت علماؤها إلى ما التفت نبيها.

فنحن اليوم نعيش فى أيام قد حملــت إلينــا ألفاظــاً ارتبطــت بعداوات وخلافات، يأتى البعير بحمله، ويقطع التاريخ القديــم، ويعــبر على الزمان عصراً بعد عصر حتى يأتى إلينا فيبرك ويتحلحل، ويلقــى بجرانه، ويتسابق الناس إليه، فيضعون عنه أحماله، وإذا بها أسماء قــد جاء بها هذا البعير أو ذاك من الماضي عبر عصــور التــاريخ، قــد ارتبطت بعداوات وخلافات، فنتسابق، ويسبق إليها مـــن يســتطيع أن يسبق، فيأخذ منها ما يروقه ثم يأتى من بعدهم ويأخذون ما يروقــهم أو فى أقل القليل يأخذون ما قد تبقى لهم من هذه الأسماء وتلــك الألقــاب والساحة قد امتلأت بهذه الألفاظ وتلك الألقاب حتى طمت بها البلـــوى وصخت بآثارها الآذان.

وأنت يكفيك إن كنت صوفياً أن تسمع باسم الســلفي، فتــهيج عواطفك، ويشتد ساعدك، وينشط لسانك، فتباشر من الإيذاء قولاً وفعــلاً ما تستطيع أن تباشره، وأنت معتقد مهما بذلت من طاقة أنك ما وفيــت السلفي حقه من الأذى.

وأنت يكفيك إن كنت سلفيا أن تسمع باسم الصوفى، فتنشط إلــى ما نشط إليه أو أكثر منه، وأنت معتقد أنك ما وفيته حقه.

ثم طبق هذه القاعدة التى استنبطتها مما ذكرت لك من المثال أو استظهرتها مما ذكرت بين يديك من تقرير لها على جميع ما ترى فــى الجماعة الإسلامية من حولك، أو على جميع ما قــرأت وتقــرأ عــن جماعات مضت فى التاريخ.

ثم عد وطأطئ رأسك بين يدى النبى ﷺ مستلهماً التصـــرف الصحيح من فعاله فى عصر المبعث.

وإنى لأتمنى أمنية على علماء جيلـــى وصنـــاع القـــرار فـــى عصرى، أن يبحثوا جميعاً عن فكرة وعمل تختفى معه هذه الأســـماء وتلك الألقاب، ويبقى الاسم المحبب لدينا جميعاً نعمل تحت رايته وهـــو الإسلام.

نعم الإسلام، والإسلام بلا فرق، وبلا اتجاهات، إلا هذا الاتجـاه الوحيد الذى يرضاه الله ورسوله.

ولقد فرح الأنصار فرحاً شديداً بهذا الاسم الجديد، يثير شجونهم إذا استعمله القرآن الكريم فى نحو **{والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعـد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيـم}**[1] **{لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذيـــن اتبعـــوه فـــى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم}**[2] .

ويرتفع بعواطفهم أن يتحدث عنهم النبى ﷺ ويخـــاطب فـــى شأنهم المسلمين.

ولما لا والنبى يقول: فيما أخرجه البخارى بالســـند إلـــى أبـــى هريرة عن النبى ﷺ أو قال أبو القاسم ﷺ [لو أن الأنصـــار ســـلكوا واديا أو شعباً لسلكت فى وادى الأنصار، ولو لا الهجرة لكنت امـــرءاً من الأنصار، فقال أبو هريرة: ما ظلم - بأبى وأمى - آووه ونصـــروه أو كلمة أخرى] ؟!

ثم يقول النبى ﷺ موجهاً المسلمين فيما يرويه البخارى بالسـند إلى البراء بن عازب رضى الله عنه قال: [سمعت النبـــى ﷺ أو قـــال

---

(1) التوبة: ١٠٠

(2) التوبة : ١١٧.

النبى ﷺ -" الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله"].

وفيه بالسند إلى [أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: "آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار"][1] .

وفى حديث النبى ﷺ عن الأنصار ومناقبهم روايات متعددة من طرق شتى يجمعها كتب الحديث الصحاح.

ولكنى أحب أن أقف بك عند هذه القصة المثيرة، أستعمل فيها لفظ الأنصار ومدلوله لإزالة بعض الآثار التى ترتبت على بعض الغرائز الإنسانية، وهى طبيعة فى البشر لا يدعى أحدهم غير الأنبياء أنهم تخلصوا من آثارها.

والقصة المثيرة التى أريد أن أوقفك عليها، سوف أجملها لك إجمالاً، معتمداً على روايات البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم.

وخلاصة هذه القصة: أن رسول الله ﷺ بعد فتح مكة علم أن هوازن تكيد له، فأمر بالسير إليهم، فسار إليهم جيش فيهم الطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة.

فلما انكشف المسلمون فى معركة حنين، نادى النبى ﷺ "يامعشر المهاجرين، يا معشر الأنصار، وهما خاصته الذين قد بلغ الإسلام من قلوبهم ونفوسهم كل مبلغ، فأقبل عليه الناس من مهاجرين وأنصار، وشدوا على القوم فانهزموا، وصارت أموالهم ونفوسهم كلها غنيمة للمسلمين.

---

[1] فتح البارى على صحيح البخارى- كتاب مناقب الأنصار (بابى قول النبى ﷺ " لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار"، حب الأنصار من الإيمان" جـ ٧ ص ١١١ وما بعدها.

ثم سار النبى ﷺ بجيشه إلى الطائف وعاد منها، قد أسلم معه رجال من هوازن، استشفعوا برسول الله أن يرد عليهم نساءهم وأموالهم، فرد عليهم النبى ﷺ النساء والأولاد بعد أن رضى المسلمون بذلك، واحتفظ بالأموال فقسمها بين المقاتلة، يزيد فى أسهم من أسلموا حديثا يتألف قلوبهم.

وهنا قال جماعة من الأنصار فى غيبة من النبى ﷺ إن النبى يعطى القرشيين وقد قاتلوه، ولايعطينا معاشر الأنصار وقد قاتلنا معه.

فلما أحيط النبى ﷺ علما بذلك نادى أمرا ليدخل على الأنصار، ولا يدخل على إلا أنصارى، فدخلوا وملأوا خيمته من أوسيين وخزرجيين لايمتازون على أساس من هذين الاسمين، وبدأ النبى ﷺ يحدثهم قائلا: ما بال مقالة بلغتنى عنكم (أو كما قال) فأنكر من لم يعلم منهم سائلين النبى ﷺ وما بلغك عنا يارسول الله، والنبى يكرر يا معشر الأنصار ما بلغنى عنكم؟ ولفظ الأنصار يستعمله النبى ﷺ فيثير شجون القوم، ينكر منهم من لم يكن قد علم من الأمر شيئاً ويسأل النبى ﷺ ليعلم من جهته، أما من تحدثوا فى غيبة النبى ﷺ فلم يجدوا بدا من أن يصارحوا النبى ﷺ بما قالوه، فوقع ما قالوه موقع الصاعقة من أولئك الذين سبقوا بالإيمان، وقالوا يارسول الله أولئك قد أسلموا حديثا.

غير أنك تستطيع أن ترى القوم جميعا وقد أخذت منهم مشاعرهم كل مأخذ لاتستثنى منهم من أسلم حديثا، والنبى يرى مشاعرهم قد عبر عنها إجهاشهم بالبكاء، حين أدركوا من ضخامة الأمر وشدته، والنبى يستكمل حديثه يوضح موقفه، وحديث النبى ﷺ يشتد عليهم إذ ما كان لهم أن يتصوروا يوما أن أحدهم يعقب على فعل أو قول يصدران عن النبى ﷺ.

والنبى يستمر فى حديثه يقول، ["فإنى لأعطى رجـالاً حديثـى عهد بكفر أتألفهم"].

والقوم يسمعون كلام النبى ﷺ فلا يجيبون بشئ، وقد شغل كل واحد منهم بنفسه تؤلمه، وبمشاعره يعالجها على ما قال فتيـة حديثـة أسنانهم من قول لا يقدرون له قدره.

ثم ارتقى النبى ﷺ بمشاعرهم حين سألهم وأجـابوه، وحيـن بشرهم ببشارة لم يفز بمثلها غيرهم.

قال النبى ﷺ سائلا الأنصار: ["أما ترضون أن يذهب النـاس بالأموال، وتذهبون بالنبى إلى رحالكم؟ فو الله لما تنقلبون به خير ممـا ينقلبون به"]؟

فقال الأنصار بصوت لا تكاد تتبينه مما ناله من شـدة التـأثر [يارسول الله قد رضينا].

فقال النبى ﷺ معقباً على الموقف كله ["فستجدون أثرة شـديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإنى على الحوض"].

ولعل هذه العبارات تشرح ما تناقله بعض الرواة من أن النبـى ﷺ قد قال لهم: المحيا محياكم، والممات مماتكم.

ونعم ما عاد به الأنصار.

ونعم ما ينتظر الأنصار من لقاء نبيـهم يـوم القيامـة علـى الحوض[1].

وأنت خليق بعد هذا كله أن تعلم أن معالجة الأوس والخـزرج لهى أيسر من معالجة اليهود مجتمعين أو متفرقين.

ولله فى خلقه شئون.

---

[1] راجع البداية والنهاية ابن كثير – جـ٤ ص ٣٥٢ وما بعدها

أخرج البخارى بالسند إلى غيلان بن جرير قال: [قلت لأنس أرأيت اسم الأنصار كنتم تُسمَّوْن به أم سماكم الله، قال بل سمانا الله، كنا ندخل على أنس فيحدثنا مناقب الأنصار ومشاهدهم ويقبل علىَّ أو على رجل الأزد فيقول فعل قومك يوم كذا وكذا كذا وكذا][١].

<u>وأما المهاجرون:</u> الذين هاجروا إلى المدينة بأمر النبى ﷺ قبله أو بعده، فكانت مشكلاتهم أخف مؤنة، وأيسر على القائد أن يعالجها.

ومشكلاتهم كانت منحصرة فى هذا الضعف الاجتماعى، وهذا الضعف المادى، وهما أمران إن نجا المهاجر من أحدهما فلن ينجو من الآخر.

أما الضعف المادى فمنشأه أن القوم حين هاجروا، فقد هاجروا وتركوا خلفهم أموالهم وديارهم، وانقطعوا عن مهنهم وأسباب أرزاقهم.

والقوم لايجيدون إلا طرفا من صناعة، وشيئا غير قليل من القدرة على الاتجار.

ويثرب بلد زراعى، وأرضه محدودة بمقدار ما يكفى السكان الأصليين أو يكاد، وهم يعتمدون فى الرى على الأمطار، وتلك وسيلة تتحكم فى نسبة الزروع والثمار الخارجة من الأرض، حيث لا يملكون قدراً يسيراً أو كبيراً من مخزون الماء، إلا ما تجود به العيون والآبار وماء العيون والآبار قد تفور به الآبار والعيون حينا، وقد ينخفض الماء عن مستوى الأرض، بل قد يغيض حيناً آخر.

والمهاجرون يعلمون ذلك ويدركونه، فيشعرون بأنهم عبء زائد على المجتمع، وعلى ما تجود به الأرض من أسباب المعايش التى يعتمد عليها الإنسان.

وأما ضعفهم الاجتماعى، فمنشأه أن القوم قد هاجروا، وقد تركوا وراءهم الأهل والأقرباء، وخلفوا فى مكة تاريخهم الطويل

---

[١] متن البخارى بحاشية السندى- مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه جـ٢ - ص ٣٠٩

وعواطفهم التى تتصل بالوطن، وبالعشيرة، وبالأهل على الخصـــوص والعموم.

لقد خلفوا وراءهم عواطفهم، وتعالوا فوقها، لم يحملـــوا منـــها شيئا، ولم يصطحبوا منها شيئا، إلا هذه العاطفة الدينية التى رأوها تعلو فوق كل عاطفة، وتسبق كل غال يحرصون على الارتباط به، حيث إن فيها علوهم فى الدينا، ونجاتهم فى الآخرة.

والذى يظهر أن المهاجر ليس له من مشكلات تطـــارده فـــوق هاتين المشكلتين، إن نجا من إحداهما لا ينجو من الأخرى.

ومع عمق شعور المهاجرين بهذا الإعضال، فإن النبى ﷺ قـد رآه سهلاً ميسوراً، لا يتأبى على الحل، ولا يستعصى على المعالجة.

ولقد توصل النبـــى ﷺ إلـــى إدراك وســـيلة مـــن الوســـائل لواصطنعها مع المسلمين لاختفى هذا الإعضال بشقيه.

وهذه الوسيلة التى أدركها النبـــى ﷺ، ورأى فيـــها صـــلاح

المهاجرين والأنصار هى أن يجمع النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى المسجد أو فيما يشاء من الأماكن، ثم يؤاخى بينـــهم بعقـــود مـــن المؤاخاه، يضم كل عقد منها طرفين، أحدهما من الأنصار والآخر مـــن المهاجرين، على أن يكون لهذا العقد قوة الإلزام فى مجـــال الحقـــوق والواجبات، مالقوة النسب منهما.

وقوة علاقة النسب تتجلى فى أن من تربـــط بينـــهما علاقـــة النسب، يكون لكل واحد منهما فى عنق قريبه من الحقوق، بمقدار مـــا عليه من الواجبات.

ولم يتردد النبى ﷺ فى أن يعلن بين الناس ما ارتآه من إبـــرام هذه العقود بين المهاجرين والأنصار، وأنه ماضٍ فيها لا يمنعـــه عـــن إبرامها شئ، ولايصده عنها أمر من الأمور، لأنه يرى أن فـــى إبـــرام هذه العقود قضاء على ما يشعر به المهاجرون من غربة، وعلى ما يقع بالمهاجرين من فاقة.

أما الأنصار فقد استقبلوا حديث النبى ﷺ حول هـذه العقـود بفرح زائد، وانشراح فى الصدور بغير حدود.

وأنت خبير ولا شك أن هذه العقود وأمثالها لا تكلف الأنصـار كثيراً من المؤنة، ولا ترهقهم بشئ جديد لم يفعلوا مثله باختيارهم.

فالمهاجرون حين أقبلوا إلى يثرب مـهاجرين، وجـدوا مـن إخوانهم الأنصار ما يعوضهم عن الأهل والأقارب، وما يغنيـهم عمـا خلفوه وراءهم من الديار والأموال.

ولكنهم مع ذلك اقتنعوا بفكر نبيهم وآمنوا به، لأن فيه شيئا مـن االتنظيم، حتى لا يضيع واحد من المهاجرين تحت وطأة الاحتمالات، إذ قد يظن بعض الأنصار بأحد المهاجرين أنه محمول على عنايـة بنـى فلان به، فى حين أن بنى فلان هؤلاء قد يظنون أن هذا المـهاجرى أو ذاك مشمول بعناية غيرهم، والمهاجرى يغلبه الحياء فيضيع بين ظـن هؤلاء وهؤلاء.

آمن الأنصار بما قال نبيهم، ولم يروا فيه إلا شيئاً من التنظيـم الذى يعفى إخوانهم المهاجرين من الضياع تحت وطأة الاحتمالات.

وأما المهاجرون فقد رأوا فى المؤاخاه علاجاً لبعض مشـاكلهم الاجتماعية، حيث يجد الواحد منهم له أخاً يأنس إليه، ويؤويه فـى داره إلى أن يجعل الله له بعد ذلك سبيلا.

والمهاجرون والأنصار جميعاً قد اجتمعوا فى مكـان واحـد، وبينهم النبى ﷺ يبرم العقود، ويؤاخى بين المـهاجرى والأنصـارى ويعلمهم أن هذا العقد ملزم، حتى إنه لموجب للتوارث بين المتعـاقدين إن مات أحدهما ورثه الآخر دون أهله وذوى قرباه من أولى الأرحام.

والتاريخ قد حفظ لنا قائمة طويلـة مـن أسـماء المـهاجرين والأنصار الذين آخى النبى ﷺ بينهما.

وبعض هذه العقود التى حكاها لنا التـاريخ مسـلم، والبعـض الآخر قد تعقبه العلماء، ووضعوه موضع النظر، فرفضه بعضهم ووجد

له البعض الآخر تخريجات تناسب هذه العقود التى تُعقِبت مجتمعة، وقد يختص كل واحد منها بتخريج يناسبه.

والأنصار والمهاجرون قد استقبلوا هذه العقود بما يناسب كـــل واحد منهم من كيفية الاستقبال.

أما الأنصارى، فقد استقبل العقد بعد إبرامه بغاية الرضى، بـــل بغاية السرور، وهو يعلم أن لأخيه عليه حقين: **أحدهما:** اجتماعى يجبر ضعفه فى مجال الاجتماع، **وثانيهما:** مادى يجبر ضعفه فـــى مجـــال شئون الحياة.

وأما المهاجرون فقد استقبلوا هذه العقود بعد إبرامها بــــأخلاق المسلم.

والمسلم بمجرد أن يدخل فى الإسلام، يكره أن يتصـــف بعـــد الكفر بأن يكون نهازاً.

فإذا كان الإسلام قد رفع عنه أن يكون نهازاً بطبعه، فعليه هـــو أن يجاهد نفسه حتى لا يكون نهازاً بمؤثر من مؤثرات المغريات، التـــى تحمل البعض على أن يتخلوا عن مكارم الأخلاق، وكرائم الرجولة التى ترتفع بالرجل عن مهاوى النقائص ومدارج الخسة.

وليس هذا كلاماً نظريا يقال، ولكنه حديث التاريخ فيما يرويـــه من أحداث وقعت فى المجتمع المسلم بعد إبرام هذه العقود علـــى يـــد النبى ﷺ، يصور أثر هذه العقود فى نفوس الفريقين.

وسترى الإيثار بادٍ كخلق يميز كل أنصارى.

وسترى التعفف ظاهر يميز كـــل مـــهاجرى، حكـــى التـــاريخ قصتهما أو لم يحكها، فإن ما ذكره من الوقائع يعد نماذج وأمثلة يقـــاس إليها غيرها.

ولقد قلت: إن المهاجرى ليس له من حاجة فوق ما يعوضه عن فقد الأهل والأحباب، وفوق مكان يأوى إليه إذا ما ضمه الليل، ولفه فى ستائره السود، وغمره ببحر من الوساوس والهواجس.

وســأخلى بينك وبين بعض الوقــائع التى حــملهــا إلينا روايات المؤرخين، وأخبار المخبرين، وطرائق المحدثين، لترى بنفسك كيف كانت ردود الفعل عند الفريقين، ثم تحكم على هذين الفريقين بعقلك إن كنت ممن يحـتكمـون إلى العـقل، أو تنفـعل مـعـهم بوجـدانك إن كنت ممن يتجاوبون مع الأحداث بالوجدان.

ونحن فى كلتا الحالتين راضون بالانطباع والأثر اللذين سيتركهما فيك ما نذكره بين يديك من روايات لبعض الأحداث.

فى صحيح البخارى بالسند قال (حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال حدثنى إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال «لما قدموا المدينة آخا رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن إنى أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالى نصفين. ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فَسمِّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن. ثم تابع الغدوَّ. ثم جاء يوماً وبه صفرة، فقال النبى ﷺ: مَهْيَم؟ قال: تزوجت. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب – أو وزن نواة من ذهب – شك إبراهيم»).

وفيه بالسند إلى أنس بن مالك رضى الله عنه رواية أخرى لا تخلو من زيادة وفائدة قال:(« قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع – وكان كثير المال – فقال سعد: قد علمت الأنصار أنى من أكثرها مالاً، سأقسم مالى بينى وبينك شطرين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئاً من سمن وأقط، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضر من صفرة. فقال له رسول الله ﷺ: مَهْيَم؟ قال: تزوجت امرأة من الأنصار، قال: ما سقت فيما؟ قال نوزن نواة من ذهب – أو نواة من ذهب – فقال: أو لم ولو بشاة»).

وفيه أيضا بالسند إلى أبى هريرة رواية أخرى فيما إفادة عظيمة، وتصوير لما نحن بصدده قال:[" قالت الأنصار: اقسم بيننا

وبينهم النخل، قال لا: قال يكفوننا المؤنة ويشركوننا فى الثمـــر، قـــالوا سمعنا وأطعنا"][1].

وإن كان لي أن ألفت النظر مرة أخرى، فإنى لن أزيدك علـــى أن أقول لك راجياً أن ترجع البصر والبصيرة كرتين، أو كلما احتـــاج الأمر فى هذه النصوص، وأمثالها، فستجد حتماً نماذج من الأخلاق قـــد لا تجدها إلا تحت مظلة هذا الدين.

عمد النبى ﷺ إذاً إلى المؤاخاة بين المـــهاجرين والأنصـــار واستقبل المسلمون من مهاجرين وأنصار هذه العقود علـــى نحـــو مـــا رأيت.

والمؤرخون حين ذكروا لنا هذه العقود، وشخصوا أطرافها، قـد جاء فى بعض رواياتهم أن النبى ﷺ قد أبرم عقوداً بين المـــهاجرين بعضهم مع بعض، وهذه وإن كانت تمثل أعداداً قليلة، إلا أن وجودهـــا قد وضع علامة استفهام أمام بعض الباحثين، وتساءلوا: لماذا يؤاخـــى النبى ﷺ أحياناً بين مهاجرى ومهاجرى؟

ولقد حاول البعض منهم أن يجيب على هذا السؤال بادعـــاء أن النبى ﷺ قد أبرم عقود المواخاة مرتين: **مرة فى مكة قبـــل الـــهجرة**: وكانت بين أهل مكة بعضهم مع بعض قبل أن يهاجروا، وكان القصـــد منها أن يواسى قويهم ضعيفهم بماله وبمعونته. **ومرة بالمدينـــة بعـــد الهجرة**: وكانت بين المهاجرين والأنصار، وكان القصد منها يومئذ مـــا قد صورناه لك سلفاً، وهو منك بقريب.

وينتهى أصحاب هذا الرأى إلى القول: إن المؤرخين قد خلطـوا فى الروايات بين هذين النوعين من المؤاخاه، فأوهموا أن النبى ﷺ قد أبرم عقوداً بالمدينة طرفاها من المهاجرين.

---

[1] فتح البارى على صحيح البخارى جـ٧- كتاب مناقب الأنصار- بـــاب إخـــاء النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار- ص١١٢،١١٣.

وهناك رأى آخر لا يغيب عن مثلك قد ذكره بعض العلماء جوابا عن السؤال السالف الذكر، وهو أنه لا بأس من أن يكون النبى ﷺ قد أبرم عقوداً طرفاها من المهاجرين ما دامت ستحقق الغرض المطلوب، والغرض المطلوب على ما قد علمت هو: رفع المعاناة والأثر النفسى عن المهاجر الذى يشعر بالضعفين المادى والاجتماعى على السواء، فإن كان من المهاجرين من كانت له قدرة على أن يحمل أخاه بحنكته الاجتماعية، أو بقدرته على الحركة فى تحصيل أسباب الرزق، أو بموقعه الاجتماعى بين الناس، فلا بأس أن يؤاخى النبى ﷺ بينه وبين أحد المهاجرين، ليحمل شيئاً من العبء عن إخوانه من الأنصار.

قلت إن هناك تخريج آخر لا يغيب عن مثلك.

وإنى لأحمل على هذا اللون من التخريج، أن النبى ﷺ قد آخى بينه وبين على بن أبى طالب للمبرر ذاته الذى ذكرته الآن بين يديك.

على أننى لا أستطيع أن أنهى هذا الحديث معك قبل أن أحدثك عن أمر فيه شئ من الغرابة، ويحيط به شئ من النكر، خاصة أنه يتصل بشخصية لها قدر غير يسير من الذيوع والانتشار.

إنك قد علمت أن مسألة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد هجرة البنى ﷺ قد استفاضت فى الأمة بما يشبه أن تكون أمراً متواتراً، وقد ذكرها علماء الحديث بعد علماء التاريخ فى كتبهم لا يشكون فيها، ولا يرتابون فى وسائل نقلها.

ومن هؤلاء الذين أوردوها فى كتبهم محمد بن إسماعيل البخارى فى جامعه الصحيح.

وبعد هذا كله نجد الشيخ أحمد بن تيمية يتحفظ على هذا الحدث ويرده بقياس عقلى، وهو يرى أن هذا القياس العقلى قادر على قهر النص الثابت بالنقل الصحيح إلى مجتمع المدينة فى عصر المبعث.

أنكر ابن تيمية فى كتاب الرد على ابن المطهر الرافضى المؤاخاه بين المهاجرين وخصوصاً، مؤاخاة النبى ﷺ لعلىّ قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبى ﷺ لأحد منهم، ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى.

يقول صاحب الفتح تعليقاً على ادعاء ابن تيمية [وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلىّ لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبى من قبل البعثة واستمر، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، لأن زيداً مولاهم فقد ثبت أخوتهما وهما من المهاجرين، وسيأتى فى عمرة القضاء قول زيد بن حارثة: إن بنت حمزة بنت أخى، وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبى الشعثاء عن ابن عباس "آخى النبى ﷺ بين الزبير وابن مسعود، وهما من المهاجرين" قلت: وأخرجه الضياء فى المختارة من العجم الكبير للطبرانىوابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك.

وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر " آخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان- و ذكر جماعة قال- فقال على: يارسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخى؟ قال: أنا أخوك" وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به][1].

هذا وإن العلماء مهما قالوا، ومهما اختلفوا حول مسألة المؤاخاة من الناحية النظرية، فإن المؤاخاة باعتبارها حدثاً تاريخياً أمر واقع لا محالة، وله من الشرع ما يؤيده، وله من المنطق العقلى ما يدفع عنه أقوال المغبرين فى وجهه.

---

[1] فتح البارى حـ ٧ – ص ٢٧١.

وليس لنا بعد إلا أن نسلم بأن النبى ﷺ قد اختـــار الطريـــق الأمثل لحل مشاكل طوائف المجتمع كله فى يثرب، حتى ظهر أمامنـــا وهو مجتمع متناسق لا يتسلل إليه الوهن، ولا يعتريه الضعف.

وما كان من أمر خيانات اليهود فإن الله قد أعقبهم بها الجـــلاء عن أرض لا يملكونها، وعن وطن لا حق لهم فى أن يتاعيشـــوا مـــع أهله.

فإذا اعتبرنا أن إعادة ترتيب المجتمع وإرسائه علـــى قواعـــد صلبة أحد عناصر الحصاد التى ترتبت على حدث الهجرة، فإننا نكـــون بذلك قد رسمنا صورة كاملة لهذا الحصاد الـــذى يلتئـــم مـــن أركـــان ومحاور ثلاثة، ما كان يمكن أن نتصور الحصاد بدونها.

والذين يتتبعون أحداث التاريخ بعد ذلك سيجدون أن المجتمـــع الإسلامى، والدعوة الإسلامية، ونبى الإسلام والمسلمين معه قد ارتقـــوا جميعاً فوق هذا البناء المتين، الذى أعددناه دون سواه حصاداً لحـــدث الهجرة.

ويا ليت قومى يعلمـــــون

من شرفات ثنيات الوداع

إنا نعتزم الآن أن نطوى ما نشرنا من صحف، وأن نجمع ما بعثرناه من كتب، لننتهى ونحن على شوق إلى الحديث حول الموضوع الذى بدأناه معك.

غير أنه لابد من كلمة أقولها لك قبل أن يمضى كل منا إلى وجهه، وينصرف إلى ما يريد الله منه، أو إلى ما يريده الله به.

ولقد شئنا بعد مشيئة الله عز وجل، أن تكون كلمة النهاية إليك من شرفات ثنيات الوداع بالمدينة المنورة.

وأنت خبير بأن ثنيات الوداع فى كل حى، هى هذه الأماكن التى يستقبل فيها أهل الحى مسافرهم إذا آب أوعاد، وهى نفسها تلك الأماكن التى يودع الناس فيها مسافرهم إذا ما أراد الارتحال، وتمضى هذه الأماكن كلها فى التاريخ بغير ذكر، إذا ما استعاض عنها الناس بغيرها من الأماكن، إذ لا فضل لمكان على مكان، ولا لبقعة على بقعة بغير استثناء، إلا ما يكون من أمر هذه الأماكن التى ترتبط بها أحداث جسام، أو وقائع عظام ترتفع بذكر هذه الأماكن فى التاريخ، وتحتفظ لها فيه بشئ غير يسير من التقدير والتعظيم.

وما كان لثنيات الوداع بالمدينة المنورة، أن يكون لها من ذكر فى التاريخ، لولا حدث هذه الهجرة العظيم، ولولا هذا الحديث عن قدوم النبى ﷺ من مكة مهاجراً، واستقبال الناس له.

ومع أنى لم أعد أعلم الآن شيئاً عن معالم ثنيات الوداع بالمدينة، ولم أعد أعرف شيئاً عن حدودها الجغرافية، إلا أن الذى أعرفه أن التاريخ، قد وجد أنه قد حفر فى ذاكرته حدث الهجرة مرتبطاً بثنيات الوداع، وحديث الهجرة لا يكاد يخلو عنها.

ومن أجل ذلك، قلت إننى قد شئت بعد مشيئة الله عز وجل أن أقول لك كلمة الوداع من شرفات ثنيات الوداع.

ونحن معاً فى ثنيات الوداع سننظر من زاويتين: لنتحدث عن بينة، ولنقول قولاً يستند إلى شئ من اليقين.

أما الزاوية الأولى: فهى تلك الزاوية التى نستطيع أن نطل منها على النبى ﷺ فى مكة ومعه أصحابه، وعلى أرض يثرب والنبى فى مكة يعدها الله لنبيه ودينه، ولخلصاء هذا الدين بأيدى ألد أعداء هذا الدين، وهم اليهود المقيمون بيثرب، ثم نمعن النظر، وإذا بالنبى يلتقى قبيل الهجرة بأناس من الأوس والخزرج يعرض عليهم الإسلام، فيقبلون منه ويتحفظون على إبرام المعاهدة معه، إلى أن يتمكنوا من إزالة أثر بغيض إلى النفس صنعه بهم اليهود، وهو هذه الفرقة، وهذا التنازع والتدابر الذى يشعر به كل يثربى وكل خزرجى على السواء، ثم نعمق النظرة من جديد فى يثرب خلال عامين كاملين لنرى الإسلام ينتشر قبل هجرة النبى ﷺ على أرض مهاد، بلغ من انتشاره أنه لم يعد بيت فى يثرب إلا وقد عرف الإسلام، ودخله بعض ساكنيه.

ثم وما لنا إلا أن نصحب النبى ﷺ فى رحلة الهجرة إلى أن يصل هو وصاحبه أرض يثرب فى موكب لم يشهد التاريخ نظيراً له.

ونحن جميعاً ننظر من هذه الزاوية، لا يخفى علينا أن الله عز وجل يريد منا ويريد لنا، وإرادته نافذة فى الحالتين، وعلينا أن ننصاع لله عز وجل فيما أراد منا، وأن نفوض الأمر فيما أراد لنا، ونحن فى مثل هذا التفويض نملك رءوساً عالية، لا يخضعها إلا هذه العبادة لله عز وجل، وإلا هذا الانصياع لأوامره، وهذا اللون من الخضوع هو الذى يجمع علينا أطراف العزة، وثياب الاعتزاز لايكاد يفوتنا منه شئ.

وليس من عظمة المرء، ولا من دلائل كرامته أن يفرط فيما أراد الله منه، وأن يعترض على ما أراد الله به، فإرادته خير على كل حال.

وأما الزاوية الثانية: والتى سننظر منها ونحن فى شرفات ثنيات الوداع، فهىالتى تطل على التاريخ منذ عصر المبعث وإلى الآن.

وهذه الزاوية إذا ما نظرنا منها قد نطيل النظر، وقد تأخذنا بعض الحوادث ببريقها أو بلون دمائها، فلا نستطيع أن نرد أبصارنا عن هذا البريق، ولا نستطيع أن نرد عواطفنا عن هذه الدماء.

غير أن الذى ينبغى أن نعرفه هو أن الله قد رسم لنا سننا جارية، وأمرنا باصطناع الأسباب إليها، وأن لا نحاول أن نتأبى عليها لأنها أسس نظام ربنا فى هذا الكون المادى والاجتماعى على السواء.

ثم إن هذا الإسلام الذى نعتنقه، ونصطبغ بصبغته، ونتصف بصفاته دين حى متحرك، وشأن الموجود الحى المتحرك أن تهاجمه جيوش من هذه الكائنات، التى من شأنها أن تهاجم كل حى متحرك.

ومن حكمة الله عز وجل أن جهاز المناعة لكل حى، لا يقوى إلا بالهجوم، وإلا بالرد لهذا الهجوم، فمهاجمة الأحياء لا تخلو من فائدة تعود على هذه الأحياء.

ونحن إذا ما وصلنا بالنظر إلى هذا العصر الحديث، سنجد أن هذه الأمة الإسلامية، قد أريد لها وأريد منها، قد أريدلها أن تكون تابعة للأمم الأخرى، وأريد منها أن تعمل لحساب غيرها، وقد رفع فى وجهها العصى كما رفعت العصى من قبل فى وجوه الآباء والأجداد.

غير أن الذى يكلم الفؤاد فى هذه الأيام، هو أن هذه الأمة، قد تقسمتها أحوال مختلفة من أحوال النفس الإنسانية كلها لا ينفعها، وكلها لا يرتفع بها.

فمن هذه الأحوال، حال ألم ببعض رجال هذه الأمة وأضر بهم، وعصف بالذين يحيطون بهم، سواء كانوا ممن يأتمرون بأمرهم، أو لا يأتمرون.

وهذا الحال الذى استسلم إليه هذا البعض من أمة الإسلام هو النظر إلى عدوهم نظر المغشى عليه من الغرور والكبرياء، فزعم بدافع من غروره وكبريائه أن عدوه بماله من عتاد تافه لا قيمة له، مهزوم مدحور لأول لقاء معه.

والأمر يزداد سوءًا إذا كان هذا الذى تصور هذا ممن يتخذون القرار فى السلم وفى الحرب، وممن يأتمر الناس بأمره طوعا أو كرها، وممن يصنع الإعلام له هالة من الدعاية لها من قوة القرع على الطبول صدىً يصمُ الآذان، ولها من شدة لمعان الضوء قدراً يغشى الأبصار.

ويظل هذا الحال مسيطراً على أصحابه، وقد سيطر بالفعل إلى أن يلقى الناس عدوهم بكرة أو عشيا، فما هى إلا ساعة من ليل أو

لحظة من نهار حتى يظهر العدو عليهم ظهوراً لا ينقذهم منـــه إلا أن يشاء لهم ربهم.

وتلك حالة من حالات النفس يعرف المؤمن والكافر ضررهـــا، لأنها من الأمور التى تعرف بالدربة، وتعلم من خلال الممارسة للأشياء والأحداث.

ومن هذه الأحوال التى تعترى النفس حين ترى عدوها وقد بـدأ يكيد لها، أنها تقدر قوة عدوها فوق قدرها، وتتوهم أن لعدوها امتيـــازاً فى الجنود والعتاد ما لم يتوفر لها مثله ولا عشر معشاره، فيوقعها هـذا الوهم فى اليأس الشديد الذى يجعلها فـــى وجـــه عدوهـــا كـــالموتى لا يحركون ساكناً، ولا يجيبون الداعى إذا ما دعاهم، أو استنهض هممهم.

وكثيراً ما يرفعون الشعارات التى يســتظلون بظلالـــها وهـــى سيئة، لا تظلهم من حر، ولا تمنع عنهم كرباً، فإذا ماسألت الواحد منهم عن آماله فى الحياة، وعن الشئ الذى يفكر فيه، أجابك بقوله: إنى آكـل القوت وأنتظر الموت.

وهذه حالة من حالات النفس لا تقل سوءاً عن تلـــك الحـــالات التى أسلفنا لك ذكرها من قبل.

وقد يصاحب هذين الحالين طباع وصفات تلم ببعض الزعمـــاء والقادة الذين لهم بمقادير الأمة صلة، فتوقعهم هذه الطباع وتلك الصفات فى بحار الظلمات، وهم يجرون خلفهم أناساً من هذه الأمة إلـــى بحـــر الظلمات، تلفهم أمواجه، وتجرفهم إلـــى لجتـــه، فيتـــأملون الســـاحل، ويتحسسون الطريق إليه، وهم ممنوعون من إدراكه، بعد أن أصمـــهم شئ من طباع زعمائهم، وأعمى أبصارهم شئ من آثار صفات قادتهم.

والذى أعنيه هنا هو أن أقول لك ولى ما قلته فى صـــدر هـــذا البحث أن من الناس نهازون، ومن النهازين نـــهاز بـــالطبع، ونـــهاز بالأجر.

والنهاز قد يكون محتملا إذا لم يكن على رأس القوم، لكن الذى لا يحتمل ولا يطاق، هو أن يكون النهاز من الممتـــازين علـــى ســـلم المناصب، أو من المالكين لناصية الأمر.

غير أن الأمر الذى لا ينبغى أن يغيب لك عن بال، هو أن الله عز وجل لم يشأ أن يغيب عقل الأمة، أو يذهب بريحها إلى أبد الآباد، ولكنها إذا ما اعترتها هذه الأحوال فى أشخاص بعض رجالها، وإذا ما ألمت بها هذه الصفات، وتلك الخلائق فى أشخاص بعض قادتها وزعمائها، فإنه يتدخل بمشيئته فيوقظ فى الأمة بعض الضمائر، ويمنحها الكثير من القوة فتتصدى لعدوها الذى يكيد لها، فتنال منه بطريقة تشبه أن تكون قدرية، وهى فى الحقيقة مزيج من سنن الله الجارية، وسننه الخارقة التى رتبها الله على سننه الجارية.

وأنت إذا تأملت هذه الأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر على سطح هذه المعمورة قربت منك أو بعدت عنك جماعاتها، فلن تجد إلا صدق ما صورت لك ، ونحن ننظر من شرفة ثنيات الوداع.

ثم إنى أريد أن أحملك حملاً وأحمل نفسى معك على أن ننظر من جديد وبسرعة خاطفة إلى أحداث الهجرة، ولن نجد إلا أن الله عز وجل قد أراد لنبيه، أن تكون أحداث هجرته على سنن الله الجارية، وما رأيناه، على طريق الهجرة من سنن الله الخارقة لا يعدو أن يكون إظهاراً لمكانة النبى ﷺ وتثبيتاً لفؤاده، أو شيئاً رتبه الله عز وجل على ما استجاب له نبيه والذين معه من أمر الله حين أمر أن نتخذ من سنن الله الجارية ذرائع للوصول إلى هذه الغايات التى نبتغيها فى الدنيا فى معايشنا، وفى ديننا، وفى تعاملنا مع أعدائنا.

ونحن إذا ما تأملنا الهجرة على هذا النحو، سنعلم أن حدث الهجرة حدثٌ حى، لم يكف منذ وقوعه عن إمداد المسلمين بأمواج تتلوها أمواج، من هذه الأحوال النفسية الرفيعة، التى تصنع منهم الرجال، وتقصيهم عن صفات لا تبقى عليهم من أوصاف الرجولة إلا قدراً يجعلهم من أشباه الرجال.

والحمد لله أول الأمر وآخره.

وسلام على عباده الذين اصطفى.

ونسأل الله أن يشركنا فى دعاء الصالحين من عباده.

وقع الفراغ من إملاء هذا البحث ظهر يوم الخميس ١٤١٨/٦/٢٨هـ

١٩٩٧/١٠/٣٠م

الفهرست

كتب للمؤلف

١) نظرية الشخصية فى فكر الإمام الغزالى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين.

٢) مشكلة الألوهية بين ابن سينا والشهرستانى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين.

٣) مصارع المصارع مخطوطة محققة بمكتبة كلية أصول الدين.

٤) نظرة النبوة فى الإسلام.

٥) عقيدتنا وصلتها بالكون والحياة.

٦) الجانب الألهى فى فكر الإمام الغزالى عرض وتحليل.

٧) النبوة والتنبؤ قراءة جديدة فى مسائل العقيدة.

٨) مسليمة في مسجد توسان (الظهور الجديد وراء المحيطات).

٩) البهائية وسائل وغايات.

١٠) القاديانية ومصيرها فى التاريخ.

١١) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الأول : الدفاع عن السنة.

١٢) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثانى : السنة فى مواجهة أعدائها

١٣) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثالث : ضلالات منكرى السنة.